فرضية الحتمية اللغوية واللغة العربية

د. عبد الله حامد حمد*

أولاً: المقدمة

تعتبر فرضية الحتمية اللغوية *Linguistic Determinism* إحدى القضايا الفكرية المثيرة للجدل في علم اللغة والعلوم الأخرى التي تحتل فيها اللغة دوراً مهماً مثل الفلسفة وعلم النفس وخاصة نوعه المعرفي Cognitive وعلم الأنثروبولوجيا Anthropology والإبستمولوجي أو علم المعرفة Epistomology. فالعلاقة بين اللغة والفكر، والتي تشكل محور دراسة هذه الفرضية، كانت وما زالت تستقطب الكثير من الباحثين والدارسين منذ عشرات السنين. ينصب البحث عادة عند تناول هذه العلاقة تحديداً على دور اللغة في تشكيل الفكر Thought او في عملية التفكير. أي هل هناك فكر او تفكير من دون اللغة؟ او هل اللغة هي التي تحدد إطار الفكر؟ هذا ولقد تباينت الآراء حول هذه المسالة، وذلك تبعاً للمنهج المتبع في معالجة هذه المسالة، وكذلك تبعاً للدليل الموظف في المعالجة نفسها.

* جامعة أم القرى – قسم اللغة الإنجليزية – مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية.

أحد التيارات اللغوية والفلسفية الذي تناول مناقشة هذه المسألة، والذي يعود بجذوره إلى الدوائر اللغوية الفلسفية الألمانية التي ظهرت في القرنين السابع والثامن عشر، ثم الدوائر اللغوية الأمريكية التي ظهرت في هذا القرن، يدعي أن الفكر غير متيسر من دون اللغة، وأن اللغة هي الوعاء الذي يتشكل فيه الفكر، وعليه فإنه لا يوجد فكر من دون لغة. وقد ترتب على هذا الأمر حتمية العلاقة بين اللغة والفكر، والادعاء بأن اللغة هي التي تحدد طريقة التفكير لدى الناطقين باللغة الإنسانية، فتركيبة اللغة ونظامها، ولاسيما المكونين النحوي والمعنوي/الدلالي، يفرضان نمطاً معيناً من طريقة التفكير على الناطقين باللغة. اي بعبارة أخرى، إن الشخص هو أسير لغته، ولا يقدر على الانفكاك منها.

تلقف عدد من الباحثين عجماً وعرباً هذه الفرضية، أي الحتمية اللغوية، تحت غطاء البحث العلمي وموضوعيته للهجوم على اللغة العربية، واتهامها بالقصور والفقر اللغوي، لأن نظامها اللغوي- وحسب زعمهم- يخلو من الفئات التركيبية النحوية Grammatical Categories الموجودة في اللغات الأخرى، ولاسيما الأوروبية منها، ويتبع هذا الاتهام بطبيعة الحال- وهم ما يرمون إليه، وطبقاً لادعاءات الفرضية- اتهام فكري ومعرفي وثقافي. شرع بهذه الدراسة من أجل الرد على دعاة هذه الفرضية بشكل عام، وتبيان الأسس الهشة والضعيفة التي تقوم عليها هذه الفرضية، ورسم حقيقة أن ما أراده البعض من دراساتهم المتعلقة باللغة العربية لا يعدو أن يكون حلقة أخرى من الحلقات المتتابعة التي تؤلف بين فترة وأخرى، والتي تستهدف التشكيك الفكري والحضاري في مقومات هذه الأمة العربية الإسلامية. إن محور هذه الدراسة ينطلق ابتداءً، ليس من دفع تهمة في المقام الأول، بل بتسليط الضوء، أولاً وأخيراً على مدى صحة هذه الفرضية، والكشف عن قدرتها على الصمود أمام التطورات الفكرية الحديثة الكاسحة لغوية كانت أو معرفية.

ثانياً: فرضية الحتمية اللغوية

تمثل فرضية الحتمية اللغوية الجانب المتطرف لفرضية النسبية اللغوية Linguistic Relativity Hypothesis. أما الجانب المعتدل لهذه الفرضية فيقوم على أساس أن للغة دوراً ما في عملية التفكير أو المعرفة[1]، أما الجانب المتطرف- فكما أسلفنا - فيقوم على أساس أن اللغة هي الوعاء الذي يتشكل فيه الفكر، وأن هناك علاقة عضوية بين اللغة والفكر. وهذا الجانب الأخير

هو الذي يلاحظ في كتابات دعاة هذه الفرضية. أي انهم دعاة الجانب المتطرف للنسبية اللغوية أي الحتمية اللغوية حتى وإن اتصفت بعض عباراتهم بنوع من الاعتدال أحياناً.

يرجع تاريخ فرضية الحتمية اللغوية بشكل عام إلى كتابات المفكرين الألمان وتحديداً كتابات كل من هيردر Herder في القرن الثامن عشر، وهمبولدت Humboldt في القرن التاسع عشر، ثم كتابات المفكرين الامريكيين في هذا القرن أمثال سابير Sapir، وورف Whorf. إن ما يجدر ذكره بهذه المناسبة هو ان البحث في العلاقة بين اللغة والفكر يرجع إلى زمن الحضارة اليونانية القديمة وكتابات الفلاسفة اليونان من امثال أفلاطون وأرسطو وغيرهم. على اي حال فإن الفرضية، والتي توصف بأنها جديدة-قديمة، قد أعيد طرحها من جديد في النصف الأول لهذا القرن من خلال كتابات سابير و وورف حتى إن الفرضية ذاتها غدت تعرف بفرضية سابير و وورف Sapir-Whorf Hypothesis.

يرى همبولدت أن اللغة هي التي تحدد الفكر وان الاثنين متلازمان، بل إنه يذهب إلى حد الادعاء بأن اللغة هي الفكر، يقول همبولدت بهذا الشأن: «إن اللغة هي العضو الأساسي للفكر... فالفكر واللغة هما شيء واحد وغير قابلين للانفصال»[٢]. وفي مناسبة أخرى يقول: «نحن آدميون ليس بسبب اننا نملك اللغة، ولكن بسبب اننا نحن اللغة»[٣]. يرى سابير من جهته شيئاً مماثلاً إلى حد كبير مدعياً أن الناطقين باللغة هم في الحقيقة واقعون تحت رحمة تلك اللغة[٤]. ويقول في مناسبة أخرى: إن تشكيل الفكر من دون اللغة امر مستحيل مضيفاً أن «الشعور الذي يساور الكثيرين والقاضي بأنه يمكن التفكير أو التعليل من دون اللغة هو أمر وهمي»[٥]. ثم يأتي وورف ويطرح وجهة نظره في موضوع العلاقة بين اللغة والفكر، أو بمعنى آخر سلطة اللغة على الفكر على النحو التالي: «إن النظام اللغوي (بعبارة أخرى النحو) لكل لغة ليس مجرد أداة تستخدم لإعادة التعبير عن الأفكار، بل إنه المشكل للأفكار والبرنامج والمرشد للنشاط الذهني للفرد، ولتحليل انطباعاته ولتركيب المخزون الذهني... إن صياغة الأفكار ليست عملية مستقلة، هي عملية عقلية بالمعنى القديم، بل إنها جزء من نحو معين، وتتباين بصورة بسيطة أو كبيرة بين الأنحاء المختلفة. نحن نشرح الطبيعة إلى أنماط طبقا لما تحدده لغاتنا الأم.. نقسم الطبيعة وننظمها إلى مفاهيم، ونثبت لها المعاني بصورة كبيرة، لأننا أطراف في اتفاق يرمي إلى تنظيم الطبيعة بهذه الطريقة. هو اتفاق منتشر في المجتمع اللغوي ومرمّز في أنماط لغتنا»[٦]. فالملاحظ أن وورف قد

أضاف إلى فرضية العلاقة بين اللغة والفكر بعداً معرفياً جديداً يعرف بعلم المعرفة التجريبي Empiricist Epistomology[7].

على ضوء عدد من الدراسات الميدانية التي نفذها كل من سابير و وورف على اللغات الهندية الأمريكية خلصا إلى نتائج قادتهما إلى طرح فرضية الحتمية اللغوية. فقد لاحظ وورف- على سبيل المثال- أن لغة الهوبي Hopi لا تفرق ظاهرياً بخصوص الزمن بين الفعلين الماضي والمضارع على الرغم من وجود صيغة الأفعال الثلاثة، الماضي والمضارع والمستقبل، في هذه اللغة[8]. فالتعبير عن الزمن في هذه اللغة يختلف عن مثيله فيما أسماه «المستوى المتوسط للنظام اللغوي الأوروبي» Standard Average European حيث يعبر عن الزمن في هذا النظام بدقة، حسب زعمه. هذه لمحة موجزة عن تاريخ فرضية الحتمية اللغوية ومبادئها.

ثالثاً : اتهام اللغة العربية بنظامها

في هذا الجزء من الدراسة نتوقف عند بعض التهم التي قذفت بها اللغة العربية ونظامها من فقر وقصور. سيتضمن هذا الجزء عرضاً لبعض التهم، ثم رداً أولياً ومبدئياً على هذه التهم تاركين الرد الأساسي والشامل للجزء التالي من الدراسة حيث سيتم العمل على إيراد أدلة نرجو أن تكون كافية وشافية للرد على اتهام اللغة العربية وغيرها من اللغات بشكل عام. إلا أننا نود القول سلفاً إن الدراسات التي حوت هذه التهم والمزاعم بخصوص اللغة العربية وغيرها من اللغات قد اتسمت هي ذاتها بالقصور المنهجي والفقر الفكري، نظراً لاعتمادها مرجعياً على فرضية مخلخلة نظرياً وتطبيقياً، وبعدها عن النهج الموضوعي في البحث والتقصي كما سيتبين لاحقاً.

في هجومه على اللغة العربية يرى شوبي Shouby[9] أن اللغة العربية غير قادرة على استيعاب الأفكار المجردة، وإن هي فعلت ذلك فمن الصعب استخدام اللغة للتعبير عن ذلك نظراً للطبيعة الصارمة للنحو العربي. فوجود مئات المترادفات، ومستويين لغويين، والغموض، يؤدي إلى الحد من المرونة أو الليونة اللغوية، ثم الفكرية في عملية التعبير والصياغة. أما ردنا فهو كالتالي: هل قرأ هذا الباحث تاريخ العربية، وما حملته من عقيدة وأدب وفكر وفلسفة وكذلك من نقاشات وشروحات ومراجعات ومناظرات وغيرها؟ ألم تحملنا الثقافة العربية والإسلامية، ومما أخذته من

غيرها من الثقافات، وهذا المخزون العظيم من المعرفة التي هي بين أيدينا هذه الأيام عبر هذه اللغة؟ فمعالجة هذا الباحث لهذه المسألة تكشف كما يرى إدوارد سعيد Said عن «سذاجة عقلية مردها على الأغلب إلى عدم وجود فكرة واضحة حول طبيعة اللغة وكيفية عملها»[١٠]. فهذا الباحث لم يأت بدليل واحد مقنع من الأدب العربي للتدليل على صحة مزاعمه. وأخيراً يجيب سعيد ساخراً حول سؤال قد يطرح عن مكان وجود تأثير اللغة العربية على العقل العربي قائلاً: «إنه ينحصر بالتأكيد في العالم الخرافي الذي نسجه الاستشراق»[١١].

أما باتاي Patai[١٢] الذي يركز على بعض الصفات البلاغية والتي يعدها قبيحة هي في الواقع موجودة في اللغات الأوروبية كذلك[١٣]. على أي حال فإن هذا الباحث يعطي أهمية أكثر لموضوع الزمن في اللغة العربية، وذلك بادعائه أن اللغة العربية تفتقر إلى نظام تفصيلي للزمن في الفعل العربي مغاير للزمن في اللغات الأوروبية. وهذا بدوره يؤدي إلى نتائج فكرية سلبية كالافتقار إلى الدقة والوضوح في الكلام العربي. إننا نرى أن هذا الباحث جهل وتجاهل حقيقة أن لكل لغة نظامها الخاص من حيث التركيب والتعبير، وهذا الأمر لا ينفي بطبيعة الحال وجود الكليات اللغوية. على أي حال فإن موضوع الزمن في اللغة العربية واللغات السامية الأخرى قد استحوذ على اهتمام المستشرقين الذين انتقدوا واقع الزمن في هذه اللغات[١٤]. فالعالم اللغوي إبراهيم السامرائي يرفض ما يزعمه المستشرقون بخصوص الزمن قائلاً: «إنه ليس صحيحاً ما يقوله جماعة من الباحثين الأعاجم من أن الزمان ليس شيئاً أصيلاً، وأن اقتران الفعل العربي به حديث النشأة»[١٥]. فنظرة متأنية إلى نتائج أبحاث المستشرقين تكشف عن أن نظرتهم كانت متأثرة بخلطهم الوصفي[١٦] التزامني Synchronic والتعاقبي Diachronic. فإنه من الثابت أن الزمن في اللغة العربية على علاقة وثيقة بالسياق، وأن هناك وسائل متنوعة وطرقاً مختلفة للتعبير عن الزمن في اللغة العربية[١٧]. إن ما يراه باتاي من نقص في اللغة هو في الواقع نقص في التشخيص والاطلاع عند هذا الباحث. فاللغات البشرية جميعها ينظر إليها على أنها لغات كاملة. فهل يعني أن الإنجليزية، على سبيل المثال، التي تستعمل مفردة واحدة هي Uncle، للدلالة على مصطلحي القرابة «عم وخال» ناقصة لعدم وجود مفردتين، كما هو موجود في اللغة العربية. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن مفردة niece. هل يجوز أن ننفي صفة صيغة المجهول عن الجمل الإنجليزية التي تحوي الفاعل Agent. عند قولنا... by لأن هذا يتناقض تماماً مع مفهوم صيغة

الجهولية كما هي في اللغة العربية التي تحتم حذف الفاعل في مثل هذه الحالة؟ ولقد أصاب مالك المطلبي كبد الحقيقة عندما أكد أن: «وجود نقص في اللغة هو منطق غير صائب، إذ لايوجد أبداً نقص لغوي أو تفوق لغوي، بل تنظيم لغوي».[18] هذه واحدة من الحقائق التي يقررها علم اللغة الحديث.

وأخيراً فإن لافين Laffin[19] يشكك في قدرة اللغة العربية في أن تكون أداة لإقامة التفكير المنطقي نظراً - على حد زعمه - إلى طبيعة نظامها اللغوي. ثم يذهب هذا الباحث إلى اتهام اللغة العربية بعدم قدرتها على استيعاب الكلمات الأجنبية، نظراً لإصرارها على استخدام النظام الصرفي العربي على حد زعمه. الناظر في الكلام العربي المسموع والمقروء يفند هذا الزعم. فاللغة العربية وسعت الكثير من المصطلحات الأجنبية قديماً وحديثاً بعربنتها أو إيجاد المصطلحات المرادفة للمصطلحات الأجنبية. فالنظام الصرفي العربي يعد مصدراً مهماً من مصادر إثراء اللغة العربية إذا استخدم بطريقة فاعلة وتوليدية، وهذا ما يقوم به ويدعو له عدد من البحاثة من خلال الدعوة إلى تفجير اللغة من الداخل عن طريق التوليد والاشتقاق والتعريب المقنن[20]. أما بخصوص حديثه عن المنطق العربي فإن الباحث لم يأت بدليل واحد لإثبات زعمه وهو- في هذه الحالة- لا يعدو أن يكون من قبيل الهراء ليس إلا. فلو كان هذا الزعم صحيحاً لرمى بآثاره السلبية على حياة الأمة، وللمسنا ذلك من خلال فوضى فكرية، وتعثر معرفي يفترض أن يكون قد تفجر في القرون الماضية، ومعاناة من القبيل نفسه يتوقع أن نحياها في هذا الزمان.

وهناك المفكرون والفلاسفة العرب الذين تأثروا كثيراً بفرضية الحتمية اللغوية كما طرحها الغربيون. سنتناول هنا آراء اثنين من المفكرين البارزين وهما محمد عابد الجابري وزكي نجيب محمود. يرى الجابري[21] أن اللغة العربية تتصف بصفتين اثنتين وهما لا تاريخيتها وطبيعتها الحسية. فهي برأيه «محنطة» منذ العصور الأولى، وجامدة لا تواكب الجديد في العصور التالية. فاللغة العربية عملت على تصوير ونقل حياة أهل البادية والصحراء، وبهذه المناسبة يطرح سؤالاً كالآتي: كيف يصدق هذا القول على لغة عالمية تبوأت مركزاً مهماً ومرموقاً في الماضي والحاضر، وحملت فكراً وأدباً وعلماً وفلسفة على مدى قرون طويلة؟ هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فهل اللغة العربية التي نستعملها اليوم هي نفسها التي كانت في الجاهلية؟ قارن تلك اللغة بالمراحل التاريخية التي أعقبت المرحلة الجاهلية وحتى اليوم. فالأصوات والقواعد النحوية لم يطرأ عليهما

شيء»، ولكن ماذا عن المفردات وأساليب التعبير؟ إنها وبلاشك واكبت كل عصر عاشته اللغة العربية ووسعته بنظامها ووسعها بكل مميزاته وتفرده عن غيره. هذا هو الأمر الطبيعي الذي يتوقع أن تسلكه كل لغة إنسانية سواء كانت موجودة في الأدغال حيث الحياة البدائية أو في المجتمعات الصناعية المتقدمة حيث الحياة العصرية التي تميزها ثورة الكمبيوتر والمعلوماتية. أما عن العلاقة بين اللغة والفكر بشكل عام فيقول الجابري إن اللغة: «لا تعكس الظروف الطبيعية وحسب، بل تحمل معها هذا الانعكاس نفسه لتنشره على أمكنة وأزمنة مختلفة، فتكون بذلك عاملاً أساسياً، وأحياناً حاسماً في تحديد وتأطير نظرة أصحابها إلى الأشياء»[٢٢].

أما رأي محمود[٢٣] والذي وقع تحت تأثير آراء المفكرين الفرنسيين فملخصه أن اللغة هي الفكر، وأن التغيير في أي فكر لابد أن يسبقه تغيير مهم في طبيعة اللغة التي يستعملها أهل ذلك المجتمع حيث يوجد الفكر. فإيجاد ثورة فكرية يستلزم إيجاد ثورة لغوية أولاً. أما الرد على هذه الدعوة المتسرعة فيكون بتذكير صاحبها حول واقع اللغة العربية قبيل الثورة الفكرية الإسلامية التي عمت جزيرة العرب مع ظهور الإسلام، وكذلك واقع اللغة الروسية قبيل تفجير الثورة الشيوعية في روسيا، وكذلك غيرها من اللغات والثورات الفكرية. فهل فجر العرب والروس هاتين اللغتين أولاً لإيجاد التحولات الفكرية المعروفة؟

رابعاً : تقويم فرضية الحتمية اللغوية

هذا الجزء من الدراسة سيتناول النظر في جوانب فرضية الحتمية اللغوية بهدف تبيان وتحديد مواطن الضعف في هذه الفرضية. فإذا تبيّن أن هذه الفرضية مختلة الأساس والزعم، فإن ذلك كاف للرد على الاتهامات السالفة الذكر للغة العربية وغيرها، وكذلك الاتهامات الأخرى التي قد تبرز مستقبلاً.

١- حقيقة ونص الفرضية

من أهم الأمور المتعلقة بالفرضية هي النص أو النصوص التي تحدد وتعبر عن حقيقة الفرضية. فلا يوجد نص محدد ودقيق وصريح يمكن أن يرجع إليه على أنه يحدد واقع الفرضية سواء في كتابات سابير أو وورف. فالعبارات الصادرة من هنا وهناك حول الفرضية ليست جميعها دقيقة وقطعية الدلالة، بل إنها فضفاضة أحياناً وحتى غامضة. فهناك بعض العبارات

الواضحة كتلك التي استشهدنا بها سابقاً، وهناك أخرى تتسم بالعمومية. تقول بن Penn بهذا الصدد إنه «ليس من المدهش أن المصادر الحديثة للفرضية تشير إلى اختلاف بخصوص ماهية فرضية وورف.»[٢٤] أما ولز Wells فيصرح بأن الفرضية هي في الواقع «وهم»[٢٥]. وأخيراً واسن وشريكه جونسون- ليرد Wason and Johnson-Laird يريان أن الفرضية يكتنفها «الغموض»[٢٦].

٢- أهمية وشمولية دليل الفرضية

من الواضح أن سابير و وورف قد اعتمدا بشكل أساسي على أدلة محدودة مأخوذة من لغة الهنود، وهو النظر في بعض الفئات النحوية ومحاولة مقارنتها بما يعرف بالمستوى المتوسط اللغوي الأوروبي. فوجوه الاختلاف التي بدت عميقة في بعض اللغات قد ينظر إليها على أنها أدلة بسيطة وغير كافية لإقامة نظرية كاملة وإطلاق مزاعم كبيرة. صحيح أن البحث العلمي يقوم بالدرجة الأولى على إقامة الدليل، إلا أن طبيعة الدليل وقوته هي الأخرى مهمة، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بمعالجة قضية حساسة ذات أبعاد كبيرة ومتشابكة، وتتعدى حدود أكثر من علم كقضية علاقة اللغة والفكر.

فمن الثابت أن وورف نفسه قد أخفق في إقامة وصف سليم للمستوى المتوسط للنظام اللغوي والأوروبي فصيغة المستقبل تختلف عن صيغتي الماضي والمضارع باستخدامها أحد الأفعال المساعدة[٢٧]. هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإن دراسات وورف وحتى سابير قد انحصرت في النطاق النظري. فمقارنة نظام لغة الهوبي مثلاً مع النظام اللغوي الأوروبي على المستوى الشكلي Formal وحده لايكشف عن طريقة اختلاف في التفكير واللغة بشكل حاسم.[٢٨]

بالإضافة إلى ذلك فإن الدراسات التي أقامها عدد من الباحثين على مصطلحات الألوان في اللغات المختلفة للتدليل على صحة الفرضية ليست كافية بل على العكس تم تفسير نتائج هذه الدراسات أحياناً بما يخدم فرضية مغايرة وهي فرضية الفكر وتأثيره على اللغة، وأن هناك عوامل بيولوجية مهمة في هذا المجال. يرى هارلي Harley أن القراءة الصحيحة لنتائج هذه الدراسات المتعلقة بالألوان بينت كيف أن «الفهم مرتبط بعوامل بيولوجية وليس بعوامل لغوية»[٢٩].

وهذا ما أشار إليه في وقت سابق كل من كي وماكدانيال Kay and McDaniel من أن

القضية يجب أن تفسر على مستوى «عصبي» Neurological كنتاج لتمثيل قشري دماغي Cortical[٣٠].

أما موضوع الزمن والذي أثار زوبعة كبيرة حجبت الرؤية الصحيحة عن دقائق الأمور المتعلقة بهذه القضية فإن دعاة فرضية الحتمية اللغوية جهلوا حقيقة مهمة، وهي أن هناك مايسمى بالزمن اللغوي Linguistic Time والزمن الثقافي Cultural Time وهما ليسا سواء. وعن علاقة الزمن والفعل في لغة الهوبي يؤكد فرولي Frawley «أن النظرة غير الأكاديمية- العادية- للغة الهوبي تظهر أن هذه اللغة تفتقر إلى فكرة الصيغة الفعلية Tensless وكذلك إلى فكرة الزمن Timeless ... فهذه الأفكار صحيحة فيما يتعلق بعالم الهوبيين، إلا أنه ليس لها صلة بالطرق التركيبية لإيصال الزمن في لغة الهوبي»[٣١]. هذه هي إحدى نقاط الضعف الأساسية في فرضية الحتمية اللغوية، وهي خلط عناصر الثقافة وعناصر اللغة وعدم التفريق بين ما هو ثقافي وبين ما هو لغوي[٣٢]. أما مالوتكي Malotki[٣٣]، والذي أجرى دراسة على نظام صيغة الفعل في لغة الهوبي فأفاد أن بها نظاماً تقليدياً للتعبير عن صيغة الفعل ويمكن القول إنها الصيغة المستخدمة للتعبير عن الزمن، ولا تختلف عن باقي اللغات الإنسانية. إن صعوبة توفير دليل معقول لا يتعلق بالجانب المتطرف لفرضية النسبية اللغوية، بل إن الأمر يشمل كذلك الجانب المعتدل من الفرضية حيث من الصعب توفير دليل منتظم ومتسق لدعمه، وذلك لأن مثل هذا الدليل حسب ما يعتقد كود Code «يجب أن يؤخذ تدريجياً من التركيبة الخارجية لجميع اللغات الإنسانية، واللهجات، واللغات التي هي من ضمن اللغات التي تستعمل في جميع الأماكن والأزمان»[٣٤]. وأخيراً وعلى الرغم مما كتب عن هذه الفرضية قديماً وحديثا، ومحاولات اختبار صحتها فإنه من الغريب أن يصرح أحد الباحثين زاعماً أنه لم يتم حتى الآن اختبار الفرضية الأصلية بصورة شاملة[٣٥].

٣- عالم واحد

طبقاً لمزاعم فرضية الحتمية اللغوية، فإن الإنسان يعيش في أكثر من عالم مادي أو فيزيائي نظراً لوجود لغات عدة منتشرة في العالم. فكل لغة تعطي صورة معينة لهذا العالم تبعاً لنظامها اللغوي. فهناك عالم حسب ما تصيغه اللغات السامية، وعالم آخر حسب ما تشكله اللغات الأوروبية، وعالم ثالث حسب ما تصوره اللغات الإفريقية وهناك عوالم أخرى ضمن هذه المجموعات اللغوية. فهي ليست واحدة في نظامها اللغوي وهكذا. وهذا في واقع الأمر لا ينسجم مع ما يقرره العلم من أن هناك عالماً واحداً[٣٦].

٤- رؤية واحدة

إن الفرد الذي يتقن أكثر من لغة يمتلك عدة أنظمة لغوية، وهذه الأنظمة تعمل - وحسب ادعاءات فرضية الحتمية اللغوية- على تحديد الإطار الفكري لذلك الفرد. فمن المتوقع أن يكون لذلك الفرد عدة رؤى للعالم الواحد المحيط به، وذلك أن اللغات تزود الفرد بفئات نحوية متعددة. فلو افترضنا أن هناك شخصاً عربياً يتقن بالإضافة إلى لغته الأم اللغات الإنجليزية والصينية فإنه من المتوقع أن يكون لدى ذلك الشخص أنظمة فكرية متعددة نظراً لسلطة هذه اللغات عليه. وعليه فإنه سيتعامل مع العالم المحيط به على أكثر من مستوى. فالزمن- على سبيل المثال- في هذه اللغات ليس متشابهاً، ولكل لغة نظامها الزمني. إنه من المتوقع أيضاً أن يحصل تشوش وارتباك سلوكي عند هذا الشخص. الواقع يشير إلى أنه لا يوجد هناك أي دليل يؤيد مزاعم هذه الفرضية حول وجود أكثر من رؤية لمتعدد اللغات[٣٧].

ولنا هنا وقفة حول السبب الحقيقي وراء عدم وجود خلط وتشوش لدى هذا النوع من الأشخاص فنقول: إنه العقل البشري، وتركيبته وقدرته على التعامل مع الواقع بقدرة عجيبة وفائقة. وهو أمر يبدو أن دعاة فرضية الحتمية اللغوية، وعلى رأسهم منظروها الأوائل لم يعطوه حقه في هذه المسألة وانصرفوا للنظر في الشكليات اللغوية فقط.

٥- الصم يفكرون من دون لغة

من المعروف أن الصم الذين لا يقدرون على استعمال اللغة المنطوقة يستطيعون القيام بمهمات ذهنية كثيرة تتطلب أنواعاً مختلفة من العمليات الذهنية البسيطة منها والمعقدة. وهم في هذه الحالة لا يختلفون عن الأفراد العاديين الذين يستعملون اللغة المنطوقة في التواصل. فحالة هيلن كيلر Helen Keller المعروفة تعد مثالاً صارخاً على أنه ربما لا حاجة للغة في عملية التفكير[٣٨].

من جهة أخرى فإنه من المتوقع عند تعطل الجانب الأدائي Performance للغة تعطيلاً جزئياً أو كاملاً بسبب الحبسة اللغوية Aphasia أن ينعكس ذلك سلباً، وحسب مزاعم فرضية الحتمية اللغوية على طريقة التفكير لدى المريض الذي يعاني من هذا المرض، إلا أن الواقع لا يستند إلى هذا التوقع، وأن الدراسات أثبتت أن هناك استقلالية إلى حد كبير بين اللغة والفهم أو المعرفة[٣٩].

٦- تغير اللغة

هل يترتب على تغير اللغة تغير في الفكر؟ الواضح من مضمون فرضية الحتمية اللغوية أن ذلك أمر وارد، ماذا لو فقدت صيغة معينة كانت تستخدم للتعبير عن فكرة معينة، واستعملت بدلاً من ذلك صيغة أخرى لذاك الغرض؟ فكما يورد فرولي Frawley [٤٠] فإن صيغة الشرطية الافتراضية Subjunctive mood في اللغة الإنجليزية المستخدمة في الولايات المتحدة يعبر عنها هذه الأيام بصيغة الخبرية Indicative Mood. فبدلاً من أن يستخدم الأمريكيون صيغة If this be the case للتعبير عن الشرطية الافتراضية فإنهم يستخدمون صيغة الخبرية كما في If this is the case. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو : هل سيفشل الأمريكيون في التفكير بطريقة الشرطية الافتراضية بسبب فقدان هذه الصيغة من اللغة؟ فالمشكلة كما يصورها فرولي تكمن في الحاجة إلى تحديد ماهية الشكل اللغوي من زاوية معرفية وثقافية.

٧- الترجمة بين اللغات ممكنة

يعتبر هذا الدليل داحضاً وقوياً لمزاعم فرضية الحتمية اللغوية، بل إنه كفيل بأن ينسفها بالكامل من أساسها. فطبقاً لمزاعم هذه الفرضية فإن الترجمة من لغة إلى أخرى غير ممكنة بل هي مستحيلة. وذلك لأن الأفكار مرتبطة ارتباطاً عضوياً مع التراكيب اللغوية. فالفكرة المشكلة بتركيبة اللغة الإنجليزية، مثلاً، هي جزء من تلك التركيبة. وعليه لايمكن إعادة تشكيل الفكرة في تركيبة لغة أخرى، لأن التركيبتين مختلفتان، وإنه إن تم ذلك فإنه سيقضي على الفكرة المراد ترجمتها. وكما أشار فيور Feuer [٤١] فإن هذه الفرضية أي الحتمية هي في الواقع «فكرة عدم القدرة على الترجمة بقناع عصري».

ولكن كما هو واضح وجلي فإن الترجمة من لغة إلى أخرى هي أمر متيسر أمس واليوم وغداً. فالمعاني التي تشكل فحوى الترجمة يمكن أن تمثل بهذا التركيب أو ذاك. انظر إلى اللغة العربية ماضياً وحاضراً. فقد استطاعت هذه اللغة وعبر تاريخها الطويل، ومن خلال احتكاكها وتفاعلها مع اللغات الأخرى المجاورة وغير المجاورة أن تقترض الكثير من المصطلحات والمعاني، وتستوعب نظامها اللغوي. فقد ترجمت كتب كثيرة من اللغات الفارسية واليونانية واللاتينية والهندية والقبطية، وكذلك من اللغات الأوروبية الحديثة كالإنجليزية والفرنسية وغيرها إلى العربية. لقد

حفظت اللغة العربية المعارف الكثيرة في الفلك والرياضيات والفلسفة وغيرها. وبالمقابل ترجم الكثير من علوم العرب والمسلمين التي سطرت في اللغة العربية إلى اللغات الأخرى. انظر إلى الفكر الإسلامي الذي نقل بدقة وشمولية إلى لغات عدة وأمم شتى ولم ينقص منه شيء.

بيد أنه وفي الوقت ذاته لا يمكن إغفال حقيقة مهمة متعلقة بالترجمة وهي أنه ليس من اليسير ترجمة كل شيء من لغة إلى أخرى بالدرجة نفسها من السهولة. أي أن هناك أموراً يمكن ترجمتها بسهولة كالأمور اللاثقافية وأخرى بصعوبة كالأمور الثقافية. فهناك لغات تحوي عدداً كبيراً من المفردات للدلالة على شيء واحد وأنواعه وصفاته كما في لغة الإسكيمو التي تحوي العدد الكبير من أسماء الثلج واللغة العربية التي تحوي عدداً كبيراً من المفردات التي تدل على اسم الجمل وحياة البادية. بالمقابل فإن اللغات الإفريقية التي تستخدم في منطقة خط الاستواء، لا تحوي كلمة واحدة تدل على الثلج. وكذلك الأمر بالنسبة للغة الإسكيمو، والتي نشك في أنها تحوي أي كلمة عن حياة البدو والصحراء. إذن المسألة نسبية بالدرجة الأولى. لقد أصاب هوكيت Hockett عندما أكد على حقيقة: «أن اللغات تختلف كثيراً فيما بينها ليس حول ما يمكن أن يعبر عنه في هذه اللغات، بل حول ما هو سهل نسبياً للتعبير في هذه اللغات»[42]. وفي هذا الصدد يذكر ووردهو Wardhaugh : «أنه من الممكن أن نتحدث عن أي شيء، في أي لغة شريطة أن يكون المتكلم مستعداً لاستخدام درجة من الإطناب»[43]. وأخيراً ألم ينجح وورف في نقل وجهة نظر الهوبي إلى اللغة الإنجليزية واستطاعت الفئات التركيبية للغة الإنجليزية أن تصور واقع الحياة للناطقين بالهوبي على الوجه الصحيح؟ إن هذا دليل كاف على مرونة اللغات الإنسانية وقدرتها على التعبير عن وجهات النظر المختلفة.

8- الجراماطيقا الكلية متشابهة

يعتبر هذا النوع من الجراماطيقا، أي الجراماطيقا الكلية Universal Grammar أحد الإنجازات المهمّة التي توصل إليها علم اللغة الحديث. فقد أصبح محط اهتمام الكثير من اللغويين، وتركز معظم الدراسات اللغوية حالياً على الكشف عن مبادئه وطبيعته. فقد استطاع نوم تشومسكي Noam Chomsky[44] أن يشد انتباه الكثيرين من الباحثين والدارسين منذ أن فجر ثورة في علم اللغة، وطرح فكرة الكليات اللغوية Linguistic Universals في مؤلفه «مظاهر

النظرية النحوية Aspects of The Theory of Syntax، ثم طرح فكرة المبادىء والبارميترات Principles and Parameters كمكونين للجراماطيقا الكلية.

طبقاً لنظرية تشومسكي اللغوية فإن اللغات متشابهة في التركيبة الداخلية Deep Structure حيث تحتوي على القواعد التوليدية والقواعد التحويلية. وهي كذلك متشابهة على مستوى المكون الأساسي Base Component. أما التركيبة الخارجية Surface Structure فهي مختلفة ومتنوعة، وهي غالباً لاتعكس حقيقة التركيبة الداخلية، وهناك أمثلة كثيرة استشهد بها تشومسكي وغيره، ولا مجال لتوضيح بديهية في علم اللغة هنا.

فعند حديثه عن التركيبة الخارجية أكد تشومسكي أنها لا تقود إلى حقيقة المعنى، وهي غير معلمة عن فحواه [٤٥]. على ضوء هذه الحقيقة وطبيعة الجراماطيقا الكلية بشكل عام فإنه يمكن القول إن التشابه في التركيبة الداخلية للغات الإنسانية يجعل بالإمكان التعبير عن أي فكرة في أي لغة أمراً متيسراً. أما دعاة فرضية الحتمية اللغوية فقد خدعوا بطبيعة التركيبة الخارجية ذات التنوع الكبير، واتخذوها أساساً لفرضيتهم وانتهوا إلى ما انتهوا إليه من مغالطات.

٩- الفكر أولاً

تمخضت النقاشات والمساجلات حول فرضية الحتمية اللغوية عن أمر مثير وهو قلب ومبادلة حيثيات محور النقاش. فغدا الحديث حول دور الفكر في تشكيل اللغة. هذا مايراه واسن وشريكه جونسون-ليرد من أن الفكر يحدد اللغة، وهذه الفرضية برأيهما أكثر معقولية [٤٦]. فاللغة تلعب دور المرآة العاكسة للخبرة والتجربة، وليست حرة في تأسيس أو إقامة المصنفات أو الفئات المعرفية حسب ما يراه براون Brown[٤٧]. يقول فوس وهيكس Foss and Hakes بهذا الصدد: «إن هناك دليلاً مهماً على أن النظام اللغوي لأي لغة لا يملك حرية تقسيم نظام الألوان بأي طريقة متخيلة. فعلى الرغم من وجود حدود مرنة بين مناطق الألوان الأساسية، فإن متكلمي جميع اللغات يتفقون على ماهية الألوان الأساسية»[٤٨]. وهذا ما ذهب إليه كي وماكدانيال بناء على نتائج الأبحاث التي أجرياها على الألوان الموجودة في ثقافات متنوعة وخلصنا إلى نتيجة مفادها أنه: «بدلاً من القول إن اللغة هي التي تحدد الفهم فيجدر القول إن الفهم هو الذي يحدد اللغة»[٤٩].

لقد كان لدراسات العالم النفسي المعرفي جان بياجيه Jean Piaget أثر كبير في ترسيخ فكرة

الفكر أو المعرفة أولاً، وبالتالي إقامة ما يعرف بالكليات المعرفية Cognitive universals[٤٠]. هذه الكليات تفيد بأن الأفراد يستخدمون عمليات ذهنية متشابهة بغض النظر عن نوعية اللغات التي يتكلمها هؤلاء الأفراد. يرى بياجيه[٤١] أن المعرفة أو الإدراك يسبق تشكيل اللغة، وهذا ما تبناه وطوره لاحقاً عدد من الباحثين في هذا المجال أمثال ماكنمارا Macnamara وسلوبين Slobin وغيرهما. لقد قام بياجيه بتتبع العلاقة بين اللغة والفكر من خلال تقسيم النمو المعرفي لدى الطفل إلى أربع مراحل[٤٢]. ففي المرحلة الأولى تكون اللغة نتاجاً للنمو المعرفي، ثم تقوم اللغة بلعب دور محدد في المراحل التالية منها مرحلة ما قبل العمليات، ثم تلعب دوراً ضرورياً في مرحلة العمليات المادية وهو دور لا يرقى إلى مستوى تشكيلي أو تأطيري للفكر، ثم يأتي دور اللغة في مرحلة العمليات المنطقية والفرضية حيث تلعب اللغة دوراً حاسماً ومهماً، ولكنه ليس دوراً تشكيكياً أو تأطيرياً للفكر أيضاً. فالملاحظ طبقاً لنظرية بياجيه أن اللغة لاتحدد ولا تفرض نمطاً معيناً من التفكير. فهي أداة تستخدم في العمليات الذهنية وليست هي المتحكمة والمهيمنة على طريق التفكير. فاللغة شيء، والفكر شيء آخر. إن ما تطرحه نظرية بياجيه يعد حقاً تشخيصاً دقيقاً ورائعاً لعلاقة اللغة بالفكر.

خامساً: فرضية الحتمية اللغوية على ضوء النظريتين الحديثتين اللغوية والمعرفية

من الملفت للنظر أن فرضية الحتمية اللغوية اكتسبت زحفاً كبيراً خلال النصف الأول من القرن الحاضر. فمن المعروف أن هذه الفترة هي فترة نمو وازدهار علم اللغة البنيوي Structural Linguistics والذي عمل على تأسيسه العالم اللغوي المعروف دوسوسير De Saussure[٤٣]، ثم اكتسب زخماً كبيراً خلال كتابات كل من سابير وبلومفيلد Bloomfield[٤٤] إذ وظف الأخير النظرية السلوكية Behaviourism في دراسة ووصف اللغة. فقد استعان بلومفيلد بهذه النظرية ليحول دراسة اللغة إلى دراسة مستقلة ويعتقها من نطاق الفلسفة والفكر التقليدي الموروث. فغدت دراسة اللغة واقعة تحت تأثير علم النفس السلوكي الذي هيمن على البحث النفسي والمعرفي حتى فترة قريبة، أي إلى بداية الستينيات من هذا القرن.

يقرر علم اللغة البنيوي أن اللغات الإنسانية مختلفة اختلافاً كبيراً، وهذا واضح من خلال مقارنة اللغات بعضها ببعض. فالأنظمة الصوتية والصرفية والتركيبية والمعنوية/ الدلالة مختلفة من لغة إلى أخرى. وعليه فلا توجد متشابهات بين اللغات . وإن وجدت مثل هذه المتشابهات فهي

برأي البنيويين محدودة وغير جديرة بالدراسة والتحليل والوصف. بل إنها في الواقع لم تسترع اهتمام اللغويين ومن ثم أهملت. هذا التنوع في اللغات له صلة مباشرة بالتنوع الثقافي في المجتمعات الإنسانية، وتزامن استخدام البنيوية في وصف الإنسانية مع استخدامها في وصف الثقافات الإنسانية كما يتضح ذلك من خلال الدراسات الانثروبولوجية، وبروز علم الانثروبولوجيا البنيوية Structural Anthropology. أدى هذا التغلغل البنيوي في الدراسات الإنسانية على هذا النحو إلى إعادة طرح فرضية الحتمية اللغوية بثوب جديد من خلال كتابات سابير ووورف.

فالواضح أن فرضية الحتمية اللغوية الحديثة قد نمت وترعرعت في ظل هذه الظروف الفكرية من بنيوية وسلوكية. بالإضافة إلى ذلك فإن العملية الفكرية نفسها أي طريقة التفكير في علم النفس كان ينظر إليها على أنها ذات طبيعة موحدة في العقل البشري[55]. هذا المناخ الفكري والمعرفي واللغوي شكل المرجع الأساسي لكثير من المعارف الإنسانية إلى فترة ليست قصيرة.

بدأت الغيوم المعتمة تتلبد في السماء الصافية لهذا المناخ الفكري مع نهاية الخمسينيات[56] وبداية الستينيات من هذا القرن وبدأت أركانه تهتز على أثر كتابات تشومسكي التي فجرت ثورة في علم اللغة أدت إلى تقويض النظرية البنيوية اللغوية فحصلت تحولات مهمة في هذا العلم شملت موضوع دراسته ومنهجه وإطاره الفكري. فقد أصبح علم اللغة فرعاً من علم النفس المعرفي Cognitive Psychology وحلت فكرة العقلانية Rationalism محل فكرة التجريبية Empiricism، وكذلك حلت فكرة الاستنتاج Deduction محل فكرة الاستقراء Induction في المنهاج البحثي اللغوي.

ترافقت هذه التطورات في دراسة اللغة الإنسانية مع تطورات مشابهة في علم النفس. فأصبح هذا العلم الذي سيطرت عليه السلوكية لفترة طويلة علماً معرفياً Cognitive. حصل هذا التحول تحت تأثير كتابات بياجيه وانهلدر Inhelder[57] وغيرهما ممن نادوا بهذا التوجه الجديد أمثال أوزبل Ausubel ومن تبعه[58]. ومن ثم لم يعد علم النفس واقعاً تحت تأثير النظرية السلوكية وقصورها الفكري.

فنحن أمام ثورتين فكريتين واحدة في علم اللغة إذ تمخضت عنها أفكار ومفاهيم جديدة عن اللغة فيما يتعلق بتعريفها وتنظيم مكوناتها واكتسابها ومعرفتها، ودور العوامل الفطرية في ذلك، وعلاقات اللغات ببعضها البعض. وثورة أخرى في علم النفس تمخض عنها هجر أفكار ومفاهيم قديمة وطرحت أخرى جديدة متعلقة بالمعرفة Cogniition، وكذلك دور العوامل الذهنية الداخلية

والخارجية في عملية التفكير. هاتان الثورتان هزتا أركان فرضية الحتمية اللغوية. فاللغة التي تحدث عنها وورف ذات المفهوم الضيق والسطحي لم تعد هكذا اليوم. فهناك اليوم ما يعرف باللغة الداخلية Internalized[٥٩]. بالإضافة إلى ذلك فإن التفكير بتعريفه التقليدي والسلوكي لم يعد قائماً. بل ما تؤكده الدراسات اللغوية والمعرفية هو أن العقل البشري مقسم إلى وحدات مستقلة Modules or Faculties.

وكل وحدة متخصصة بعمليات ذهنية معينة. فعلى سبيل المثال يرى فودر Fodor[٦٠]، وهو أحد الداعين لهذه النظرية، أن جوهر العملية الفكرية يتسم بصفات كلية Universal متجسدة بلغة داخلية، وهي واحدة عند جميع الناس ولا علاقة لها بالتنوع الحاصل في اللغات نفسها. ليس هذا فقط فبالإضافة إلى الكليات اللغوية والكليات المعرفية فإن هناك اتجاهاً فكرياً مماثلاً بدأ منذ فترة ليست بالقصيرة في علم الانثروبولوجيا لإقامة مايعرف بالكليات الثقافية Cultural Universals.[٦١] أليست كل هذه التطورات كافية لإعادة النظر جذرياً بالادعاءات المنطلقة أو المستوحاة من فرضية الحتمية اللغوية حول علاقة اللغة والفكر؟ وأختم بعبارة رسمها فرولي في معرض انتقاده الشديد لفرضية الحتمية اللغوية وهي قوله «إن الطريقة الوحيدة حتى تصبح فيها فرضية سابير ووورف صحيحة هي ألا تكون صحيحة»[٦٢].

سادساً: الخاتمة

يتضح من العرض السابق كيف أن فرضية الحتمية اللغوية لا تقوم على أسس معقولة وقوية، بل تتخذ من الاختلافات التركيبية الظاهرية بين اللغات الإنسانية مبرراً لمزاعم حول دور اللغة في تحديد الفكر أو عملية التفكير. إن سقوط النموذج البنيوي اللغوي، والذي ترعرعت فيه هذه الفرضية وطرح فكرة الكليات اللغوية كاف لأن يلقي كثيراً من الشكوك حول صحة الفرضية. بالإضافة إلى ذلك فإن التحول نحو النموذج المعرفي بدلاً من السلوكي في علم النفس، وبروز الكليات المعرفية كان هو الآخر عاملاً مهماً في خلخلة أسس هذه الفرضية. وهناك عامل أخر يساهم في التشكيك في صحة هذه الفرضية وهو بروز الكليات الثقافية. وعليه فإن اتخاذ هذه الفرضية إطاراً ومرجعاً للهجوم على اللغات الإنسانية ومنها اللغة العربية واتهام هذه اللغات بالقصور والفقر التركيبي يكشف عن سذاجة عقلية وسطحية فكرية ومعرفية. إنه ومما لاشك فيه أن اللغة تلعب أحياناً دوراً ما في صياغة الفكر، إلا أن هذا الدور لا يعدو أن يكون دور الأداة في الصياغة وليس الإطار أو المرجع الذي على ضوئه يصاغ الفكر.

اللغة ودلالاتها : تقريب تداولي للمصطلح البلاغي

محمد سويرتي*

انصب الاهتمام في دراسة اللغة (الكلمات، العبارات، الجمل، النصوص الأدبية وغيرها، الأنواع الأدبية) على التركيبية (*La syntaxique*) التي تعنى بالعلاقة الوظيفية والتحويلية والتوليدية الحاصلة بين مفردات اللغة في العبارة أو الجملة المعبرة تعبيرا منطقيا. ولأن هذا التعبير خاضع للشروط والضوابط والقوانين والمعايير فضلا عن المقاييس والقواعد والمواثيق العرفية التي اطلق عليها ما عرف بعلم النحو، فينبغي للمعبر أن يكون قادرا وماهرا، عارفا وممارسا. كما انصب الاهتمام على الدليلي (مصطلح أبدعه سيبويه[1]، وذكره صاحب لسان العرب[2]) فجعلناه مقابلا للمصطلح الفرنسي (*La sémantique*). فالدليلي (علم الدلالة) يدرس علاقة الدلالة بمرجعها. والباعث على العناية بالتداولية رؤية ومنهجا هو إغناء وإثراء وتخصيب التركيبية والدليلي. فقد «تمت

*باحث مغربي.

صياغة المشروع التداولي حيث لم يعد الأمر متعلقا البتة بفهم اللغة بصفتها موضوعا مستقلا عن الممارسة، اللغة التي يمكن أن نعترف لها بخصائص دون الإشارة إلى كونها صالحة لإنجاز عدد معين من المعاملات، بل لتمييزها وفقا لتحديدات الاستعمال اللساني»[٣]. يقول فرانسوا لاترافيرس (*François Latraverse*). واستعمال اللغة - من منظور التداولية- غائي. فالتكلم يتم لتحقيق غاية ما، أو هدف معين، أو إشباع حاجة محددة، أو الحصول على فائدة. فلذا تستعمل اللغة للأغراض والمقاصد والمآرب ذاتها بصفة فعلية وعملية في سياقات مختلفة ومقامات متباينة. ويضفي المتحاورون -بصفة مباشرة وغير مباشرة- على دلالات الملفوظات والمقامات دلالات أخرى. ولم تغفل البلاغة العربية مستعملي اللغة وسياقات الاستعمال. فتحت عنوان فرعي هو «لكل مقام مقال»، يقول السكاكي: «لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، وجميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر»[٤]. (التأكيد مني).

يدل هذا على أن النحاة والبلاغيين والمفكرين والفلاسفة الإسلاميين قد مارسوا المنهج التداولي قبل أن يذيع صيته بصفته فلسفة وعلما، رؤية واتجاها أمريكيا وأوروبيا. فقد وظف المنهج التداولي بوعي في تحليل الظواهر والعلامات المتنوعة (الأيقونات والرموز التصويرية والمعمارية والتشكيلية واللغوية...). فإذا كان «اللسانيون التداوليون العرب» قد درسوا «الدلالات التضمنية والالتزامية» التي عرفت عند اللسانيين التداوليين الغربيين بـ«الدلالات المفترضة والمضمرة» المتفرعة عما عرف عند علمائنا بـ«دلالة المطابقة» التي عرفت عند العلماء الغربيين بـ«الدلالة المطروحة»، فقد

اغفل بعض اللغويين العرب الدلالات البلاغية التداولية، ولم يلامسوها إلا لماما. فعلى نظرية البلاغة ونظرية النحو والمنطق النقدي تنهض التداولية. وعليه فسيكون محور تقريبنا للدلالات اللغوية التداولية من خلال المصطلح البلاغي نفسه. فالبلاغة تشكل - إلى جانب النحو والأسلوبية والشعرية- سيميائية اللغة. والسيميائية تعني التداولية.

وسيتم هذا التقريب الذي نحن بصدده بالتطرق إلى المواضيع التالية:

أ- المصطلح البلاغي الخاص بـ«المفردة».

ب- المصطلح البلاغي المحدد للعبارة أو الجملة.

ج- المصطلح البلاغي الذي أطلق على النص.

د- المصطلح البلاغي المتعلق بالنوع الأدبي.

أ- المصطلح البلاغي الخاص بالمفردة

١- المجاز ودلالته التداولية

قبل الحديث عن المصطلح البلاغي الذي عرف بـ«المجاز»، لابد من التحدث عما اعتبره البلاغيون نقيضا له، الا وهو مصطلح «الحقيقة». فإذا رجعنا إلى كتاب السكاكي نجد فيه التعريف التالي: «الحقيقة هي الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع(...) ولك ان تقول: الحقيقة هي الكلمة المستعملة فيما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة(...) ولك أن تقول: «الحقيقة هي الكلمة المستعملة في معناها بالتحقيق، والحقيقة تنقسم عند العلماء إلى : لغوية وشرعية وعرفية. والسبب في انقسامها هذا، هو ما عرفت، أن اللفظة تمتنع أن تدل على مسمى من غير وضع، فمتى رأيتها دالة لم تشك في أن لها وضعا، وأن لوضعها صاحبا. فالحقيقة، لدلالتها على معنى، تستدعي صاحب وضع قطعا. فمتى تعين عندك، نسبت الحقيقة إليه، فقلت: لغوية، إن كان صاحب وضعها واضع اللغة. وقلت: شرعية، إن كان صاحب وضعها الشارع، ومتى لم يتعين قلت عرفية. وهذا المأخذ يعرفك أن انقسام الحقيقة إلى أكثر مما هي منقسمة إليه غير ممتنع في الأمر نفسه»[٢]. فلفظ «الحقيقة» يعني الحق أو كنه الشيء وجوهره، أو ثبوت الشيء يقينا وتحققه.

برغم صيرورة لفظ «الحقيقة» مصطلحا بلاغيا، أي مجازا أولا، فهو لا يقابل ولا يناقض في الواقع، حتى ولو استبدل بلفظ «التحقيق» لفظ «المجاز» لغة واصطلاحا. فمعنى الحقيقة مرتبط بصفة منطقية ودقيقة ومبهمة بمرجع الكلمة لا بدلالتها. فما الحق؟ ومن أحاط منا بكنه وجوهر وثبوت وتحقق أي شيء؟ فبإمكان الشيء، أن يكون واقعيا أو خياليا. ومادام أن الحقيقة تقابل الكذب، فكيف فات جل البلاغيين أن لا معنى للكلمة إلا في السياق الذي استعملت فيه، وأنها تحتمل الصدق والكذب كلما وردت في سياق إخبار أو إنشاء؟ وكيف تصير دلالتها ظاهرة وتحقيقية بغير تأويل، وهي تتغير من سياق إلى سياق و«دلالتها التضمنية ودلالاتها الالتزامية» تؤول «دلالتها المطابقة» للمرجع المحال عليه في سياق معين؟

المعاين عادة أن تكون دلالة المصطلح متصلة بالمعنى اللغوي للكلمة. فبأي كلمة يتصل مصطلح «الحقيقة»؟ أيتصل بـ«الحقيقة» الدالة على ما يفهم منها عند ذكرها، أي ما نجمع على إدراكه كلنا، أم بـ«الحقيقة» التي تعني الراية أو العَلَم الذي كان يدل هو كذلك على الجبل؟ وإننا لنميل إلى أن يكون المصطلح البلاغي ذا صلة بمعنى العَلَم لأنه علامة توضع على جبل ليراه الناس. وبما أن معنى كلمة يصير إلى معنى أخرى للعلاقة الوجودية والتواجدية بين مرجعيهما حيث تدل كلمة واحدة على معنيين أو أكثر، فإن الكلمة- وخصوصا إذا اعتبرت علامة كما تفعل ذلك بها السيميائية أو التداولية- تقع على العَلَم كما يقع العلم على الجبل. وأما حقيقة الشيء، فهي أدعى إلى الاختلاف حولها لأسباب ذاتية وموضوعية. فالذات المدركة ناقصة، وتخدعها حواسها وأحوالها كلما وجدت إزاء موضوع ما. والموضوع مجهول الحقيقة ولا تدرك سوى مظاهرها وبعض نسبها رغم تقدم العلم والفلسفة. فإن جدادة موقفنا الفلسفي هي اقتناع مجهول من طرف جميع العصور السالفة : اقتناع بعدم امتلاك الحقيقة»[1]. يقول نيتشه (Nietzsche) مؤكدا: وحتى حينما تحيل العلامة حقا إلى شيء، فهي مغايرة لذاك الشيء ذاته. فدلالة «الحقيقة» غامضة وعرضة للاختلاف. فلذا لا يمكن الاستمرار في التمسك بـ«الحقيقة» مصطلحا بلاغيا في عصر يعرف تقدما كبيرا في العلم وتطورا عظيما في الفلسفة. ومن وجهة نظر فلسفة اللغة، نستدل على غموض دلالة لفظ «الحقيقة» بالأقسام التداولية الأربعة المتناقضة التي وضعها لها الراغي ومنها:

١- ما يطابق الواقع والاعتقاد.

٢- ما يطابق الواقع دون الاعتقاد.

٣- ما يطابق الاعتقاد دون الواقع.

٤- ما لا يطابق الواقع والاعتقاد.[٧]

تقوم الجدلية أولا بين الواقع والاعتقاد، وبين ما يطابق ولايطابق الواقـع والاعتقاد ثانيا، وبين ما يطابق أحدهما دون الآخر. والجدلية أو التداولية تؤكد نسبية الحقيقة. فلا وجود لحقيقة مطابقة أو غير مطابقة للواقع والاعتقاد. فالاعتقاد نفسه واقعي، والواقع اعتقادي بصفة نسبية. ذلك أن الاعتقاد يحتاج إلى كثير من الفلسفة ليفهم الواقع المتغير دوما. ويتغير كلاهما بتغير الآخر، وإذا لم يطابق الاعتقاد الواقع، بات مجرد أيديولوجيا. والأيديولوجيا نافية للجدلية بكتمانها للنقيض، وينفي الجدلي الأيديولوجي. ذلك أن الأيديولوجي غير جدلي وغير واقعي، والواقعي جدلي وتداولي. ويصير الأيديولوجي تداوليا وجدليا كلما طابق الواقعي. ويتطور الواقعي بتطور التداولي، على نحو مايتطور التداولي بتطور الواقعي. فمن المتداول، ولاشك، أن الواقع متعدد ومتعارض العناصر كاللغة. فدوال اللغة حسية ومتعارضة، بينما دلالات دوالها ذهنية ومتخالفة. وإذا كان الدال اجتماعيا، فالدلالة فردية. وتبقى الحقيقة نسبية رغم الجدلية التي تحكم الاجتماعي والفردي، الدال والدلالة. بيد أن التمسك أو الاحتفاظ بمصطلح «الحقيقة»، لا يفسح المجال لبلوغ ما يناقض مصطلح «المجاز» الذي يعد عدولا عن مصطلح «الكذب». وسيتم العدول عن «المجاز» وما يشبهه من الأوجه البلاغية إلى التخييل الذي يقيم علاقة جدلية مع الواقع.

«المجاز» لغة من جاز، أي سار فيه وسلكه. والمجاز كذلك الموضع. الأصمعي: جزت الموضع سرت فيه، وأجزته خلفته وقطعته[٨]. بمعنى العبور من هذا الموضع إلى موضع مغاير. فكأنه القنطرة أو الجسر. وبالإضافة إلى ذلك، فالمجاز مصدر جاز. وأما من حيث الدلالة الاصطلاحية، فيقول عنها يحيى بن حمزة: «أعلم أن إطلاق لفظ المجاز على ما يفيده، ليس على جهة الحقيقة، وإنما يطلق على جهة المجاز، لأمرين: أولا فلأن الحقيقة في هذا اللفظ، إنما هو التعدي والعبور، وحقيقة ذلك إنما تحصل في انتقال الجسم من حيز إلى حيز آخر، فأما في الألفاظ فلا يجوز ذلك في حقها، وإنما تكون على جهة التشبيه، وهذا هو فائدة المجاز ومعناه. ثانيا فلأن المجاز وزنه (مفعل)...»[٩]. وينقسم المجاز إلى مفرد ومركب. فها هو عبد القاهر الجرجاني يضيف إلى ثنائية الحقيقة والمجاز وثنائية المفرد والمركب، ثنائية العقلي واللغوي. فكأن العقلي غير لغوي واللغوي غير عقلي. ذلك أنه يجعل المجاز العقلي في الإثبات والمجاز اللغوي في المثبت. فبالنسبة إلى

الجرجاني، فالمجاز متلقى من العقل إذا وقع في الإثبات، ومن اللغة إذا ورد في المثبت. وعلة ذلك أنه إذا كان من شرط الإثبات أن يقيد مرتين كقولنا إثبات شيء لشيء، ولزم من ذلك عدم حصوله إلا بالجملة، أي تأليف بين حديث ومحدث عنه، ومسند ومسند إليه، فمأخذه العقل وهو القاضي فيه دون اللغة. ذلك أنه لا حكم ولا إثبات ولا نفي ولا نقض ولا تبرير للغة، في هذه الحال[١٠]. وأيا كان الأمر، فبلاغتنا توجد اليوم، إذا كنا نريد تطورها حقا، بين خيارين: فإما أن تتمسك بمصطلح «الحقيقة» فتكون -إذ ذاك- مجبرة على إيجاد مصطلح يقابلها غير مصطلح «المجاز»، وإما أن تحتفظ بمصطلح «المجاز» فتكون - حينئذ- ملزمة بالبحث عن مصطلح يناقضه فيشكل بذلك نقيضه الجدلي لغة واصطلاحا.

تستقل كل لغة بتاريخها العريق والبعيد الأصول. فلذا يتعذر على فقه اللغة في معظم الأحيان معرفة مصادر الألفاظ. ولئن اختلف اللغويون والنحاة في أصول الكلمات، فإن البلاغيين لم يتفقوا على مفهوم واحد للحقيقة. فلذا استعصى عليهم العثور على ما يناقضها فألفيناهم يستعملون عبارات «المعنى الأول»، أو «المعنى الوضعي»، أو «المعنى الحقيقي» وكأن ما يغايره معنى ثان أو غير وضعي أو زائف. ولما استشعر البلاغيون مجانبتهم الصواب المتجلي في أن للكلمة الواحدة معاني عدة وللمرجع الواحد أسماء عدة، تجاوزوا المفردات الدالة على الزيف والبهتان والكذب إلى لفظ «المجاز». ومثاله: «شوه ثعلب سمعتي لدى قيدوم الكلية». فثعلب، وإن استعمل استعمالا مجازيا، فهو يتضمن نسبة ما من الحقيقة (حيوانية الإنسان، جشعه، خبثه، كيده...). ولا يعتبر ابن حزم المجاز كذبا في قوله: احتج من منع المجاز بأن قال: «إن المجاز كذب»، والله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم يبعدان عن الكذب[١١]. فإذا كان «المجاز» لا يشكل - من وجهة نظر جدلية - نقيض «الحقيقة»، كما لا تشكل «الحقيقة» نقيض «المجاز»، فما يمكن أن يعد نقيضا للـ«مجاز»؟ للإجابة على هذا السؤال، نقترح مصطلح المَوْحَل. فهو «مصدر» من وَحَلَ، يَحِل أو يَوْحَل، أي وقع في الوحل فلم يستطع السير والتقدم وتجاوز المَوْحِل وهو مكان الوحل. هذا لغة، وأما اصطلاحا، فهو استعمال الكلمة لتحيل على مرجعها الذي سمي بها فصارت اسما له بصفة مباشرة. ولا يجرد هذا التحديد دلالتها السياقية المطابقة من دلالتها التضمنية ودلالاتها الالتزامية التي يعتبرها ج.ل. أوستان (J.L.Austin) بيانية، ويعدها أ. ديكرو (O.Ducrot) بلاغية. ففي حين يدل مصطلح «المجاز» على التجاوز والالتفات والتحول والتغيير فضلا عن التجديد والإبداع

والتحديث، يدل الموحل على التقليد والمحاكاة والثبات. فلا تأثير للمعنى الموحلي إلا بدلالاته التضمنية والالتزامية. فبهذا التأثير الأولي أضحت هذه الدلالات تداولية. والسبب في ذلك أنها تثار في ذهن السامع. فهي مماثلة في ذلك لدلالات «المجاز» و«التورية».

٢- التورية ودلالتها التداولية

لا تختلف «التورية» عن «المجاز» من حيث الغاية من استعمالها. فالغاية هي التأثير في السامع ليبدع بدوره ما يترك أثرا مشابها أو مغايرا في سامع آخر. فالتورية لغة من ورى الخبر تورية، أي أراده فأخفاه وستره وأظهر غيره. ومنه الحديث «كان إذا أراد سفرا ورى بغيره». بمعنى أنه كنى عنه موهما إرادة غيره(١٢). فإذا ورى المتكلم معنى بغيره، فيتوجب على السامع اكتشاف أو استشفاف المعنى الموري. واصطلاحا، تعني التورية ذكر كلمة مفردة بمعنيين أحدهما ظاهر وغير مراد، والثاني موري ومراد(١٣). فالتورية إذن هي إطلاق الكلمة الواحدة بمعنيين أحدهما عادي (قريب) يحيل على مرجع الكلمة المباشر وليس بالمراد، ومعنى غريب (بعيد) هو المراد. وهذا الأخير تداولي لأن استنباطه خاص بالسامع إذ هو المطالب بفهمه. والفهم بداية الحوار. يقول باختين: وإن يكن مع الذات الفاهمة، ولا يكتمل الفهم إلا في السياق الذي أدى إلى التلفظ بالعبارة أو الجملة التي تتضمن التورية. والسياق أنواع ثلاثة: السياق اللفظي التركيبي، والسياق غير اللفظي الظرفي، والسياق الحياتي العام. وللتكلم باللغة الحياتية ظاهر وباطن، باد ومتوار. ومثال التورية نسوقه على شكل حوار ذي دورين فقط.

- ألواش يد على غيره؟

- ولا راحة من وشايته!

إن كلمة «يد» في السؤال مجاز، بينما كلمة «راحة» تورية. فلو تكررت كلمة «يد» في عبارة واحدة بحيث يصير لها معنيان (معنى يدل على المرجع المباشر كالمعنى الموحلي، أي عضو الإنسان، ومعنى مجازي، أي النعمة) لكنا إزاء المشاكلة.

٣- المشاكلة ودلالتها التداولية

المشاكلة لغة المماثلة والمشابهة. فالشكل الشبه والمثل. ومن الممكن أن يتشاكل الشيئان فيشاكل أحدهما الآخر. ويقال للطفل شبه من والديه أو من أحدهما، أي شكل وأشكلة وشكلة وشاكل

ومشاكلة، والمشاكلة الموافقة.[14] ولكن البلاغيين قد اختلفوا في شأن المشاكلة. فرغم قولهم في تحديد مصطلحها، أي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه معه أو بصحبته، فمنهم من يعتبرها مجازا، ومنهم من لا يعتبرها مجازا ولا موحلا، ومنهم من يعدها واسطة بين الموحل والمجاز[15]. وحجة الفئة الثانية غياب العلاقة بين المعنيين. ولكن للمشاكلة أنواعا عدة.[16] ويجمع أحد أنواعها بين المعنى الموحلي والمعنى المجازي كأن يقول بعضهم مثلا: «مد إلي يده بعد ما كانت له علي يد». فلهذه الأخيرة دلالات تداولية كثيرة (الخير، الإحسان، النعمة...).

تقتضي التداولية من المشاكلة أن يكون قائلها السامع وسامعها القائل على دراية كبيرة بخصائص اللغة ومميزات ألفاظها ولطائف معانيها ودقائق دلالاتها، كما تقتضي منهما خبرة واسعة بتشكلات أساليبها وتغيرات صيغها وتلون تعابيرها التي تتكون من الألفاظ المختلفة والمتنوعة والمتجانسة والمتعددة. ويمكن أن تتعدد دلالات أحدها فيتحول إلى رمز.

٤- الرمز ودلالته التداولية

الرمز أصلا قسم من أقسام الكناية، وهذه الأقسام الأخرى هي التعريض والتلويح والإيماء والإشارة. ويعني الرمز لغة الإشارة إلى قريب خفية بطرف عين أو حركة معبرة... واصطلاحا هو عبارة يرد فيها مقرد يفهم منه السامع معنى مغايرا لمعناها المألوف. وهذا المعنى هو ما يكسب الرمز تداوليته. ولما كان الرمز مقاربا لباقي أقسام الكناية، فإننا نتخذه نموذجا لها في تقريب دلالاتها التداولية. وإذا كان هذا مدلول الرمز في البلاغة القديمة، فما هي مدالي‌له الأنثروبولوجية الراهنة في البلاغة الحديثة؟

«الرمز شيء أو موضوع (ملموس)، أو كائن حي يعتبر بسبب شكله وطبيعته وطابعه تمثيلا لشيء مجرد. وفي اللسانيات يقيم الرمز، ككل علامة، علاقة بين أي شكل (صورة، رسم، إلخ.) ومرجع(...) فبهذا المعنى، تنتمي العلامة اللسانية إلى فئة الرموز. ومع ذلك، يوظف مصطلح الرمز أيضا (...) للتمييز، داخل العلامات الاصطلاحية، بين ما يحتفظ منها برابط طبيعي بين الدال والمدلول، وما هو غير مبرر بصفة كلية، ويختص أولها بمصطلح الرمز (مثل: الميزان رمز العدالة). والرمز علامة، اختصار يدل بصفة اصطلاحية على مفهوم أو شيء»[17].

هل الرمز، عند الغربيين، كلمة أو مصطلح بلاغي كنائي كما هو الشأن لدينا ؟

لا يبدو على انه مصطلح بلاغي كنائي من التحديد الآنف الذكر. ومع ذلك، يقدم تودوروف (Todorov) للرمز الذي يقارن بينه وبين الأمثولة تعاريف يمتحها من كتابات الرومانسيين والمحدثين الإبداعية مثل: غوته، وشيلير (Schiller)، وشليجيل (Schlegel)، وشيلينغ (Schelling)، وكذا كانت (Kant)، وهينريك ميير (H.Meyer)، وهامبولد (Humboldt)، وكروزر (Creuzer)، وسولجير (Solger). وعليه، يحدد تودوروف الرمز بقوله: إن دلالته غير مباشرة وثانوية، وانه يوجد لذاته ولا تكتشف دلالته إلا في زمن ثان، فإشارته تأتي في المرتبة الثانية، وتمثيله ممكن وإشارته احتمالية. ويكون لطبيعة العلاقة في حالة وجود الرمز طابع أدق. ويعد ذلك عبورا من الخاص إلى العام، من الواقعي إلى المثالي. وبالضرورة، فإن الدلالة الرمزية من نوع المثال. فمن خلاله تتم، بصفة خاصة وبشفافية تقريبا، رؤية قانون عام عنه يصدر. فما هو رمزي نموذجي ونمطي.[١٨]

تكمن تداولية الرمز فيما يحدثه من آثار بالغة في متلقيه الذي يخلد إلى النجوى أو التحاور مع الغير. فدلالته الرمزية أسرع إلى الفهم من قبل الجميع. ذلك انه ينتج أثرا او دلالة من خلال ذاته فقط. فهو شيء دون أن يكون - رغم كونه إياه- شيئا. كما أنه لازم. ففي حالة الرمز، تسير اللازمية جنبا إلى جنب مع التركيبة (La synthèse). والموضوع الرمزي مؤتلف ومختلف مع/عن ذاته في الوقت نفسه. فهو صورة ويصدر عن الطبيعي. ويتم اكتشاف طبيعته الحدسية كلما كانت له علاقة غير انعكاسية مع الذهن. فالرمز ذو طابع مقتضب ومكثف.[١٩]

يتجلى الاتجاه التداولي في قول تودوروف بإيجاز معلقا على دلالة الرمز التي تفضي بالمتلقي إلى ممارسة التاويل: «في الرمز، لاتشير الصورة بذاتها إلى أن لها معنى آخر، فليس إلا (فيما بعد) أو بصفة لا واعية يتم الانقياد إلى عملية إعادة التأويل. وها نحن نمر من سيرورة الإنتاج، بواسطة العمل الأدبي نفسه، إلى سيرورة التلقي»[٢٠]. ويقوم تلقي الرمز على التأويل لأنه يحول الظاهرة إلى فكرة، والفكرة إلى صورة غير قابلة للقول للانهائية الدلالات الرمزية التي لا ينضب معينها. فالرمز حي ونشيط دوما، وما لبحر تأويله سواحل. فما يعبر عنه الرمز دائم الانفلات من قيد العقل. وأنى له الانقياد وهو صاهر الأضداد (العام والخاص، الفكري والمادي، الكينونة والدلالة)؟[٢١]. فالرمز، كالأسطورة، موجود ودال. ففيه يصير المدلول دالا. وهذا يذكر بسيميائية بورس (Peirce). فبالنسبة لمؤسس السيميائية يكون للعلامة في ذهن متلقيها مؤول

(Interprétant) يصير بدوره علامة قابلة للتأويل. فإن كان الرمز فرعا من فروع الكناية، فإن كروزر يجعل من الاستعارة أحد فروع الرمز[٢٢]. ولا تخفى العلاقة القائمة بين الاستعارة والكناية في بلاغتنا. ومصطلح «الاستعارة المكنية» دليل على هذه العلاقة. كما هو واضح، فإن للمجاز والرمز الكنائي والتورية والمشاكلة علاقة بباقي الكلمات التي تسبقها أو تلحق بها في سياق العبارة أو الجملة.

ب- المصطلح البلاغي المحدد للعبارة أو الجملة

١- الخبر ودلالاته التداولية

الخبر عند البلاغيين نبأ يحتمل الصدق والكذب باستثناء أخبار الله ورسوله. ولابد للخبر من مخبِر ومخبَر به. والعنصران الأولان من عناصره التداولية هما المخبِر به والمخبَر به، وأما العنصر الثالث فهو مطابقته للواقع أو صدقه، بينما عنصره التداولي الرابع هو كون الخبر غائيا. فثمة غايات تتصل بالمخبِر وأخرى بالمخبَر. ويتغير الخبر حسب أحوال وظروف وأغراض ومواقف كل منهما. فهو علامة على وجهة نظر المخبِر ومقصده الذي يتكيف أو لا يتكيف مع موقف المخبَر وهدفه. ودلالاته التداولية (التضمنية والالتزامية) مندمجة بدلالته المطابقة ومدركة من قبل المخبَر به. وهذه هي الدلالات التي ذكرها كلها المفكرون والفلاسفة والبلاغيون العرب مثل محمد بن عبد الله بن العربي، وأبو حامد الغزالي، وعلي بن أبي علي بن محمد الآمدي. ويقسم هذا الأخير الدلالة إلى قسمين وهما: الدلالة اللفظية وغير اللفظية. وتعتبر اللفظية بالنسبة إلى كلية المعنى الذي وضع اللفظ له أو إلى بعضه: «فالأول: دلالة المطابقة كدلالة لفظ الإنسان على معناه. والثاني: دلالة التضمن كدلالة لفظ الإنسان على ما في معناه من الحيوان، أو الناطق. والمطابقة أعم من التضمن، لجواز أن يكون المدلول بسيطا لا جزء له.

وأما غير اللفظية، فهي دلالة الالتزام، وهي أن يكون اللفظ له معنى، ولذلك المعنى له لازم من خارج، فعند فهم مدلول اللفظ من اللفظ، ينتقل الذهن من مدلول اللفظ إلى لازمه، ولو قدر عدم هذا الانتقال الذهني، لما كان ذلك اللازم مفهوما»[٢٣].

إن دلالة المطابقة سواء في الخبر أو الإنشاء أقل تداولية من دلالة التضمن ودلالات الالتزام. ذلك أن الأولى تصدر عن ملق ما لغرض معين لابد لتحققه من متلق يستشفه من خلال ما يثار في

ذهنه من دلالة تضمنية ودلالات التزامية في سياق مصاحب للكلام. فبمثارها في ذهن المتلقي اعتبرت تداولية. وترقى هذه التداولية إلى أعلى مستوياتها كلما أثر الملقي في المتلقي تأثيرا يحول ويبدل موقعيهما. وبذا يصير المتلقي ملقيا والملقي متلقيا، ويشرعان في التفاعل، ويتبادلان الكلام ويتناوبان عليه، أي يتحاوران. وهذا يعني أنهما يحترمان الأدوار ومبادئ التواصل والتحاور أو ما عرف في الفقه أو الفكر الإسلامي أو الفلسفة الإسلامية بالجدل والمناظرة والحجاج. وقد شاع ذلك في الفكر العربي المعاصر بالتداولية/الحوارية، أو التداولية/الجدلية. وفي انعدام تداول الآراء، تبقى الدلالة المطروحة (posée) بغير ما يدمج بها من دلالة مفترضة (présupposée) ودلالات مضمرة (sous-entendues). فالتداولية لا تهتم بفهم الملقي في غياب فهم المتلقي ورد فعله اللفظي و/أو غير اللفظي. فبفهم المتلقي تبتدئ النجوى أو المناجاة والاستعداد للتحاور مع الغير. فغير خاف أن الدلالة المطابقة أو المطروحة «دلالة وضعية»، بينما دلالة التضمن أو المفترضة ودلالات الالتزام أو المضمرة عقلية في نظر بعض البلاغيين. وسواء اعتبرت «الدلالة الوضعية» اجتماعية والدلالة العقلية فردية، فقد انهار صرح هذه الثنائية بجدلية الفردي والاجتماعي. والنتيجة هي أن كل دلالة وضعية وعقلية. فابن حزم يقول: «إن الاصطلاح على وضع لغة لا يكون ضرورة إلا بكلام متقدم بين المصطلحين على وضعها، أو إشارات قد اتفقوا على فهمها. وذلك الاتفاق على فهم تلك الإشارات لا يكون إلا بكلام ضرورة. ومعرفة حدود الأشياء وطبائعها التي عبر عنها بألفاظ اللغات لا تكون إلا بكلام وتفهيم. لابد من ذلك. فقد بطل الاصطلاح على ابتداء الكلام(...)

إلا أننا لا ننكر اصطلاح الناس على إحداث لغات شتى بعد أن كانت لغة واحدة وقفوا عليها، بها علموا ماهية الأشياء وكيفياتها وحدودها.. ولا ندري أي لغة هي التي وقف آدم عليه السلام عليها أولا».[٢٤]

حتى إن أريد بالوضع النطق أو الإلقاء أو الطرح أو الأصل الأول، فهذا مجهول كما يتضح ذلك من قول ابن حزم. وجهلنا إياه لا يسلبه أبداً مزية صدوره عن عقل ومنطق ونسق وسياق، فاللاعقلي عديم الفائدة، وهي أحد شروط التداولية. ويشترط الجرجاني حصول الفائدة بمراعاة العرف اللغوي والمنطق أثناء التحدث، وذلك بقوله عن الكلام المفيد: «إن الكثير منه تراه في عداد من يشترك فيه أجيال الناس ويجري به العرف»[٢٥]. ومع ذلك، يميز الجرجاني بين الاستعارات العامية والاستعارات الخاصة[٢٦] التي تعتبر تداولية لأن المبدع يتجاوز بها ما هو عامي ووضعي

وعرفي واجتماعي، أي ما هو متداول ومألوف ومبتذل بابتكاره للجديد والحديث، العجيب والغريب، الخارق والمدهش. فالمبتكر ينفعل بالأوجه البلاغية ويفعلها سواء أكانت مجازا أو استعارة أو كناية. فالبلاغة نفسها مقوم من مقومات التداولية.

٢- الكناية ودلالاتها التداولية

تختبيء دوما الدلالات التداولية خلف الدلالة الحرفية للعبارة أو الجملة، وخصوصا إذا تضمنت مجازا أو تورية أو مشاكلة أو كناية. فالملقي الذي يتفادى التصريح ويقبل على التلميح يبتدع الكناية ويراهن في الآن ذاته على ذكاء وفطنة ويقظة المتلقي وحدَّة ذهنه وسرعة فهمه لدلالات الكناية الباطنية المختفية وراء دلالتها الظاهرة. فالكناية لغة أن تتكلم بشيء وأنت تريد به غيره أو أن تتكلم بلفظ يجانبه جانبا حقيقة ومجاز[٢٧]. وفي اصطلاحها، يدمج يحيى بن حمزة دلالات الكناية البلاغية التداولية بدلالاتها البيانية التداولية، وذلك ليس لكون البيان فرعاً من فروع البلاغة فحسب، بل لأن دلالات الكناية كدلالات أي عبارة مع اختلاف من أجله ابتدع مصطلح الكناية، فهي دلالات مفترضة أو تضمنية، مضمرة أو التزامية. ويتجلى ذلك من تعريف صاحب كتاب الطراز للكناية الذي يذكر بتحديده لأقسام الدلالة: «إنها، إذا أطلقت، فالمعنيان، أعني الحقيقة والمجاز، مفهومان معا عند إطلاقها، ومثالها قولنا فلان كثير رماد القدر، فإنك قد استعملت هذه الألفاظ في معانيها الأصلية، وغرضك إفادة كونه كثير رماد القدر إفادة معنى آخر يلزمه، وهو الكرم»[٢٨].

تتراءى التداولية من خلال دمج ابن حمزة الدلالة الالتزامية (المعاني الملازمة) بالدلالة المطابقة (المعاني الأصلية). وبرغم عدم ذكره للمتلقي الذي تقع على عاتقه مسؤولية فهم المعنى الملازم للمعنى الحرفي، فقد ذكر صفة «مفهومان» ولفظ «إفادة» مرتين. والفهم والاستفادة يرجعان سوية إلى المتلقي. فالمتلقي لا غيره هو من سيُفهم ويستفيد، من المعنى السطحي الذي يطرحه الملقي، المعاني العميقة. فالكناية غائية، أي تكمن غائيتها في قصديتها وفائدتها. وكل تعبير غائي تداولي. وتتحقق تداولية الكناية بواسطة التعريض والتلويح والإيماء والرمز. ومثالها: «هذا أفعوان أرقط» كناية عمن يبث السموم بلسانه ممارسا النميمة. وللكناية علاقة بالاستعارة كما سبقت الإشارة.

٣- الاستعارة ودلالاتها التداولية

الاستعارة من حيث اللغة من أعارَ فلان الشيء من فلان وأعاره أحدهما من الآخر وأعاره

ثانيهما إياه، ومنه المعاورة والتعاور كالمداولة. ويكون التداول في الشيء بين اثنين. وتكون الاستعارة من تعور واستعار. واستعار الشيء أو استعاره منه طلب منه إعارته، أي أن يعيره إياه(٢٩).

تنطلق فئة من البلاغيين في تعريف الاستعارة من المصطلح نفسه فتقول إن الاستعارة من استعار فلان الشيء من غيره، أي اقترضه واستلفه منه فصار الشيء عارية لابد أن ترد يوما ما إلى صاحبها. فكأن الملقي يستعير من كلام غيره عبارة كانت تعبر عن معنى عادي تقريري للتعبير عن دلالات تخييلية جديدة. فالملقي يقترف من ذخيرته اللغوية ليبدع عبارة تتحقق فيها الاستعارة بضم كلمة تنتمي إلى نسق مغاير لا على سبيل تحقيق التجاور المألوف والتشكيل المنطقي أوالعقلي المتداول، بل على سبيل خرق هذا التجاور المعتاد والتشكيل المتداول. وأما الفئة الأخرى، فتنطلق في تحديد الاستعارة من أصلها، أي من التشبيه والمجاز. والجرجاني من هذه الفئة. فهو يقول عن هذا الوجه البلاغي الذي يعد علامة من علامات الإبداع التداولي :

«اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل (أي المشبه به) في الوضع اللغوي معروفا (أي في معنى بعينه)، تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم (فلو نقله نقلا لازما صار حقيقة عرفية لا استعارة) فيكون هناك كالعارية»(٣٠). (أخذ ما بين الأقواس من هامش الصفحة نفسها).

إن العناصر التداولية للاستعارة شبيهة بالعناصر التداولية للكناية. ومثال الاستعارة: «تخدع الحياة كل أناني». وأنواع الاستعارة هي: الاستعارة العنادية والوفاقية، الداخلية والخارجية، العامية والخاصية، المصرحة(التحقيقية والتخييلية) والمكنية، الأصلية والتبعية، المرشحة والمجردة والمطلقة، الحسنة والقبيحة. ولن نتعرض في هذا المجال الضيق لجميع أنواع الاستعارة بقدر ما سنفرد للاستعارة التمثيلية حيزاً خاصاً للأسباب التالية :

- كونها نموذجا لباقي أنواع الاستعارة.

- ترجحها بين كونها عبارة أو جملة، وكونها نصا قصيرا أو طويلاً.

- كونها تمهيداً للحديث عن المثل والتمثيل والأمثولة.

تكتسب الاستعارة تداوليتها من التأثير الذي تحدثه في المتلقي في سياق معين. حتى وإن

صدرت عن موقف الملقي وموقعه ووضعه الاجتماعي وانتمائه الأيديولوجي، فهي تفضي بالمتلقي إلى الوعي، والحصول على التجربة المعدلة للسلوك، والمحولة من الانفعال إلى الفعل، ومواصلة السيرورة التطورية. فبإحداث الاستعارات الفذة والمتميزة والمبتكرة تتطور اللغة ودلالاتها التداولية التراثية من خلال أساليب الاستعارة وأنواعها. وتطور اللغة علامة على تطور الحياة، والتطور مبدأ من مبادئ التداولية. والحياة المتطورة قائمة على التكالم والتحاور والتحادث والتواصل بالتعبير أو التأويل. فأحد معاني التأويل هو الإبداع والتغيير والتحوير والتحويل، وكذا الانزياح والخرق والانتهاك والخلق... وابتداع الاستعارات تداولي ومن مهام التخيل والتمثل والتصور. وينبع التصور الاستعاري من التجربة التي تتفاعل مع اللغة. وهذا التفاعل نفسه تداولي. وتبرز تداولية دلالات الاستعارة في قول جورج لايكوف (Georges Lakoff) ومارك جونسن (Mark John-son): «انتبهنا إلى أن الاستعارة حاضرة في كل مجالات حياتنا اليومية. إنها ليست مقتصرة على اللغة، بل توجد في تفكيرنا، وفي الأعمال التي نقوم بها أيضا. إن النسق التصوري العادي الذي يُسَيِّر تفكيرنا وسلوكنا(ذو)[31] طبيعة استعارية بالأساس»[32]. وتتبدى التداولية في تفاعل التفكير الاستعاري والعمل. وبعبارة أخرى، يتفاعل النظر الاستعاري بالممارسة الفعلية، كما تتمثل التداولية في تأكيد المؤلفين نفسيهما على أهمية السياق في فهم الدلالات التداولية للاستعارة. ويتضح ذلك من قولهما: «في عدد كبير من الحالات يكون السياق مهما»[33]. وفي أحد فصول كتابهما القيم الحامل لعنوان «الاستعارة والصدق والعمل» يربط المؤلفان الاستعارة بالتجربة الإنسانية والحقيقة الاجتماعية والعمل والمستقبل. وهذا لا يدع مجالا للشك في أن تداولية دلالات الاستعارة ناجمة عن ظروف معينة وأحوال محددة مثل الأزمات، مما يفضي إلى البحث عن منافذ للخروج منها. ويمكن أن يعترض أحدهم علينا بقوله إن هذا الإجراء خاص باللغة كلها لا بالاستعارة وحدها. ونرد على هذا الاعتراض بأن للاستعارة تأثيراً قويا يفتقده التعبير التقريري العادي. ذلك أنها تشخيصية وتأويلية. وتأويلية الاستعارة أوسع مجالا من تأويلية المجاز. فإذا كان المجاز يتحقق في الاسم فقط، فإن الاستعارة تتحقق في الاسم والفعل والحرف. وهذا سبب تعدد أنواعها. كما أنه إذا كان المجاز كلمة في عبارة، فإن الاستعارة عبارة في جملة، أو جملة في نص، أو نص (ثلاث جمل بسيطة أو مركبة) في نص مثل الاستعارة التمثيلية.

تبدو تداولية دلالات الاستعارة- مثلا- من «الافتراضات» التي وضعها لايكوف وجونسن

وقسماها إلى أربعة اقسام نذكر منها ثلاثة لأن الافتراض الأول تكرار للثاني. وتبدو هذه الأقسام الثلاثة على الشكل التالي:

«- يمكن ان تكون استعارة معينة الوسيلة الوحيدة لتسليط الضوء على بعض مظاهر تجربتنا وتنظيمها بشكل منسجم.

- قد تبدع الاستعارات بعض حقائقنا، وخصوصا الحقائق الاجتماعية.

- وبهذا قد ترشدنا استعارة معينة في عمل مقبل. وهذه الأعمال المقبلة ستتلق- طبعا- مع هذه الاستعارة. وهذا يدعم قوة الاستعارة في جعل التجربة منسجمة. وبهذا المعنى يمكن للاستعارات ان تكون (تنبوءات) تضمن تحققها بنفسها»[٣٤].

إن قولنا: «لنحارب النظر إلى الأشخاص لنحمي النظر إلى الأعمال» يتضمن استعارتين تشير أولاهما إلى ما هو كائن (النظر إلى الأشخاص)، بينما تشير ثانيتهما إلى ما ينبغي أن يكون (النظر إلى الأعمال). فإيجابية أو سلبية الممارسة المجسدة لمضمون الاستعارة أولى بالعناية من صواب الاستعارة أو باطلها. والعبرة- من منظور تداولي- بما بعد الاستعارة من غايات وأغراض ومقاصد، فضلا عن الانفعال والأعمال والمكاسب. فإذا أدت الاستعارة إلى تصورات واستراتيجيات وطرائق ومواثيق، فإنها تفضي- لامحالة- إلى الإنجاز والتطبيق والممارسة لتحقيق ما تم تصوره ورسمه والاتفاق عليه بواسطة هذه الاستعارة في مساقات مختلفة. وفي هذا السياق يقول المؤلفان: «في أغلب الحالات، ما فيه نظر ليس هو صدق الاستعارة او كذبها، بل الإدراكات والاستنتاجات التي تستتبع الاستعارة، والأعمال التي تقرها. ففي كل تفاصيل حياتنا اليومية، بصرف النظر عن السياسة والحب، نحدد الحقيقة من خلال الاستعارات، ونتصرف بموجبها، إننا نرسم استنتاجات، ونرمي إلى أهداف، ونقوم بتعهدات، وننفذ مخططات»[٣٥].

سنرصد الآن ووفق الخطة المرسومة في المقدمة الدلالات التداولية للاستعارة التمثيلية، وهي جملة قابلة لأن تصير مثلا، أو هي نص يطمح إلى أن يغدو أمثولة. ومثال الاستعارة التمثيلية: «لا تمشي السيارة في البحر» ودلالاتها التداولية التي يستنتجها المتلقي هي أنه لا يمكن ركوب المحال للوصول إلى المبتغى، بل لابد من العبور من الطريق الممكنة. ويمكن لهذه الاستعارة التمثيلية أن تصير مثلا. ولكننا سندرس تداولية أسلوب الالتفات قبل دراسة الدلالات التداولية للمثل.

٤- الالتفات ودلالاته التداولية

كانت الاستعارة تتنوع بتنوع أساليبها، وتكتسب تداوليتها من تواجد الملقي والمتلقي والسياق، بينما يكتسب الالتفات تداوليته من تغيير الأساليب والصيغ الزمنية والمكانية والكلمات. أضف إلى ذلك التجنيس في الكلمات والتلوين في الألفاظ والحروف لمباغتة المتلقي والتأثير فيه بنقله من قضية إلى قضية. والالتفات في اللغة أن تنظر إلى الجهة المغايرة للجهة التي كنت تنظر إليها، أي أن تصرف وجهك إليها وتلتفت إليها التفاتا. وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم يصف الالتفات: فإذا التفت، التفت جميعا، بمعنى لا تسارق النظر أو لا تلوي عنقك يمنة ويسرة كلما نظرت إلى الشيء[٣٦]. كما يعني أن تصرف الفرد أو الجماعة عن وضع أو طرف أو تقليد أو حالة أو حضارة أو ثقافة إلى غيرها. ففي القرآن الكريم، نجد هذه الآية الدالة على التحويل والنقل من اعتقاد إلى آخر وقد وردت على لسان الكفار الذين سألوا موسى عليه السلام مستنكرين الحق الذي جاء به من عند الله: «أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا...» (سورة يونس، الآية رقم ٧٨). فالالتفات من التفت، وهو مزيد من لَفَتَ لتحقيق اللازمية والمطاوعة. واصطلاحا يعني الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، ومن موضوع إلى موضوع، ومن صيغة إلى أخرى... وبهذا الصدد يقول قدامة بن جعفر: «من نعوت المعاني الالتفات، وهو أن يكون الشاعر آخذا في معنى فكأنه يعترضه إما شك فيه، أو ظن بأن رادا يرد عليه قوله، أو سائلا يسأله عن سببه، فيعود راجعا على ماقدمه، فإما أن يؤكده أو يذكر سببه أو يحل الشك فيه»[٣٧].

تكمن تداولية الالتفات، كما يتجلى ذلك من هذا التعريف، في مناجاة الملقي نفسه متسائلا ومجيبا. ومن المعلوم أن لامناجاة لاتشبه الحوار. فهي، قبل أن تصير ما هي عليه، حوار مع الغير. كما تكمن تداولية الالتفات في مراعاة الملقي للمتلقي. فهذا الأخير هو السبب الأول في لجوء الملقي إلى إحداث الالتفات في الأساليب والصيغ والضمائر والمعجم... وكما سبقت الإشارة، فإن الالتفات وجه بلاغي نابع من تجاربنا الكلامية، ومعارفنا حول أنفسنا التي ترفض التكرار الممل، وتجنح نحو التبديل والتغيير والتلوين في أساليب الكلام وصيغه وأشكاله. كما تنفر نفوسنا وأذواقنا وأحاسيسنا الجمالية المتطورة دوما من النبرة ذاتها، والنغمة نفسها، والإيقاع عينه، والقول المُعاد. هذا، وتعزف مشاعرنا عن الطرائق والأشكال والدلالات التي نحس -ونحن نتلقاها- بالرتابة المضجرة. والمتلقي هو الباعث الأول على ابتكار الملقي للالتفات، وذلك للاستجابة لأفق

انتظار المتلقي أو لتغييره، أو لإدهاشه أو مفاجأته بالانتقال من حال إلى حال، أو من معنى إلى آخر، أو من طريقة إلى أخرى. والانتقال أو التغيير أساس من أسس التداولية مثل تكييف أفعال الكلام بحسب المتلقي ومقامه. وفي هذا السياق، يقول الزمخشري: «إن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وتختص مواقعه بفوائد»[٣٨]. فبرغم ورود «فوائد» الالتفات نكرة في كلام الزمخشري، فهي تعني التأثير المفضي إلى التجديد والتحديث والتطوير في فنون القول وضروب الكلام وأنماط الحديث وأنواع الأدب القائمة على التمثيل زيادة على التقدم في الأفعال والأعمال والممارسات والمنجزات الفكرية والمادية.

يتفاعل المادي والفكري، الواقعي والأدبي مثلما تتفاعل التجربة والبلاغة. فإذا كان بعض البلاغيين يعتبرون الالتفات هو الوجه البلاغي المجسد لـ«شجاعة العربية»، فإنهم يقصدون بذلك شجاعة الملقي الذي يبدع في التعبير بما يحدثه فيه من تشكيلات رائعة من زاوية المتلقي. وجلي أن الملقي متلق والمتلقي ملق. وعليه، فإن تلقي الالتفات يلتقي بتلقي الفصل والوصل. فابن جني لا يدرج هذا الوجه البلاغي ضمن الأوجه البلاغية الأخرى التي أنحى به إلى أن يتبوأ مكانة الريادة في وضع مبحث في كتابه سماه «باب في شجاعة العربية» يقول فيه: «اعلم أن معظم ذلك إنما هو الحذف، والزيادة، والتقديم، والتأخير، والحمل على المعنى، والتحريف»[٣٩]. فلا انحراف في القول بأن «الفصل والوصل» أقرب إلى الالتفات. أو ليست إحدى أحوال الفصل أن تختلف جملتان متصلتان- مثلا- خبرا وإنشاء؟

٥- المَثَل ودلالاته التداولية

لا مرية أن المثل من الاستعارة التمثيلية. ويوكل استنباط معناه الخفي من معناه الجلي إلى المتلقي. والمَثَل عبارة أو جملة قصيرة مبتذلة لكثرة ما رددها الناس. وصيغتها لا تتغير أبدا رغم تغير السياقات التي يرد فيها باعتباره حجة ودليلا وبرهانا. فتداولية المثل أضيق مجالا كلما بدا في صورة أطروحة لا نقيض لها. فالنقيض تداولي لأنه يحقق التركيب الجدلي. والجدلية تداولية والتداولية جدلية. ويتحقق الجدلي الدينامي بالتغير الجزئي، أي بالقلب، أو بالتغيير النسبي، أي بالنقض. فالمثل السائر: «إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب» يتيح تحقيق تداوليته بالقلب فنقول: «إذا كان الصمت من فضة فالكلام من ذهب». وتتجلى تداولية المثل «الصمت حكمة» أولا

في كون قائله نفسه لم يلتزم الصمت. فلو التزم به لما عرفت هذه الحكمة ذاتها. وبالتغيير النسبي لهذا المثل، يصير متضمنا للتركيب الجدلي. وهكذا يبدو على النحو التالي: «إن في الكلام والصمت لحكمة». فالعلاقة جدلية بين الكلام والصمت. كما أن الكلام يوجد على حدود الصمت، ويقع الصمت على تخوم الكلام. وكلاهما يتضمن نقيضه. وبناء على ذلك، فكلما كان المثل جدليا، أي تركيبا جدليا للأطروحة والنقيض، كلما كانت تداوليته أرحب. بمعنى أن المثل الجدلي أبلغ برهنة وحجية واستدلالا، وأقنع للمتلقي، وأوقع في نفسه، وأشفى لغليله. ويمكن أن يوسع بذلك دائرة التمثيل (La représentation) الذي يشمل:

- المثل الجدلي وغير الجدلي.
- التمثيل البلاغي الذي يأتي على شكل نص سردي، أو سرد حواري.
- الأمثولة التي تتخذ شكل أسطورة أو حكاية أو قصة أو رواية حوارية.

«المثل يطلق على نوعين: أحدهما ما قصد به المبالغة بلفظة أفعل، كقولهم: «أشغل من ذات النحيين». والثاني كل كلام وجيز منثور أو منظوم قيل في واقعة مخصوصة تضمن معنى وحكمة، وقد تهيأ بتضمنه ذلك لأن يستشهد به في نظائر تلك الواقعة»[٤٠]. يقول ابن الأثير: والأثير عند البلاغيين، القدامى والمحدثين منهم على السواء، الجمع بين الاستعارة التمثيلية والمثل والتمثيل. فمع أن المثل من الاستعارة التمثيلية، فإنها تتميز عنه بقابليتها للتغيير. وأما المثل، إذا لم يجد له دارسا يتوسل بالجدلية منهجا في القراءة، ثبت على حال الأطروحة العديمة النقيض الجدلي. وفي هذا الاتجاه يقول أحمد الهاشمي: «إذا فشت وشاعت الاستعارة التمثيلية وكثر استعمالها، تكون مثلا لا يغير مطلقا»[٤١]. فحكم أحمد الهاشمي لا تحده النسبية لأنه توجد أمثال قابلة للتغيير. فلذا لا تداولية لكل حكم مطلق. وتكون التداولية التي يحرم منها ما لا يتغير، للوعي بعدم تغيره. ففي حين يثبت المثل أحيانا على حال واحدة، فإن الاستعارة التمثيلية قابلة للتغيير في معظم الأحوال أيضا. فلذا تشبه الاستعارة التمثيلية المثل وتختلف عنه. وبهذا الصدد يقول عبد القاهر الجرجاني: «لو كان مرادنا بالاستعارة وهو المراد بالتمثيل لوجب أن يصح إطلاقها في كل شيء يقال فيه تمثيل ومثل»[٤٢]. وليس الفرق بين الاستعارة التمثيلية والتمثيل هو كون حدها شبيها بحد المجاز، بل لكون التمثيل يتجاوز العبارة والجملة المثلية والتمثيلية التي لا تتحول إلى نص متعدد الدلالات وقابل للتغيير والتأويل. فالجرجاني يعرف التمثيل بقوله: «الأصل في كونه مثلا وتمثيلا

هو التشبيه المنتزع من مجموع أمور، والذي لا يحصل لك إلا جملة من الكلام أو أكثر»[٤٢]. ويمكن للتمثيل المزيد والمطول أن يصير أمثولة. فما الأمثولة؟

٦- الأمثولة ودلالاتها التداولية

تدل الأمثولة بصفة مباشرة دلالة أولى. وتبدو تداولية دلالاتها الثانية والالتزامية من كونها ملقاة أو متلقاة ووظيفية ونفعية ومتعدية. فهي تتجه نحو المعرفة أو الثقافة، وهي اصطلاحية واعتباطية وغير معللة وبلا قيمة معينة. كما أنها عقلانية، أي مصدرها العقل. فهي تتضمن فكرا، بمعنى أنها توظف الخاص للتعبير عن العام و/أو العكس. فبذلك تفرض التأويل. والتأويل أساسي في التداولية طالما أن المتلقي هو من يتكفل بإنجازه. فهو الذي يستنتج دلالاتها التداولية. وتبلغ دلالتها الظاهرة، باكتمالها، حد التلاشي. ومن خلال الظاهرة يتلقى المتلقي المفهوم، وعبر هذا المفهوم يستقبل الصورة. فالأمثولة تعبر عن فكر بواسطة الصور الواقعية والمادية، كما تعبر عما يغايرها الكامن وراء ما تعنيه. ولا يتلقى منها المتلقي سوى مايمكن تداوله قولا وفعلا. ذلك أنها غائية لا بنصها الأمثولي فحسب، بل بقراءتها الأمثولية كذلك. فالقراءة الأمثولية مغايرة للأمثولة ذاتها. وبصفة تأويلية، فالأمثولة تعبر بالملموس عما هو مجرد. وتستعمل الصور للتعبير عن واقعة معينة أو حدث محدد، أي أنها تستخدم المرئي للتعبير عن اللامرئي. فهي تتضمن أسطورة وتبلور صورة، أي مجازا أو استعارة، وهي استعارة مزيدة ومطولة وموسعة وملتحمة. كما أنها تتخذ شكل تركيب جدلي يجسد نفي النفي. فالأمثولة في صيرورة دائمة[٤٤] فإن كان الرمز شاملا للاستعارة وكلمة في سرد، فإن الأمثولة نص قابل للتمديد إلى حد تشكيل نوع أدبي سردي أو حواري يشبه «المثل الخرافي» (La prosopopée). فعبر الأمثولة التي توظف اللغة الدالة على الكائنات غير الإنسانية يدرك المتلقي القضايا الإنسانية (المواقف المتصارعة، المشاعر المتضاربة، الآراء المتناقضة، وجهات النظر المتعارضة) ويتخذ- من ثم - موقفه التداولي الناتج عن موقفه التأويلي. فابن حزم يحدد التأويل بقوله عنه بأنه «نقل اللفظ عما اقتضاه ظاهره(...) إلى معنى آخر»[٤٥]. والتأويل أنماط تتنوع بتنوع الأقوال والنصوص، وتتعدد بتعدد الأنواع الأدبية. ومن بين هذه الأنماط التأويلية نذكر:

- التأويل اللفظي/ المعنوي الذي يتم به تطوير الكلام باستعمال الكلمة نفسها بمعنى، وإعادتها بالمعنى ذاته لتعبر عن دلالات مغايرة للمعنى المتداول. ويتجلى ذلك بوضوح في المصطلحات البلاغية الخاصة بمفردة التعبير.

– التأويل التعبيري/ الدلالي الذي يتحقق فيه الانتقال من معنى العبارة المطابق لها إلى دلالات تداولية لتعابير مغايرة للعبارة نفسها ومعناها المطابق لها. وهو تأويل عباري أو جملي، مثلي وتمثيلي.

– التأويل النصي/الدلالي الذي فيه يقع الانتقال من دلالات النص إلى دلالات نصوص أخرى مختلفة وعميقة توحي بها الدلالات المطابقة للنص الأول. فهو تأويل تمثيلي أو أمثولي، أي أسطوري أو خرافي أو حكائي أو قصصي أو روائي أو روائي حواري.

تتعدى هذه الأنماط التأويلية الذاكرة إلى التفكير والتخييل وتجاوز الأنساق التعبيرية التي تقف دون العقل والخيال وممارسة التأويل وتحرير تصورنا الاستعاري والتمثيلي والأمثولي، وإكسابه تداولية (ذرائعية) أرحب. فإذا كانت التداولية تنحو نحو تفعيل التأثير الناتج عن تلقي اللغة البلاغية الموسعة وغيرها، فإنها لا تغفل التفعيل المتجلي في إبداع أوجه بلاغية جديدة. وبما أن المتخيل مبدع الأوجه البلاغية، فإن جيلبير دوراند (Gilbert Durand) يقول عن هذه الملكة الدينامية الابتكارية: «بعيداً عن كون الخيال من رواسب عجز ذرائعي، فإنه قد بدا لنا(...) كطابع للنزعة الأونطولوجية. وبعيدا عن كونه ظاهرة عارضة وسلبية تمثل عدمية ماض بعيد أو تأملا عبثيا له، فلقد ظهر التخيل ليس فقط كفعل يغير العالم، كخيال مبدع، بل، على الأخص، كتعبير تلطيفي للعالم، كجزاء ذهني، كتنسيق للكائن ضمن أنظمة الأفضل».[٤٦]

الحصيلة

من فضائل التداولية المدمجة في التركيبية والدليلي أنها تلفت نظرنا- بعد الملقي ومعنى ما يلقيه من الكلام- إلى المتلقي والدلالات التداولية (المفترضة والمضمرة) التي تحصل في ذهنه وفي سياق معين، وإلى الغاية العلمية والفائدة العملية والنتيجة الفعلية من إلقاء الكلام في الجدل الفوري أو الدوري. ولما تعذر علينا تناول اللغة بجميع مكوناتها، ارتأينا تقريب دلالتها التداولية من خلال بعض المصطلحات البلاغية ومعانيها اللغوية وحسب. وماذلك إلا لتجنب البحث- لضيق المقام- في كل المعاجم والكتب النحوية والنصوص المختلفة التي لا تحصى. وهكذا تعذر علينا ذكر التشبيه ومباحثه الذي يكون فيه وجه الشبه تداوليا، أي مرتبطا بفهم المتلقي. كما تعذر ذكر بعض المحسنات البديعية التي يتعلق فهمها كذلك بالمتلقي. ويعتبر ما ذكرنا، مثل المجاز والمشاكلة

والتورية والرمز فضلا عن الكناية والاستعارة والمثل فالتمثيل ثم الأمثولة، نموذجا لما لم يتأت ذكره. فالدلالات التداولية لهذه المصطلحات البلاغية تختبئ وراء معانيها الظاهرة. ولابد لها من متلق يفهمها في سياقها، ويتصرف وفق هذا الفهم.

في هذا المساق، اقترحنا ونحن نتحدث عن المجاز، ما يناقضه حق المناقضة. وذلك للاختلاف الحاصل بين البلاغيين حول مفهوم الحقيقة الذي حصل فيه تطور. فالحقيقة في نظر الفلسفة الحديثة متمنعة، ولا يمكن القبض سوى على بعض نسبها. ذلك أن الحقيقة تعقد صلة جدلية مع الباطل. وعليه، فقد اقترحنا مصطلح المُوَحِّل كمقابل للمجاز الذي لا يعني الكذب أو الباطل. وقل مثل ذلك على المشاكلة التي يكون أحد أجزاء عبارتها موحلا والثاني مجازا. فلذا تكون الدلالات المجازية دلالات تداولية. فالمتلقي هو المكلف بفهم هذه الدلالات الإيحائية. وكذا الأمر في التورية التي «يقال لها الإيهام والتوجيه والتخيير. والتورية أولى في التسمية لقربها من مطابقة المسمى، لأنه مصدر وريت الخبر تورية إذا سترته وأظهرت غيره، كأن المتكلم يجعله وراءه بحيث لا يظهر. وهي في الاصطلاح، أن يذكر المتكلم لفظا مفرداً له معنيان حقيقيان، أو حقيقة ومجازا، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد ويوري عنه بالمعنى القريب، فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك، ولأجل هذا سمي هذا النوع إيهاما»[47]. يقول ابن حجة الحموي: صحيح أن هذا التعريف شبيه بالتعاريف الموجودة في الكتب البلاغية، ولكن وراء الاستشهاد به غاية تداولية. فقد ذكر صاحبه الملقي (المتكلم)، والملقى من الكلام المتضمن للتورية، والمتلقي (السامع) المتوهم. ويمكن أن يكون المتلقي فطنا وغير متوهم لأن المعنى القريب يوجهه نحو «المعنى البعيد» فـ«يختاره» لحسنه وسحره وجماله. فهو يتيح للمتلقي التوغل إلى أبعد مدى في التأويل. وقس على ذلك الرمز الذي ينفرد بدلالات عميقة وجوهرية وشديدة الوقع على المتلقي. وبهذا الصدد يقول جيلبير دوراند: «إن الرمز لا ينتمي لميدان الأعراض، بل لميدان دلالة من نوع خاص، أي أنه يملك أكثر من معنى اصطناعي، ولكنه يمسك بقدرة أساسية وفورية على الدوي والتميز»[48].

بعد تقديم الدلالات التداولية المتميزة للمفردة التي ترد في سياقات التعبير، والتي تم تحديدها بمصطلحات خاصة بها، انتقلنا تدريجيا إلى الدلالات التداولية التي تخص العبارة أو الجملة كلها. ونقصد الخبر (لم نذكر الإنشاء الذي تظهر دلالاته التداولية بجلاء في النداء والسؤال والطلب...)، والكناية التي ترتبط بالرمز والاستعارة سواء في بلاغتنا العربية أو البلاغة الغربية.

فإذا كنا قد استعملنا عبارة «الرمز الكنائي»، فإن الغربيين يستعملون عبارة «الكناية الرمزية». فلايكوف وجونسن يقولان: الكنايات الرمزية تعد روابط حاسمة بين التجربة اليومية والأنساق الاستعارية المنسجمة التي تسم الديانات والثقافات»[49]. ويبدو المظهر التداولي في ربط المؤلفين بين هذه الأوجه البلاغية المتلاحمة والخبرة العادية. كما أبرزنا الدلالات التداولية للاستعارة التمثيلية التي تحتم على المتلقي التأويل مثل المثل والتمثيل والأمثولة. ويتم التأويل قولا أوفعلا. فلئن كان القول فعلا، فالمراد بالفعل الذي يليه، العمل اليدوي كالكتابة على الورق أو بإحداث تغيير في الأشياء بأدوات معينة. وتتضح تداولية الاستعارة من ربط المؤلفين المذكورين إياها بالعمل والزمن في قولهما: «إن ما تخفيه استعارتا المادة في العمل والزمن هو كيف يؤثر تصورا الزمن والعمل في تصورنا لوقت الفراغ فيحولانه إلى شيء يشبه كثيراً العمل»[50]. وبالإضافة إلى ذلك، عملنا على إبراز تداولية الالتفات الذي يشمل معجمه كل الألفاظ الدالة على التحويل والتغيير والتحديث. فإذا كانت العناية بالمتلقي قليلة في الأوجه البلاغية الأخرى، فإنهـا في الالتفات كثيرة. ولا نغفل الجدلية القائمة بين القلة والكثرة. فمن أجل المتلقي تتغير الأساليب والصيغ وطرائق التعبير، وكذا الضمائر ومفردات اللغة وأبنيتها إذا كان الملقي جريئا وجسورا. فالمتلقي في الالتفات ناطق صامت، بينما يستحضر الملقي سؤال هذا المتلقي فيجيب عنه. وبذا يتحقق الحجاج الذي يكون فيه المتلقي حاضرا بالقوة والملقي حاضرا بالفعل. فمراعاة لنفسية المتلقي وذوقه، تحدث التنويعات والتلوينات والتحويرات في أشكال التعبير وبناه ودلالاته. والمثل وحده هو ما لا يتغير إلا إذا قيض له متلق ذو رؤية تداولية/ جدلية للعالم بها يمارس النقد مثلا. وأما التمثيل أو الأمثولة، فهما قابلان للتمديد من قبل الملقي، بل المتلقي الذي من أجله قيل أحدهما، والذي يتكفل بفهم دلالاته التداولية وتأويلها. فبالتأويل بأنماطه اللفظية والجملية والنصية يصير التمثيل والأمثولة نوعين أدبيين قابلين بدورهما للتأويل اللانهائي واللاتناهي. ذلك أن المتلقي يفهم من الكلام ما لا يفهمه الملقي. فلذا يختلف الفهم من فرد إلى فرد. وليست الأمثولة - كالتمثيل- اعتباطية ما دامت تبتدع من أجل تحقيق غاية. وفي النهاية تختلف التمثيلات والأمثولات باختلاف الغايات الفردية والجماعية.

مفهوم الحجاج عند «بيرلمان» وتطوره في البلاغة المعاصرة

د. محمد سالم ولد محمد الأمين*

تمهيد

يتناول هذا المقال مبحثا من مباحث البلاغة المعاصرة هو الحجاج L'ARGUMENTATION، وسنتناوله اولا من منظور مدرسة «البلاغة البرهانية» ممثلة في احد روادها البارزين هو «شارل بيرلمان». لكن قبل أن نتناول الموضوع لابد من الإشارة إلى التطور الذي عرفته البحوث البلاغية في كل الثورة اللسانية الحديثة. صحيح أن البلاغة -وحتى عهد قريب- كان ينظر إليها على أنها علم قديم مرتبط بالإفراط من جهة، وبالكتب المدرسية من جهة أخرى، ولهذا التشويه سببان أحدهما سياسي والآخر تربوي.

* باحث موريتاني.

يتمثل السياسي في ارتباط البلاغة بجمهور محدد، الهدف إقناعه ببعض البرامج السياسية لا غير، ومن هنا بدأت «... تفقد وظيفتها بوصفها فنا خطابيا لتتحول إلى فن للفصاحة، أي ان وظيفتها غدت أكثر دخولا في اللغة نفسها. وهكذا إذن فقدت معناها النصي- العام وصارت فنا للمواءمة بين الموضوع والشكل، أو بين المضمون والتعبير»[1].

أما السبب التربوي فيتمثل في التبسيط الذي مورس على المادة البلاغية كي تلائم الطرح المدرسي وأفهام التلاميذ الذين يزيدون يوما بعد يوم. وقد أدى هذا التردي إلى أن أصبحت البلاغة جزءا من علوم تحسين الخط والنطق.

هذا إضافة إلى مفهومي «القاعدة والتقعيد» اللذين ارتبطا بالبلاغة، وحددا حركتها وتوظيفها. ومن هنا صارت البلاغة في نظر العديدين «معرفة متجاوزة»، وظل هذا الشعور يتوارث، حتى في أوساط الأدباء والنقاد الذين غاب عن تصورهم أنهم يستهلكون البلاغة بنهم في الوقت نفسه الذي يهجمون فيه عليها.

هذا الحضور الكثيف للبلاغة في عصرنا بمختلف وسائله التعبيرية: المكتوبة- المرئية- المسموعة... لفت النظر إلى ضرورة مراجعة التصورات القديمة عنها (أي البلاغة).

حتى إن بعض الدارسين عرف الإنسان بأنه (حيوان بلاغي) في إشارة إلى الأبعاد الاجتماعية الجديدة للبلاغة. وإذا كان تراجع البلاغة يعود في الأساس إلى اختزالها في «نظرية الصياغة» التي حصرتها في البحث عن الصور والوجوه البلاغية والزخارف والصنعة، وإجمالا في «الأسلوب»، فإن تجدد الاهتمام بالجوانب التداولية المرتبطة بـ«نظرية الحجاج» اللغوي، كشف عن جوانب عميقة من البلاغة بوصفها «تأملا في اللغة والفكر، وأنها لسانيات (ذهنية) عامة، فهي تتعلق (بكل اللغة) كما أنها (لغة الكل).»[2]، بالتالي فإن ما يحصل للبلاغة اليوم هو نوع من تجديد الجلد، وتوسيع الدائرة وفتحها كذلك، لتستوعب عديداً من العلوم المجاورة إلى درجة صارت معها عند البعض أفضل تعبير عن الحداثة.

ومن نتائج هذا التطور: ١- تحول البلاغة إلى علم مستقبلي، حيث صارت تنزع إلى أن تصبح علما واسعا للمجتمع، فهي لم تعد علما خاصا بـ«الخطاب»، وإنما صارت علما عاما (للخطابات) كافة، وهو ما يعبر عنه مصطلح البلاغة (العامة) أوالبلاغة (المعممة) كما سميت أول مرة. ٢- الانتقال من الرغبة في إنتاج الخطاب إلى دراسة خصوصياته، أي أنها قد تخلت عن نزعتها

المعيارية المتمثلة في فرض القواعد لتهتم برصد الوقائع فقط، فهي تتحول من لغة موضوع إلى لغة واصفة، وهو ما يجعلها تلتقي مع مجموعة من المصطلحات الحديثة لتحليل الخطاب، والأسلوبية، والقراءة.[3]. هذا التحول عن المعيارية في المنهج البلاغي المعاصر كان من أسباب التغير العام الذي حصل في مناهج العلوم الإنسانية بصفة عامة، والبحوث اللغوية والأسلوبية بصفة خاصة. وهو التحول الذي رافقه انقلاب جذري في العديد من الأسس المعرفية المتصلة بالنصين الفني والأدبي، حيث حلت الاختبارية محل الحتمية، والفلسفة الوجودية محل فلسفة الماهية. من هنا كان انتقال البلاغة من المعيارية إلى الوصفية، ومن القاعدة إلى الظاهرة، لا يتبع النموذج العلمي المعترف به في الدراسات الإنسانية كلها فحسب، وإنما يتبع أيضا نوعا من الضرورة المعرفية التي تتسق مع طبيعة التحول الحضاري في العصر الحديث «فلم يعد بوسع أحد أن يفرض قانونا يعتمد على ايديولوجية طبقية او تاريخية تنتهي إلى اي سلطة خارجية، وأصبح المبدعون هم المشرعون لبدائهم المجربون لقوانينهم، وكان حتما على البلاغة المعيارية أن تحتضر حينئذ»[4].

لقد تبين للدارسين المعاصرين أن إعادة قراءة البلاغة الكلاسيكية تعتبر خيارا إنسانيا أضحى ملحا نظرا إلى ما تحمله هذه البلاغة بداخل طبقاتها من ثراء وتنكر. وقد تبين أن تطعيمها بالمستجدات المنهجية في المجال اللساني خصوصا، من شأنه أن يطور الدرس البلاغي بصفة عامة، ويكشف عن العديد من خصوصياته الكلاسيكية.

ولعل من أهم التصورات التي قدمتها المنهجية اللسانية التأكيد على ضرورة اللجوء إلى «اللغة»، والإصغاء إليها، ومحاولة تفجيرها لمعرفة أبعادها وكوامنها. فبهذه الطريقة وحدها تم تجاوز مناهج الدائرة التاريخية في البحث اللغوي، والاستعاضة عنها بمناهج الدائرتين البنيوية وما بعد البنيوية.

هذه المناهج المعاصرة جعلت من اللغة الأداة والغاية في ان، دون أن تعطل هذه الثنائية الفلسفية أيا من أدوار اللغة خاصة التواصلي والتحليلي.

وقد رافق هذا التطور في الدرس اللغوي سعي حثيث إلى مراجعة جميع الأدبيات البلاغية، ومحاولة رسم خريطة جديدة للبلاغة الكلاسيكية. من هنا اعتبرت قراءة الموروث البلاغي على أنها تمثل مولد اتجاه إنساني جديد من شأنه أن يعيد ترميم أزمة الثقافة الكلاسيكية بصفة عامة، والبلاغية خاصة.

ولكن هذا القِدَم كما يقول بارت «لا يعني أنه توجد اليوم بلاغة جديدة، فالبلاغة القديمة تقابل بالأحرى هذا الجديد الذي لم ينجز بعد: إن العالم ملىء، وبشكل عجيب، بالبلاغة القديمة»[5]. أضف إلى ذلك أن البلاغة القديمة قد قدمت للنظرية الأدبية المعاصرة منظورات جديدة لدراسة الخطابين الفني والأدبي، الأمر الذي أنجب بلاغة(عامة) خاصة بالنص، ولدت في الثمانينات مرتبطة بأسباب يلخصها خ.م.ب. إيفا نكوس[6] في أربعة:

أ- نظرا لأن البلاغة، في نشأتها ذاتها، كانت تعني وجود مركب من علوم الجدل والأخلاق والشعر... إلخ، فإن البعض رأى ضرورة الإسراع في استعادة الجانب الإنساني والعالمي والشامل الذي تمثل البلاغة بالنسبة إليه (حلقة وصل مركزية) بوصفها «علما للخطابات» يهتم بإعادة قراءة الموروث البلاغي على أساس أن ذلك يمثل مولد اتجاه إنساني جديد سيبعث على الاهتمام باللغة وتركيب الخطاب.

ب- تطور الدراسات اللغوية والانتقال من لغويات اللسان إلى لغويات الكلام، وإبراز ظواهر العلاقة بين المرسل والمستقبل في إطار بحوث التداولية الجديدة.

ج- أزمة الإنتاج الرفيع في النقد والكتابة، إذ تبين أن تطور البحوث البلاغية سيحقق شمولية نقدية، بديلا عن المذاهب ذات الطابع الخاص التي سادت النقد في السبعينات.

د- نجاح البلاغة الحالي يرجع إلى الاهتمام بوسائل الإقناع التي فرضتها طبيعة المجتمع الإعلامي المعاصر. وسيتوسل هذا الترميم حتما بعديد من العلوم الإنسانية الحافة، وذلك على اعتبار أن اللغة قادرة على استيعاب الحاف بها، ثم الاستيلاء على خصائصه ليتم تحويلها إلى مكون جديد يستدعيه المقام المعين المنجب.

هذه الثورة البلاغية المعاصرة لا تزال متواصلة، لأنها تمد جذورها- كما قلنا- إلى العديد من المجالات المعرفية الحافة بها مستلهمة منها الجديد على الدوام.

فقد ارتبطت البلاغة المعاصرة، وخصوصا منها نظرية الحجاج -THÉORIE DE L'ARGU MENTATION وما تعلق بها من بحوث، بمختلف الميادين الإعلامية المعاصرة سواء منها السمعي أو البصري أو هما معا.

لذا أصبح مفهوم الإقناع مطلبا أساسيا في كل عملية فكرية معينة، سواء كانت هذه العملية

«فكرة أو مقالة أو حركة...» وهذا ما جعل هذه النظرية في استثراء متواصل، مستلهمة الجديد من كل الحقول المجاورة لها، على اعتبار أن المجتمع المعاصر أصبح «مجتمع صورة»، وبالتالي فلابد من تغيير الشكل والأسلوب والخطط الحجاجية في كل مرة تبعا لنوع المقام وطبيعة المخاطبين.

إن الدور الذي أصبحت نظرية الحجاج تلعبه، أو من المفروض أن تلعبه جعل «بيرلمان» يعتبر أن «البلاغة مطابقة لنظرية الحجاج» فقد حصر الأولى في الأخيرة. وسنوضح لاحقا معنى هذا الحصر اعتمادا على كتابه[٧] الذي ألفه بالتعاون مع زميله OLBRECHTS, TYLECA، وهو المصنف الذي سيكون محور دراستنا هذه. وذلك لأنه يعتبر في نظرنا أهم ممثل لبلاغة البرهان (الحجاج). ونحن إذ نتخذ هذا الكتاب محوراً للدراسة فإن هدفنا ليس عرضه أو ترجمته، بل إن هدفنا هو قراءة أهم أفكار هذه المدرسة البلاغية التي سبقت تاريخيا المدرستين اللاحقتين: (البنيوية والتداولية).

إن إسهام هذه النظرية الحجاجية لا يقتصر فقط على المجالات الإعلامية، وما يتعلق بها من إشهار ودعاية وتحريض وترويج...الخ، وإنما يتجاوز ذلك كله إلى المجالات التي لا يكون فيها المتكلم حاضرا بنفسه أو بصورته أمام مخاطبيه، كما هو الحال في الكتابة مثلا، إذ أثبتت التحليلات إمكانية أن يقوم الكاتب بتشكيل عناصر وصور معينة انطلاقا من وعيه بآفاق انتظار المعنيين، وهي عناصر يتم تشكلها من إمكانات المقام لتقوم في الرسالة المكتوبة مقام الحضور العياني للمتكلم.

هذا التصور يمكن أن يفسر لنا جزئيا المطابقة السالفة الذكر بين البلاغة والحجاج، لأن كل خطاب معاصر يسعى إلى تغيير وضع معين، أو تدعيم آخر، أو اتخاذ موقف تجاه قضية ما. وكل هذه الاعتبارات تتطلب خطوات خاصة من الموجه إليهم الخطاب، أي أن المتكلم ينتظر منهم حركة تنسجم مع المقاصد القولية التي أنجبها المقام.

الحجاج إذن في مفهومه العام وثيق الارتباط «بالفعل»، وقد الحت على هذا التلازم الأدبيات البلاغية الكلاسيكية. لكن البلاغة المعاصرة عمقت هذا التلازم الحتمي بين نفاذ الخطاب وحدوث التغيير بوصف هذا الأخير الدليل على حصول الاقتناع الفعلي لدى المعنيين بالخطاب المقدم. فالحجاج بحث من أجل ترجيح خيار من بين خيارات قائمة وممكنة، بهدف دفع فاعلين معينين في مقام خاص إلى القيام بأعمال إزاء الوضع الذي كان قائما.

وتعد نظرية أفعال الكلام العامة التي صاغها الفيلسوف (جون أوستن)، وتطورت على يد (جون سيرل) من أهم الطروحات التي تناولت علاقة «الفعل بالكلام». وقد انتهى أوستن في كتابه «كيف تنجز أفعالا بالألفاظ» الصادر سنة ١٩٦٢ إلى مجموعة من التمييزات سنعرض لأهمها عندما نتناول «البلاغة التداولية».

المهم أنه اعتبر كلا من بنية اللغة وبنية الفكر عبارة عن بنية واحدة. ومن ثم فاللغة عنده ليست أداة للتواصل والتخاطب فحسب «وإنما اللغة وسيلتنا للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كلية»[٨]. كما اقترح أن ينظر إلى الفعل اللغوي من ثلاث زوايا «التلفظ والنطق والخطابة. إذ يختص فعل التلفظ بمخارج الحروف المادية، ويتعلق فعل النطق بمقاصد العبارة. أما فعل الخطاب فيهتم بمقاصد المتكلم الخارجة عن العبارة، والمفهومة من السياق.. وعلى ذلك فأوستن يرجع أفعال الكلام إلى ثلاثة أنواع: فعل الكلام، وقوة فعل الكلام، ولازم فعل الكلام»[٩]. وقد كان الهدف من هذا التقسيم توضيح الفرق بين الشيء كما هو، وكما يدرك، وكما يعبر عنه.

وعلى الرغم من اندراج هذه النظرية في حقل التداولية، إلا أنها انبثقت أولا من حقل البلاغة الفلسفية التي كانت تتخذ من التراث البلاغي الغربي موضوعا لقراءتها.

بهذا المفهوم تنطلق البلاغة المعاصرة في تأسيسها لهذه النظرية من تعاضد فكرتين أساسيتين: أولاهما وجودية ظاهراتية في آن، وعمادها مقولة هيدجر التي اعتبر فيها اللغة هي الوجود، وأنها هي الماضي والحاضر والمستقبل، ففي طبقاتها يثوى كل شيء، وفي رحمها تتصارع عوامل التأثر والتأثير معاً.

أما الفكرة الثانية فهي هرمنيوطيقية تأويلية مفادها ضرورة الانطلاق من هذه اللغة المرسلة في مقام معين، ثم تفكيكها والغوص في باطنها بهدف الوصول إلى الأنساق الجامعة المؤسسة للأنسجة الداخلية للمقول من جهة، ثم التعرف على طبيعة الخيارات الأخرى التي كان من الممكن تبنيها على اعتبار الأسلوب هو ذاته ليس سوى خيار (عدول) لغوي من بين خيارات لغوية أخرى عديدة من جهة ثانية، ثم أخيرا بهدف دراسة انبناء الخطاب في علاقة مكوناته النصية العديدة بالأهداف المرسومة من قبل المتكلم (الخطيب، الكاتب..)، وعلاقة هذه الأهداف بأوضاع المعنيين بالخطاب، ولهذه الخطوة الهرمنيوطيقية الأخيرة أبعاد وروافد سيكولوجية تتلخص في السؤال عن: الكيفية التي تدفع بها الكلمات المخاطبين إلى الفعل والتغيير؟

وهذا البعد النفسي وثيق الارتباط بأبعاد أخرى اجتماعية واقتصادية وأيديولوجية وحضارية شاملة لابد من معرفتها معرفة دقيقة في أبعادها الزمنية الثلاثة سواء بالنسبة للخطيب (الكاتب)، أو بالنسبة للمحلل النقدي.

ونحن في هذا الجزء من البحث سنقتصر على تناول «البلاغة الحجاجية»[١٠] متطرقين إلى معالمها التي شكلتها المدرسة البلجيكية. أما في الجزء الثاني فسنتناول كلا من البلاغة البنيوية والبلاغة التداولية لنرى الإضافات التي قدمتها كل منهما إلى نظرية الحجاج وأطره الحافة متناولين أخيرا إفادة البلاغة العربية المعاصرة وبحوث النص من هذه التيارات الثلاثة. ولما كانت مساحة البحث الحالية لا تسمح بتناول المدرستين الأخيرتين فإننا سنشير إلى أهم ملامحهما في هذه الدراسة متطرقين إلى أهم ما يمكن أن تستفيده بلاغتنا العربية من هذه التصورات على أمل أن نقوم بتوسيع ذلك لاحقا.

I - البلاغة الحجاجية Rhetorique Argumentative

تمهيد: تعتبر نظرية الحجاج التي طورها «بيرلمان» مع زميله «تتليكا» من أهم الطروح المنبثقة من ما يعرف اليوم ببحوث البلاغة المعاصرة، وهي بحوث تهتم أساسا بأساليب إجراء اللغة، وتنويعات الخطاب ومقاماته، وطبائع الناس المعنيين بكل مقول معين. وقد فرض هذا الاهتمام المتنوع على أصحاب نظرية الحجاج التوسل في بحوثهم النظرية والتطبيقية بعديد من الآليات المستمدة من حقول معرفية مجاورة للبلاغة واللغة، لذا كان لمفهوم «التداخل المعرفي» inter-disciplinarité دور أساسي في هذه النظرية، لأن أي إقناع يتوسل حتما بآليات متعددة يتفاوت إدراكها والوعي بها من قبل المعنيين. بل قد يستعين المتكلم بعناصر يعلمها المخاطبون لكنهم لا يتوقعون حضورها في مقامهم الخاص. من هنا كان نفاذ الخطاب مرتبطا بتوصل المتكلم إلى إقامة علاقات عميقة ورهيفة بين آليات وعناصر لم يكن من المتوقع حصول تلك العلاقات بينها، وبالتالي فعناصر المفاجأة الطريفة تعد من أبرز الخطط الحجاجية في مجالي الملفوظ والمكتوب على السواء. فالحذق في توظيف الآليات التواصلية واستغلالها بالطرق التي لم تكن معهودة يعد أمراً مهماً به تتجلى براعة مرسل الخطاب.

كل هذه التقنيات الجديدة في علاقة المتكلمين بالمخاطبين وبالمقام تعد من نتائج توسل البلاغة

بالبحوث اللسانية التي اثبتت أن اللغة ليست أداة للتواصل فحسب إذ فيها تثوى ابعاد الوجود وحقائقه. كما أنها أقدر على استيعاب المناهج الإمبيريقية والاستفادة من بحوثها التقنية في التعبير عن الراهن وربطه بالسالف واللاحق في آن. فلقد أثبت لنا تاريخ اللغة انها الأداة الأولى في تغيير العالم وتحوير السلوك البشري، كما أكد التطور البلاغي المعاصر هذه الرؤية، عندما أصبحت «بلاغة الخطاب» هي تأشيرة المرور إلى دوائر القراءة المثلى مهما كان نوع النص أو جنسه.

لكن قبل التطرق إلى ملامح الحجاج لابد من الإشارة ولو قليلا إلى تعريف البلاغة في الدوائر النقدية المعاصرة، على اعتبار أن ذلك يعد توطئة منهجية لابد منها.

فنحن إن نظرنا إلى البلاغة من وجهة النظر الكلاسيكية وجدنا أن لها سبعة ملامح أساسية هي «١- الإقناع، أي إبداء الاتفاق. ٢- الإعجاب، الإغراء، أو التلاعب والتبرير (تبرير وتلاعب بالأفكار قصد تمريرها مهما كان الثمن). ٣- تمرير الرأي أو ما هو رأي محتمل بحجج متينة. ٤- اقتراح الضمني من خلال الصريح. ٥- تأسيس المعنى المجازي على المعنى الظاهري. ٦- استعمال اللغة المجازية والأسلوبية والأدبية. ٧- اكتشاف نوايا المتكلم أو الكاتب ومنحها حجمها اللائق بها».[١١] لكن التطور الذي حصل في مناهج الدرس اللغوي، وما أسفر عنه من انتشار للبلاغة في مختلف أوجه حياتنا، جعل الدارسين يراجعون جميع الملامح المذكورة للبلاغة ويطورونها بما يلائم راهن الخطابات والنصوص، ومن أهم ما تتقاطع فيه هذه الدراسات المعاصرة هو اعتبارها «البلاغة دراسة للخطاب ولتقنيات الإقناع والتلاعب بالذوات. ولتحقيق هذه الأغراض لابد لها من حجاج. ذلك أن الأقسام الأربعة للبلاغة هي الخطوات الأساسية في تحقيق ذلك النجاح. فالقسم الأول يتعلق بمعالجة السؤال Invention، والثاني بعرضه Disposition، ثم الثالث ببسطه وعرضه عبر الكلام والحديث Élocution، وأخيراً الفعل أو الحركات. وتتمفصل هذه الأقسام على: طرح السؤال، سرده، بنائه، حججه، ومطابقتها مع السؤال»[١٢].

أضف إلى ذلك أن ثمة تعريفات أخرى تنطلق من حقول نوعية معينة، كأن تهمل علاقة البلاغة بالإقناع وبالحجاج معا، أو أن تعتبرها دراسة للعناصر الأدبية والشعرية في الخطاب، أو كامنة في الآليات الفنية التي يتوسل بها المتكلم (خطيبا، كاتبا) إلى تمرير خطابه، وإكسابه النقاتية المرجوة و«الفعل» المتوقع.

لكن أصحاب هذا الطرح يواجهون في النهاية مشكلا كبيرا يتمثل في طغيان الجوانب البراجماتية- بالمعنى النفعي لا التداولي- السلبية على الخطاب. الشيء الذي يجعل لزاما على المتبني لهذه الرؤية التضحية ببعض أهدافه القولية على حساب الفهم والاستيعاب، وهو أمر سينجم عنه حتما تشويه للرسالة المراد توصيلها.

أما الأستاذ بيرلمان فإنه يطابق بين البلاغة والحجاج، معتبرا أن كل المكونات الأسلوبية الموجودة في رسالة ما (مكتوبة أو مقروءة، أو مشاهدة أو حتى إشارية) هي عبارة عن مستويات معينة من مستويات الحجاج، بما في ذلك التضمين والشواهد والأمثلة، حتى السخرية والمفارقة فهي عبارة عن «... حجة في ذاتها وكذلك الاستعارة. إنها استدلال قائم على المقايسة المكثفة... وبالمثل فالبلاغة لم تعد لباسا خارجيا للحجاج، بل إنها لتنتمي إلى بنيته الخاصة»[١٣].

أولا: ملامح الحجاج وآلياته عند بيرلمان

يتميز الحجاج في تصور بيرلمان بخمسة ملامح رئيسية: «١- أن يتوجه إلى مستمع. ٢- أن يعبر عنه بلغة طبيعية. ٣- مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية. ٤- لا يفتقر تقدمه- تناميه- إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة. ٥- ليست نتائجه ملزمة»[١٤].

فهو إذن عبارة عن تصور معين لقراءة الواقع اعتمادا على بعض المعطيات الخاصة بكل من المحاجج والمقام الذي ينجب هذا الخطاب، بالتالي فالحجاج عرضة للتغير والتحوير في بنائه وأنساقه التي يقوم عليها، وذلك تبعا لتغير المقام وتغير ظروف المحاجج حتى وإن ظل موضوع النقاش هو ذاته.

إن مجال الحجاج في نظر بيرلمان يتعلق أساسا «بالبحث في المماثل والمعقول والمحتمل، وذلك في حال ما إذا كان هذا الأخير يفلت من كل الحسابات الحتمية»[١٥]. أو على الأصح من كل التوقعات الراجحة.

لذا فإن إقامة نظرية فلسفية للحجاج مرتهنة بكون المواضيع المطروقة والمدروسة غير بديهية، أي تتطلب إقامة الدليل عليها جهدا عقليا، ومن ناحية ثانية على المعني بهذا الحجاج أن يكون مؤهلا لاستيعاب هذا الطرح ثم تنميته، لأن هذا السامع هو السبب الفعلي الذي لولاه لما كان «حجاج» أصلا. فهو يساهم بصفة فعلية في تشكيل المعالم الكبرى للمادة الحجاجية المقدمة من

قبل الخطيب (أو أي متكلم يحمل رسالة يتوقف إنجازها على الآخرين). وتعد هذه النقطة بالذات من بين النقاط الجوهرية التي لفتت البلاغة المعاصرة إليها النظر، حيث تلقفتها عنها نظريات القراءة والتأويل، ثم طورتها كل مدرسة بعد ذلك بما يلائم فروضها النظرية. فالاهتمام بالسامع (المعني بالخطاب) في البلاغتين الكلاسيكية والمعاصرة قد لفت مناهج النقد المعاصرة إلى ضرورة الاهتمام بدور «القارىء» في إعادة كل من الكتابة والإنتاج، مما جعله يصير محور النظرية النقدية المعاصرة.

ومن أهم من لفت النظر إلى الدور الحضوري للقارىء في النص قبل الإنجاز وبعده نذكر (إيكو) الذي رأى أن النص- الملقى والمكتوب -إن هو إلا نتاج يرتبط مصيره التأويلي (أوالتعبيري) بآلية تكوينه ارتباطا لازما. فأن يكون المرء نصا يعني أن يضع حيز الفعل استراتيجية ناجزة تأخذ في اعتبارها توقعات حركة الآخر... وبالتالي فإن النص إذ يحيل إلى قراء(أو سامعين) لم يكن يفترض وجودهم ولا ساهم في إنتاجهم، يصير عصيا على القراءة (أكثر مما هو عليه) أو يصير نصا آخر مختلفا»[١٦].

وسنوضح هذه النقطة أكثر عند تناولنا لدور «المتلقي» من منظور البلاغة التداولية.

إن المتكلم (وكذا الكاتب) مطالب بأن يعي مقامات مخاطبيه ومستوياتهم المختلفة، الاجتماعي منها والفكري والسياسي... لكن «بيرلمان» يؤكد في بداية طرحه أن دراسته تهتم أساسا «ببنية الحجاج، وأنها لا تركز على الطريقة التي يتم بها التواصل مع المجتمع»[١٧]. من هنا كانت هذه النظرية الفلسفية الحجاجية التي يهتم بها كتاب «مبحث في الحجاج» تصوراً ينظر لأنواع البراهين والحجج المتنوعة بحسب المقامات والسامعين المعنيين، كما أنها تقدم تصورا عميقا لمستويات حضور الكاتب في مكتوبه، ودرجات ذلك الحضور بوصفه حركة حجاجية يقصد بها مخاطب آخر ليس حاضرا بالفعل لحظة الكتابة، لكن جميع أبعاده متصورة من لدن المؤلف، أو هكذا ينبغي أن تكون. وبالتالي فهذا الكتاب يعمق فكرة «المستمعين» الواردة في البلاغة الكلاسيكية، لكنه يركز على (غيابهم) المادي فقط، لأن هذا الغياب سيعمل على تمحيص الخطاب لتنمية الحجاج بعيدا عن وسائل الضغط والمصالح الآنية والتحريض.

بهذا التوجه يؤكد بيرلمان أن تصوره نابع من «المعاصرة». فهو يحاول دراسة كل أنواع البراهين والحجج التي يمكن إقامتها سواء أمام المعنيين (المشاهدين) مهما كانت طبيعة هؤلاء

(حزب معارضة- هيئة قضائية - حملة دعائية- مناصرين- إشهار تلفزي- جماعة دينية...) أو بالدرجة الأولى أمام القراء، أي في المصنفات الكتابية (الروايات، المسرحيات، الخطب المرسلة...). ومن هنا يكمن ثراء النظرية خصوصا إذا ما تم تطعيمها ببعض المعطيات السيميولوجية والهرمنيوطيقية المعاصرة. فمن شأن ذلك أن ينير لنا سبلا عدة من أنواع استغلال الفضاء الكتابي وتوظيف الآليات اللغوية في التعبير عن جدليتي الحضور والغياب (الخفاء والتجلي).

وإن أمرا كهذا لكفيل بإمدادنا بمناهج للتعامل مع نصوصنا المعاصرة التي لاتزال التقاليد الشفوية راسخة فيها رغم تقدمنا أشواطا في عصور الكتابة، هذا فضلا عما سيمدنا به من آليات لدراسة تراثنا الأدبي القديم، ولاسيما الرسائل الشعرية التي كان من أهم عوامل خلق الدلالة فيها توظيف جميع عناصر الحضور والغياب، وإعادة قراءة المكتوبات المرسلة، وتحليل جل شفراتها النصية، على اعتبار أن تلك المكونات والوحدات هي التي ستشكل سدى النص الجديد.

لكن لابد من التنبيه إلى أن نظرية «بيرلمان» أو على الأصح التصور الذي حاول تقديمه في كتابه هذا لا يولي اهتماماً كبيراً لآليات التواصل اللغوي المباشر والمألوف، أي ذلك التواصل الذي يدور في إطار البديهي والمعتاد، ولكنه يهتم بالأحرى بمظاهر جديدة من التواصل والتجاوب (في المكتوب والمنطوق والإشاري)، يكون فيها الهدف تأسيس بناء فكري عميق تندمج فيه أبعاد المتكلم والسامع والمقام معا بحيث يحمل المنتج الجديد الخصائص الجوهرية لهذه المكونات الثلاثة.

وبالتالي فعلى العملية النقدية اللاحقة في تعاملها مع هذه النصوص المنجبة أن تصغي جيداً إلى حوار هذه الأبعاد الثلاثة ثم تحاول ترجمته، وتكميلها، أي النصوص، انطلاقا من أبعادها الجديدة هي الأخرى.

ولئن كان لبلاغة المكتوب وجود فعلي في هذا الطرح البيرلماني، إلا أن الاهتمام الفعلي ظل مركزا على ما يمكن أن نسميه «نفاذية الخطاب»، أي التقنيات المعرفية الفكرية، وكذا الاجتماعية التي يسعى من خلالها إلى تمرير الخطاب واجتيازه الأطر القولية والسمعية إلى الفعل والحدث والتغيير. ولأن بلاغة المكتوب تتطلب استثمارا وتحليلا للآليات الجوهرية والعناصر البنيوية الرئيسية في النص المحاور، وحوارا من خلاله يتم تعويض الغياب وملء المقام بمكونات المقام الأول «المحفّز» الذي تحمل النصوص المبعوثة في الغالب أهم مكوناته وخصائصه. لكن أيضا ننبه إلى أن الاهتداء إلى تلك «النصية» التي منها تتناسل الدلالة يتطلب معرفة معمقة بآليات التأويل من

جهة، وبأدبيات النوع من جهة ثانية. فإن نفاذية الخطاب المتحدث عنها إنما تتأكد بحصول الفعل المنجز الذي هو لازم فعل الكلام.

ونشير إلى أن مفهوم «لازم فعل الكلام» Perlocution مستحدث من قبل «أوستين» في تصوره الذي قدمه تحت عنوان «نظرية أفعال الكلام العامة»[١٨]، حيث اعتبر هذا المفهوم دالا على مقاصد المتكلم الخارجة عن «العبارة» والمفهومة من السياق. بيد أننا هنا سنستخدم «الفعل» و«لازمه» بمعناهما «اللغوي»، على اعتبار أن معنى «الفعل» في اللغة العربية ليس اعتباطيا، بل يؤكد دور اللغة في تغيير العالم وتحوير السلوك.

أما هذه الأفعال المطلوب إنجازها من المعنيين بالخطاب فلابد أن يتم التعبير عنها بطرق حجاجية تراعى فيها خصائص مقامية معينة، لعل أهمها وعي المتكلم بأحوال مخاطبيه ومقاماتهم الفعلية والمتوقعة. وهذه أمور سبق أن أكدت عليها أدبيات البلاغة الكلاسيكية العربية في مواطن متعددة، حيث إنهم صنفوا أنواع المخاطبين، وخصصوا لكل منهم مستوى خطابيا معينا: فما يحق في خطاب الصديق أو النديم غير لائق بخطاب الملك، أو المطموع فيه، أو المتخوف منه، وخطاب السلم غير خطاب الحرب... إلخ، هذا فضلا عن حديثهم المفصل حول مقامات الكلام وظروفه المحفّزة لكل قسم من أقسامه. وقد عبر عن ذلك صراحة السكاكي بقوله: «لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، كذا مقام الكلام ابتداء يباين مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار... وكذا مقام الكلام مع الذكي يباين مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر»[١٩].

وبيرلمان نفسه لم تفته هذه الملاحظة: فعلى الخطيب، في نظره، إذا أراد أن يكون خطابه منسجما مع مستوى مخاطبيه أن يفهم أولا المقام المتكلم فيه، ثم أحوال السامعين ومستوياتهم المعرفية والإدراكية، لأن بناء الحجاج مرتبط أساسا بتنوع المعنيين به، فهم المقصودون بفحواه، المطالبون بإنجاز محمولاته، المشاركون في صياغته وإخراجه: وبالتالي «فلكي يستمد هذا الخطاب نفاذه المطلوب عليه أن يضع في الحسبان مستوى العقول التي يهدف إلى إقناعها، ثم نوعيتها»[٢٠]. الاهتمام هنا إذن مركز على الجوانب الاستدلالية البرهانية التي تعمل على انسجام العقول وتعاضدها مع الطرح المقدم بعد استجابتها له. ومعلوم أن هذه الاستجابة المرجوة إنما يتم البحث عنها في الأمور غير الجلية التي يتطلب الإفصاح عنها جهدا فكريا وثراء معرفيا متنوعا.

لذا فلا يركز في الحجاج (إلقاء وتحليلا وكتابة...) إلا على الأمور الداخلة في بنيته الموصلة إلى الإقناع: فالأمثلة الجاهزة والجمل الوعظية أو الإرشادية وغيرها لا يتم التطرق إليها إلا إذا كانت داخلة في بنية قولية خطابية، وتؤدي هدفا في خطة حجاجية معينة.

وإضافة إلى البنى القولية الداخلة في صميم الحجاج ثمة أمور أخرى غير لغوية، لكنها داخلة هي الأخرى في نسقه وبنيته، من أهمها ما عرف عند المنظرين القدماء «بشكل الهيئة» التي يكون عليها المتكلم. أي كل الأمور الداخلة في تحديد مظهره الخارجي. وهي أمور يسميها بيرلمان (تكييف المخاطب) Le conditionnement de l'oditoire أي «توضيبه» بصفة غير مباشرة بفعل الشكل، وما يلحقه من متعلقات، على الخطيب الحرص والمهارة في تشكيلها وإعدادها على نمط مدروس ملائم للمقام.

وقد أدى اهتمام نظرية الحجاج بهذه الأمور الخارجية إلى فتح النظرية على الجوانب النفسية لما لها من أدوار فاعلة في إيصال الفرضيات، وفي التهيئة للاقتناع بها، والدفع إلى تطبيقها عمليا. فصياغة الحجة، والطريقة التي تطرح بها، ثم علاقاتها بنظيراتها من الحجج الداخلة معها في الحوار- على سبيل الانسجام أو الصراع- كل ذلك إنما يتم تحضيره انطلاقا من وعي نفسي بأحوال المعنيين من جهة، وبمجموع الشروط الخارجية المؤطرة لعملية إنتاج الخطاب من جهة ثانية. سواء كانت هذه الشروط خاصة بالمخاطب وظروفه في لحظة محددة معروفة من لدن الخطيب (أو الكاتب)، أو كانت خاصة بالإطار السوسيوثقافي المشترك بين المجموعة البشرية الواحدة على اعتبار أن هذا الإطار هو المعني بتحليل «.. طبيعة العلاقة الموجودة بين أنماط الإنتاج الفكري، ومعطيات البنية الاجتماعية، وتحديد وظائف هذا الإنتاج»[٢١]. الشروط الأولى داخلة فيما يسمى بالمقام الخطابي أو الخاص. أما الشروط الثانية فتسمى «مقاما عاما»، وذلك بوصفها مشتركة بين الخطابة والشعر.

ولعل هذا التعاضد الازدواجي هو سر «وجود بلاغتين متمايزتين ومتكاملتين في تراثنا العربي هما: بلاغة الخطابة وبلاغة الشعر»[٢٢] حيث بلاغة الخطابة قائمة على البيان الذي سعى الجاحظ إلى تحديد معالمه في بيانه وتبيينه، أما بلاغة الشعر فقائمة على تفتيق البديع أساسا، وإعطاء الصنعة والتنميق دورهما على حساب العديد من الآليات القولية. وستضاف إليهما لاحقا بلاغة «مقاصدية» يمكن أن نسميها (تداولية)، وأساسها «المعاني».

ونحن إن نظرنا إلى الفروق بين هذه المستويات الثلاثة من بلاغة الخطاب في تراثنا العربي سنجد أن كلا منهم كان له خصائصه المقامية والمنهجية، وظروف نشأته الذاتية.

فبلاغة الخطابة قائمة على «علم البيان» الذي أرسى الجاحظ دعائمه في فترة كانت فيها الجدالات الكلامية، والبحث عن «الدليل» من القرآن والسنة والمحاورات والنقاشات، محتدمة بين الفرق الإسلامية، التي يسعى كل منها إلى إنتاج (خطاب) تكون «بلاغته» كفيلة بكسب أكبر عدد من المؤيدين. لذا فلا غرو أن نجد الجاحظ يطابق بين المعنيين «الخطابي والبلاغي» (تماما مثل مطابقة بيرلمان بين البلاغة والحجاج)، ويهتم بوسائل الإقناع الشكلية والمضمونية (على مستويي الهيئة والخطاب). لذلك اهتم بالمقام وبمحدداته وإمكاناته، هذا علاوة على تركيزه على الجوانب البراجماتية «فالمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال»[٢٣].

أما بلاغة الشعر فتقوم على «علم البديع» وذلك ما أبان عنه ابن المعتز، الذي لم يهتم بالمقام، ولا بأقدار السامعين هذا إضافة على تأكيده أنه لم يجد في النثر أمثلة بديعية، لأنها من شأن لغة الشعر القائمة على الخرق والانزياح وعدم مراعاة «الخطية» في الفهم. وبالتالي فإن البلاغة الأولى تكرس النظرية الحوارية التي تسعى إلى كسب الآخر، في حين ترتبط البلاغة الشعرية بالصراع بين القدماء والمحدثين حول الإبداع وتوظيف اللغة. هذا في حين تقوم بلاغة «المقاصد» على علم «المعاني» الذي بلوره السكاكي في مفتاحه. وبهذه البلاغة أعيد الاعتبار للبيان على حساب البديع، واهتُم «بالمقام» وإمكاناته ومكوناته. وقد قدم السكاكي في تلك الفترة تصوراً عميقاً لما سيسمى لاحقاً «التداولية»، وذلك من خلال اهتمامه بشروط التواصل. ومن مظاهر ذلك تقسيمه للخبر بحسب مقامات المعنيين بالكلام، وهي التقسيمات التي كانت محورا أساسيا من نظرية أفعال الكلام المعاصرة عند (أوستين) وزملائه.

ونحن هنا إذ نشير إلى البلاغة العربية الكلاسيكية فإنما ذلك بقصد الإلماع إلى أن تراثنا البلاغي قد أشار في دقة وطرافة إلى العديد من التقنيات الخطابية والنصية الجديرة بالدراسة والتحليل، قبل أن ننظر في ضرورة تجاوزها أو توسيعها. ولئن أشار الدرسان اللساني والبلاغي المعاصران إلى العديد من هذه الآليات المذكورة قديما فإن مدار التميز كان في ربط الطرح الجديد

بالفروع المعرفية المعاصرة الحافة باللغة خاصة فيما يتعلق ببلاغة الصورة، لأن التداخل المعرفي أضحى السمة اللازمة للمعرفة الراهنة بعد أن أصبح العالم يعيش مفهوم «القرية الكونية» المتداخلة إعلاميا وثقافيا وتقنيا.

هذا التداخل الرهيب والتواشج أثرا بصفة بالغة على مفهوم المقام، حيث إن الخطيب صار ملزما بأن يكون أكثر دراية من غيره بالعديد من الآليات والمعارف وطرق إجراء القول في مختلف الظروف وأمام تغير المخاطبين، هذا علاوة على ما يلزمه من ذكاء وفطنة.

ثانيا: التهيئة للإقناع من خلال الشكل والموقع (الخطاب- المتكلم)

هذه الآفاق التي فتحتها البلاغة المعاصرة ساعدت على تناول العديد من الأسئلة الكلاسيكية المتعلقة بالإقناع ووسائله الخارجية. وبيرلمان إذ يتناول هذه الأسئلة يربطها بعديد من الحقول المعرفية: القانونية والأدبية واللسانية والتاريخية.

ولكي يحدد حقل دراسته في مبحث الحجاج يقوم بالتمييز بين طبقتين كبيرتين من الخطابات. أولهما الخطاب الفلسفي الذي يفترض مخاطبا كونيا، وبالتالي فهو خطاب يركز على الحس المشترك والحدس والوضوح والبداهة بوصفها قيما أساسية لبلورة هذا النوع من المقول، لذا كان الهدف من هذا الخطاب هو الاقتناع Conviction. أما الخطاب الموجه إلى مخاطبين محددين فهوالخطاب العلمي الخاص، بوصفه يفترض مجموعة من المبادئ، والأمور المشتركة بين مختصين في حقل معين أو مجموعة تشترك في العديد من القواسم المتحدة، وبالتالي كان الهدف من هذا الخطاب هو الإقناع Persuasion، وقد اعتمدنا في هذا التمييز بين المفهومين على ما اقترحه أستاذنا محمد العمري في مقاله المحال إليه آنفا في مجلة سيميائيات.

من هنا يكون الإقناع هو مجال المبحث الحجاجي نظرا إلى كونه محدد المقام والمخاطب والإطار القولي. أما أهم وظيفة حجاجية في هذا المجال، بعد الإعداد لقبول الأطروحة أو الفرضية فهي الدفع إلى الفعل: وهي خطوة تتطلب وعيا محكما بالوسائل والآليات التي من شأنها، إذا ما أدرجت باعتدال في الخطاب، أن تحرك المعنيين بالكلام صوب الفعل والتغيير، بما ينسجم مع المقام، وتتطلبه مقاصد النص وطموحات الخطيب (المتكلم أو الكاتب...) بوصفه مفكراً حاملا لرؤية معينة يسعى إلى إرسائها، أو جعلها راجحة في واجهة حجج أخرى مناوئة. هذا الهدف يتطلب قدراً من الوضوح في الأسلوب، ومستوى ملموسا من التواضع والاحترام لشخص المخاطب.

فالغموض والإكراه (القسر) من أشد الأمور تنفيرا للمخاطبين، وبالتالي فهي تعوق كل السبل المبذولة لنفاذ الخطاب ووصوله. من هنا يربط بيرلمان البنية الحجاجية Structure argumentative ببعض الأمور اللازمة لنفاذ الخطاب L'exécution du discours، ومن أهمها الوضوح غير المسف، وعدم التكبر والتحذلق، ثم التمكن من ناصية اللغة، وحذق ثقافة المخاطبين، والوعي بأهم ما يعتمل في مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية من أمور ملحة وجديرة بالمعرفة. كما أن على الخطيب أن يكون على علم بطرق إجراء المعنيين للهجتهم، وأساليبهم في تكوين الصور، وتمثل الأمور شديدة المساس بمختلف جوانب حياتهم. إلى آخر ذلك من العوامل الاجتماعية المساعدة على نفاذ الخطاب.

إننا عندما نتقدم في «مبحث الحجاج» نجد أنه يولي اهتماما خاصا لعلاقة البرهنة بالأطر النفسية Les cadres psychologiques، فطرق الصياغة للفرضيات، وما يحف بها، ثم أساليب الدفع إلى الفعل، كلها في جوهرها أمور نفسية، منها ما يتعلق بعلم النفس الفردي، ومنها ما يدخل ضمن ما يسمى بعلم النفس الجماعي، أي الأطر النفسية العامة الداخلة في صميم سلوك مجموعة بشرية معينة تشترك في جل المقومات الوجودية: جغرافيا وحضاريا وتاريخيا وإيديولوجيا...

وبالتالي «فليس الحجاج في النهاية سوى دراسة لطبيعة العقول، ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها، والإصغاء إليها، ثم محاولة حيازة انسجامها الإيجابي L'adhésion Positive والتحامها مع الطرح المقدم. فإذا لم توضع هذه الأمور النفسية والاجتماعية في الحسبان فإن الحجاج يكون بلا غاية وبلا تأثير»[٢٤].

إن حصول الإقناع في النهاية ليس سوى انبثاق لضوء فكري معين من بين ركام الفرضيات المطروحة، وهذا النقاش قد يكون صريحا عند اتخاذ مواقف علنية معينة، وقد يكون ضمنيا عندما يجرد المتكلم (خطيبا أو كاتبا) من نفسه محاججا (محاورا) خاصا يتناول معه هموم المخاطبين، ويساعده على تبين هفوات الطرح، وأماكن الضعف فيه، كي لا يقع في بعض العيوب الخطابية أو الكتابية التي تدخل التناقض والتفكك إلى النصوص.

فالمخاطب المتخيل هو دائما بالنسبة لمن يحاجج عبارة عن «بنية ممنهجة»[٢٥] نوعا ما، أي أنه يؤطر القول، ويجعله ملائما لظروفه الوارد فيها.

والمتكلم البارع هو الذي يستحوذ- حذقا وطواعية- على مدارك المعنيين بخطابه أو بنصه طيلة فترة الاستماع في حالة الإلقاء (أو النظر التحليلي حالة القراءة).

ونعني بالمخاطب هنا الغالبية العظمى من الجمهور، لأن التوصل إلى خطاب يتقاطع الجميع في كل محتوياته أمر بالغ الصعوبة، إذ لابد من بعض الحالات الخارجة على النسق العام والتوجهات الأساسية للمجموعة، وبالتالي فالنتائج في هذا الحقل- وغيره من العلوم الإنسانية- إنما تبنى انطلاقا من الغالب لا المطلق.

ويؤكد هذا بناء الحجاج ذاته، فالمتكلم لا يعرض أمورا مسلما بها، أو أمورا بديهية لا تستدعي نقاشا، وإنما يقدم أمورا احتمالية متوارية خلف سدف معينة، عليه هو اعتمادا على بلاغته الخاصة أن يحيلها فرضيات راجحة على غيرها.

هذا المحاور المتوهم الذي قلنا إن على الخطيب تجريده من نفسه، أو من المقام، يعد خطة منهجية ضرورية من صنع الخطيب ذاته، وبالتالي يمكننا القول إنه داخل في إطار العلاقة بين الجوانب النفسية البحتة والأطر الحجاجية.

والمتكلم (خطيبا أو كاتبا) لا يستطيع تخيل هذا المخاطب مالم يكن على دراية عميقة بأحوال المخاطبين الراهنة، وبموروثهم الثقافي والحضاري، وبهموم مستقبلهم.

ثم إن على المتكلم الحذر في تخيل هذا المخاطب، لأن الخطأ في التقدير قد تنجم عنه ردة فعل عكسية تودي بمسار البناء الحجاجي بكامله.

فهذا المخاطب هو الحامل للخصائص الجماعية الكبرى التي يتقاطع فيها السواد الأعظم، إنه بعبارة أخرى: الثقافة والحضارة والمجتمع والنصوص الخلفية الثاوية في اللاوعي الجماعي الموجهة للوعي وللفهم وللتعامل داخل الزمرة الاجتماعية الخاصة. وبالتالي يكون الخطأ في رسم صورته الفعلية مؤديا حتما إلى نتائج عكسية تماما.

وكما هو الحال بالنسبة لمنتجي النص والخطاب فإن المحلل النقدي لهما أو لأحدهما مطالب هو الآخر بتمثل عميق لهذا المخاطب، ثم محاولة تحديد موقعه لحظة الكتابة أو الإلقاء، وكذلك ملامحه الفاعلة وغير الفاعلة، مثلما أن عليه السعي إلى تمثل المقام المنتج، وإبراز أبعاده ومكوناته وروافده، وأثرها كلها على شكل الخطاب، في علاقته بزمن النص من جهة، وبغيره من النصوص

المنضوية معه تحت جنس معين من جهة ثانية، هذا إذا أراد هذا الناقد أن يكون استنطاقه وقراءته بعثا وإثراء، وخلقا لأنساق فكرية جديدة تحدث قطيعة معرفية مع النصوص المنجبة، وتفتح التحليل على آفاق قرائية أخرى متعددة.

يضاف إلى هذا أن الإلمام بأبرز ملامح هذا المخاطب ومقاماته، يعد دلالة على الوصول من طرف المحلل النقدي إلى مستوى معرفي معين حول حقبة بذاتها أو حول جنس أدبي معين. وهو أمر من شأنه أن يسمح لهذا الدارس بإكمال أبعاد النص وربطه بأطر فكرية جديدة تزيده فعالية وترتقع به، خاصة إذا كان هذا النص داخلا في زمرة الأدب الشفوي، لأن جل نصوص هذا الأدب قد عرفت عبر المسيرة الطويلة التي قطعتها إلينا تغيرات جمة في مكوناتها، تمثلت في الزيادة والنقص (في ومن) صلب النص الأصلي.

وبالتالي فإن وعي المحلل النقدي بالمقامات المنجبة لنصوص معينة، أو بالمقام الفني الذي دأب مبدع معين على استلهام إمكاناته، لكفيل بأن يكشف لهذا الناقد عن العديد من أسرار تلك المبدعات الأدبية والفنية على السواء، علاوة على أنه (أي هذا الوعي) يمكن أن يوفر سبلا جيدة للتحقق من نسبة تلك النصوص إلى المنسوبة إليهم، وأيضا من صحة وضع المبدع ذاته. ولكن مهما كانت المحددات الفنية لهذا المخاطب المتخيل فإن «بيرلمان» يدرجه ضمن البنى النفسية الداخلة في إنجاب النص أو الخطاب، «إذ هو عبارة عن كائن ينجزه المتكلم»[٢٦]. إنه بعبارة أخرى أجلى مظهر من مظاهر أفق انتظار المبدع، هذا الأفق الذي ينبغي أن تنصهر فيه آفاق انتظار المخاطبين الآخرين.

إن المخاطَب المتخيل الذي يحتويه المتكلم فعليا، يؤدي أساسا وظيفتين: إحداهما حجاجية والأخرى حوارية. وأولاهما منبثقة من الثانية. لأنه انطلاقا من الأجوبة المتخيلة، التي يفترض أن تكون مطروحة في المقام، يكون مسار الكلام وطبيعة مكوناته البلاغية واللغوية. ويظهر ذلك بصفة جلية في الخطاب الشفوي- البلاغي منه- فعامل الحضور العياني فيه يعد مصدر إلهام الصور، وأساس التفاعل مع المقام، ذلك التفاعل الذي يعمل على تشكيل الحوار الذي ينبغي أن تسفر عنه لوازم أفعال الكلام.

ونشير هنا إلى أن قضية التفاعل مع المقام تعد مسألة بلاغية مهمة، منها يتحدد الشكل النهائي للملفوظ، لذلك فعلى المتكلم مراعاتها «والتحكم» فيها لأنها في الحقيقة مسألة نفسية بحتة

داخلة في إطار «الحماس» L'enthousiame سواء كان هذا الحماس من أجل الفرضيات المقدمة، أو كان مبعثه تفاعل المخاطبين، وبالتالي فعلى المتكلم أن يحترس من الاندفاع الزائد على القدر المعتاد (الوسط) لأن الحماس الزائد على المألوف يعد أمرا سلبيا على وضع المتكلم في المقام إزاء المخاطبين وإزاء ما ينوي توصيله.

ثالثا: المظاهر الحوارية في الحجاج

تعد عقلنة الطرح ومنطقته من أهم الإضافات التي ألحقها «بيرلمان» بنظرية الحجاج. ومبعث ذلك المكانة التي رأى أن المنطق قد تبوأها حديثا والتي مكنته من العدول عن «تكرار الأشكال القديمة والأخذ في تحليل أدوات البرهان التي يستخدمها الرياضيون بالفعل. فالمنطق الشكلي الحديث قد تأسس باعتباره دراسة وسائل البرهان الرياضي، ولكن مجاله ظل محدودا مما دفع المناطقة إلى استكماله بنظرية برهانية. وهذا ما نهدف إلى وضعه عبر تحليل أدوات الاستدلال الملائمة للعلوم الإنسانية»[٣٧]، وهو في ذلك يستأنس بمنهج «تشومسكي» الرياضي التحويلي الذي أفصح عنه في بداية مشواره.

هذا الميل إلى نظرية حجاجية تتوسل بالآليات الرياضية المنطقية والنفسية من شأنه أن يسم التحليل البلاغي المعاصر بطابع امبيريقي، وذلك على غرار المناهج اللسانية التي تشكل رافدا أساسيا لهذه البلاغة.

وعلى الرغم مما يمكن أن ينتقد به هذا الميل الامبيريقي في المجال الإنساني اللغوي، إلا أننا لا ينبغي أن نغفل عن كون هذا الميل المنهجي الجديد مساعدا على تقريب مجال التوقعات وحساب الاحتمالات في مقامي الكلام والكتابة، لأن الإصابة في توقع الإجابة (رد الفعل) من لدن المعنيين تعد عاملا فعالا في تصاعد مؤشر نفاذية الخطاب وبلاغة تأثيره. فالفهم السليم لا ينضج إلا داخل الجواب الحاذق الذي يأخذ بأكبر قدر من احتمالات الإصابة، ويلم بجل جوانب الموضوع. وهذا مبعث الارتباط الجدلي الإشكالي بين الفهم والإجابة.

فالفهم الإيجابي عندما يجعل المتوقع- أي ما ينبغي أن يكون- حاضرا بالنسبة للمخاطب الذي ينوي «ممارسة الفهم»، فهو في هذه الحالة على حد عبارة باختين «إنما يقيم سلسلة من العلائق المتبادلة المعقدة، ومن التناغمات والتنافرات مع ما هو مفهوم، كما يغنيه بعناصر جديدة، وعلى هذا

الفهم يعول المتكلم. لهذا فإن توجهه نحو محاوره هو توجه نحو المنظور الخاص لهذا الأخير وعالمه، وهو بذلك يدخل إلى خطابه عناصر جديدة تماما، لأنه يحدث عندئذ تفاعلا بين مختلف السياقات ووجهات النظر والمنظورات وأنساق التعبير والتنبير ومختلف «اللهجات» الاجتماعية. فالمتكلم يسعى إلى توجيه خطابه بوجهة نظره نحو منظور الشخص الذي يريد أن يفهم، ثم يحاول الدخول في علائق حوارية مع بعض مظاهره- أي المنظور».[٢٨] والمنظور الخاص بالمخاطب ووجهة نظره وتنبير لهجته والغوص في عوالمه الخاصة هي كلها أمور داخلة في صميم العملية الحجاجية، وهي أيضا بحكم طبيعتها المعرفية أمور نفسية في أبرز جوانبها، ومن هنا لابد من اعتبارها ومراعاتها بمظاهرها الفردية والجماعية. لذا كان تصنيف المتكلم (خطيبا، كاتبا...) لأنواع مخاطبيه (المتخيلين، والفعليين) أمراً ضرورياً، من حيث طبائعهم الشكلية واتجاهاتهم الفكرية وأنماطهم السلوكية والثقافية والحضارية الشاملة... وهذا التصنيف ليس عاملا تجزيئيا بقدر ما هو مساهمة في بناء إطار شامل يضمن سلامة الطرح وتأثير الخطاب، كما أنه من جهة ثانية يهيىء لقيام «حوار ثقافي» ناجح، هو العلامة الثقافية المثلى لكل حجاج ناجح.

هذا «الحوار الثقافي» الجدلي لا يمكن توليده إلا من خلال وعي متميز لمقولة الفهم وما يحف بها من مقولات فلسفية، خاصة مقولتي السؤال الأمثل والجواب الأرجح: لأن الحجاج كما قلنا هو ترجيح من بين خيارات بواسطة أسلوب هو في ذاته «عدول» عن إمكانيات لغوية إلى أخرى، يتوقع أنها أكثر نجاعة في مقام معين. بالتالي كان حسن التصنيف والتوقع نابعين من «الفهم السليم» «لأن الفهم الصحيح دائما فعال ويمثل جنين الجواب، والفهم الصحيح وحده الذي يستطيع إدراك معنى التلفظ... وكل فهم هو فهم حواري الطابع. والفهم هو أيضا بحث عن خطاب المتلفظ. إن الفهم هو – في النهاية- إقامة علاقة مع نصوص أخرى، وإعادة تأويلها في سياق جديد (السياق الخاص بي وبحقيقتي وبالمستقبل)... فالأشياء حبلى بالكلمات».[٢٩] ولا يضير الحوار كونه بين النصوص أو بين المخاطبين، فهؤلاء الأخيرون ليسوا في الحقيقة سوى ذوات تتخللها الشفرات والنصوص والتراكمات الثقافية والحضارية على السواء، وإقامة حوار معهم يتطلب تمثلا لا بأس به للنصوص المشكلة لمخيالهم الجمعي من جهة، ثم الفردي العام من جهة أخرى.

هذا الطابع الحواري للحجاج خاصة، والبلاغة المعاصرة عامة يتقاطع في الإيمان بضرورته جل مدارس ما بعد البنيوية، وذلك لأنها – أي الحوارية – هي مصدر العمليات التناصية، من

توظيف واستفهام ومعارضة وتحويل. حتى إن بعض الدراسين المعاصرين هو (ميشال مايير) عرف البلاغة بأنها ذلك الحوار حول المسافة بين الذوات، أو هي ذلك الحوار حول المسافة بين أناس بصدد مسألة أو مشكل ما... «هذه المنهجية البلاغية تؤسسها بنية عميقة يسميها ميشيل مايير بنية الذات Ethos والآخر Patitos وبينهما اللوغوس Logos من حيث هو كلام ولغة قبل أن يكون عقلا. فالعقل لا يهتم بما هو إشكالي بقدر ما ينشغل بنظام الأشياء، واعتقالها، وبما هو بديهي وما هو جدلي ليتوصل إلى نتيجة أكيدة، في حين أن البنية الأساسية للبلاغة هي بنية إشكالية تعتمد سيرورة تساؤلية Questionnement تقصي من فضائها الأجوبة الضرورية والنهائية».[٣٠] من هنا كانت ضرورة دراسة الصراع الجدلي الباطني بين السند المعرفي الذي يدخل به المتكلم مقام الإلقاء أو الكتابة، وبين التصورات الحاصلة له بعد الدخول، والتي يعد منشؤها طبيعة المقام، وما يعتمل فيه من تفاعلات واستجابات أو غيرها، سواء كانت متوقعة أو غير ذلك.

وسيطرة الخطيب على أهم خيوط هذا الصراع تعد من العوامل الجوهرية- على المستويين النفسي والفكري- في تعيز مايرغب في توصيله للإقناع به لاحقا.

هذا إضافة إلى ما تمنحه هذه السيطرة للخطاب ذاته من انسياب وتناسق بين مكوناته، وهو ما يعد عاملا حجاجيا بالغ الأهمية خصوصا في الخطابات الملقاة أمام السامعين (مباشرة أو عبر وسائل الإعلام المسموعة والمرئية).

رابعا: حضور المعنيين في تحديد الشكل الخطابي للحجاج

إن التناسق بين الشكل والمضمون في الخطابات المدونة والنصوص المكتوبة يؤهلها للانفتاح على القراءات لاحقا، ويمنحها مناعة نوعية في وجه بعض التأويلات ذات النزوع النفسي الصرف، التي قد تنأى بالمبدع عن سياقاته وأطره الداخلية والخارجية وأهدافه الأساسية. هذا التناسق المنشود إذن «لا يمكن أن يتم إلا من خلال الاحتواء التام الذي يمارسه الخطيب على مخاطبه»[٣١]. ولكن هذا الاحتواء مشروط ومقيد بمحددات مقامية لابد من مراعاتها حفاظا على ميثاق التواصل بين المتكلمين والمعنيين، وعلى ما سينبثق من هذا الميثاق، فلا ينبغي مثلا أن يؤسس الخطيب بناءه الحجاجي بطريقة تعسفية يساق من خلالها المعني «خلسة»[٣٢] إلى فرضيات أو مسلمات بديهية

او مراوغة يجد في النهاية نفسه أمامها فيرفضها، ثم يتعدى نفوره منها إلى الشخصية التي وجهته إليها. وإذن فعلى مرسل الكلام أن يتخيل مخاطبا محنكا حاذقا، ثم يعمد إلى بناء فرضياته وطروحاته ومناقشاته على أساس احترام وعي هذا المخاطب وتقديره من دون أي مراوغة خبيثة أو تحريض ساذج manipulation naive فالتحريض عبارة عن عملية وجدانية بعيدة عن مجالي العقل والفكر، إنه بعبارة أصح نوع من الاستجداء العاطفي المهين، لذا كان وجوده مدمرا لكل بناء حجاجي ينشد التأثير. ومما ينضاف إلى التحريض (بوصفه عيبا بلاغيا يجب تجنبه) ثلاثة عيوب أخرى اقتبسنا ترجمتها من أستاذنا محمد العمري، وهي على الترتيب «الالتفاف apsorophe، والتجسيد prosopopee، والتساخر chleuasmeá،[٢٣] وهي كلها خاصة ببعض مظاهر التلاعب بالمخاطب بوصفه عنصرا مقاميا جوهريا، ومحددا فعالا من محددات الشكل الذي ينبغي أن يكون عليه الخطاب وكذا الفعل في النهاية.

ويعني الالتفات شكلا من التنوع الفاجئ، في الخطاب، يتم العدول فيه عن موضوع ليُتوجه إلى موضوع آخر ذي طبيعة خاصة، ويكون ذلك من دون استئذان المخاطب، الأمر الذي قد يحس معه هذا الأخير بأن فكره ووجهات نظره وكيانه مسرح للتلاعب والتضليل.

من هنا كان على المتكلم (خطيبا أو كاتبا...) الحرص على ألا يخامر الشك مخاطبه بأنه غير أهل لكل الثقة. أما التجسيد فهو «تلاعب» يقوم على محاورة الجمادات والحيوانات والغائبين ومحاولة استنطاقهم في مقام الإلقاء، وذلك ضمن نسق حواري بين الاستحاله والغموض.

في حين أن التساخر أو التساذج يعد نوعا من استمراء تعاطف المعتبين كي يسبغوا على المتكلم صفات خاصة. وهو يقوم بذلك السلوك عن طريق تعريض نفسه للسخرية تسانجا وتلوّما فيبدو «... كمن يسخر من نفسه أو يلومها بهدف الحصول على رد إيجابي لصالحه من طرف المستمع مثل: هل أنا مغفل إلى هذا الحد؟ أو: أنا جنيت على نفسي... وبالتالي يكون كل من «الالتفاف والتشخيص والتساخر تقنيات متكاملة للتلاعب بالمقام، والخروج من التوازي بين الخطاب والمستمع في الظاهر»[٢٤]. وتنضاف إلى هذه العيوب الخطابية قائمة طويلة جدا أسهب بلاغيونا القدامى في الحديث عنها في تنظيرهم الخاص لبلاغتي الشعر والخطابة. ولعل حديثهم عنها أدق من تناول البلاغة اليونانية لها. ولكن ليس هذا مجال الحديث عن هذه العيوب «المعروفة».

المهم في الخطاب الإقناعي ألا تكون عناصره إجراءات procedes هدفها الوصول إلى أذهان

المخاطبين بأي وسيلة أو بأي ثمن، بل لابد من مراعاة الانسجام التام بين شكل الخطاب ومضامينه الفكرية والاجتماعية من جهة، وبين الأسلوب والعلامات الموحية بعفوية الطرح وبراءته من جهة ثانية.

فمن شأن ذلك أن يمنح الخطاب تقانية أكثر. لذا يحذر «بيرلمان» في هذا الصدد من الإسراف في استغلال الأشكال البلاغية الجاهزة، لأن هذا الإسراف كان يوما ما عاملا من عوامل انحطاط البلاغة والنظر إليها بوصفها آلية إقناعية عابرة Ephémére، وذلك مما جعل تلك الأشكال البلاغية هدفا في حد ذاتها، وهو ما أفقد اللغة قدرتها على نقل الواقع ورسم المستقبل وإحداث الإثارة الفنية الكفيلة بخلق ثنائية: الاقتناع والفعل.

إن على المتكلم السعي إلى جعل مخاطبيه في أقوى حالات إرهافهم وانتباههم، فهو في مقام الإلقاء يجابه «عدوين قاتلين هما: عدم الانتباه والنسيان»[٣٥]، ولكي يظفر بهما عليه التوسل ببعض محسنات الأسلوب الكامنة في البلاغة. لكن عليه ألا يسرف في ذلك الاعتماد، إذ البلاغة فن قوامه الاعتدال، مع توفر أكبر مستويات الإبانة والإفصاح. وقديما تم تحديد أجود المبدعات بأنه: الجزل المسبوك الذي يُهجم على باطنه من ظاهره، ويستحرك بيانه مع قرب مأخذه. ومن هنا حددوه بالسهل الممتنع.

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن توظيف الأشكال البلاغية في الخطابة عامة وباب الحجاج منها خاصة، قد عرف تحولات عدة وتغيراً في الاستراتيجيات.

فقديما كان يتم الإسراف - جزئيا- في توظيف هذه الآليات نظراً إلى طبيعة المخاطبين ومقاماتهم الحافة بهم، أو تلك المحتوية لهم بوصفهم في الغالب مجتمعات شفوية.

فلقد كان هذا المقام يفرض على المتكلمين طرقا خاصة في إجراء الكلام، لا نستطيع نحن معشر «الكتابيين» اليوم تمثلها بالصورة المثلى التي كانت عليها.

فالفرد الكتابي الذي عاش في حضارة الكتابة ووسائل الإعلام المعاصرة «لا يستطيع بشكل كامل أن يسترجع الإحساس بما مثلته الكتابة للشفاهيين الخلّص»[٣٦].

لهذا كان تمثل المحللين النقديين- اليوم- للنصوص القديمة الوافدة إلينا من الأزمنة الشفوية يتطلب قدرة وتمكنا فائقين في الوعي بالسياقات المنجبة لهذه النصوص، مثلما يتطلب معرفة

واسعة بثقافة تلك الحقبة وحضارتها. فبذلك فقط تستطيع العقلية الكتابية المعاصرة «أن تعيد بناء الوعي الإنساني في نقائه الأصيل، ذلك الوعي الذي لم يكن كتابيا على الإطلاق، أو على الأقل تعيد بناء الوعي بدرجة معقولة إن لم يكن بشكل كامل، (فنحن لانستطيع أبدا أن نتخلى بالنسيان عن قدر من حضارتنا من أجل أن نعيد في عقولنا بناء أي ماض في حالته الأصلية الكاملة»[٣٧].

وعلى قدر التمثل لثقافة حقبة معينة، ولآفاق الانتظار السائدة فيها يكون ثراء التحليل وعمق القراءة. ويعد هذا من الجوانب الجيدة التي أشارت إليها، وركزت عليها نظرية القراءة والتلقي عند «هانزروبيريوس» وجماعته: حين اعتبروا أن تواريخ القراءات المقدمة لنصوص معينة في حقبة معينة يمكن أن تقدم من الجانب الآخر منهجا معينا لكتابة التاريخ الأدبي بطريقة وأسلوب متميزين عن نظيريهما في الدائرة التاريخية.

فعلى سبيل المثال كانت النصوص الخطابية وبعض المراسلات الكتابية القديمة تنسج- غالبا إن لم نقل دائما- انطلاقا من تراكيب نسقي «سببي» تلاحقي لبعض «الصيغ»،[٣٨] وذلك على نحو «عنقودي» يترابط من خلاله الكلام وتتلاحق الصور بصفة أقرب إلى التداعي، بحيث يكون ظهور جملة معينة أو صورة أو مثال أو تضمين ما- مرافقا بالضرورة لظهور نمط قولي آخر يتوقعه المخاطب، وينتظر من المتكلم الإبداع والتفنن في إيراده أو الإلماع إليه.

من هنا يكون إبداع المتكلمين رهين الاستجابة لآفاق الانتظار والتوقع من جهة، ثم الإجادة في خلق علاقات معينة جديدة داخل آفاق التوقع ذاتها.

وتمثل المحلل النقدي لهذه الآفاق والأصداء النصية عامل أساسي في ملء فراغات النص والتحاور معه وإثرائه على حد تعبير «أيزر».

وفي مقابل الاستراتيجيات الشفاهية في إجراء القول وجماليات اللغة نجد البلاغة المعاصرة في مجال الحجاج تتوسل بسبل قولية أخرى بالغة التباين. فالمتكلم المعاصر مطالب بالسعي إلى امتلاك ثقافة بالغة الرحابة مثلما هو مطالب بالاقتصاد في تصدير مخزونه البلاغي وعدم التواري خلفه.

أي أن تكون لغته دالة على خططه القولية معبرة بجلاء عن أهداف النص وغاياته الراهنة والمستقبلية على السواء.

هذا التصور الذي قدمته هذه البلاغة لمفهوم «الحجاج» ساهم في تقريبه من الأطر العالمة -Sa vante، ومنحه خصوصية متعلقة بالمخاطب والمقام من جهة واللغة من جهة ثانية. وقد تطورت هذه الفكرة عند البلاغيين الأسلوبيين الذين اهتموا بدراسة اللغة الأدبية، لا من أجل البحث عن «الأدبية»، وإنما بهدف وضع نظرية للنص تكون أقرب إلى العلمية.

ومجال اهتمامهم بهذه الفكرة كامن في أن خصوصية اللغة والمقام تتطلب من المحللين النقديين جهداً متميزاً من أجل الوصول إلى بعض أسرار الخطابات والنصوص.

فكما أن المعني بالخطاب أصلا محدد سلفا، فكذلك المحلل النقدي الذي سيدرسه لاحقا هو بدوره متميز، أو ينبغي أن يكون كذلك، فليس كل ناقد مؤهلاً لطرق أبواب النص، ومن هنا جاءت فكرة القارئ المثالي عند ريفاتير، والقارئ النموذج عند أيزر، والقارئ السيميولوجي عند أومبرتوإيكو[٣٩] ويتقاطع هؤلاء جميعا في أن القارئ مطالب بإثراء النص وفتح آفاقه وخلق التناسق والحوار اللازمين بين النصوص المتصارعة في فضائه، وتلك الداخلة في نسيجه عبر مستويات التناص المتعددة، تضمينا أو استشهاداً أو تلميحا أو تمثيلا أو معارضة أو تحويلا... وهذا ما جعل العمليات التحليلية الرائدة أضحت محددة الإطار، لأن النصوص لا تكشف عن أسرارها إلا للثلة المتمكنين، لذلك يرى «إيكو» أن النصوص الحقة أضحت الخالقة لقرائها. فثمة ميثاق علامي بين المحللين الأكفاء والنصوص التي تستحق الدراسة، ويشارك كل منهما بقسط في تكوين هذا الميثاق وبلورته انطلاقا من تعاضد إمكانات مقامي التأليف الأصلي والقراءة اللاحقة.

لكن هذا الجانب النقدي التحليلي من علاقة النص بقرائه لم يحظ بعناية كبيرة من «بيرلمان»، إذ ظل اهتمامه مركزاً على علاقة النصوص بالمقام والإقناع والفعل (الحدث)، ثم على دور الأطر المعرفية الحافة باللغة في بلورة نظرية للحجاج تولي اهتماما لمجالات البرهنة في المكتوب، ولطرق تعويض الغياب في مقامات الكتابة، دون أن تهمل التنظير لبلاغة الإلقاء (الخطابة). لذا يعود الفضل لبيرلمان في كونه قد لفت الأنظار إلى ما يمكن أن تلعبه البلاغة إذا ما أعيدت قراءتها في ضوء المناهج اللغوية المتطورة من جهة، وإلى ضرورة مراعاة تطور علوم الاتصال وآلياته في عصر «السماوات المفتوحة» من جهة ثانية. فالمقام الخطابي قد اتسع والمخاطبون (المعنيون) قد اتسعت دوائرهم وتفرعت ظروفهم وتعددت القيم المشكلة لوعيهم ولوجهات نظرهم. وكل هذه أمور لابد من مراعاتها وأخذها في الاعتبار.

لكن الاهتمام بجدلية القارئ، والنص (أو الخطاب) سيتم تداركه بصفة كبيرة في البلاغة البنيوية العامة والبلاغة التداولية، وذلك ما سنشير إليه لاحقا.

أما صاحب (مبحث الحجاج) فقد كان يهدف إلى أن يجعل من الحجاج خاصة والبلاغة عامة مجالا عالما، يَسعى من خلال شفافية اللغة إلى الاستحواذ على وعي المخاطبين وتغيير تصوراتهم- بإرادتهم هم- ولا يتأتى ذلك إلا إذا استطاع المتكلم أن يخلق الشعور لدى مخاطبه بأنه طرف فعال له رأيه وتوجهه، وأن لا فعل ولا تصرف من دون مباركته. فالمخاطب عندما يستشعر هذا الإحساس يكون المتكلم- في الغالب- غير ملزم بتقديم الحلول والنتائج والتبريرات، لأن الطرح المقدم عندئذ يكون قد بلغ ذروته الإقناعية، وهذا يتيح للمتكلم الانسحاب تاركا للمخاطبين تحديد الحكم على القول.

وبالتالي يكون المسعى الأساسي للحجاج المعاصر هو التهيئة للحكم لا النطق به، لأن المهم في المقام الحجاجي ليس قناعات المتكلمين، وإنما بالأحرى قناعات المحاورين ورؤاهم، إذ هي التي عليها مدار النقاش.

والمتكلم الذي لا يتفاعل سوى مع قناعاته الخاصة يعد متكلما انفعاليا، لذا فالخطاب الانفعالي لا يعيش بعد إلقائه، وهو إن أثر في المخاطبين إلا أن تأثيره يظل عابراً لأن العاطفة ليست من طبيعة العقل. من هنا كان الحجاج المعاصر مطالبا بالجمع بين خاصيتين أساسيتين هما: المفارقة والواقعية: الحقيقة والمجاز. فمدار الأمر في ذلك كله: المخاطبون. وهذا ما جعل «ديموستين» في محاربته للديماغوجيين Demagogues «يطلب من المجتمع الأثيني أن يتحسن ثقافيا، ويطور آلياته المعرفية وأنماطه الحضارية، ففي ذلك رفع لمستويات خطبائه، وعامل من عوامل إجادتهم في القول والكتابة معا. وبالتالي جعل المجتمع مساهما بصفة ما في تشكيل خطبائه على النحو الذي يرغب فيه»[40] وما دام المجتمع مساهما بصفة ما في تشكيل خطبائه وكتابه فإنه أيضا يكون مشاركا في خلق الخطابات والنصوص الموجهة إليه، وداخلا في الأنسجة الضامة لتلك المبدعات. وينتج عن هذا التناوب في «الخلق» أن النص وكذا الخطاب يخلقان بدورهما قراءهما المؤهلين فكريا ومعرفيا لتناول شفراتهما وإثرائهما بالأسانيد المعرفية الحاصلة لهم من تجاربهم النقدية السابقة.

ويعد الاهتمام بفكرة «الخلق» نابعا من الفكر الظاهراتي، الذي يعتبر من الأطر المعرفية المؤسسة لنظرية الحجاج سواء عند بيرلمان أو من جاء بعده من البلاغيين البنيويين أو التداوليين على السواء.

وقد أخذت هذه الفكرة تجليات عدة عند بيرلمان بالخصوص. يظهر ذلك في محاولته إعداد تصور معين لأنواع المخاطبين. فمثلا قد يكون المخاطب كونيا (من دون خصائص أو معالم محددة أي عاما شاملا) وقد يكون المخاطب محدداً نابعا من مكونات مقام القول وإمكاناته التي على المتكلم- أيا كان- الإجادة في استغلالها والاعتدال في توظيفها، هذا وقد يكون نابعا من «الفاعل» أي المرسل للقول ذاته، وجزءا من تجريداته وطموحاته، ولكن في هذه الحالة الأخيرة على المتكلم الفعلي ألاّ يفرض على مخاطبيه ملامح هذا المتكلم المجرّد، وإنما عليه أن يترك للمعنيين مهمة تحديد ملامحه ثم مكانته. ويحدث هذا الموقف غالبا حالما يكون المرسِل للخطاب قاصدا معنيين، لا يستوعب بدرجة كافية المعالم الكبرى لآفاق انتظارهم. إن من المسلم به تنوع الأساليب بتنوع المخاطبين، لكن من التقنيات الحجاجية الفعالة في هذا المقام، ضرورة أن يتمكن المرسل للخطاب من حذق وتوقع ثم «امتصاص» جل الفرضيات والقيم والتصورات المناوئة لطرحه، وخاصة منها تلك التي لها مساس كبير بوجدان المعنيين وأنماط تفكيرهم أو حياتهم العامة. فهذه الأطر والتصورات المناوئة قد تكون مادية، وقد تكون تصورات مجردة نابعة من الطبيعة النصية لبعض الخطابات السائدة في تلك الفئة المعيَّنة، خاصة إذا كانت تلك النصوص دينية عقائدية أو مذهبية.

وتصرف المتكلم إزاء هذه الأطر القولية التي قد تعوق التجسيد الفعلي لفحوى فرضياته، لابد أن يكون ذكيا، لأن من شأن هجومه أو تهجمه عليها تقويض قناة الاتصال. لذلك فإن عليه أن يقوم بمعارضة تلك الأطر بأطر أخرى من الطبيعة نفسها، ثم يعمل على تحويل تلك المناوأة لكي تصير داخلة في نسيجه القولي، وبالتالي تكون جزءا من الخطة الحجاجية، بدلا من أن تكون هدفا يصاغ من أجله الحجاج. وهذه العملية التحويلية ليست باليسيرة لأنها تتطلب وعيا اجتماعيا بظروف القول والقول المضاد من جهة، وإدراكا للبطانة الايديولوجية والمذهبية لتلك الأطر «المناوئة» من جهة ثانية. فالمتكلم هدفه عزل تلك الأطر على سياقاتها الأصلية، وبالتالي زرعها في أنساق لغوية حجاجية جديدة، على شكل تبدو معه للمستقبلين كما لو كانت جزءا أصليا من النسق القولي الجديد، لا يمكن انبتاتها عنه، فبذلك وحده يستطيع هذا المتكلم أن يقدم فرضياته وأفكاره كبديل مقنع لاتحريض فيه، وهذا أمر ضروري لحيازة رضا المعنيين، وانخراطهم في الاقتناع بضرورة إنجاز المضامين الفعلية للمقول.

إن هذا النمط الحجاجي بالغ الدقة لم يغب عن وعي القدماء، فقد أشاروا إليه في باب الجدل

لأن الحجج La rhetorique، وقدموه من حيث الأولوية على الخطابة الجماعية La dialectique المقدمة إلى الفرد تتسم بالتحول والمفاجأة، وبالتالي فالحوار هو طابع العملية في هذا المقام، إذ على المتكلم وخاصة الخطيب مراعاة تصرفات مخاطبيه وتقلبات مزاجه واعتراضاته مثلما أن عليه أن يتوقع جل سلوكياته، وهذا ما جعل Quintelien يتبنى رأي Zenon الذي رأى أن «الديالكتيك (الجدل) بوصفه تقنية حوارية يشبه في طابعه الحجاجي الصارم الضيق القبضة المغلقة، في حين أن الخطابة في نظره تشبه الراحة المبسوطة نظرا إلى ما يمنحها مقامها من اتساع في القول ومجرياته وسعي حر (نوعا ما) في التحليل والبرهنة والاستنتاجات»[٤١] وفقا للتوقع السليم لآفاق الانتظار المهيمنة على المقام.

إن المتكلم في الفضاء الخطابي المعاصر، وكذا الكتاب بالدرجة الأولى، مطالبان بإعادة قراءة جل النصوص التي يمكن أن تدخل في السياق القولي الجديد، وهذه القراءة هي عملية نقدية انتقائية، الهدف منها – كما قلنا– محاولة صياغة بناء متكامل يتم فيها تحويل خصائص النصوص السالفة لتدخل في أطر قولية جديدة تثريها وتزيد من اتساعها وانفتاحها على كل من النصوص والقراءات اللاحقة مما يسوغ لنا القول إن النظرية الحجاجية في مظهرها الآخر هي سعي إلى إعداد نماذج معينة من القراءة الاجتماعية انطلاقا مما يمليه المقام الراهن لكل من الإلقاء أو الكتابة.

وفي إطار تنوع المخاطبين وتنوع الأساليب الخاصة بهم يركز «بيرلمان» على أهمية أن يعي المتكلمون أن «الفعل الحجاجي» عبارة عن عمل جاد وليس نوعا من التسلية الكلامية، وأنه يتطلب قناعة ذاتية ووثوقا نفسيا وعضويا به من ممارسه، «وهذه ماجعل Isocrate يرى أن الحجج نفسها التي نقنع بها الآخرين عندما نقصدهم بالخطاب هي ذاتها التي نستخدمها عندما نفكر ونحادث أنفسنا . بالتالي فالخطباء هم القادرون على مواجهة الجمهور في حين أن أصحاب الرأي السديد هم اولئك الذين يستطيعون عند الملمات محادثة أنفسهم بالأساليب الأكثر عقلانية وحكمة»[٤٢].

من هنا كان الانسجام مع الذات، والثقة في النفس، والتحضر اللائق للمقام– خطابة وكتابة– من أهم المراحل الخاصة، المهيئة للاتفاق مع الآخرين، هذا إضافة إلى «أن تمحيصنا– بوصفنا متكلمين– لحججنا الموجهة إلى الآخرين، وتحليلنا إياها هما الكفيلان بجعلنا نعي جيدا كيفية الحوار مع ذواتنا بشجاعة، وليس العكس»[٤٣]

هذا التصور لعلاقة المبدع بذاته جعل Perelman يستخدم مفهوم «العقلنة» بوصفه الجامع لأهم الأطر النفسية الباطنية Cadres Psychologiques Profonds الحافة بعملية الحجاج. فالمتكلم مطالب بالتروي والتعقل إزاء الفرضيات التي يطرحها، والتأويلات التي يقترحها، وذلك حتى لا يجد نفسه أثناء خطابه (أو نصه) مضطرا إلى أخطاء الإلحاق Fautes dattribution كأن يقدم طرحا معينا، ثم يسترسل في عرض الخطة الحجاجية التي أعدها للمقام، ثم يقع منه سهوا أو جهلا- بفعل الحماس أو بفعل أخطاء التوقع- إهمال لبعض المكونات أو المساعدات الداخلة في صلب الطرح المقدم من جهة، أو يقع منه تزويد لبعض الفروض ظنا منه أنها تخدم الخطة، وفي كلتا الحالتين يجد نفسه مطالبا بذكر تعليلات أو تحليلات لذلك، تكون منسجمة مع الخطة العامة. هذا في حين أن ذكر تلك التعليلات «الأجنبية» يسبب في الغالب نسفا للنسق الحجاجي الذي تم طرحه في البداية. ومن المتكلمين من إذا أدرك هذا «التهديد» عمد إلى التحايل على بعض مكونات المقام والخطة معا أملا في تمرير ما كان قد بدر منه، وفعلا قد تنطلي تلك الحيلة على بعض المعنيين من ذوي الأسانيد المعرفية والخبرات المتواضعة، لكنها بالنسبة لغيرهم من المتمرسين إجراء واه.

ويحذر «بيرلمان» في هذا الإطار من خطأي الإفراط والتفريط، أو المبالغة والإهمال، فيما يتعلق بالمسائل موضع النقاش والتحليل. أي أن على المتكلم تقديم تصوره في المساحة الملائمة له، ثم منحه القدر المناسب من الحجج التي لا يشكل إيرادها لدعم الموضوع مفارقة أو نشازا. لأن تهويل الموضوع ومنحه مساحة أكبر من حجمه، ثم التوسل بعد ذلك بجل الأطر المعرفية السائدة في بيئة معينة من أجل دعمه وإثباته هو أمر باعث على السخرية ومؤذ لتهافت الحجاج. وبالمقابل فإن عرض الفرضيات والتحليلات في الهامش، أو في الظل وعدم الانتباه إلى أهميتها في مقام الإلقاء، هو بدوره دليل على عدم خبرة المتكلم وتشوش أفكاره. وهي كلها أمور يدركها جل المعنيين بالخطاب، كما تدركها بوجه أفضل الأطراف المعارضة للخطاب. بل قد تعمد هذه الأطراف إلى التقاط تلك الهفوات وتوظيفها وإثرائها بما ترى أن المقام يستدعيه. وغالبا ما تكتسب بصنيعها هذا مساحات إضافية على حساب الأطراف المنافسة لها. ويتجلى هذا الجدل أساسا في كل من الخطابة والكتابة السياسيتين وآليات بناء الحجاج فيها.

لكن ثمة ملاحظات لابد من الإشارة إليها فيما يتعلق بتصور المدرسة البلجيكية للحجاج.

فبيرلمان وإن أقر مبدئيا بضرورة التمييز بين أنواع الخطابات اللازمة لكل مقام فإنه يرى أن العديد من الأخطاء التي وقعت فيها البلاغة الكلاسيكية- خصوصا في تصنيفها للمضامين والأجناس الخطابية- كانت نابعة من تصور خاطئ للحجاج وآثاره، إذ تم اعتباره آلية جاهزة وتصورا جزئيا يتم السعي إليه من أجل «قسر» المعنيين على تبني آراء معينة، دون أن تؤخذ في عين الاعتبار رؤاهم المستقبلية وتوجهاتهم الراهنة، وكذلك المتغيرات الداخلية (النفسية، الاجتماعية، الايديولوجية) التي تحكم نسقهم الاعتقادي وتحركاتهم الفعلية.

فليس المهم أن يبرز المتكلم أن فرضية ما هي التي يجب التحرك في ضوئها، ولكن المهم أن يتلازم الاقتناع مع الفعل، بمعنى أن تكون الفرضيات المقدمة من الفاعلية بحيث تخترق الأنساق الداخلية للمعنيين. وهذا ما قصده عندما قال: «إن القرار المأخوذ تجاه أمر ما يقع في مرحلة وسط بين الاستعداد للفعل والفعل ذاته، بين التأمل الخالص والتصرف الحاسم»،[44] وبالتالي فإن قوة الفعل المنجز وأهميته لا تقاسان بمدى تماسك البناء الحجاجي، ولكنهما بالأحرى تقاسان بمدى جسامة الصعوبات التي تقف عقبة في سبيل إنجاز هذا الحدث، ومايتطلبه ذلك من تضحيات من جهة، ثم الخيارات والآفاق المستقبلية التي يفتحها أو يتيحها هذا الفعل بعد إنجازه من جهة ثانية.

لذلك فقد اعتبر أن «الحجاج» هو النسق القولي الذي ينوب عن «القوة المادية» في تحقيق النتائج الملموسة tengibles التي كان رفض المعنيين لها سيضطر أصحاب «اللغة» أو القيمين على الوضع إلى اللجوء إلى القوة من أجل الإرغام على إنجازها.

من هنا كان الحجاج عنده مطابقا للبلاغة في أدق معانيها، في حين أفرد الجدل بحكم اهتمامه بالقضايا التجريدية التأملية الفكرية.

«الحجاج إذن مظهر من مظاهر القوة الباطنية، إنه الحركة التي يسعى من خلالها دائما إلى تغيير أحوال الأمور التي كانت قائمة،[45] ومادام هذا التغيير يتم في هدوء، ورصانة واقتناع به من لدن المنجز له، فإن الحجاج بوصفه التجلي الأساسي للبلاغة أضحى خير آلية يتسلح بها المبدعون والسياسيون وأصحاب النوايا المعاصرون من أجل تبرير مواقفهم وتمرير خطاباتهم في عصر «السماوات المفتوحة»، حيث أصبح المعنيون - في الغالب- غائبين عن مسرح إلقاء الرسائل اللغوية الموجهة إليهم، لكن درجات حضورهم تظل مختلفة: فمنهم من يتصور حضوره في الكتابة،

ومنهم يُتخيل عبر الشاشات ووسائل الإعلام بمختلف أنواعها. لذا كان تركيز أصحاب هذه المدرسة على آليات تحويل الغياب إلى «حضور» من أهم النقاط التي قدمها روادها. وتبرز أهمية هذه الفكرة أساسا في مجالي الأدب والأسلوبية، حيث أصبح المحلل معنيا بطرق استغلال المبدعين للفضاء والفراغ على السواء، وتأويل الشفرات والصور التي تجسد الحضور.

خامسا: دور المقام في توظيف عناصر الحجاج

حظي المقام باهتمام كبير في التصور البيرلماني باعتباره البؤرة التي تلتقي فيها جميع العناصر الحجاجية من مقدرات برهانية وحقائق فعلية وقرائن بلاغية وقيم بشتى أقسامها وعلاقة هذه القيم بمراتب الكائنات والأشخاص المعنيين بخطاب ما. وذلك بوصف هذه العناصر المذكورة أسسا حجاجية لابد من طرحها بصيغ مختلفة في «المقام» نظرا إلى أن المخاطبين يشتركون في الإقرار بأبرز معالمها، وإن ظل ذلك الإقرار متباينا بحسب طبيعة الشخص وتكوينه.

بالتالي فعلى الخطباء والكتاب (بوصفهم متكلمين) الحذق في توظيف هذه المستويات بوصفها «نقاط انطلاق للبرهنة» Points de depart de l'argumentation، فكون هذه النقاط مسلما بها في الغالب أمر قد يؤدي إلى إهمال المتكلمين لما قد تسببه هذه النقاط من تقويض للبناء الحجاجي عن طريق الوقوع في أخطاء التحريض أو التساخر.

فالمتكلم مثلا عندما يستخدم مقدماته العقلية في بداية طرحه فهو يسعى إلى بناء أول جسور التواصل المقنع بينه وبين مخاطبيه الذين يرغب في انخراطهم معه في التسليم بتلك المقدمات Pre-misses، لكن عدم الحذق في طرحها بما ينسجم مع الموضوع والمقام معا، قد يتسبب في رفض المخاطبين لذلك الميثاق «... إما لأنهم لا يسلمون بما عرضه لهم الخطيب (المتكلم) بوصفه ثابتا، وإما لأنهم لا يرون إلا الطابع الأحادي البعد لاختيار المقدمات، وإما لأنهم فوجئوا بالطابع المغرض في عرض تلك المقدمات»[46] لذلك فعلى المتكلم التركيز على معايير الأولوية فيما يتعلق بالعلاقة مع المقام والموضوع معا. ويدخل في هذه المقدمات ما يرد ذكره من حقائق فعلية وأحداث معينة لا يشك المخاطبون في ثبوتيتها المرجعية. لكن ذكرها في الخطاب أو النص لابد أن يكون له طابع حجاجي، ولن يكون كذلك إلا إذا أحدث ذكر تلك الحقائق صراعا جدليا مع أحداث أخرى كان المخاطب يتوقع ذكرها، لكن المتكلم رغب عنها، لأجل خلق إطار منطقي للحقائق التي اختارها،

وذلك لكي تصير فعلا هي الملائمة للمقام. ولا تدخل هذه الخطوة في عيوب «التحريض والقسر» بل تندرج في عناصر المفارقة والمفاجأة الطريفتين. ولأن «الحقائق معقدة ويدخل فيها عديد الأنساق»[٤٧] فإن من شأن ارتباطها بملمح من ملامح المفارقة الطريفة، أن يخلق إطارا تواصليا إقناعيا لم يكن متوقعا، وهو ما سيمنح (توفره) للمتكلم (المبدعين) مضيا في مخططه الحجاجي، فضلا عن أنه سيهيىء المخاطبين أكثر للانخراط في الطرح، انطلاقا من القرائن Presomptions التي أطّرت تلك «الحقائق» في «المقام». «فالقرائن تحتاج- بخلاف الحقائق- إلى أن تدخل في الأنساق التبريرية لأن ذلك يزيد من فعاليتها، ويرسم علاقتها بالمقامات الصادرة فيها وبالمواقف المتوخاة من ورائها»[٤٨].

إن تعدد المواقف والأساليب والمخاطبين يصاحبه تنوع آخر في مستويات القيم Valeurs بوصفها عناصر حجاجية جاهزة من جهة، ثم بوصفها موضع اتفاق وتسليم من جهة أخرى: إذ لاخلاف غالبا حول مضمونها ومكانتها، وبالتالي «فللقيم» بمختلف أنواعها دور فعال في بناء الثقة بين المتحاورين والمبدعين والقراء. فهي إذن عنصر حجاجي أساسي في العلوم الإنسانية والاجتماعية (بخلاف المواضيع الامبيريقية، لأن براهينها تقوم على مبدأ التعليل ومن ثم الحتمية). أما القيم فتوظف في النظرية الحجاجية بوصفها «قواعد حجاجية» Régles argumentatives «فنحن نستدعيها لكي نحمل المخاطب على القيام بأفعال معينة بدل أخرى: كما أننا نستدعيها خصوصا من أجل تبرير تلك الأفعال بطريقة تجعل هذه الأفعال التي دعونا إليها مقبولة ومؤيدة من طرف الآخرين»[٤٩].

إن إقرار دور القيم في النظرية الحجاجية هو أول خطوة لنبذ فكرة «العنف والقسر والمصادرة» وميلاد ميثاق التواصل القائم على النقاش المثمر. ولئن كانت «الحقائق» التي يتم ذكرها في المقام الخطابي أو الكتابي تعد أساسا أوليا من أسس الإقناع وتعبيراً عن وجود فعلي أو متوقع فإن القيم هي الأخرى على اعتبار أنها من الأسس نفسها إلا أنها تعبر عن موقف تجاه الوجود والكائن على السواء.

«فبالقيم نستطيع تشكيل الحقيقة المطلوبة على الوجه الذي يريد المبدع (خطيبا أو كاتبا). هذا في الوقت الذي تظل فيه هذه القيم محافظة على نصاعتها بعد الاستخدام، مما يجعلها صالحة للاستعمال في مقامات أخرى»[٥٠]. ودور القيم يبرز في حسن توظيفها، حيث تأتي منسجمة مع

إطارها الثقافي من جهة، ومع المقام الإبداعي من جهة ثانية، هذا فضلا عن أنها ينبغي أن تكون قيما شاملة أو مختزلة في طياتها لعديد القيم الأخرى من الجنس نفسه. لكن ذلك لا يعني أن الاستعانة بالقيم الأجنبية تصيب الإبداع بالنشاز، بل بالعكس قد يسبب استخدام هذه القيم دفعا للمسار الحجاجي، شريطة أن يحسن المبدع استغلالها وترهينها وتهيئة المقام لها (وكذلك العكس، أي تهيئتها هي للمقام).

وسواء كانت القيم مجردة أو واقعية فإن دورها في الحجاج يرتبط بالطريقة التي ينظر بها المخاطبون إليها، «لأن ما يميز مخاطبا عن الآخر ليس القيم التي يسلم بها بقدر ما يتميز بالطريقة التي يرتب بها تلك القيم»[٥١]. فمراعاة الرتب أمر ضروري في أي بناء حجاجي. ولا تنبع تلك المراعاة إلا من تصور سليم من قبل المبدع لعلة الترتيب. كما لا يخفى ما لهذا الإدراك من دور، سواء عند امتداح ذلك الترتيب أو نقده من أجل تقديم البديل. هذا ما لم تنتبه إليه البلاغة الكلاسيكية، وكذا جل الفلاسفة المحدثين الذين اهتموا بالجوانب المشتركة لهذه القيم التي يشترك فيها معظم المخاطبين، وأغفلوا ما تشمله من اختلافات وتباينات تؤثر على سياق المقامات التي قد تستعمل فيها.

وقد قادت هذه الفكرة صاحب «مبحث الحجاج» إلى تصور مهم في نظرية الحجاج يكمن في: «عدم وجود منطق خاص للقيم، وأن استقلاليتها نسبية»[٥٢]، تتغير بطبيعة المقام وبالمشاركين فيه.

هذا الدور الذي يلعبه المقام في تشكيل عناصر الحجاج وموقعه ومحتوياته جعل المدرسة البلجيكية توليه مكانة خاصة في التصور الذي قدمه روادها هنا.

فالمقام هو الذي يمنح الكلمة الملقاة والأخرى المكتوبة دورهما ومكانتهما بغض النظر عما تحملانه من شحنات دلالية أومعنوية قبلية. من هنا كان لزاما على المبدعين مراعاة شروط المقام والاهتمام بها، مهما كان هذا المقام مألوفا لديهم بصفة عامة، لأن الإفراط في ادعاء الألفة مع مقام معين قد «يصرف عديد الخطباء والسامعين عما قد يكون فيها - المقامات - من أهمية بالغة وقيم حجاجية كبيرة، على كل من يروم إقناع الآخرين أن يقتبس منها عماد برهنته»[٥٣].

ويقدم «بيرلمان» تصورين أساسيين للمقام: فهو تارة يعتبره الإطار المحدد للخطاب المستوعب لكل محتويات العملية الإبداعية، ولكل المشاركين فيها، وتارة ثانية يعتبره تلك المقدمات ذات النظام العام التي تساعد المبدعين في بناء الحجج وترتيب القيم.

والمقام في هذا التصور الأخير تجريدي أساسه المجاز والتلميح، لذا يمكن اعتباره «قيمة بلاغية شكلية ذات وظائف أسلوبية مساهمة في خلق الانسجام التام بين الشكل والمحتوى»[٥٤]. ومع أن لكل من التصورين دوره الحجاجي إلا أن (بيرلمان) يصر على ضرورة التحامهما، وعدم إمكانية دراسة أي منهما بمعزل عن الآخر.

وقد قاده هذا التصور إلى الإسهام في توضيح العلاقة الجدلية بين الشكل والمضمون من جهة، والعرض والتقديم من جهة أخرى مؤكدا أن سبب تدهور البلاغة القديمة كان التركيز على أنها لا تعدو كونها أسلوبا للعرض الشكلي المحض. بالتالي دعا إلى نبذ هذا التصور بإعطاء دور كبير للبلاغة في جميع ميادين الحياة بوصفها أخص علم يدرس جدلية الأشكال والمضامين. لكنه وإن ركز على تعاضد الشكل والمضمون، إلا أنه لم يهتم كما ينبغي، في تصوره للحجاج بالدور الإقناعي الذي يمكن أن يلعبه الاعتناء بالشكل، مع أن بعض النقاد اعتبر «المعنى شكلا وأنه لايمكن أن يدرك إلا باعتباره كذلك»[٥٥]، حيث إن للشكل كما هو معلوم دوره في جذب الانتباه ومنح المستقبل له شعورا معيّنا وإحساسا خاصا به، انطلاقا من بنائه وتقاسيمه. وبهذا التصور يمكن أن نقول إن بيرلمان يرسم الحدود بين البلاغتين المنطقية والأدبية.

لكنه مع ذلك يؤكد أن الأبنية اللغوية والأشكال لا يمكن أن تحلل بمعزل عن الأهداف الدلالية التي تحملها وتنشدها.

ولما كانت المقامات تتعدد بتعدد الظروف المنجبة لقول معين فإن هذا الباحث وإن حدد معنيين أساسيين للمقام إلا أنهما يختزلان داخلهما مقامات وأماكن متعددة يصلح كل منها دعامة حجاجية في موقف معين، كما قد يتعاضد اثنان أو ثلاثة من هذه المقامات في سياق نوعي معين لإبراز فكرة خاصة بالمقام الشامل. فمثلا لدينا المقامات الكمية والأخرى النوعية والمقامات الخاصة بالتنظيم والترتيب، ومقامات الوجود (الكينونة) ومقامات الماهية ومقامات الذوات إلى غير ذلك من المقامات المؤطرة للعملية الحجاجية برمتها.

إن المبدع (خطيبا أو كاتبا) مطالب اليوم- أكثر من ذي قبل- بحسن توظيف هذه المقامات، واحترام حدودها حرصا على سلامة المسار الحجاجي والمخطط الإقناعي. فمثلا في مقام تكون فيه القيم الواقعية (الملموسة) محور الدعوة وأساس الخطاب لاينبغي الاستناد كليا إلى إمكانات المقام النوعية، وكذلك العكس. بمعنى أنه في الخطاب الذي محوره القيم المجردة لا ينبغي التركيز

في الخطة الحجاجية على معطيات المقام الكمي، بل لابد من مراعاة طبيعة الهدف واختيار الأساليب المجسدة له، بحيث يحمل كل من الشكل والمضمون بعضا من عناصر الحجاج، تلتئم جميعها في بؤرة الهدف المدعو إليه. فحسن استحضار المقام، أو بعبارة أخرى، حسن استغلال إمكاناته يمنح المسار الحجاجي «قوة ذات تأثير دامغ»[٥٦]. إما عن طريق عرض الفكرة الهدف على سبيل الحصر أو الاستثناء أو الفرادة أو التعذر أو الأولوية.. إلخ. ذلك من الصور التي تكون فيها «الفكرة الهدف» مرجحة على ما سواها. لكن لا ينبغي أن ننسى أن هذا الرجحان المرجو إنما ينبع من حسن استغلال المبدع (خطيبا، أو كاتبا) للإمكانات المتاحة له- نصية كانت هذه الإمكانات أو مقامية- في خدمة الفكرة المقدمة. ويلعب كل من القياس والاستنتاج دورا أساسيا في عوامل الترجيح. فالحجاج ليس كامنا في المقام محصورا فيه بحيث يختص به، ولكنه مولد منه وفيه، ثم إن الوضع الحجاجي الأساسي لتحديد المقام الذي علينا الاستعانة به وبإمكاناته هو وضع يضم مسألتين أساسيتين: أولاهما: الهدف الذي نروم الوصول إليه. أما ثانيتهما فهي عقبة البراهين التي قد تعوق إقامة حجتنا. وهما مسألتان في غاية الترابط، فلئن كان المقصود من الهدف الذي ننشده إحداث فعل فإنه في الآن ذاته تطور لعديد القناعات والاعتقادات، كما أنه في الوقت نفسه أيضا رفض لعديد البراهين التي تعارضه طرحا. بالتالي فإن وعي الخطيب (وكذا الكاتب) بهذه الثنائية (التطور والرفض) «ضروري لتفجير أي برهنة ناجحة تعمل على الفعل والتغيير»[٥٧].

وفي النهاية لا يمكننا إلا أن نقول إن «بيرلمان»، وإن اهتم بأساليب الحجاج والإقناع، إلا أنه قدم تصورا مفصلا لدور المقام في الخطابات والنصوص المعاصرة على اختلاف أجناسها المعرفية وأساليبها في الأداء والتوصيل.

فنظريته تعتبر بالدرجة الأولى نظرية مقامية، تتلخص في ضرورة مراعاة جملة من العلاقات الحتمية بين المقام والمخاطبين والسامعين وأنواع القيم ومراتب الكينونة والثقافة والحضارة وآفاق انتظار المعنيين، وتأثير ذلك على فكر المتكلم (المبدع). وعلاقة ذلك كله (بوصفه كائنا) بما ينبغي أن يكون. وقد أشرنا في البداية إلى الدور الذي أعطاه هذا الباحث للجوانب النفسية ولحسابات الاحتمال والتوقع ودورها مجتمعة في الدفع إلى الفعل.

لقد أضحت ثنائية البلاغة/ الحجاج عند «بيرلمان» عبارة عن نظرية عالمة Savante شاملة

نختار الممارسين الأكفاء على غرار ما نختار النصوص الثرية قراءها المثاليين على حد تعبير أومبرتو إيكو (المشار إليه سابقاً).

ولئن ظل اهتمام هذه البلاغة الحجاجية بالجوانب التداولية ضئيلاً، إلا أنه «يكفي أن تشير إلى أن أبرز إنجازاتها تمثل في رد الاعتبار الفلسفي لكلمة بلاغة، ثم الإسهام في العودة إلى إثارة قضاياها الجوهرية من منظور أفاد من تطور معطيات المنطق الحديث، وشارف أفق علوم الاتصال الجديدة»[٥٨]

II - البلاغة البنيوية

إذا كان تيار البلاغة الحجاجية ينطلق من تاريخ البلاغة القديمة لإعادة قراءته وعرضه من جديد فإن هذا التيار، الذي انبثق في بداية السبعينات متأثراً بالتطورات البنيوية في مجالي اللغة والقراءة، يعلن قطيعته التامة مع التقاليد البلاغية القديمة، ويقصي من دائرته النقدية كل اهتمام بالتاريخ. لكنه بالمقابل يهتم بالعلامة اللغوية باعتبارها الأساس اللغوي في كل عملية اتصال لغوي. واهتمامهم بالعلامة يتركز على جانبين من تجلياتها: أولا المظهر الملفوظي Aspect Énoncif وفي هذا المظهر يتم تناول الوظائف الداخلية للخطاب التي تعمل على توالد دلالاته. وثانيا المظهر التلفظي Énonciatif الذي يتم من خلاله تحديد الخصائص الفنية للشكل في علاقته بالدلالة العامة للملفوظ. من هنا كان البحث الأساسي في هذه المدرسة ليس عن دلالات النص ولكن عن (كيف دل النص) على المعنى الذي يرى القارىء أنه له. بالتالي كان العمل التحليلي مؤسسا على الوحدات الصغرى في تناميها وتعالقها ودلالة بعضها على بعض حتى نصل إلى وحداتها الكبرى الضامة أضف إلى ذلك أن هذه المدرسة «تعمد أولا إلى وصف العمليات البلاغية في جملتها على أسس جديدة، باعتبارها تحولات أو انحرافات تتضمن تصورات عديدة وتميز بين مجموعتين كبيرتين من هذه التحولات: إحداهما تتصل بجوهر المادة والأخرى بعلاقاتها. فالأولى تعاني فيها الوحدات ذاتها من التحول، والثانية تظل الوحدات كما هي، ولا يمس التحول سوى علاقاتها»[٥٩].

العمليات الأولى الجوهرية تقوم على الاستغلال القوي للجوانب التركيبية كالحذف والإضافة والتعلق، وأيضا التوظيف المعين للقيم البلاغية (يتم ذلك على المستويين الإبداعي والنقدي، وإن كان ينبغي أن يكون الاهتمام به في الأخير بارزاً).

اما العمليات العلائقية فهي قائمة على الروابط والأنساق السياقية، أي التناوب الذي يحصل على المستوى الأفقي «النظمي» «وبناء على ذلك نجد هؤلاء البلاغيين الجدد يقومون بتحليل مستويات التغير على محاور عدة، التغيير اللفظي والتركيبي والدلالي، مركزين على العلاقات القائمة بينها».[٦٠]

ولم يهتم هؤلاء البلاغيون كثيرا بمفهوم الحجاج، لأن تركيزهم كان منصبا على النصوص التي تكون فيها الوظيفة الأدبية (الشعرية) مهيمنة. وبالتالي فهي نصوص، وإن كانت لها خططها الإقناعية الخاصة المنبثقة من فنية التكوين، إلا انها تتباين والنصوص السياسية ذات الطابع النفعي البارز والمقاصد الإقناعية المهيمنة. وتولي هذه البلاغة أهمية لا بأس بها لدور الشكل الخطي للمكتوب وايضا لصورته النطقية، وذلك فيما يتصل بالصورة التي يكونها المتلقي عنه (أي المكتوب) وهم يسمون هذا الجانب بـ «ما تحت اللغوي». أما الجانب الثاني فيسمونه «المستوى الأولي» «وهو المتعلق بالحروف ومجموعاتها التي تشكل عناصر صرفية للعلامات، او تشكل مقاطع تقوم بدورها في تكوين الكلمات. والمستوى الثالث هو «المستوى المركب» وهو الخاص بالتراكيب والمتتاليات المتماسكة التي تكون بدورها جملا وفقرات تامة».[٦١]

وفي تحديدهم لهذه المستويات يتبنون منظوراً نحوياً، لأنه في نظرهم هو الذي منه تنبثق جميع الخصائص، وتحته تندرج جميع المكونات النصية. إنه باختصار العنصر الأسلوبي المهيمن على غيره. لذا فلا غرو أن نجد عند بعضهم الحديث عن «نحو الشعرية وشعرية النحو» وذلك في معرض بحثهم عما يسمونه «علم الدلالة البنيوي» La semantique structurelle فهذا العلم في نظرهم هو المحدد لدرجات النحوية ولمستويات الاستفادة مما يسمونه البلاغة المختزنة (أي أقسام البلاغة القديمة). وذلك في علاقتها (النحوية والبلاغية) بالدلالات النصية.

لكن يؤخذ على هذه المدرسة عدم اهتمامها بالقارىء (المتلقي)، وما يتصل به من أطر حجاجية وأخرى تواصلية تداولية. هذا إضافة إلى اختزالها للبلاغة في صور نحوية يسعى من خلالها في احسن الأحوال إلى الكشف عن بناء الجملة وتحديد وحداتها الكلية والجزئية (أي طبقاتها) وكذلك ايضا وظائفها. وهو ما يمكن أن نعبر عنه بالبحث عن: بناء اللغة والوظائف والأفعال- لا النحوية فقط ولكن أيضا الحدثية- ثم التتابع الخطي للكلام وأخيرا نسق النص (أو نظامه).

لكن «... لا يفوتنا أن نشير إلى ان كثيرا من ممثلي هذا الاتجاه قد خرجوا عليه واتهموه

بالقصور والنقص. والنموذج الواضح لذلك هو «جنيت» الذي أعلن نقده لهذا الاتجاه الحصري للبلاغة، حيث ظلت في تقديره تدور حول «العبارة» فحسب، أو بتعبير أدق حول بعض أشكالها التصويرية، مما كاد أن ينتهي بها إلى أن تنحصر في مجرد نظرية للاستعارة تقوم في صلبها على تحديد الانحرافات وطرائق تصويبها. وقد حدا هذا ببعض الباحثين الآخرين مثل (ريكور) إلى الحديث عن الخداع الذي ينطوي عليه تقديمها باعتبارها بلاغة عامة تدعي أنها تريد هز المبنى البلاغي بأكمله، في الوقت الذي لا يتجاوز فيه إنجازها الفعلي مجرد مراجعة قوائم الأشكال البلاغية التقليدية وملامسة مشكلات المعنى والمجاز دون حلول جذرية لها»[٦٢]. وهذا ما جعل العديد من روادها يبحثون عن حلول لتلك المشكلات داخل إطار ماسيسمى لاحقا«بالبلاغة التداولية» التي تستلهم العديد من المنظورات الذرائعية وغيرها من نتائج مدارس ما بعد البنيوية.

III- البلاغة التداولية

انبثق هذا التيار أساسا من النقاشات التي دارت في مدارس ما بعد البنيوية. وقد احتفظ معه، من التيار السابق، بالمشاغل التركيبية التجريبية. لكن هذه الاهتمامات ستكتسي هنا صبغة سيميولوجية دلالية براغماتية مقامية. لأن علم العلامات سيغدو الإطار المنهجي العام للقراءات التي يقدمها المنتمون إلى تيار البلاغة التداولية. إذ لكل نص شفراته الخاصة المنتمية إلى طبيعته النوعية GENRE وهي التي يتوجه إليها اهتمام المؤول البلاغي، لأنها المحددة للأدبيات الكبرى للجنس من جهة، ولأهم توجهات النص من جهة ثانية.

وفي ظل هذا التحول البلاغي لم يعد للشفرة المعنى الذي كان معهودا لها في الدراسات اللغوية الذرائعية، وإنما اكتسبت شحنة تواصلية فكرية. وهذا ما جعل «إيكو» يعرفها بأنها «نظام من الإمكانات يتجاوز تكافؤ احتمال النظام في أصله ليسهل مجاله التواصلي. أي أنه يستخدم عنصرا من نظام يوظفه ليرمز في مستوى آخر لدلالة غير التي كانت له في نظامه الأصلي»[٦٣].

وإذا كانت البلاغة في نظر بيرلمان تكاد ترادف الحجاج فإنها في هذا التيار أضحت مرادفة للتداول الاتصالي. إنها حسب تعبير ليتش «تداولية في صميمها». فهي ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما، ولذا فإن البلاغة والتداولية (البراجماتية) تتفقان في اعتمادهما على اللغة كأداة لممارسة الفعل على

المتلقي على أساس أن النص اللغوي في جملته إنما هو «نص في موقف» مما يرتبط لا بالتعديلات التي يفرضها أشخاص المرسل والمتلقي وموقعهما على معناه فحسب، وإنما بالنظر إلى تلك التعديلات التي تحدث في سلوكهما أيضاً[14]. وعلى الرغم من تحديدهم الظاهري للنص/ الخطاب «بالموقف النفعي/ التداولي لهما» إلا أن لهما صيغتهما الفنية الأساسية المتمثلة في الحوارية (تعدد الأصوات) الناتجة عن توظيف مستويات تناصية متعددة، الأمر الذي يجعلهما منفتحين على ثقافات القراء التي ينتظر منها إعادة كتابتهما. لا لأنهما ناقصان - بالمعنى السلبي للمفهوم - وإنما لكونهما يوحيان بأكثر مما يقولان، لذا تظل سمة اللااكتمال ملازمة لهما، وهي دليل على رحابة آفاق توقعهما.

بهذا المعنى سيكون الطرف الآخر في عملية الاتصال (القارئ/السامع) مركز الثقل في هذه المدرسة البلاغية لأنه المعني بالملفوظ من جهة، والمثير لعملية الاستثناء التي ستحصل له هو وللنص أيضا من جهة ثانية، هذا علاوة على الدور الذي يناط به إنجاز الأفعال الكلامية. بالتالي يكون البحث عن مظاهر الحوارية وخصائصها من أهم مشاغل هذه المدرسة. ولا نريد أن نفيض الآن في تحليل الحوارية، ولكن نكتفي بالإشارة إلى أنها تضم كل ما يتعلق بتوظيف «كلام الآخرين» مهما كانت طبيعته (أسرة - غير أسرة...)، كما أنها تهتم بدراسة الانتماء المكاني، الزماني، المذهبي، والثقافي للشفرات.

وهذه الصفات التناصية التعالقية وغيرها، تجعل الخطط الحجاجية في النصوص والخطابات مؤسسة على البنى المعمارية التي يأخذها تواردهذه «الأصوات/ المقولات» داخل المبدَعات المدروسة وتلك المؤلفة (من منظور البلاغة التداولية).

الأمر الذي يجعل بنية الحجاج عالة avante لانفتاحها على حقول معرفية متعددة.

يضاف إلى ذلك أن هذه البنية سترتبط بالمقام بمفهومه الواسع الجديد الذي أكسبَتْهُ إياه البلاغة التداولية، وهو مفهوم ينظر إلى الظروف الاجتماعية والمذهبية والحضارية ومختلف السياقات الحافة بعملية التواصل (قراءة/كتابة - سماعا/رؤية).

وقد أدى هذا التطور الجديد لمفهوم الحجاج إلى تغير في المنظومتين المفاهيمية والمنهجية للبلاغة التداولية، إذ أصبح علم النفس وعلم اجتماع المعرفة يحتلان مكانة بارزة في هذه المدرسة.

كما تغيرت مكانة (العلامة) signe ومضمونها، حيث انحسرت ليحل محلها (النص) بمفاهيمه الانفتاحية الاستقطابية.

من هنا لم يعد الحديث عن البلاغة التداولية مشروعا بوصفها جزءاً من السيميوطيقا النصية مهمته تحديد الاتصال وأطرافه، لأن هذه المدرسة قد انفتحت على النظريتين النصية والمقامية. وتجلى حضور النظرية المقامية في إسهامات أوستين وزملائه الذين اهتموا بطرق وآليات إنجاز الأشياء بالكلام، ضمن ما سموه «نظرية أفعال الكلام العامة».

أما حضور النظرية الأولى فقد تم على يد (فان دايك) الذي حول البلاغة إلى نظرية نصية توليدية تبحث في كيفيات تناسل النصوص (سواء بانفتاحها على غيرها أو بتأملها لذاكراتها الداخلية) وأساليب كشفها عن أبنيتها الكبرى والصغرى: حيث تمثل الأولى الأبنية التجريدية للمضامين الدلالية الكبرى، وبالتالي فهي ذات طابع دلالي شمولي. أما الأخيرة فهي الوحدات الجزئية المسؤولة عن تلاحم عناصر البنية الكلية للمبدع(نص/خطاب).

وترتبط بتحديد هاتين البنيتين عمليات سياقية وأخرى نحوية مهمة، يتم فيهما تحليل أدوات ودلالات ووظائف كلا من العناصر النحوية والبلاغية في النصوص المدروسة، وذلك بالتركيز على أدوات الاتساق والإحالة والاستبدال والحذف والوصل والاتساق المعجمي والترابط والانسجام. هذا إضافة إلى السياق وخصائصه، وما يتصل بذلك من كشف عن الأسانيد المعرفية الخلفية والمخططات الحجاجية ومظاهر الاستدلال وأساليب توظيف البلاغة (بفروعها التقليدية). وقد قدم الأستاذ محمد خطابي في «لسانيات النص»[٦٥] بحثا متميزاً حول هذه الآليات، لكن من منظور لساني صرف يتمحور حول «الانسجام»، ولايعير الجوانب البلاغية التداولية اهتماما كبيرا، وإن ألمع إلى بعض محاورها الأساسية لكن من منظور تركيبي.

كل هذه التطورات التي حصلت في البلاغة التداولية أثرت على مفهوم المقام وحدوده، الأمر الذي أسفر عن تغير مواز في مفهوم الحجاج وبنائه. وهو ما سيكون محور دراستنا القادمة.

الحجاج في البلاغة العربية المعاصرة

يبدو هذا العنوان مفارقا في صياغته (وهو كذلك) لأن الحديث عن (بلاغة عربية معاصرة) أمر لايزال طموحا. فعلى الرغم من تعدد المدارس اللغوية البلاغية الغربية التي أسفرت بحوثها عن

نتائج متميزة، إلا أننا لم نستفد بعد القدر اللازم لإعادة قراءة موروثنا البلاغي العربي الثري، وباستثناء بعض الجهود التي يقوم بها بالخصوص كل من د. محمد مفتاح، د.صلاح فضل، د.حمادي صمود، د.جابر عصفور، د. لطفي عبد البديع، د. تمام حسان، د. سعد مصلوح... حيث يهتم كل منهم بجانب من جوانب بلاغتنا القديمة، فباستثناء هذه الدراسات لانكاد نجد اهتماما ذا بال بهذا التراث.

إن السبب في عدم تبلور نظرية بلاغية عربية معاصرة كامن في أن العديد من الدراسات التي مورست في حلقتنا النقدية لم تراع في قراءتها الشروط البلاغية العربية، وإنما عمدت إلى النظرية النقدية الغربية متخذة منها عدسة واحدة للنظر إلى مختلف جوانب النص، الأمر الذي أسفر عن تغييب للعديد من خصوصياتنا في إجراء اللغة وفي توظيف البلاغة.

وعلى الرغم من أن بلاغتنا القديمة تعرضت إلى انتقادات قوية نتيجة للمستوى الذي وصلت إليه عندما أضحت فنا للتوشيح والإطراء والمبالغة، لتنزل بعد ذلك إلى المستويات المدرسية المتدنية، حيث تقدم في أسلوب نحوي تقعيدي، إلا أن مناهج القراءة المعاصرة كفيلة بأن تكشف عن الجوانب المشرقة من هذا التراث.

ففي مجال الحجاج نجد عند القدامى إشارات واضحة إلى شروط الكلام وسماته والمقامات التي ينبغي أن يرسل فيها أي خطاب. كما أنهم اعتنوا- نسبيا- بالمتلقي حيث تكلموا عن حضوره، وذلك في تناولهم للسمات الأسلوبية الخاصة بكل كلام.

هذا إضافة إلى اهتمامهم بآليات الإقناع وخصوصا الخارجية منها (المتعلقة بالأمور النفسية- والهيئة- والموقع- والصوت...).

وبالتالي فإننا عندما نستخلص هذه الأفكار من كتب (الجاحظ وابن طباطبا والحاتمي والسكاكي والجرجاني... وغيرهم)، ثم نتناولها أولا انطلاقا من الشروط الحضارية الشاملة التي انتجتها. وثانيا من منظور كل من التداولية (البرجماتية) والسيمياء التركيبية، مركزين على العلاقات الكائنة والممكنة-اليوم- بين عناصر العملية التواصلية (الباث- المستقبل-الرسالة- القناة- الشفرة- السياق) فإننا لا محالة سنخرج بنتائج مبهرة تعيد لبلاغتنا دورها الاجتماعي والأدبي الفني الريادي من جهة، ونؤكد من جهة ثانية على سبقنا المعرفي إلى بعض الإشارات التي تعد اليوم محور الدرسين اللساني والبلاغي الغربيين: وذلك مثل علاقة الشكل بالمضمون ومكانة كل من عناصر البيان والبديع والمعاني في النظرية النقدية الأدبية، وفي البحوث التأويلية (الهيرمنيوطيقية).

هذا إضافة إلى أن هذه الدراسات الجديدة- المنتظرة- مطالبة بالكشف عن تواشج النظريتين البلاغية واللغوية، على اعتبار أن الأولى انبثقت من الأخيرة بعكس ما قد يظن البعض من أنها انبثقت من المداخل النقدية الأدبية «ولهذا السبب نجد قضايا البلاغة بفروعها المختلفة قضايا لغوية الطابع في مجملها. فلاتقترب من الطابع النقدي إلا في مواضع محددة»[٦٦]، وسبب ذلك يرجع (سابقا) إلى المناخ السياسي المذهبي الذي كانت تعرفه المنطقة.

أما التحول (المعاصر) فيرجع إلى أسباب معرفية منهجية جعلت الحدود بين النظريات البلاغية والنقدية واللغوية متماهية ودقيقة إلى أبعد الحدود.

وقد أبان هذا التداخل عن خصوصية النظرية البلاغية «لأنه إذا كانت خواص العلم المضبوط تتمثل في الموضوعية والشمول والتماسك والاقتصاد، فإن كل ذلك متوفر في البلاغة»[٦٧].

لكن الكشف عن كل ذلك يتطلب معرفة معمقة بجل الخطابات التراثية المؤسسة والأخرى الحافة بالبلاغة العربية، كما يستوجب دراية بالنظريات النقدية اللغوية البلاغية المعاصرة، ثم قراءتها في ضوء شروطنا الحضارية المعاصرة- على غرار ما قرأ أسلافنا التراث اليوناني- وهي مهمة جليلة ملقاة على عاتق أقلامنا البارزة، ونرجو أن يسمح لنا الوقت بالإسهام في هذه الحركة ولو بجزء يسير.

إلى هنا نكون قد ألمحنا إلى أهم مظاهر الحجاج عند المدرسة البلجيكية (الحجاجية). وقد رأينا إلى أي مدى كانت جهود «بيرلمان» رائدة في الكشف عن الجوانب المشرقة من البلاغة الغربية، الأمر الذي نفى عن هذا الجانب المعرفي اللغوي تلك السمعة السيئة التي لحقت به عقودا طويلة.

وقد تم ذلك بفضل مراعاة الجمع بين الجوانب التاريخية والاجتماعية والتأويلية في الدرس البلاغي المعاصر الذي كان اهتمامه في هذه المدرسة منصبا على مجالات الإقناع والبرهنة والتأثير. وهي الاهتمامات التي رأت المدارس اللاحقة (خاصة البنيوية والتداولية) أن حصر البلاغة فيها سيؤدي بهذا الدرس إلى نوع من الاستهلاك الذاتي لمقولاته ومنهجه، وبالتالي فإن خير منهج لتفادي ذلك هو فتح البلاغة على العلوم المعرفية المعاصرة خاصة علوم الاتصال (المرئية المسموعة...)

ثم الاهتمام أكثر بالمتلقي، وبالجوانب النفسية والمعرفية: الفلسفي منها والاجتماعي، لأن طبيعة التداخل المعرفي أضحت ملحة.

المصطلح الأدبي: بين غناه بالمعرفة وغناه بالتاريخ

بعض مصطلحات الشعر العربي لدى القدامى - نموذجاً

د/ صالح غرم الله زيّاد*

أولاً: مقدمة

المصطلح بين المعرفة والتاريخ:

١- المعنى اللغوي لـ«مصطلح»

نفهم من حديث معاجم اللغة عن الجذر «ص ل ح» الذي ترجع إليه لفظة «مصطلح» صرفياً، ما يدل على صلاح الشيء وصلوحه، بمعنى أنه مناسب ونافع. ففي المعجم الوسيط : «صَلَحَ الشيء: كان نافعاً أو مناسباً، يقال: هذا الشيء يصلح لك»[١]، كما نفهم ما يدل على المسالمة والاتفاق، إذ يرد في لسان العرب أن «الصُلْح: تصالُح القوم بينهم، والصُلْحُ : السِّلْم، وقد اصطلحوا وصالحوا واصّلَحُوا وتصالحوا واصّالحوا، مشددة الصاد، قلبوا التاء صاداً وادغموها في الصاد بمعنى واحد»[٢] أي اتفقوا وتوافقوا ... و«الاصطلاح» في المعجم الوسيط: «اتفاق طائفة على شيء مخصوص،ولكل علمٍ اصطلاحاته»[٣].

* أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية- جامعة الملك خالد- المملكة العربية السعودية - ابها.

٢- من الاختلاف إلى الاتفاق

و(الاتفاق) الذي نفهمه، لغوياً، من مدلول «المصطلح» يُفضي بنا إلى التفكير في جوانب من حركة المصطلح وانفعاله وفعله:

فالاتفاق حول دلالة ما يقتضي أن يسبقه اختلاف، وهذا الاختلاف هو الذي يبرّر وعينا بالاتفاق الحادث، ويشعرنا به، فاتفاقنا على أمر يتضمن زوال التخالف والتعارض في سياق من الصيرورة والتحول. على أن هذا الاتفاق لا يغدو نهائياً، وإلاّ توقفت حركة الحدوث والتحول اللازمة للوعي بالمصطلحات في حركة العلوم والمعارف والأنشطة الإنسانية، ومن ثَمّ لا نجد مصطلحاً إنسانياً كاملاً، ذلك- كما يقول عبد الله الغذامي- إن: «كل مصطلح هو بالضرورة مشروع مفتوح، يتغير مع كل تحول يمر عليه من فرد إلى فرد، ومن زمن إلى زمن، ومن لغة إلى لغة»[٤]. والتغير هنا يعني تغيراً معرفياً واجتماعياً ونفسياً وقيمياً يقتضي الاصطلاح من جديد على مدلوله الحادث، لأن «الناس جميعاً يتساوون في فهم معاني الأشياء، ولكنهم لايتساوون في فهم معاني مالها من أسماء»[٥] أي أن المنظومة الاصطلاحية ذات ترابط وتعالق في الدلالة على حقلها المعرفي، أو على مؤلفها أو عصرها أو مكانها، وهو التعالق الذي يجعل تحليلها منفذاً للكشف عن المفاهيم والرؤى والطروحات المختلفة، وقدرها، وتمييزها.

ولهذا لا تغدو المصطلحات سبيلاً ميسوراً لكل أحد في فهم مقتضياتها الدلالية. كما إن هذه المقتضيات الدلالية في انتسابها إلى سياق مخصوص قد أفضت من الوجهة المعجمية إلى البصر بمرجعيات سياقها ذاك. فهي، لدى مجدي وهبه وكامل المهندس: «مجموع الكلمات والعبارات الاصطلاحية المتصلة بفرع من فروع المعرفة أو بفن ما، أو الكلمات والعبارات الخاصة بعالم معيّن في بسطه وعرْضه لنظرية من النظريات الفنية أو الأدبية أو العلمية، كأن تقول مصطلحات الغزالي في التصوّف كالمريد والقُطْب والإشراق»[٦]. كما أنها «ألفاظ خاصة» عند جبور عبد النور «لكل علم من العلوم أو فن من الفنون، أو حرفة من الحرف... تدل على أمور معينة، يطلق على مجموعها اسم: مصطلح، مثل: مصطلح التاريخ، مصطلح الأدب، مصطلح الفلسفة... إلخ»[٧].

فالاتفاق على مدلول المصطلح يحمل في الآن ذاته اختلافاً على المستوى الأفقي، هو اختلاف مصطلحات الحقل المعرفي عن مصطلحات غيره من الحقول المعرفية، واختلاف مصطلحات هذا الاتجاه عن اتجاه آخر، أو هذا العالم عن آخرين في الحقل المعرفي ذاته. كما يأتي الاختلاف على

المستوى الرأسي وفي الحقل المعرفي ذاته بين القديم والحديث فتُسك مصطلحات جديدة أو تُخصص القديمة بالقصد إلى مدلول مغاير أو بنسبة المدلول إلى اسم مغاير... بما يجلي عن أصالة الأطروحات الفكرية وتميزها.

٢- المصطلح وسمات العلمية المنهجية

ويقودنا ذلك إلى مسألة الوضوح في معنى «المصطلح»، وهو صفة متأتية من «الاتفاق»، فالمعنى المتفق على فهمه هو معنى واضح بالضرورة لدى أولئك المتفقين عليه. والمقصود بالوضوح هنا الخلوص من اللبس والاختلاط، ومن ثَمّ كانت المصطلحات سمة علمية في حقول المعرفة المختلفة، لأنها من خلال صفة الوضوح والدقة تفضي إلى التحديد لمدلولها، وهو التحديد الذي تتم من خلاله عملية الاتصال اللغوي لتنتقل المعلومة والمعرفة والرأي بين المتعاطين للغة دون عوائق. وعلى هذا كان المعنى الاصطلاحي للفظ «مصطلح» عند جبور عبد النور أكثر تأكيداً على فعله التواصلي والمفاهيمي الذي تضطلع به اللغة في خطابها العلمي الدقيق، فهو- كما يقول - «لفظ موضوعي يؤدي معنى معيناً بوضوح ودقة بحيث لا يقع أيّ لبس في ذهن القارئ، أو السامع»، ويضيف: «وتشيع المصطلحات ضرورة في العلوم الصحيحة، والفلسفة، والدين، والحقوق حيث تُحدّد مدلول اللفظة بعناية قصوى»[٨].

هذا التحديد الدقيق للمعنى في المصطلح يعني انحسار سلطة الذات عليه، وبروز استقلاليته بين الموضوع والذات، بما يجعله شفيفاً عن مدلوله ومطابقاً لموضوعه، كاصطلاح «المثلث» و«الخط المستقيم» و «أنواع الزوايا»... إلخ، في عرف الهندسة والمساحة، حيث يتخذ المصطلح، هنا، صفة موضوعية، هي نتاج منظور منهجي «ابستمولوجي Epistemological»*. تتحقق به علمية العلم، ومن غير المقبول في العلم- كما يقول فؤاد زكريا- «أن تترك عبارة واحدة دون تحديد دقيق، أو تستخدم قضية يشوبها الغموض أو الالتباس»[٩].

بيد أن هذه العلمية في أعمق وأدق صفاتها الحديثة لا تتسم بالإطلاق بقدر ما تتسم بـ(النسبية) فالحقيقة العلمية- بعبارة الدكتور فؤاد زكريا- «لا تكف عن التطور، ومهما بدا في أي

* الإبستمولوجيا هي النظرية المتعلقة بمنهج المعرفة والأساس الذي تُبنى عليه (انظر: The oxford Dictionary of current English) وتتضمن دراسة مبادئ العلوم وفرضياتها ونتائجها دراسة انتقادية توصل إلى إبراز أصلها المنطقي وقيمتها الموضوعية. ويشير د. جميل صليبا إلى الاختلاف في دلالة هذا المصطلح بين اللغتين الإنجليزية والفرنسية، حيث يرادف في الأولى (نظرية المعرفة) في حين يغلب إطلاقه في الثانية على تاريخ العلوم وفلسفتها (انظر: المعجم الفلسفي: ٣٣/١). ويشيع استعماله، عربيا، في الدلالة على الصفة المنهجية الموثوقة معرفياً.

وقت أن العلم قد وصل في موضوع معين إلى رأي نهائي مستقر، فإن التطور سرعان ما يتجاوز هذا الرأي، ويستعيض عنه برأي جديد»[١٠].

كما أنها لا تتصف بالثبات، بل بـ(التغير)، ومن الخطأ الفاحش كما يضيف الدكتور زكريا أن «نفترض.. أن العلم الكامل لابد أن يكون ثابتاً، مع أن ثبات العلم في أي لحظة، واعتقاده أنه وصل إلى حد الاكتمال، لا يعني إلاّ نهايته وموته، ومن ثَمّ فإن الثبات في هذا المجال هو الذي ينبغي أن يعد علامة نقص. إن العلم حركة دائبة، واستمرار حيويته إنّما هو مظهر من مظاهر حيوية الإنسان الذي أبدعه، ولن يتوقف هذا العلم إلا إذا توقفت حياة مبدعه ذاته»[١١].

المصطلح- إذن- غني بالمعرفة المنهجية لأنه جزء أساس من آلية الخطاب العلمي، وعلميته هذه متأتية من موضوعيته التي تُحَيِّد فعل الدلالة والصياغة فيه إلى درجة الشفافية والمطابقة، وهي أعلى مستويات الكفاءة التواصلية في فعل اللغة.

بيد أن هذه السمة العلمية في المصطلحات لا تنفك عن تجريدية العلم من جهة، مثلما أنها لا تنفك عن نسبيته وتغيره المستمر. فالتجريد- في وصف فؤاد زكريا- صفة ملازمة للعلم، ومن ثَمّ لا تحيل مصطلحات العلوم المختلفة إلى الواقع الحي بقدر ما تحيل إلى صور متخيلة تستجيب لدلالة تلك المصطلحات والرموز، ويضرب الدكتور مثلاً على ذلك بحديث عالم الجغرافيا عن خط الاستواء، أو خط جرينتش، فعالم الجغرافيا هنا «لايقصد خطاً عرضياً أو طولياً مرسوماً على صفحة الكرة الأرضية، بل يقصد خطاً تخيلياً نرمز به إلى الأماكن والمواقع على سطح هذه الأرض. وهذه الخطوط ومعها مختلف الرموز التي نستخدمها في العلم، هي عالم مصطنع يخلقه العالِم، ولا وجود له في الطبيعة، بل إن وجوده ذهني فحسب»[١٢]. فالاصطلاح على دلالة (خط الاستواء) و (خط جرينتش) هو اتفاق على صورة مجردة تقوم في الأذهان.

وإذا كان التجريد في العلم المعاصر صفة متأتية من إرادة الدقة القصوى على النحو الذي يُمكن أن نجد أقوى أمثلته في صيغ الرياضيات، فإن دقة المصطلحات تفضي بها إلى كثافة في الدلالة يغدو المصطلح اختصاراً لها ورمزاً لسعتها، ومن ثَمّ يجيء القول بأن «المصطلح يتخذ للتعبير بلفظ واحد في الأعم، عن معنى أو فكرة لا تستوعبها في العادة لفظة واحدة، ولهذا أُطْلِقت عليه هذه التسمية، أي أنه يُصْطَلح به على تأدية المعنى المقصود»[١٣].

وقد استدعى هذا الاكتناز الدلالي في المصطلح، من حيث هو وسيلة المتعاطين لخطاب العلم

إلى سهولة تبادل الأفكار ودقة التحديد لها، منذ القديم- آلية (الحد Definition) بوصفها: «تعريف كامل، أو تحليل تام، لمفهوم اللفظ المراد تعريفه»[١٤]. وهذه الآلية هي الخطوة النظرية الأولى التي يتأسس بها العلم على النحو الذي يميز مادته، وينشئ قوانينه المنهجية، التي تصف وتكشف وتَفْهَم وتُفْهِم، وبذلك تُحقّق لمادة العلم ما تحصل به صورتها في العقل وإدراكها على ما هي عليه.

٣- الواقع (المحسوس) والواقع (المعقول) في دلالة المصطلح

ولكن السؤال المهم، هنا، ينجم عن مادة العلم هذه، وهي الواقع الحي في مستوياته وجوانبه المختلفة، إذا كانت المصطلحات وحدودها ومفاهيمها تحيلنا إلى واقعية هذا الواقع فلماذا نُعنى بالمصطلحات ولا نُعنى بالواقع؟ ألم نقل إن المصطلحات آلية ضبط وتحديد للدلالة بحيث تصل لغة الخطاب العلمي (على إطلاقه) من خلال المصطلحات إلى مستوى الشفافية والمطابقة في الإشارة إلى الواقع؟ أليس الواقع في مستوى أغراضنا النفعية والعملية، وفي مستوى فضولنا العلمي وشهيتنا للمعرفة، هو بيت القصيد ومربط الفرس للجهد العلمي؟

إن الإجابة، هنا، تقتضي أن نعي مدلول (الواقع) في خطاب العلم والمعرفة البشرية، ذلك أننا حين نفهم هذا الواقع على أنه الواقع المباشر الذي نتلقاه حسياً، يصبح فهمنا، عندئذٍ، نفعياً، وتهتز المعادلة المنهجية بين الذات والموضوع لتصبح الذات عيناً ترجح به كفتها على حساب الموضوع. (الواقع) -إذن- في الخطاب العلمي المنهجي هو الواقع (المصنوع)، وهو تصور قاد نظرية المعرفة إليه الفيلسوف الألماني (أمانويل كانت Immanuel Kant – ١٨٠٤م) حين رأى أن أذهاننا تصنع الواقع، وأن كل ما يكتسبه (الواقع) من تشكيل أو تنظيم إنّما يفرَض عليه من أذهاننا، التي تأتي بالإطار أو القالب الذي ينبغي أن تُصب فيه الكثرة من الإدراكات غير المهضومة قبيل أن تتصف بالمنطقية أو المعقولية. ومن هنا ينفي (كانت) أن يكون الذهن مجرد أداة سلبية لتلقي الانطباعات، كما كان يرى المفكرون السابقون، وإنّما هو أداة إيجابية لا تكف أبداً عن التحويل والتنظيم والبناء لمعنى الواقع ليغدو واقعاً معقولاً نستطيع فيه أن نعيش وأن نفكر[١٥].

إن الواقع كما نعرفه هو - في نظر كانت - «مصنوع أكثر منه معطى، وهو تركيب أكثر ممّا هو تلق. وكل ما يجعل العالم مترابطاً ذا معنى، يأتي... (بالفهم). بل إن الزمان والمكان، وهما الوسيلتان الرئيسيتان اللتان نعرف من خلالهما عالمنا، هما صورتان ذهنيتان أوليان للفهم»[١٦].

وعلى هذا كان خطاب المعرفة العلمية نسيجاً لواقع مستقل عن الواقع الحي الملموس، وكانت المصطلحات بوصفها لغة العلم الية للإشارة إلى الصور الذهنية المركبة للواقع، أي أنها تحيل إلى الواقع المعقول والمبني، ولا تحيل إلى الواقع المحسوس والمعطى، ومطابقتها وشفافيتها ودقتها مستندة إلى الصورة الذهنية المبنية للواقع المعطى لا إلى حسيته ووقائعيته الحية. وهي مسألة تقودنا إلى أن نقيس فاعليتها اللغوية علمياً، ونجاعتها في احتواء الأفكار، ومصداقية القول بها اصطلاحياً، بمقدار استقلالها عن الواقع المعطى وانفكاكها من القيد الذي يحددها بصورة ما من صور ذلك الواقع. إنها لغة الأفكار العلمية، وصورها وأطرها التي يصفها زكي نجيب محمود بقوله: «اكثرها تجريداً وتفريغاً، اكثرها بقاء، واوسعها شمولاً، وكلما زادت فيها مقادير الحشو المادي الذي يربطها بمكان معين أو بزمان معين كانت أسرع إلى الزوال سرعة تتناسب مع حشوها»[١٧].

ومن الواضح أن هذه الصفة العلمية في المصطلحات قد رتّبت على منطلق لا يقلّ اهتمامه بتطوير الواقع المعطى وتحسين ظروفه، وتفعيل وجوه العيش به وفيه وتكييفها عن الاهتمام بصورته المعرفية ووجوه الوعي الحقيقي به، فكان الفضول المعرفي المطلق محيطاً شاسعاً للإنجازات النظرية والتطبيقية في العلم المعاصر على نحو تحققت به ومعه جوانب لا تخفى من المنفعة والرفاهية لإنسان اليوم. كان التباعد بين العلم والواقع في ضوئها العلة «التي تكسب الإنسان مزيداً من السيطرة على هذا الواقع، وتتيح له فهما افضل لقوانينه»[١٨]. وغير خاف أن انعكاس هذا التراتب في الرؤية المعرفية مؤذن بانعكاس النتائج، حيث يهيمن الواقع المعطى بما لايدع فرصة لاكتساب الية الوعي به، والتفهم له، واكتشافه، وتطويره، وعمرانه.

٤- تاريخية المصطلح

ولما كان العلم دائب التغير والتقدم والاتساع كان الواقع المبني تحوليًا، وكانت صورهُ في تغير واتساع لا ينتهي على مستوى الوعي البشري به. ومن ثَمّ كان التمرحل التاريخي سمة تنطبع بها وفيها حركة الأفكار، وإنتاجها، وما يعبر عنها من مصطلحات. وهذا يعني أن نمو المعرفة يستلزم نمو مصطلحاتها، ونمو المصطلحات يعني أن في تكوينها المعرفي ما هو نسبي وخاص، هو ما عبر عنه زكي نجيب محمود مما عرضناه أعلاه بـ«الحشو المادي» أي الارتباط بواقع تاريخي محدد. فانطلاق المصطلح خارج القيود التاريخية هو الذي يمنحه الثبات، وهو ثبات يساوي ما فيه من

تجريد، بذلك القدر الذي تصبح الرموز والأشكال الرياضية نموذجه الأكمل، وهو نموذج تطمح إليه العلوم بمختلف حقولها الطبيعية والإنسانية. وبغض النظر عن مدى ما حققته من نجاح، فإنه مدى ليس هيناً على أي حال، وهو مدى معتبر وله قيمة دلالية مائزة، مادمنا ننظر إليها نظرة علمية، وننظمها (أو نطمح بالقياس إلى بعضها الإنساني) في دائرة العلوم والمعارف المنهجية.

هذه التاريخية في المصطلحات منفذ لإدراك خصوصية الوعي فيها، ونسبية القيمة، وأن نؤرخ للأفكار بها التاريخ المبين للجامد والنامي والإنساني والمحلي والفاعل والمنفعل والأصيل والدخيل... بوصفها إشارات دالة: من وجهة الوجود الاجتماعي وعلائقه في مكان وزمان معينين، ومن وجهة التغير والتحول المطلق في الوعي المعرفي دون تحديد لإطلاق هذا التحول بقيد من صفات التقدم أو التطور أو الرقي، لأن أي علم راق ومتطور ومنظم ما هو في الحقيقة إلا محصول من معاناة الأفكار والصيغ المختلفة للوعي، ورث السابق ويورّث اللاحق. فهو القديم وما يجاوزه، وهو ما أخِذَ به من الماضي وما لم يؤخذ به في الوقت ذاته. فالمعرفة العلمية بحسب فؤاد زكريا، ثانية: «متغيرة حقاً، ولكن تغيرها يتخذ شكل (التراكم)، أي إضافة الجديد إلى القديم، ومن ثَمّ فإن نطاق المعرفة التي تنبعث من العلم يتسع باستمرار»(١٩). ولذلك يغدو الوعي بالسياق الاصطلاحي المحدد جزءاً من إرادة البناء لوعينا علمياً.

وبناء الوعي بالمعرفة في تمرحلها تاريخياً يستصحب من خلال التاريخية في المصطلحات سياقها الاجتماعي. فالمجتمع المنتج لمصطلحاته الخاصة يتمتع حتماً بقدرة على بناء أفكاره، ويجهد في تركيب وعيه وبناء تاريخيته وفضاءاته الثقافية والرمزية المائزة. ومن مؤلفينا القدامى من وعى هذا المنطق الذي يؤسس للمصطلحات مضمار الحركة، ويتيح لها فضاء التشكل والإبداع والتكاثر والنمو بما يوازي تشكل العلم ونموه. وهاهو أحدهم يقول: «وكل من استخرج علماً، أو استنبط شيئاً، وأراد أن يضع له اسماً من عنده، ويواطئ عليه من يُخرجه إليه، فله أن يفعل ذلك. ومن هذا الجنس اخترع النحويون: اسم الحال، والزمان، والمصدر، والتمييز. واخترع الخليل (-١٧٠هـ) العروض، فسمى بعض ذلك: الطويل، وبعضه المديد، وبعضه الهزج، وبعضه الرجز. وقد ذكر أرسطاطاليس (-٣٢٢ق.م.) ذلك، وذكر أنه مطلق لكل أحد احتاج إلى تسمية شيء ليعرّفه به أن يسميه بما شاء من الأسماء، وهذا الباب مما يشترك العرب وغيرهم فيه وليس مما ينفردون به»(٢٠). والعبارة، هنا، تجترح من الأدلة العملية، ما يقوّي من حجية منطقها النظري، فتذكر أمثلة اصطلاحية من «اختراع النحويين»، ومن «اختراع الخليل». كما أنها تعظّم اليقين في أطروحتها

النظرية بتجاوز المحلية (أو الخاص) لدى العرب، حين تذهب للاستشهاد بقول (أرسطو) لتكتسب درجة من عموم الحقيقة واتساع دائرتها الإنسانية.

٥- عناية القدامى بالمصطلح

وحقاً نجد لدى القدامى وعياً بأهمية المصطلح وبما ينشئه الوعي به من انضباط علمي من جهة، ومن خصوصية تتيح للمؤلفين والمفكرين التحرك ضمن دوائر اصطلاحية يضعون أسماءها، أو يقترحون مسمياتها، لتضيف أفكاراً، وتمد أخرى، وتتسع بحدود المعرفة، وتعمقها. وكُتُبٌ مثل كتاب: (التعريفات)[٢١] للسيد الشريف الجرجاني (-٨١٦هـ)، و(الزينة في المصطلحات الإسلاميّة العربية)[٢٢] لأبي حاتم الرازي (٢٧٧هـ)، و(إحصاء العلوم)[٢٣]، و(كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق)[٢٤] لأبي نصر الفارابي (-٣٣٩هـ)، و(مفاتيح العلوم)[٢٥] لأبي عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمي (-٣٨٧هـ)، و(مفتاح العلوم)[٢٦] لأبي يعقوب السكاكي (-٦٢٦هـ)، و(مختصر اصطلاحات الصوفية)[٢٧] لابن عربي (-٦٣٨هـ)، و(البديع في نقد الشعر)[٢٨] لأسامة بن منقذ (-٥٨٤هـ)، و (كشاف اصطلاحات الفنون)[٢٩] للتهانوي (-١١٥٨هـ)... إلخ، بالإضافة إلى معاجم اللغة.. هي أمثلة واضحة على الإحساس العلمي بضرورة الفقه للحدود الاصطلاحية، والإبانة عن معانيها بما يُخلِّص المتداولين لها من الاضطراب واللبس والاختلاط.

أمّا إذا نحن تعمقنا في تقليب كتب الأقدمين فسنجد إلى جانب الاحتفال بالحد والتعريف وصك المصطلحات عند بعضهم[٣٠]- بما يميزه- المساطة بينهم على سبيل الاستفهام أو الاعتراض والإنكار[٣١]، وسنجد التغاير بينهم في مدلول المصطلح، أو مرجعيته العربية، أو المنطقية، أو اليونانية... وهو تغاير لم يكن يحلو للبعض كأبي القاسم الآمدي (-٣٧٠هـ) حين أخذ على قدامة بن جعفر (-٣٣٧هـ) مخالفته ابن المعتز (- ٢٩٦هـ) في بعض مصطلحات الفنون البلاغية قائلاً: «فإنه وإن كان اللقب يصح، لموافقته معنى الملقبات، وكانت الألقاب غير محظورة، فإني لم أكن أحب له أن يخالف من تقدمه، مثل أبي العباس عبد الله بن المعتز وغيره ممن تكلم في هذه الأنواع وألف فيها، إذ قد سبقوا إلى التلقيب، وكفوه المؤونة»[٣٢]. ونظرة الآمدي، هنا، حفيّة بالاتفاق الذي يتحسس في اختلاف الأسماء، وتعدد المصطلحات ما يفضي إلى الفوضى والاضطراب، وبذلك تقف عبارته نقيضاً لما شاع لدى القدامى من أنه «لا مشاحة في الاصطلاح»، وكأن الوقوف عند الاختلاف اللفظي، فقط، وعدم التقدم إلى ما يضيف جديداً، أو يكشف معرفة، أو يبني تصوراً هو أمر غير ذي قيمة بالمقياس الموضوعي.

لكن المسألة التي ينبغي أن نلتفت إليها في الرؤية إلى المصطلحات عند مؤلفينا القدامى، هي انتصار تلك الوجهة التحديدية للمصطلحات التي تنتهي بالفكرة إلى مصطلح وحَدٍّ، اعني إغلاق فسحة الاختلاف والنظر إلى المصطلحات نظرة تعميم موضوعي فقط. ولعلنا نستوضح ذلك بالرجوع إلى امثلة المصنفات والمعاجم التي ذكرتها اعلاه، حيث لانجد من يُعْنى بالمصطلحات في سياقها التاريخي، تماماً كما لانجد للغتنا العربية معجماً تاريخياً يتناول الألفاظ والدلالات في تطورها وتحولها ومايعتريها من تغيرات عبر مراحلها وبيئاتها المختلفة. وذلك هو مايعوق الوعي بالمصطلحات العربية وعياً بانياً لتاريخيتها معرفياً، فمن لغو القول الا نجد للمخالفة في بعض المصطلحات بين عالمين متعاصرين كقدامة وابن المعتز معنى من سياق كل منهما، وخصوصية منظومته الاصطلاحية.

٦- المصطلح ومعركة اللغة والقوة

ويجدر بنا، الآن، أن نعود إلى الواقع الذي نتحرك من خلاله المصطلحات في التفاهم بها والوضع لها، وهو (الواقع المبني) إي الصورة المعقولة للواقع المعطى بأشيائه، وظروفه، وعلاقاته، ومعايشته، وخارجيته... فالمصطلحات، في سياق الواقع المبني، أطرٌ تصورية وتعبيرية للمفاهيم، وإطاريتها هذه تقوم في اللغة وبها بوصف اللغة «نظاماً من الإشارات جوهره الوحيد: الربط بين المعاني والصور الصوتية»(٣٣)، و «ليس بين الشيء، والتسمية»[٣٤] أو المصطلح والواقع المعطى. كما إن هذا الربط ليس سببياً، بمعنى أنه لا يرتبط بدافع، وليس للتسمية صلة طبيعية بالمسمى، فهي بتعبير سوسير (Ferdinand de saussure– ١٩١٣م) : «اعتباطية»[٣٥]. والاعتباطية، هنا، تجعل المسمى، من حيث المبدأ، قابلاً لهذا الاسم (الاصطلاح) ولغيره. لكن الذي لاريب فيه أن الفرد لا ينشىء اللغة «فاللغة نتاج اجتماعي»[٣٦]، ولا وجود لها إلا «بنوع من الاتفاق يتوصل إليه أعضاء مجتمع معين»[٣٧]. وهي بصفتها الاجتماعية هذه سُلطة مهيمنة تحتوي الوعي، وتصوغ التفكير، وتحدد الرؤية، وتحكي جدل التكون والتشكل للأفكار والأذواق والقيم، وهي تتعاطى مع وجود اجتماعي له علائقه في ذاته ومع غيره.

ومن ثمّ يجيء وصف باختين (Mikhail Bakhtin – ١٩٧٥م) للّغات بأنها: «معركة ليست بريئة»[٣٨]، وأن «كل الملفوظات مكتظة بالآخرين»[٣٩]. اي أنه لا توجد لغة فارغة يُمكن أن تنظر من زجاجها إلى الواقع بحياد، وأن تسكن فيها لتبدأ تفكيرك موضوعياً من الصفر. ففي كل لغة

منظور مميز، يتشكل من محتواها بوصفها ملكية خاصة بالنسق الاجتماعي للمجموعة المتكلمة بها، ولهذا المنظور بدوره ألوان متعددة وصيغ مختلفة بتعدد واختلاف مكونات ذلك النسق الاجتماعي وعلاقاته.

وهنا، يُمكن أن نفهم كيف يقوم الجدل في بناء خصوصية الدلالة في المصطلح على نوع من مفهوم «الحوارية» لدى باختين، بوصف مبدأ الاختلاف «كامن في الإنسان نفسه، لأنه تعددي بالضرورة»[٤٠]. وخلف الكلمات الدالة على الأفكار «فعل جدلي، يُقْصي ويأخذ ما بين المخالفة وتأكيد الذات»[٤١].

وذلك يقودنا إلى مسألة الترابط بين القوة والخطاب (الذي تمثله، فيما نحن بصدده، المصطلحات بوصفها: دوال على حقائق علمية دلالة تجعل لها نسقاً دالاً في التاريخ). فالعلاقة بين الخطاب والقوة منظور نافذ في تحليل دلالة الخطاب على الحقيقة. ويرجع هذا الاتجاه في أصله الفكري- كما يقول رامان سلدن (Raman Seldon)- إلى الفيلسوف الألماني نيتشه (Friedrich Nietzsche - ١٩٠٠م) حيث يورد قول نيتشه «إن البشر يقررون ما يريدون لأنفسهم أولاً، ثمّ يكيفون الحقائق مع أهدافهم، إن الإنسان- في نهاية المطاف- لايجد في الأشياء إلاّ ما جلبه هو إليها، وكل معرفة تعبير عن (إرادة القوة)». ويضيف إلى ذلك قائلاً: «ويعني ذلك أننا لا يُمكن أن نتحدث عن حقائق مطلقة أو معرفة موضوعية. ولايعترف الناس بصدق أي نظرية فلسفية أو علمية إلاّ إذا طابقت مواصفات الصدق والحقيقة، كما تحددها السلطات الفكرية أو السياسية السائدة في مرحلة من المراحل، أو كما يحددها أعضاء الصفوة الحاكمة، أو منظرو المعرفة الموجودة في ذلك المجتمع»[٤٢].

وقد تابع فوكو (Michel Foucault) تعميق هذه العلاقة بين الخطاب والقوة، إذ اهتم بما يطرأ على الخطاب من تغير من خلال البعد التاريخي، ورأى: «أن أنماط علاقات القوة، في أي حقبة معطاة لمجتمع من المجتمعات، تؤلف التصورات والمواقف والهرمية في خطابها، وبهذه الطريقة تُحَدّد ما يُعَد معرفة وحقيقة... وتستبعد ما يُعد في تلك الحقبة إجرامي، أو مجنون، أو منحرف»[٤٣]، وبذلك يتغير ما يُمكن قوله من حقبة إلى أخرى.

وعلى هذا تُحقّب هذه الممارسات الخِطابية امتداد التاريخ، ليغدو الخطاب، عملياً، في كل حقبة، مجموعة من القواعد والإجراءات التي تحكُم الكتابة والفكر في مجال بعينه، وهذه القواعد تسود عن طريق الاستبعاد والتنظيم، وتشكّل المجالات مجتمعة (ارشيف) الثقافة، أو (لا وعيها الموجب).

ونحن لا نستطيع أن نعرف أرشيف عصرنا قط، لأنه هو اللاشعور. أما أي أرشيف سابق علينا فإن من الممكن أن نفهمه بسبب اختلافنا وتباعدنا التام عنه، وفي ضوء ذلك لا تخرج الخطابات المختلفة عن صراع القوة، سواء في السياسة أو الفن أو العلم[٤٤].

وهذا يعني أن الحقيقة الموضوعية، هنا، لا تستقل بخطابها عن علاقته الحتمية بصراع القوة، ومن ثمّ ينتهي رامان سلدن من عرضه لأطروحة فوكو بالتأكيد الذي يخلص إليه فوكو تجاه هذه القضية، ويأتي هكذا: «أمّا دعاوى الموضوعية التي تقال لحساب خطابات معينة فهي دعاوى زائفة دائماً، إذ ليس هناك خطابات صادقة بالمعنى المطلق، بل إن كل ما هنالك خطابات قوية بدرجة أو بأخرى»[٤٥].

إن القوة- إذن- بوصفها إرادة غلبة وتفوق، وفعل هيمنة وسيطرة، ومقتضى سيادة وتحكم، بالمعنى المطلق الذي لايخصصها بحقل السياسة دون حقل العلم والفكر، أو حقل الفن والثقافة، ولا يخصصها بفئة أو فرد أو طبقة أو جماعة تنتهي بالخطاب إلى ردة الفعل التي تحمل في باطنها تلك الإرادة المتحيزة للذات في لحظتها الفردية والاجتماعية بمختلف ألوان ودرجات ذلك التحيز. وإذا كانت المصطلحات في إرادتها الدقة والموضوعية، وخلوصها للمعرفة لا تخرج عن موقعها الاتصالي من حيث هي خطاب يحمل دلالة ذات نسق تاريخي، وأنها تبني خصوصية دلالتها في لغة ليست فارغة من المحتوى والرؤية والجدل ضمن إطار مرن وفضفاض من صورة الواقع وبنائيته الخاصة والنسبية معرفياً، فإن المصطلحات مخزون غني بالتاريخ الذي يكشف الحفر فيه عن مهاد الأفكار المعرفية ونسبيتها.

٧- إرادة المعرفة

لكننا – في المقابل- لا نستطيع أن نغفل في المصطلح معرفيته، فهو إذ ينطوي على خصوصية، ويمتد في فضاء من النسبية إلى تاريخ له مقوماته وتوجيهاته، وإلى سياق من معترك اللغة الذي يشخص وعي بنيها ومعرفتهم الجمعية، ينطوي أيضاً على رغبة معرفية تمثل الإرادة الموضوعية في الوصف أو الكشف الذي ينتهي إلى نتائج ذات قيمة في ميزان العلم، كما أسلفنا.

ولنا أن نقول، هنا، إن (إرادة المعرفة) جزءٌ أساس في تكوين اللاوعي في خطاب المصطلحات، يلتقي مع (إرادة القوة) وسائر المكونات التاريخية ذات العلاقة بخطاب المعرفة، وبينهما جدلية تأثر وتأثير، وتناقض، وتغالب، واتصال وانفصال على مستوى الموضوع في إنسانيته أو طبيعيته أو

تجريديته، وفي محليته أو عالميته من جهة، وعلى مستوى العالم (المنظّر) في امتيازه وتفرده وايديولوجيته ومنهجه من جهة ثانية، وعلى مستوى اللحظة التاريخية الاجتماعية في علاقات قواها من الداخل، وفي علاقتها بما هو خارجها : من الماضي ومن المعاش الراهن ومن المترقب القادم من جهة ثالثة.

إرادة المعرفة – إذن– هي المهاد الذي نتصور من خلاله المصطلحات بوصفها إشارات لغوية تُجلّي المتفق عليه بين المتعاطين، منهجياً، لقضايا خطاب، وتكشف عن المشترك التصوري فيه من مسائل البحث والتفكير، وعن نواحي النظر التي تتقاسمها جوانب موضوعه، وتفرضها حدود مادة الدراسة في حقله. وبذلك نلمس في المصطلحات وجهاً من وجوه الانتظام والاتساق النظري، وعلامة من علامات التبلور العلمي الذي يبني أدوات مقاربته وطرق استكناهه على نحو مميز وراسخ، ويفيض بما يضيف إلى المعرفة الإنسانية، ويجدد قناعاتها، ويغني تطلعاتها إلى الوعي.

وحديثاً ، استجد في الاهتمامات المنهجية العربية الاهتمام بالمصطلحات، وخاصة ما ينتمي منها إلى خطاب الدراسة الأدبية التراثية. ونستطيع أن نقرأ في هذا الاهتمام إرادة المعرفة بالصيغة المنتجة منهجياً سواء جاء هذا الاهتمام من خلال تأليف معاجم وفهارس لتلك المصطلحات(٤٦)، أو من خلال التوجه إلى دراسة المصطلحات في فترة زمنية محددة أو عند أحد النقاد أو المؤلفين(٤٧)، أو من خلال الدراسات والبحوث التي اتجهت إلى التاريخ لعلوم اللغة وفنونها في تراثنا(٤٨)، بالإضافة إلى المؤتمرات والندوات والأعداد الخاصة من الدوريات العربية المتخصصة(٤٩).

وأحسب، هنا، أن ما يوجه هذا الاهتمام من شهية المعرفة وإرادتها في إطار منهجي لا يسيغ الوقوف عن حدود الإلمام بالحدود الاصطلاحية كما قال بها القدامى. إذ لابد – انسجاماً مع تلك الإرادة ولهاثها إلى معرفة لا تكف عن الكشف المتجدد– أن تُقدر تلك المصطلحات في ضوء سياقها، وذلك يقتضي التفكيك للدلالة الاصطلاحية المغلقة على حدّها للكشف عن النسبية والخصوص فيها، ومن ثم إعادتها إلى فضاء الاختلاف والتعدد فيما يثيره من إشكاليات المعرفة وأسئلتها، وما يحيل إليه من أنساق ومساقات في إطار موضوع البحث. فمن خطر المصطلحات، منهجياً، أنها تشيع في الرؤية المعرفية مرتكزات مطلقة، حيث يقف وراء كل دلالة اصطلاحية إنسانية تشبع بخصوصية ما ومنظومة مفاهيمية ورؤيوية تقود إلى نقطة التحديد، وتمهد لانغلاق الدلالة على نحو يشبه التقاء الخطوط الهندسية في مركز أو بؤرة، هي المصطلح الذي يختزل التعدد، ويلم الاختلاف، ويقبض على فضاء من نمو الدلالة وصيرورة الدال وانفتاحه، فهو التمام الذي يخلف النقص، والكمال الذي يلغي النسبية.

٨- بين الفردية والجمعية

ولا ريب أننا حين نكتنه في المصطلحات صفتها اللغوية، سنذلف إلى منعطف دال في طبيعة تكوينها، وهو ما تحمله من طابع الإنشاء والاختيار، اللذين يحيلان المصطلح إلى نمط القول أو الكلام (Parole) في رؤية سوسير[٥٠]، وما يتصف به من طابع فردي لواضع المصطلح، ومفترع إشاريته.

فمن يضع مصطلحاً من المصطلحات إنما ينتقي من مخزون اللغة وقاموسها الجمعي لفظةً تشير إلى ما يفكر فيه، وتُسمّي مايراه. هذه اللفظة التي تغدو عَلَماً يُعَرِّف موضوعه، ومصطلحاً يميز مادته، تتوسط بين ذات واضعها بما تحمله من طابع ثقافي ونفسي واجتماعي، وما يحركها من أصابع التاريخ وفضاء الجغرافيا، وبين موضوع دلالتها بما يَحْمله من ثبات المادة، ورسوخ العنصر، وشموله...، ومن ثَمّ يحمل المصطلح في ظاهره ومضمونه دلالات ذاتية ذات نسق تاريخي وثقافي ودلالات موضوعية ذات خلوص منهجي وإرادة معرفية، بقدر إصابته في تمييز ما يَثْبُت، وتجاوزه نحو ما يَسْتَقِر. فعناصر الذات وطوابعها تجسد في المصطلح حُكْماً منحازاً بالضرورة لجماع مكونات الذات في لحظتها الفردية والحضارية، وصفات الموضوع وطوابعه تُحَمِّلُه حقيقة الوجود، وتُلبسه معنى الـ (ما صدق). وبين هذه وتلك تغدو المصطلحات مادة الدراسة الاجتماعية، والعلاماتية، والحفرية المعرفية، والبيئية، والتاريخية، والبنائية، والتفكيكية... مثلما هي مجال طريف للتملي في حركة الفكر والمفاهيم،والتفكير حول مايصنع تفكيرنا ويوجهه.

وإذا ما تجاوزنا تلك المصطلحات التي تحكمها المادة الطبيعية والرياضية بسياجها الحسي والصوري الصارم على النحو الذي يتلاشى فيه دور الإنسان، ويخفت جهد الذات وطابعها في سك المصطلح، وإبداع التسمية كما هو حال العلوم الطبيعية والرياضية، فإن للمصطلحات الاجتماعية والفلسفية والأدبية (وأخص الأخيرة هنا بالذكر) نصيباً وافراً من الصفة الإبداعية التي تشع بالفعل الإنساني، وتضيء بالذات كمحمول تنطوي عليه اللغة، وتكشف ما يداخله وما يختبيء في سريرته. وهنا يقف الحد حاسماً بين مصطلح تبدعه الذات لتسمّي به فكرتها أو همّها، وآخر تنقله أو تقلّدُه عن غيرها للغرض نفسه. ففي إبداع المصطلح وافتراع التسمية معاناة وصدق وحيوية إدراك ووعي بالسياق وتجادل مع زخم أضداده ومعايشة عميقة ونافذة لمعطياته، وهو ما يُغني المصطلح بالتاريخ ويثريه بالواقع الاجتماعي والحضاري والخلفية المعرفية والايديولوجية وطريقة التفكير وأطره المنهجية...

ثانياً: بعض مصطلحات الشعر العربي لدى القدامى بين الحكاية للتاريخ والحكاية للمعرفة

وفي ضوء ذلك سنحاول القراءة للمصطلح الأدبي عند القدامى، من خلال أبرز المصطلحات التي تصف الشعر في عروضيته، وتفاضله، وعلاقته بالقديم، للتمثيل على ما تدخره تلك المصطلحات من تاريخية، وما يمكن أن يثيره بعضها وفق نسقها من أسئلة المعرفة، وإشكالياتها الخاصة بالشعر.

١- خطاب التاريخ واللغة في المصطلحات البدوية للشعر

لقد كان وضع الخليل بن أحمد لمصطلحات علم الأوزان والقوافي الخاص بالشعر العربي مثار سؤال ملفت عن علة هذه التسمية، من حيث حقلها الدلالي الذي يحيلها إلى حياة البادية وفضاء معاشها، ومن حيث ما تثيره هذه الإحالة من دلالة خاصة بسياق الخليل المعرفي. وقد أبان الخليل نفسه عن إرادته الواعية التي وضع بها تلك الأسماء، بما يجمعها في إطار بدوي، حيث يروي عنه المرزباني (-٣٨٤هـ) أنه: «قال: رتبت البيت من الشِّعر ترتيب البيت من بيوت العرب (يريد الخباء) قال: فسميت الإقواء ما جاء من المرفوع في الشعر والمخفوض على قافية واحدة.. وإنما سميته إقواء لتخالفه، لأن العرب تقول أقوى الفاتل إذا جاءت قوة من الحبل تخالف سائر القوى. قال: وسميت تغير ماقبل حرف الروي سناداً من مساندة بيت إلى بيت إذا كان كل واحد منهما ملقى على صاحبه ليس مستويا كهذا. قال وسميت الإكفاء ما اضطرب حرف رويّه، فجاء مرة نونا ومرة ميما ومرة لاما... مأخوذ من قولهم: مكفأ إذا اختلفت شقاقه التي في مؤخره، والكفأة: الشقة في مؤخر البيت»[٥١].

وقد كانت هذه المسألة ملفتة، حديثاً، لإحسان عباس، حيث نراه يَلْمَح تلك الصلة بين المصطلح الشعري وشؤون الخباء البدوي عند الخليل، قائلاً: «والشيء اللافت للنظر في مصطلح الخليل أنه مستمد من «بيت الشَّعَر» - بفتح الشين»[٥٢]، ويمضي - بعد ذلك - ليرى امتداد أثر الخليل إلى غيره من العلماء باللغة والشعر، فالفحولة لدى الأصمعي (-٢١٦هـ) مصطلح «يعود بنا إلى طريقة الخليل بن أحمد في انتخاب الألفاظ الدالة على الشعر من طبيعة الحياة البدوية»[٥٣]. وثعلب (-٢٩١هـ) في (قواعد الشعر) «حاول أن يستوحي روح الخليل في صياغة مصطلح مبتكر... واوجد مصطلحاً مستمداً من (الفَرَس) يدور حول وصف البيت المفرد. فالبيت إمّا معدّل أو أغر أو محجّل أو مرجّل»[٥٤].

ولئن كان أثر البيئة هنا طبيعياً في توجيه رؤية الخليل ومن بعده الأصمعي وثعلب إلى استيحاء المصطلحات من محيطها البدوي، فإن إحسان عباس يلمح دوافع اجتماعية وثقافية في تمسك نقاد القرن الثالث الهجري بالمصطلح البدوي، حين يعرض لأثر الاعتزال في النقد، حيث ذهب المعتزلة إلى تأكيد منزلة الشعر في وقفتهم ضد الشعوبية «لأن الشعر في تصور هؤلاء المدافعين عن العرب تراث عربي خالص، ليس هناك ما يشبهه لدى الأمم الأخرى إلا شبهاً عارضاً، ومن هنا كان إيمان الجاحظ بالصلة بين الشعر والعرق، ثم بين الشعر والغريزة، ومن هنا كان الاتجاه نحو القول بالإعجاز في النظم، لكي يتميز القرآن عن كتب الحكمة الفارسية وأشباهها، وكذلك كان تمسك هؤلاء العلماء بالمصطلح البدوي في النقد»[٥٥].

ومن الواضح، هنا، أن أثر البيئة في تشكيل المصطلح وطبعه بطوابع أفقها الحسي والتجريبي، قد تراجع أو تضاءل في ظل نقلة اجتماعية تاريخية تتمظهر في شكل من الصراع والتمايز بين العرب والعجم، حتى غدا المصطلح النقدي العربي جزءاً من خطاب التاريخ في هذه المرحلة يؤكد الذات العربية، ويعلن تميزها، فهو يشف عن الذات إذ يصف الموضوع، ويظهر ما وراء الرؤية النقدية وما يستبطنها من وعي بالكيفية ذاتها التي يقدم تلك الرؤية بها.

ودخول الواقع هنا بمستواه المكاني والزماني والفردي والاجتماعي في صياغة المصطلح لا يعكس صورة ساكنة من التجاوب بين حركة الثقافة وحركة الإنسان، ولا يُبقي مسافة بين اللغة ومدلولها، فهناك تعانق جدلي تتحرك به الثقافة مثلما يتحرك الإنسان، وتنمو معه اللغة وتكتسب دلالاتها وأبعادها الرمزية والإشارية، والخليل حين سك مصطلحات بدوية للعروض لم يكن يبتدع مسميات معزولة عن سياقها الاجتماعي والثقافي التاريخي، فهو نحوي - كما نعرف - معني بتثبيت بناء اللغة في صورتها الجاهلية النقية، والوجهة المعرفية الغالبة لزمانه تتجه إلى التأسيس لرؤية نقلية للعالم في مواجهة الصيرورة والابتداع، فكان الاحتراف لرواية الشعر، وكان التقابل حاسماً بين (عربي محض) و(مولّد) و(قديم) و(محدث)، وليس ذلك العربي المحض أو القديم الذي هو مادة الدراسة اللغوية والشعرية، وموضوع الرواية والنقل، سوى البدوي الذي عزلته الصحراء عن الاختلاط بغيره، وصانه المكان والزمان عما (يفسد) طبعه وذوقه ولسانه...

فالمصطلحات البدوية - إذن - تحيل إلى السياق المعرفي لعصر الخليل، وهو سياق يتدرج فيه الخليل ويتعامل مع لغته، أو قل يسبح مع تيارها اللفظي ويستجيب فيما يضعه من مصطلحات لإيحاء دوالها، ففي اللغة من قبل الخليل (بيت الشَّعر) بفتح الشين، و(بيت الشِّعر) بكسرها،

وإشارة (البيت) من الشعر تجتذب إلى فلكها الممتد في محيط البادية الإشارات التي يضعها الخليل أسماء لأجزائه وأصنافه العروضية، وما يخل باتساق نظمه... وهو وإن سكن البصرة، وانتمى بتجربة حياته إلى بيوت الحاضرة وفضاء المدينة المستقر، فإنه لا يملك أن يمدين مصطلحاته، وما يعمد إلى تسميته وتقرير مفهومه، لأنه يتحرك داخل لغة، أو بالأحرى تحركه تلك اللغة وتوجه رؤيته بسياقها اللفظي المحمل بفضاء البادية، وبسياقه المعرفي المتجه إلى تثبيت تلك اللغة وتجريدها علميا.

ماذا لو أن العرب قبل الخليل أسموا (البيت) سفينة، أو شارعاً، أو حانوتاً... مما يحيل إلى فضاء البحر ومتعلقاته، أو المدينة ولوازمها؟!

وماذا لو أن الخليل قد اتجه إلى اكتشاف ماتغير، ورصد ما استجد، ووصف ما يحدث من مسميات شعرية في إطار الحاضرة والاختلاط بالموالي؟!

٢- الفحولة في الشعر، فاعلية الذَّكر وسياقه الثقافي

ولا يخرج الأصمعي في استيحائه لمسماه الشعري عن هذا المنظور. فـ(الفحولة) إنما تحيل إلى سياق اللغة والشعر، هذا السياق الذي يعلي من قيمة الذكورة.

إن الفحل من الشعراء في نظر الأصمعي إنما يتخذ قيمته الدلالية، وميزته الشعرية من خلال معنى الذكورة الذي يفهم باختلافه عن الأنثى، أو بتضاده معها، وها هو يجيب أبا حاتم السجستاني (-٢٥٥هـ) عن عدي بن زيد (-؟ق.هـ): «أفحل هو؟» بقوله: «ليس بفحل ولا أنثى»[٥٦] كما يجيبه عن معنى الفحل من الشعراء قائلاً: «إن له مزية على غيره كمزية الفحل على الحقاق»[٥٧]. والحقاق جمع حقة وحق وتطلق على الأنثى أو على الصغير الذي استكمل ثلاث سنين ودخل في الرابعة[٥٨].

فذكورة الفحل فوق ميزتها الاختلافية عن الأنثى، لها ميزة أخرى من خلال اختلافها عن الخصي أو الصغير، وكأن خاصية الإنجاب والقوة التي تحملها صفة الفحل إلى الشاعر تستلزم ثراء شعريا وتميزا، ولذا كان الكم والوفرة مقياساً للفحل من الشعراء لدى الأصمعي فثعلبة بن صعير المازني (-؟ق.هـ) «لو قال مثل قصيدته خمساً كان فحلاً»[٥٩]، ومعقر البارقي حليف بني نمير (-؟ق.هـ) «لو أتم خمساً أو ستاً لكان فحلاً»[٦٠]، وأوس بن غلفاء الهجيمي (-؟ق.هـ) «لو كان

قال عشرين قصيدة لحق بالفحول، ولكنه قطع به»[٦١]، وسلامة بن جندل (-؟ق.هـ) «لو كان زاد شيئاً كان فحلاً»[٦٢].

هذه الفحولة التي تصطنع دلالتها على الشاعر من استيحاء أفق الذكورة في اللغة، إنما تحيل إلى سياق يعتز بالذكورة، ويفخر بارتداء رمزيتها، ومن قبل الأصمعي وأستاذه أبي عمرو بن العلاء (-١٥٩هـ)[٦٣]، ثم ابن سلام الجمحي (-٢٣١هـ)[٦٤]، بعدهما تمدّح أبو النجم العجلي (-١٢٠هـ) بأن شيطان شعره ذكر وشيطان غيره من الشعراء أنثى:

إنـي وكـل شـاعـر مـن الـبـشـر   شيطانه أنثى وشيطاني ذكر[٦٥]

والتقابل بين (الأنثى) و(الذكر) في سياق الثقافة العربية الجاهلية واللغة المعبرة عنها، يُصمت الأنثى، ويكاد يخليها تماما من الفاعلية، فهي مفعولة ومنفعلة، وقد وصف القرآن الكريم هذه الرؤية لدى العرب في هزئه بالمشركين وإنكاره وصفهم الملائكة بالأنوثة، قال تعالى: (وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين* أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين* وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمان مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم* أو من ينشّأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين*)[٦٦].

فالأنثى ليست إمكانية معلقة للفعل، لأنها تدخل دائماً في تراتب مع الذكر لتأخذ الصمت في مقابل كلامه، والسكون في مقابل حركته، والتأخر في مقابل تقدمه، مما لا يعلق إمكانية فعلها وفاعليتها، بل يرتبها على مقابل لايزول إلا لتزول هي.

وعلى هذا يأتي تمدح أبي النجم بذكورية شيطان شعره، إنه ينسل من رؤية الثقافة للذكر، وهي رؤية لا تقف بالذكر عند دلالته النوعية الضيقة، بل تترامى بها إلى أفق أسطوري غامض تشرق فيه الحياة من فعل الموت، حتى لتتلبس فيه الذكورة فيما تتلبس معنى السلاح فتخرجه من حقيقته الحسية الجامدة، وتخلع عليه الخصوبة الفاعلة، ومن هنا كانت السيوف ذكوراً في قول ابن عبد ربه (-٣٢٨هـ).

ومـعـتـرك تـهـز بـه الـمـنـايـا   ذكورَ الهند في أيدي ذُكور[٦٧]

وفي قول المهلهل (؟ق.هـ):

ولـولا الـريـح اسمع أهل حجر   صليل البيض تقرع بالذكور[٦٨]

كما خلع الشعراء على الحرب معنى الانفعال للذكر، فهي (تلقح وتنتج) في وصف زهير بن أبي سلمى (-١١ق.هـ):

فتعرككم عرك الرحى بثفالها   وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم(٦٩)

وممدوح أبي تمام (-٢٣١هـ) يمتلك هذه الخاصية المنتجة:

أخا الحرب كم ألقحتها وهي حائل   وأخّرتها عن وقتها وهي ماخض(٧٠)

فالتقابل بين أنوثة (الحرب) وذكورة (السلاح) يصطحب ذلك التفاعل النوعي على نحو يخرج عما يألفه العقل والرؤية السطحية للواقع من منطقية التطابق بين اللفظ ومعناه، فلا يجدي التعليل العقلاني شيئا أمام هذا اللغز المحير الذي تصطنعه اللغة، ويأتي التصور المجازي لتلك العلاقة ذريعة واهية ترضي العقل وتوصد باب التساؤل، لكنها لا تتجاوز السطح إلى العمق، ولا تستبدل بمركزية المنطق وسببيته ما يتجاوزه باتجاه تلك الأغوار السحيقة والمطمورة مما تخبئه اللغة وتدخره من وعي بنيها الإنساني بالحياة والعالم.

إن الفحولة التي تأتي مصطلحا نقديا في تراثنا يمايز بين الشعراء، لا يزال هناك غموض في دلالتها المعيارية، الذي انطوت عليه أسئلة أبي حاتم السجستاني وأجوبة الأصمعي وطبقات ابن سلام، ولايزال هذا الكنه العصي على التحديد يدخر عمقا غائرا وراء انتخابه والتسمية به، وهو عمق يتواشج مع مجمل معطيات التراث باعتبارها كينونة عضوية تحيل إلى اللاوعي وتداخل ما يتجاوز العقل بقدر ما يبدو على ظاهرها من مجسدات الوعي والعقل.

ففي ذاك الأفق الذكوري للقيمة الشعرية يغدو (السلاح/الذكر) صفة للقوافي والقصائد، إنها - كما يقول جرير-:

خروج بأفواه الرواة كأنها   قرا هندواني إذ هز صمما(٧١)

كما وردت الذكورة ذاتها بمعنى القوة والشدة صفة للقصيدة في قول المزرّد (-؟هـ):

مذكرة تُلْقَى كثيرا رُوَاتُها   ضواح، لها في كل أرض أزامل(٧٢)

بل غدت المعاني الشعرية، في أصالتها وجدتها، نتاجا لعملية ذكورية نوعية فهي مفترعة أو منتجبة، فيما يرويه ابن الأعرابي لراجز قديم:

يا أيها الزاعم أني اجتلب   وأنني غير عضاهي انتجب

كذبت إن شرّ ما قيل الكذب[٧٣]

وقد جاءت الفحولة صفة للتفوق الشعري في لقب علقمة بن عبدة (-؟ق.هـ) الشاعر الجاهلي[٧٤].

الأصمعي - إذن - حين انتخب (الفحولة) مقياساً وقررها مصطلحا في المعرفة النقدية، كان يصغي لسياق رؤية يحملها الشعر واللغة، وكان يجد في هذه الإشارة ما يجسد الرؤية الثقافية والاجتماعية العربية للعملية الشعرية وفضاءات تلقيها وإبداعها وفاعليتها لغوياً واجتماعيا، فالخصوبة والإنجاب كمركز لدلالة الفحولة حملته اللغة منذ العصر الجاهلي هو الأفق الدلالي ذاته الذي تترامى إليه كيفية الفحولة الشعرية وكميتها لدى النقاد اللغويين وعلى رأسهم (الأصمعي) خاصة حين ندرك اشتراطهم - في من يلقب بالفحل - بالإضافة إلى الجودة، كثرة الشعر وروايته، وكان فحولة الشاعر متصلة بقدرته على إخصاب حقله الإبداعي، وإثرائه، تماماً كما يثري الفحل من الحيوان جنسه بالإلقاح والإنجاب.

وإذا كان العمق المستتر وراء المصطلح بالغ الأثر في التوجيه إليه، وفي تشكيل أبعاده الدلالية، فإن لهذا العمق وجهاً ظاهراً على سطح اللغة النقدية ينسرب في إجراءاتها، ويصنع إشكالياتها ومظاهر الخصومة والاختلاف فيها. وهذا الوجه الظاهر للفحولة، من الناحية البنائية، هو ما يتشابك مع وجوه المفاضلة والمايزة التي قامت عليها الرؤية النقدية لدى العرب منذ الجاهلية، فقد انطوت تلك الرؤية على سؤال صريح حينا، وضمني حينا آخر يتلخص في البحث عن الأفضل والأجود، وكانت الملاحظات والآراء، بل الكتب والمؤلفات - فيما بعد - تنبثق من محور السؤال: من الأشعر؟!.

فجاءت فحولة (علقمة بن عبدة الفحل) لقباً يشير -على ما يبدو- إلى تفوقه وامتيازه، ويحيل إلى مفاضلة أم جندب بينه وبين زوجها امرىء القيس، وهي لم تقل أنت فحل قياساً إلى ما اعتمده ابن العلاء، والأصمعي وابن سلام من معنى (الفحولة)، بل قالت -كما تحكي الرواية- لامرىء

القيس (-٥٦٠م): «علقمة أشعر منك»(٧٥). كما جاءت حكومة النابغة (-١٨ق.هـ) في سوق عكاظ[٧٦] من منطق هذه المفاضلة، ومثل ذلك تساؤل عمر بن الخطاب (-٢٣هـ) عن «شاعر الشعراء»[٧٧] يعني زهيرا، وقولهم أهجى بيت قاله العرب، وأغزل بيت... إلخ[٧٨].

ثمّ جاءت الفحولة نقدياً فكان «رأس الفحول والفحل وشبه الفحول، وقريب من الفحـول، ويسلك مسلك الفحول، ويسير على طريق الفحول، وليس بفحل، وليس بفحل ولا انثى، وليس بفحـل ولا مقلح، ومن فحول الفرسان...»[٧٩]. بل (الفحل) لوحده أصبح مدار تمايز طبقات ابن سلام على نحو ما نعرف. وبعد ذلك جاءت مؤلفات: «الموازنة بين الطائيين» للآمدي (-٣٧٠هـ)، و«أخبار أبي تمام» لأبي بكر الصولي (-٣٣٥هـ)، و«الوساطة بين المتنبي وخصومه» للقاضي الجرجاني (-٣٩٢هـ)، وغيرها، لتحيل سؤال الأفضل إلى منطلق لتناول جوانب المسألة النقدية الشعرية والإفضاء إلى معطيات تصورية وقيمية تجسد تجليات من التراتب، مرة بين (اللفظ) و(المعنى)، وأخرى بين (القديم) و(الحديث)، وثالثةً بين (الطبع) و(الصنعة)، ورابعة بين (الخطابة) و(الشعر)، وخامسة -في السرقات- بين (المنتجب) و(المجتلب)... إلخ.

هذا التراتب المميز لبنية النقد العربي لا ينفصم عن التراتب الذي يشكل لب الدلالة في (الفحولة)، فهي -كما رأينا- تصنع قيمتها دلاليا في ضوء علو الذكر على الأنثى أو الخصي، وهذا التراتب الذي تنطوي عليه هو ما يصنع أهميتها وجانبيتها النقدية في السياق العربي، لأنه سياق يولي المفاضلة اهتماماً كبيراً، وتحتل من وعيه موقع اللب والمركز، حتى لنرى أن ورودها في الشعر يمنحه قيمة ملفتة لدى العرب، ولذا اعتمدها الهجاؤون والمداحون من الشعراء، وقال ابن رشيق (-٤٥٦هـ) عن بيت جرير (-١١٠هـ):

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا[٨٠]

إنه «أشد هجاء لما فيه من التفضيل»[٨١].

وعلى هذا تأتي (الفحولة) في موقع مركزي، في بنية القضايا النقدية العربية القديمة: ١-القديم والحديث. ٢- اللفظ والمعنى. ٣- الطبع والصنعة. ٤-السرقات، حيث تستمد تلك القضايا وعي المفاضلة والتراتب من الفحولة، مثلما استمدت الفحولة وعيها من سياق مفاضلة، وأقامت -كذلك- قيمتها النقدية على وعي المفاضلة.

٣- المصطلح الشعري وصفات (الفرس)، سياق السبق وفعل المفاضلة:

و(ثعلب) لا ينحرف بمصطلحاته النقدية الشعرية عن هذا السياق، فقد رأينا كيف قسم أبيات الشعر إلى «معدلة» و«غر» و«محجلة» و«موضحة» و«مرجلة» وأوجد -كما يقول إحسان عباس- مصطلحا مستمدا من الفرس[٨٢].

بيد أن هذا لا يعني أن (ثعلبا) كان ينتخب تلك الصفات، ويطلقها بشكل ميكانيكي لا ترتبط فيه الرؤية بالإجراء، ولا يعي أفق النظر النقدي والتقويمي العربي للشعر، وكيفية اصطناع التسميات وإطلاق المصطلحات، ولا يتحرى شيئا من العلاقة بين الاسم والمسمى والمعنى الحقيقي والمعنى الاصطلاحي.

وهو المنظور الذي أتى من خلاله وصف ثعلب بالمتمحل في رأي محمد مندور[٨٣] حين يحاول تحديد الاصطلاحات،وباستيحاء روح الخليل، في رأي إحسان عباس[٨٤]، حين يحاول صياغة مصطلح مبتكر.

ذلك أن الصلة بين صفة أبيات الشعر وأوصاف الفرس صلة تنبع من اتصال أفق الشعر وأفق الفروسية في الرؤية العربية، واقتران الشاعر والفارس واللسان والسنان[٨٥]، كما يشيع في نمطية التعبير عن هذا العالم.

وإذا كان الفرسُ أداة الملاحقة والطرد ماديا، وموضوعا لتجليات الحلم الشعري المتفجر بصراع البقاء بين الإنسان الجاهلي وبيئته[٨٦]، فإن الشعر أداة بحثه عن المعنى/الوجود، وموضوع لتجليات فروسيته المعنوية التي ترتب منزلته في سلم الاحتفال والتقدير. ومن ثم تمدح الشعراء كثيراً بفروسيتهم[٨٧]، وأضفوا على أبياتهم أخلاطاً من صفات الفروسية ومافيها من تقاذف بالسلاح، كقول المزرّد:

زعـيـم لمـن قـاذفـتـه بـأوابـد　　يغني بها الساري وتُحدى الرواحل[٨٨]

وما تعود به من أسلاب كثيرة، كقول أبي تمام:

بِكْراً تورّثُ في الحياة وتنثني　　في السّلْمِ وهي كثيرة الأسلاب[٨٩]

وما تتصف به أوابد الصيد وهواديها من نفور وشرود، كقوله أيضاً:

ووالله لا أنفك أهدي شوارداً   إليك يُحَمّلْنَ الثّنَاءَ المُنَخّلا(٩٠)

بل جعل جرير الشاعر نفسه جوادا يحامي عن عشيرته، فقال:

ما قاد من عَرَبٍ إليّ جَوَادهم   إلا تركت جوادهم محسورا

أبقت مراكضتي الرهان مجربا   عند المواحن، يُرْزَقُ التيسيرا(٩١)

واتخذ أبو تمام من الشعر فرسا يلين له تصريفه في قوله:

صعب القوافي إلا لفارسه   أبيّ نسج العروض ممتنعه(٩٢)

إن مصطلحات ثعلب تلك، حين تصطنع دلالتها على أبيات الشعر من استيحاء صفات الفرس، تقذفنا بالسؤال هكذا: لماذا لم تستوح صفات الناقة -مثلاً- وهي، ربما، لا تقل عن الفرس إلحاحاً على وعي الشعراء؟!

لماذا الفرس تحديداً؟!

ولاشك أن لاختيار الفرس دلالته على الوعي الجمالي والوظيفي للشعر عند القدامى، ففرس الشعر هنا تحيل إلى الفارس/الشاعر، وهو الذي رأيناه (فحلاً) من قبل (ثعلب)، والفحل بدوره فاعل للإخصاب والإنتاج الشعري، أي انه يتقاطع في مؤداه الضمني مع ما يتصل بالفرس من صفات العتق والنجابة التي حرص العرب عليها بتفعيل الإخصاب والإنتاج النوعي في سلالاتها، والمايزة والمفاضلة في صفاتها.

ويقودنا هذا إلى إدراك دلالة التراتب والتفاضل الذي يبني عليه ثعلب تقسيماته واصطلاحاته، حيث نجده يصف النوع الأول (المعدل) بقوله: «وهو أقرب الأشعار من البلاغة»، وينتقل إلى الأبيات (الغُر) فيقول: «وإنما ألّفنا هذه الأبيات مصلّية (المصلّي: الذي يجيء من الخيل بعد السابق كما سيأتي)، وجعلناها بالسوابق لاحقة، لملاستها إياها وممازجتها لها في أوائلها وإن افترق عن أواخرها». ويعرض بعد ذلك الأبيات (المرجلة) فيبين رتبتها بقوله: «وإنما رتبنا هذه في الطبقة الثالثة وجعلناها للمصلية تالية لشبهها بها ومقاربتها لها وانتظامها». ثم يذكر الأبيات

(الموضحة) في المرتبة الرابعة، وينتهي -اخيراً- إلى الأبيات (المرجلة) قائلاً: «هي أبعدها من عمود البلاغة، وأذمها عند أهل الرواية...»[٩٣].

فتراتب هذه التقسيمات يستدعي صفات دالة على التفاضل النوعي، أو - بالأحرى- إن تلك الصفات التي سمّى بها ثعلب أقسامه الموضوعية للأبيات الشعرية، وهي مستمدة من الفرس، أدخلته حتما إلى المفاضلة والانتخاب بحكم ما تتضمنه من رؤية اجتماعية (تفضيلية) لا يملك تعديلها، ولا يقدر على تحجيم هيمنتها، والحد من سطوتها الفكرية على رؤيته.

ومعنى هذا أن تقسيمات ثعلب واصطلاحاته لا تنفك عن بنية المفاضلة والتراتب القيمي في نقدنا القديم، فهو يبني اصطلاحاته في خط مواز لما قام في وعي العارفين بالشعر قبله من صلة بين تفاضل الشعراء وتراتبهم قياسا على تفاضل الجياد في السبق، وهاهو ذا ابن سلام يروي عن العلاء بن حريز العنبري (-؟هـ) وهو من يصفه بأنه «قد أدرك الناس وسمع»، قال: «كان يقال: الأخطل (-٩٥هـ) إذا لم يجيء سابقا فهو سكّيتٌ، والفرزدق (-١١٠هـ) لا يجيء سابقاً ولا سكّيتا، فهو بمنزلة المصلي، وجرير يجيء سابقا وسكّيتا ومصلّيا»[٩٤].

ثم يذهب ابن سلام إلى تأويل ذلك التفاضل وتعليله بقوله: «إن للأخطل خمساً أو ستا أو سبعاً طوالاً روائع غررا جيادا، هو بهنّ سابق، وسائر شعره دون أشعارهما، فهو فيما بقي بمنزلة السكّيت. والسكّيت: آخر الخيل في الرهان، ويقال: إن الفرزدق دونه في هذه الروائع، وفوقه في بقية شعره، فهو كالمصلّي أبدا، والمصلّي: الذي يجيء بعد السابق، وقبل السكّيت. وجرير له روائع هو بهنّ سابق، وأوساط هو لهنّ مصلٍّ، وسفسفات هو بهنّ سُكّيتٌ»[٩٥].

وقد ذهب ثعلب -كما رأينا- إلى إيراد مصطلحاته التي تسم قسمته للأبيات على نحو مرتب جماليا، وارتكز في ترتيبه على مرتبة (المصلّي) التي أدرج في رتبتها ما أسماه بـ «الأبيات الغر»، ثم اعتبر ما قبلها سابقا، وما بعدها تاليا، وبذلك كانت صياغته لسلم التفاضل الذي تجسده طريقة تقديم البيت للمعنى صادرة عن وعي صريح بتراتب الجياد في نتائج السبق، وهو التراتب الذي ألقى بظله على مسميات ثعلب، فجاءت -بدورها- من صفات الأفراس.

ولاريب أن مسميات ثعلب ذاتها لاتحمل التراتب، فهي صفات شكلية في ألوان وهيئات الأفراس، ولا يمكن أن تحيل الأبيات (المعدلة) أو (الغر) إلى مثلما أحال الأصمعي إليه (الفحولة) حين بيّن أن «للفحل (من الشعراء) مزية على غيره، كمزية الفحل (من الحيوان/الإبل) على

الحقاق»[٩٦]. وهنا نقف على تباين في حركة التسمية دلالياً بين (الأصمعي) و(ثعلب) ذلك أن (الأصمعي) يتجه بتسميته وممايزته إلى الشعراء، في حين يتجه (ثعلب) إلى الشعر. و(الأصمعي) يستمد تفاضل موضوع التسمية (وهم الشعراء) من التسمية ذاتها (أي الفحل)، ولذا وجدنا معايير التسمية وعللها غائمة وغير متبلورة في حدود واضحة وصلبة ومجردة يستطيع تلاميذه أن يتكئوا عليها في النظر إلى الشعراء بمعزل عن رؤيته هو، في حين يجسد (ثعلب) تمايز موضوع التسمية (وهي أبيات الشّعر) عن صفاتها الموضوعية والمحددة في كيفية تقديم المعنى وصياغته في بيت واحد، ولذا نراه يقدم صفة نظرية مجردة، ونموذجا تطبيقيا لكل قسم، فالمعدل من أبيات الشعر «هو ما اعتدل شطراه، وتكافأت حاشيتاه، وتم بأيهما وقف على معناه... كقول زهير:

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم[٩٧]

والأبيات الغر، واحدها أغر، وهو ما نجم من صدر البيت بتمام معناه دون عجزه، وكان لو طرح آخره لأغنى أوله بوضوح دلالته... كقول الخنساء (-٢٤هـ):

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار[٩٨]

....إلخ»[٩٩].

وأخيراً فإن (الفحل) يستمد أفضليته من رؤية عامة وموروثة أي أنها إشارة تفوق لا خلاف فيها، وهو أمر لا نجده في صفات الأفراس «المعدلة، أو الغر، أو المحجلة، أو الموضحة، أو المرجلة، فإن أياً منها لا يجسد بشكل قاطع أفضلية في الرؤية العامة، ولا يدلنا بذاته على تفوق واضح متفق عليه.

وهذا يعني أن مصطلحات ثعلب تحيل كيفية الدلالة على التفاضل والتمايز الجمالي الدقيق إلى إشكالية، وتصنع من خلال التسمية بتلك الأوصاف التي تحمل دلالات جمالية متقاربة وغير واضحة التفاوت سؤال الخيار، وعلة الأفضل، ومفهوم الجميل... الذي تكمن فيه، بأشكال مختلفة، ذات الناقد بامتدادات زمانها ومكانها وثقافتها، حتى ليرى الجميل حينا ما يلبي حاجته الذهنية والنفسية، ويحسب الأفضل تارة ما ينجح في استمالة السامع وامتياح عطيته وثنائه، ويقدر الأجود حينا بحكمة معانيه، وحينا آخر بحسن العرض لها والدلالة عليها... إلى غير ذلك من العلل التي تتفاوت وتتغاير بتغاير وتفاوت الأشخاص والأحوال.

والوعي بإشكالية الجميل، وإدراك الحيرة المنطقية والقصور العقلي في بلورة علة الاستحسان وأسباب التفضيل، لم يكن غائباً عن الرؤية النقدية لدى القدامى، فخلف الأحمر (-١٨٠هـ) يقرر مثل هذا الوعي فيما يذكره عنه ابن سلام في قوله: «وشهدت خلفاً، فقيل له: من أشعر الناس؟ فقال: ماننتهي إلى واحد يجتمع عليه، كما لا يجتمع على أشجع الناس، وأخطب الناس، وأجمل الناس...»(١٠٠). ومن الواضح، هنا، أن خلفاً يدخل بسؤال الأفضل إلى موضوعات أخرى غير الشعر، هي (الشجاعة) و(الخطابة) و(الجمال)، ليجسد وجه العسر، وحقيقة الاختلاف في إدراك نموذج الأفضلية والاتفاق على الإشارة إليه عياناً، لأنه لا وجود، في حقيقة الواقع، لأفضلية مطلقة، بل لابد أن ترتهن تلك الأفضلية نسبية التصور والعلاقة التابعة من ذاتية ذات (في زمان ومكان) لا يتكرر.

كما ينقل ابن سلام رواية سليمان بن إسحاق الربالي (-؟) عن (يونس) (-١٨٢هـ)، أنه قال: «الشعر كالسراء، والشجاعة والجمال، لا ينتهى منه إلى غاية»(١٠١). ونفيُ يونس، هنا، الانتهاء إلى غاية في الشعر والشرف والشجاعة والجمال يطلقها من حيز المحدودية، ويرتفع بها عن النسبية، وبذلك تنتمي إلى نمط المثاليات المجردة التي يصبح التحقق الواقعي لصورها جزءاً ظاهراً من جوهرها، وكيفية محدودة من كنهها الغائر في فضاء الحلم الإنساني الذي لا تحده حدود.

وغير خاف أن (الانتهاء إلى غاية) في موضوع ما يغلق فاعلية الكشف المعرفي له، ويستبدل بالحلم حقيقة الواقع، وبالأحاسيس الجمالية تجاهه الغاية العملية والنفعية فيه، ومن ثم تستحيل الخبرة الإنسانية له إلى مواصفات نظرية قياسية جامدة، تتفاوت في الاقتراب من حدودها النمطية درجات الفضل وصفات الجودة.

ومن هنا نجد للثقافة والصناعة التي تميز جيد الشعر من رديئه، عند ابن سلام، صفة الخبرة الذوقية، والمرانة، والدربة، بحيث تنفذ من وراء الصفات الشكلية المتساوية أو المتقاربة إلى تقدير قيمة الجوهر، والبصر بدقيق الاختلاف والتمايز بين الموضوعات الجمالية.وقد صاغ هذا المؤدَّى من خلال مقارنة نقد القيمة الشعرية بنقد قيمة الشكل والجمال في الأشياء الحسية كاللؤلؤ والياقوت والدينار والدرهم وأنواع المتاع وضروبه والجواري والدواب وأصوات القراء والمغنين، فقال: «والشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات... من ذلك اللؤلؤ والياقوت، لاتعرفه بصفة ولا وزن، دون المعاينة ممن يبصره، ومن ذلك الجَهْبَذَة بالدينار، والدرهم، لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز ولاوسم ولا صفة، ويعرفه الناقد عند المعاينة،

فيعرف بهرجها وزائفها وستّوقها ومُفْرَغها. ومنه البَصَرُ بغريب النخل، والبصر بأنواع المتاع وضروبه واختلاف بلاده، مع تشابه لونه ومسه وذرعه، حتى يضاف كل صنف إلى بلده الذي خرج منه، وكذلك بصر الرقيق، فتوصف الجارية فيقال: ناصعة اللون، جيدة الشطب، نقية الثغر، حسنة العين والأنف، جيدة النهود، ظريفة اللسان، واردة الشَّعر، فتكون في هذه الصفة بمائة دينار وبمئتي دينار، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر، ولا يجد واصفها مزيدا على هذه الصفة... ويقال للرجل والمرأة، في القراءة والغناء: إنه لنديّ الحلق طل الصوت، طويل النفس، مصيب للحن. ويوصف الآخر بهذه الصفة، وبينهما بون بعيد، يعرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع له، بلا صفة ينتهى إليها، ولا علم يوقف عليه»[١٠٢]. أي أن تقدير التفاضل الجمالي لايحيل إلى المستقر والناجز من مقررات الذهن، ومعايير العرف، وصفات الشكل، فليس هناك صفة منتهية للجمال والقيمة، ولا علم تقف عليه نتائج الاستحسان، ويحيل إليه ناقد الفنون، ومستبصر علل جودتها وفضلها واختلاف قيمها.

وفي ضوء رؤية ابن سلام هذه يجسد الآمدي وعيه بما يكتنف موازنته بين أبيات أبي تمام والبحتري من قصور المنطق وعجز البيان عن ذكر العلل الجمالية، وتفصيل أسباب الإجادة والرداءة التي تتجاوز الصفة الظاهرة لمذهبي الشاعرين، وتتعدى علمه بالانحرافات والأخطاء التي تنتهك عمود ذوقه، ونمط ثقافته، وقالب إدراكه، فهو يقول: «وإن طالبت بالعلل والأسباب التي أوجبت التفضيل، فقد أخبرتك فيما تقدم بما أحاط به علمي من نعت مذهبيهما، وذكر مساويهما في سرقة معاني الناس وانتحالها، وغلطهما في المعاني والألفاظ، وإساءة من أساء منهما في الطباق والتجنيس، والاستعارة، ورداءة النظم واضطراب الوزن، وغير ذلك مما أوضحته في مواضعه وبينته...»[١٠٣]. ثم يقول: «.... ويبقى ما لا يمكن إخراجه إلى البيان، ولا إظهاره إلى الاحتجاج، وهي علة ما لا يعرف إلا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة»[١٠٤]. ويذهب أيضا مذهب ابن سلام في إيضاح هذه الدربة بالمقارنة بين العلم بالشعر والمعرفة بالوسائل والمصنوعات النفعية والمادية، كـ «المعرفة بالعين والورق والخيل والسلاح والرقيق والبز والطيب وأنواعه»[١٠٥]. وتتكرر الرؤية ذاتها لدى القاضي الجرجاني[١٠٦].

إن الدربة -إذن- كمقوم معرفي، في البصر بالأفضل والأجود، هي ملاذ لاختصار طريق الحفر وراء ظاهر النص، والتحليل لعناصر الرؤية الجمالية الناقدة، وهي إذ تستر العجز عن التعليل، وتبرر قصور آلية النظر تدخر مادة ثرية من الرؤية الاجتماعية والإنسانية، ومن الوعي

بالحياة... ومن شأن ذلك أن يشعرنا بالحرمان من عدم تمكن علمائنا القدامى من اختراق (ميتافيزيقية) هذه العلة الصامتة، وافتراع أسئلة التحليل لمكوناتها ومظاهرها، وما ينعكس عليها من طبيعة الواقع الاجتماعي والرؤية الكونية في زمانهم.

ثعلب -إذن- من خلال مصطلحاته التي يقسِّم بها أبيات الشعر، يدلنا ضمنيا على هذه المشكلة المعرفية في الوعي الجمالي والنقدي العربي للشعر في زمنه، وهي إذ تدخل كمقوم لاختيار التسمية، ومرجع يحيل إليه الاصطلاح النقدي على يديه -كما نحدس- فإنها تمثل غياباً في مقابل حضور المصطلح الدال عليها، وخلفية عميقة يحجبها الصمت الذي انتهكه من قبله خلف الأحمر ويونس وابن سلام، ثم الآمدي والقاضي الجرجاني وغيرهم، حيث قدموا -كما رأينا- ما يشير صراحة إلى بروزها في الوعي، وحضورها في العملية النقدية.

والملاحظ أن مصطلحات ثعلب التي تتخذ من صفة الشكل والهيئة طابعها الدلالي الوصفي لا المعياري التفاضلي تتصل بتقسيماته للأبيات، فهي تقسيمات وصفية للعلاقات التركيبية أو التأليفية لبنية المعنى في البيت، وحين نطالعها نتذكر تصور (رولان بارت Roland Barthes –١٩٨٠م) للعلاقات التي تربط بين الأبيات، وهو تصور يقوم على تضمن الجملة معنى الأخرى أو عدم تضمنها، وبذلك تمثل (بارت) ثلاثة أنواع من التأليف والتعالق: يعود أولها إلى تضمن إحدى الجملتين لأختها، واعتماد كل واحدة منهما على الأخرى (كما هو الحال في جملة الشرط وجوابها)، ويرجع ثانيها إلى تضمن واحدة من الجملتين للأخرى في حين تكون الثانية حرة من العلاقة بها (كما هو الحال في تعلق شبه جملة بجملة أخرى تامة ومستقلة) ويأتي ثالثها من عدم تضمن الجمل لبعضها البعض، واعتمادها على التأليف الحر[١٠٧].

إن ثعلبا يصف هذه العلاقات التأليفية للمعنى في حدود البيت الشعري بشطريه أو بصدره وعجزه، فالمعدل من أبيات الشعر، كما قال: «ما اعتدل شطراه، وتكافأت حاشيتاه، وتم بأيهما وقف على معناه». والبيت الأغر هو «ما نجم من صدر البيت بتمام معناه دون عجزه، وكان لو طرح آخره لأغنى أوله بوضوح دلالته»، والبيت المحجل هو: «ما نتج قافية البيت عن عروضه وأبان عجزه بغية قائله»، والأبيات الموضحة هي «ما استقلت أجزاؤها وتعاضدت فصولها، وكثرت فقرها، واعتدلت فصولها»، والأبيات المرجلة هي التي «يكمل معنى كل بيت منها بتمامه ولا ينفصل الكلام منه ببعض يحسن الوقوف عليه غير قافيته»[١٠٨]. وقد أورد لكل نوع نماذج شعرية تصدق صفته التأليفية وتوضحها عمليا.

ولاريب أن (ثعلبا) بهذا الوصف البنائي يمكن أن يصنف مع أولئك الذين مهدوا للتحليل النظمي في نقدنا القديم، أي أنه كان، برؤيته النحوية لتشكيل المعنى، يصدر عن شهية المعرفة، ويتحرى ويكتنه ويستبطن، ويمثل هذه الرؤية يصبح جديراً بأن ينفذ بالنظر النقدي إلى كشوف للغة الشعرية بطابعها النوعي المتمايز بين الشعراء، وقد وصل بها بعد ذلك عبدالقاهر الجرجاني (-٤٧١هـ) إلى نتائجه الباهرة، قياساً إلى زمانه، في نظريته عن (النظم).

لكن هذه الرؤية لدى ثعلب، لا تتحرر -كما رأينا- من هيمنة المفاضلة، ولاتخلص نقديا للمعرفة بإمكانات اللغة، والكشف عن آلية الرؤية الشعرية فيها، وقراءة ما تجسده من فعل شعري يثمره الوعي الخاص بالشاعر، ويفتّقه حسه الجمالي حيوية وجدة تعيد للغة بكارتها وشفافيتها الفطرية. فوصف البناء الدلالي للبيت يبدو وكأنه ذريعة لبناء أساس تفاضلي لشكل المعنى في الأبيات، وهذه الكيفية هي -بدورها- المبرر الذي يتيح لرؤية ثعلب أن تتصل ببنية النقد الشعري في سياقه الثقافي والاجتماعي، وأن تكتسب قيمة دلالية نقدية، فلو وقف ثعلب برؤيته عند حدود الوصف، ولم يفاضل لبقي خارج معاني البصر بالقيمة الشعرية، ودون الوعي بما تفرضه المعرفة النقدية لعصره من دلالة معيارية حاسمة هي شغل النقاد الشاغل.

٤- عمود الشعر وسياق (المركزة) للذات العربية المحضة

وكما ارتكزت مصطلحات (الخليل) و(الأصمعي) و(ثعلب) في الدلالة على المعرفة بالشعر على سياق الرؤية الوظيفية الاجتماعية والثقافية التي مثلها الشعر القديم وأوحى بها، وكما انتخبت تلك المصطلحات من المهاد الأساس للشعر العربي وهو (البادية) التي لم تعد واقعا يحياه الشعر العباسي، بل محمولا تتوهج به اللغة، ونسغاً تنبض به شرايينها، وسط جهد وحرص من اللغويين والنقاد على استمرار ذلك، وأن يحمل الشعراء عليه حملاً... على نحو ذلك جاء مصطلح (العمود) الذي قام في موازنة الآمدي، ووساطة القاضي الجرجاني، وفي شرح حماسة أبي تمام للمرزوقي (-٤٢١هـ).

إن (عمود الشعر) يدخر عمقاً غائراً وراء سطحه، عنه تصدر غايته المعرفية، وفيه تكمن دوافعها وطوابعها ولا وعيها الذي يتجاوز الحدود العقلية والموضوعية للمعرفة النقدية، لتغدو تلك المعرفة -في محصولها الأخير- رهناً لوعي محكوم في إطار الذات بصيغتها وسياقها وزمانها ومكانها، أي بلغتها التي لا تعي تلك الذات وجودها بما هو خارج عن هذه اللغة، فضلاً عن أن تعي -بغيرها- ما تتصدى له من موضوعات النقد.

فليس في الشعر عمود، بمدلول (العمود) حسياً ومكانيا، ذلك أن العمود بهذا المدلول هو -كما في لسان العرب- ما «تحامل الثقل عليه من فوق كالسقف يعمد بالأساطين المنصوبة»[١٠٩]. ولذا ينقل ابن منظور (-٧١١هـ) قول الليث: «يقال لأصحاب الأخبية الذين لاينزلون غيرها هم أهل عمود وأهل عماد»، ثم يقول: «والعماد والعمود: الخشبة التي يقوم عليها البيت»[١١٠].

فالعمود، في وعي العرب به حسياً وعملياً، هو محور البناء وقائمته التي يتهاوى بتهاويها، ولايقوم وجوده عند اختلالها، وهو في إطار هذا الوعي مرتبط بـ (البيت)، الذي هو مأوى الإنسان ومقر طمأنينته وعلامة استقراره ووجوده الحسي من جهة، ومرجع أخلاقياته وصفاته الاجتماعية ووجوده المعنوي من جهة ثانية، ومن هنا لا يقتصر (البيت) على معنى السكنى والمعيشة بحسبانها ضرورة طبيعية للفرد، بل يعني شرف الإنسان وعزه وحسبه ونسبه بحسبانها ضرورات اجتماعية. أي أن (العمود) الذي عليه يقوم بناء البيت ينهض ببناء متسلسل في الزمان، وبذلك كان (عمود النسب)، وكانت بيوتات العرب، والبيت منها - كما يقول ابن سيده (-٤٥٨هـ) - «الذي يضم شرف القبيلة كآل حصن الفزاريين، وآل الجدَّين الشيبانيين، وآل عبدالمدان الحارثيين... إلخ»[١١١].

وينهض ببناء حاضر في المكان، وبذلك كان (عمود الخباء) وكان (البيت) بمعنى الدار أو الخباء أو امرأة الرجل.

هذا الارتباط بين (العمود) و (البيت) في الوعي اللغوي، يفضي إلى انسجام لا واع بين (العمود) والشعر، وقد رأينا أن (البيت) بمعناه البنائي البدوي (الخباء) يدخل إلى وصف بناء الكلام في وزن وقافية، فجاء (بيت الشّعر) وأسبابه وأوتاده... وبذلك يأتي (عمود الشّعر) في تعالق وتناغم تنطبع به آلية التسمية، وفضاء التصور الذي تحمله اللغة لكينونة العربي اجتماعياً وحسياً وإبداعياً...

وهكذا يغدو (الآمدي) في قوله بـ (عمود الشّعر) خاضعاً ومنسجماً مع اللغة، ومتصلاً معرفياً بوعي التثبيت لها، ودعم سياق الاتصال لسلسلة النقل والاتباع الجمالي فيها.... ذلك السياق الذي يحتوي آلية النظر المعرفي، ويحتشد له جهد العصر في مجال الدراسة اللغوية والأدبية عامة.

وهذا يعني أن انتخاب لفظ (العمود)، واختياره يصدر عن إرادة التأكيد على مركزية محددة في النظر إلى الإبداع الشعري، بحيث يحمل (العمود) هيمنتها، ويجسد محور بناء رؤيتها النقدية، وقاعدة أحكامها، وسياق ذوقها، ودلالة (العمود) على هذه المركزية يتجلى في مستويات ثلاثة:

أولها: الذات العربية: فالعرب أهل عمود، وقد كانت الخيام والأخبية العربية أساس حملة الانتقاص والنظرة الدونية التي أحاطهم بها أصحاب الحضارات الأخرى التي ارتقت فيها معاني التحضر والاستقرار العمراني والمدني، حتى قال شاعرهم مؤكداً هذا المعنى:

في بلدة لم تصل عُكْلٌ بها طُنُباً … ولا خِباءً، ولا عَكٌّ وهَمْدانُ

أرضٌ يُبَنِّي بها كسرى مساكنه … فما بها من بني اللَّخْنَاء إنسانُ(١١٢)

وثانيها: مألوف الذوق: إذ «العمود» يعني نمطاً من الجماليات المتواترة والناجزة، وهو نمط أملته رواية الشعر القديم، وأساغه التمرس به بحثاً وتقعيداً وقياساً واستشهاداً، حتى استقر الإلف له، وقام الإحساس به في هيئة يجسدها العمود.

وثالثها: فطرية الرؤية وطبعيتها: فالعمود إشارة إلى واقع بسيط، هو واقع الممارسة الحية والمعاشرة المباشرة الذي لايحجب النظر فيه حاجب الرفاهية، ولا يزيِّف التجربة تعمُّل الصنعة، وكذب التخيل.

وهذه المستويات الثلاثة التي تشف عنها مركزية العمود، تغدو ملامح بارزة في الإطار النظري الذي يطرحه النقاد القدامى لعمود الشعر العربي.

ففي مستوى تأكيد الذات العربية و(مركزتها) يقترن وصف العمود بالإحالة إلى (الأعراب)و(مذهب الأوائل) و(عادة العرب) و(طريقتها)(١١٣)، في مقابل (المحدثين)و (المولَّدين) الذين ينضوون بمنطق الرؤية الاصطلاحية لـ (العمود) في معنى النفي لعروبتهم، أي أن النقاد بهذا المنطق يتحرون في الدلالة على الذات العربية ما يفي بصفائها وتمحضها وصدقها، وهي الصفات التي تأتي - زمانياً - من القديم، و-مكانياً- من البادية، و-عرقياً - من العرب، وبذلك لاتستطيل الذات العربية في الزمان، ولا تمتد في المكان، ولاتندمج في الأعراق، لأن حدوث ذلك يعني انكسار عمودها.

وفي مستوى (الذوق)، يقف (العمود) بفعل التذوق عند حدود القرب، والوضوح والإلف، وهي الحدود التي رآها الآمدي في طريقة البحتري، وقصر حقيقة الشعر المعلومة عليها، قائلاً: «وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتي، وقرب المأخذ، واختيار الكلام،ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات

والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه... وتلك طريقة البحتري»[١١٤]. ثم ذهب إلى وصف هذه الطريقة في أكثر من موضع بأنها «عمود الشعر»[١١٥]، وقرنها في مواضع عديدة بمعياريته في القياس على مذهب الأوائل وطريقة العرب، كقوله في وصف بعض الاستعارات: «فهذا مجرى الاستعارات في الكلام»[١١٦] وهذا «أشبه بكلام العرب»[١١٧].

وفي مقابل ذلك يأتي البعد، والغموض، وتوليد المعاني... وهي السمات التي تميز طريقة أبي تمام في نظر الآمدي[١١٨]، وبذلك كان خارجاً على (عمود الشعر)، وكان شعره «لايشبه أشعار الأوائل»[١١٩]، واقترن وصفه لأخطائه في مواضع كثيرة بمثل قوله: «هذا الذي وصفه أبو تمام ضد ما نطقت به العرب»[١٢٠]، وقوله: «هذا كله لفظ سائغ مستقيم، غير أنا ما سمعنا مثل هذا في الريح، ولا علمناه في اللغة، ولا وجدنا في الشعراء أحداً قال: (الصبا وقبولها) ولا (الجنوب وقبولها).. أي سهلها ولينها»[١٢١]، وقوله: «وهذا خلاف ما عليه العرب، وضد ما يعرف من معانيها»[١٢٢]... إلخ.

ومعنى هذا أن عمود الشّعر يحيل، فيما يعتمده ذوقياً وجمالياً إلى خصائص جمالية ناجزة، مُرن عليها فعل التلقي، واستسلمت لشيوعها وتواترها حاسة الاستجابة والانفعال، وساغت في الفهم، وبذلك قام مصطلح (العمود) في الرؤية النقدية ليمنحها سلطة الهيمنة، وخاصية التمركز في حركة الفعل الإبداعي للشعر.

وفي مستوى الطبع والفطرية، يربط (العمود) بين الشعر والواقع العملي المباشر للحياة العربية من خلال صيغة البادية وفضائها،ويبدو هذا الربط في التأكيد على (الأعرابية) والإصابة في الوصف، وصحة المعنى،ووضع الكلام في مواضعه، والمقاربة في التشبيه والاستعارة، ولزوم الطبع والابتعاد عن الصنعة والتكلف والاستكراه، ولذا كان من صفات شعر البحتري الذي مثل (عمود الشعر) في نظر الآمدي أنه «أعرابي، ومطبوع»[١٢٣]. كما أنه يتسم بـ «وضع الكلام في مواضعه، وصحة العبارة»[١٢٤]. وكان مدار المفاضلة الذي يجسد نظام القريض وعمود الشعر عند العرب، في رأي القاضي الجرجاني، هو ما يلخصه قوله: «وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن: بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته. وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته. ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة، ولاتحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل عمود الشعر ونظام القريض»[١٢٥].

ولاريب ان مركزية هذا المستوى تنبثق من حضور الواقع وطغيانه، وهو الحضور الذي تمثله الحياة البدوية للاعراب، تلك الحياة التي تلح الأشياء الطبيعية فيها على الوعي الإنساني، وتستقطبه أو قل تؤكد على اقترابه منها، وتمثله لها، والانطباع بحقيقتها على نحو صادق ومباشر.

وإذا نحن تأملنا في المستويات الثلاثة لمركزية العمود، نجدها تصدر عن نظرة خارجية ساكنة وغير شعرية لخصائص الإبداع الشعري القديم، إنها لاتستبطن رؤياه على نحو حي ومتنام ودائب التغير، وبذلك تقصر عن إدراك قيمته الشعرية واللغوية في عمقها الإنساني والتاريخي والجمالي....

فدلالة الشعر العربي القديم على (العرب)، وتجسيده لطريقتهم ومذهبهم، إنما هي دلالة على الإنسان فيهم وفق مكان وزمان وجنس وثقافة وظروف محددة، ومن ثم لا يصح أن نعتبر طريقتهم واحدة إلا على وجه الإجمال، فهي ليست -جميعاً- إبداع فرد منهم، وهي متمايزة ومختلفة بقدر ما يبدو أنها متجانسة ومتوحدة، ويترتب على هذا - ضمنياً- أن تختلف طريقة العرب من عصر إلى عصر ومن مكان إلى آخر مع ثبات عرقهم ولغتهم، فالآمدي وغيره من النقاد القدامى حين يثبتون لقدامى العرب طريقة شعرية، يثبتون لمحدثيهم الحق في أن يكون لهم طريقة.

ويقودنا هذا إلى رؤية خاصية أساسية في أصول الرؤية الشعريةالتي يألفها ذوق عمود الشعر، فالتاكيد على ماساغ وألف وجرت به العادة من وضوح وقرب، إنما هو تأكيد على ما يدركه خالف لسالف وتابع لمتبوع،فالإساغة والإلف والشيوع والعادة، ومن ثم الوضوح والقرب ووضع الألفاظ في مواضعها، إنما هي أمور تاريخية تحدث في الزمان، وتكون بعد عدم، وتصير بعد كون، فالمألوف كان غريباً ، والواضح كان غامضاً، والقريب كان بعيداً....

ومثل ذلك ما نجده من تأكيد العمود على الطبع والفطرية والتعلق بحقيقة الواقع، إن قصرها على ماهو (اعرابي) و(قديم) يستلزم فرض الكذب والتكلف والادعاء على النتاج الذي يطابق واقعاً محدثاً وطبعاً مدنياً، فمثل هذا النتاج، وإن لم يكن اعرابياً وعلى مذهب الأوائل، فإنه صادق ومطبوع وواقعي بالقياس إلى واقعه الإنساني التاريخي، في الوقت الذي يغدو النتاج الأعرابي المطبوع بطريقة القدامى كاذباً ومفارقاً للواقع المحدث.

توظيف المأثور القولي في تنمية لغة الطفل

د. وسمية عبدالمحسن المنصور*

ما المأثور القولي؟

نعني بالمأثور القولي الجانب المحكي من التراث الشعبي، الجانب الذي تصوغه اللغة، ويحكيه الناس بعفوية، ويصدر عن سياقية شعورية لايحكمها الانتقاء ولا يقومها الانتقاد. فهي متوارثة هكذا سمعت وهكذا حكيت، وإذا ماتدخل الراوي فاضاف أو قصر لا يكون ذلك بوعي أو مرهونا بضوابط أو معايير، إنما تدافع المأثور متفاعلا بما تحمله الذات الخصوصية. قد يحدث تعديل هنا أو هناك لمناسبة المقام، لكنه ليس مما يفقد المأثور القولي سمته أو خصوصيته.

* جامعة الملك سعود - الرياض.

أهمية الموضوع وهدف الدراسة

أصبحت الدراسات اللغوية اليوم ميدانا لألوان من الدراسات الإنسانية التي تمس جوانب حياة الإنسان المختلفة، حتى لقد انبثق من دراسة اللغة علوم لغوية بدأت تأخذ سبيلها إلى الانفصال عن علم اللغة العام، مثل علم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة النفسي، وامتد فعل اللغة إلى أشكال الإبداع الإنساني المختلفة سواء منها الحركي كالموسيقى، أم السكوني مثل النحت والرسم والتصوير، فالخط العربي وتشكيله يمثل معينا تنهل منه الفنون التشكيلية. والموسيقى جمل تتخطى أقسام الكلام المنطوق، بل هي لغة إنسانية لا يقيد إدراكها حد أو مصطلح.

تتجاذب هذه الدراسة اهتمامات متعددة، فمن جهة، المأثور الشعبي القولي تمثله الأغنية الشعبية والحكاية والمثل والمعاضلات اللسانية، والمواقف اللغوية من ألفاظ التحية والمناسبات، والحكم، والأجوبة المسكتة التي تفصح عن سرعة البديهة، والغناء المصاحب للعب، ومن جهة أخرى النمو اللغوي للطفل، والمكاسب المعرفية التي تتحقق بما يتلقاه من مأثور شعبي قولي، واهتمام آخر يتصل بأهمية التراث الشعبي عامة والمأثور القولي خاصة، فبعد أن طغت الحياة العصرية على مجتمعاتنا الخليجية، واكتسحنا الغزو الثقافي المتعدد الجهات، وذابت هويتنا الخصوصية أو كادت، بعد هذا وذاك، يجد المرء نفسه في حيرة وتساؤل: ما صورة المجتمع بعد عقد من الزمان؟ وما نتيجة هذا المسخ لشخصيتنا العربية؟ وإن كان العالم اليوم قرية صغيرة، أنكون نحن إياهم أم يكونون هم إيانا؟ إن تميز شخصية المجتمع هم شاغل تعقد له الدراسات، وتقام له الندوات، فتحديد شخصية المجتمع أساس التنمية الاجتماعية وبه ترقى الأمم، فأين نحن الآن؟

لفت نظري غياب كثير من المأثور القولي عن استخدامنا اليومي، ويفسر هذا الغياب بعوامل ومؤثرات متعددة، ترد أحيانا للتطور اللغوي، وتكون حينا آخر نتيجة إحلال بدائل للمأثور القولي، فالرسوم المتحركة وبرامج الأطفال أغنت عن الحكاية، وتجهيزات المولود المزودة بموسيقى مسجلة أغنت عن أغاني المهد والتنويم، والأرجوحة الإلكترونية أضاعت أغاني الترقيص، وألعاب الحاسوب أقصت اللعب الشعبي وأغانيه، وأعباء المدنية الحديثة من رفاه اجتماعي وغيره أدت إلى تغير الفعل الاجتماعي في نمط الحياة الحديثة، فالخوف على الأطفال من اللعب في الشارع ومغريات السوق الاستهلاكية بكل ما فيها من زركشة اللون، وإشراق الصورة، وتعقيد التركيب جعل الطفل متلقيا لا فاعلا، مشدودا لا محاورا. وأدى هذا إلى انقطاع رافد من روافد النمو اللغوي عند

الطفل. تضيف إلى ذلك انشغال الأسرة وتبدل الاهتمامات، والانسياق لأولويات مستحدثة في المجتمع باعدت بين الأمهات من الجيل الجديد والمأثور القولي. وما يصاحب ذلك من تطور لغوي تارة، وتلوث لغويّ تارات كثيرة، إذ تتداخل اللغات الأجنبية في الاستخدام اليومي ما بين مصطلح معرب وآخر مغرب. كما أن مثل هذه الدراسات لا تعين فحسب، بل هي ضرورة لفهم لغة الطفل، ومن ثم بناء «طرق تعليم لغتنا القومية على أساس قويم من الدرس والتجربة»[١].

تعريف النمو

النمو سلسلة متتابعة متماسكة من تغيرات تهدف إلى غاية واحدة هي اكتمال النضج ومدى استمراره وبدء انحداره، فالنمو بهذا المعنى لا يحدث فجأة ولا «خبط عشواء»، بل يتطور بانتظام خطوة إثر خطوة، ويسفر في تطوره هذا عن صفات عامة تحدد ميدان أبحاثه[٢]. وتقول سعدية بهادر: «إنه نظام مترابط ليس محددا بزيادة الحجم فحسب، ولكنه يتكون من تغيرات مختلفة وإن كانت جميعها ليست من النوع نفسه»[٣].

وأجمل القرآن الكريم صورة النمو في مراحله المختلفة، وذلك في قوله تعالى: {يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا} (٥-الحج)، فللنمو في القرآن مراحل متعددة لها نقطة البدء ولها نقطة النهاية، وبينهما مراحل «من التغيرات الارتقائية والمنظمة، المتكاملة التي تهدف إلى تحقيق النضج»[٤].

أنواع النمو

يميز الباحثون أنماطا من النمو يتصل بعضها ببعض، وتتواصل حاملة معها عناصر وراثية، وإرثاً إنسانياً ومكتسبات اجتماعية في تفاعل موصول ما بين نقطة البدء حتى نقطة النهاية متمثلة في:

- النمو الحسي: وهو يتصل بالجانب الفسيولوجي لجسم الإنسان: هيكله وبنائه ومميزاته الشكلية من لون وملامح تظهر فيها بوضوح آثار العامل الوراثي، ويقرر العلماء «أن الجينات في الإنسان تحمل نوعين من الرسائل أحدهما يجعل من الفرد إنسانا لا كائنا آخر، والنوع الآخر يجعل منه فردا متميزاً»[٥].

– النمو الحسي الحركي: ومحوره التحكم في العضلات، ويمكن تمييز التحكم الفطري الذي ينمو تدريجيا مسايرا للنضج العمري، وتحكم مكتسب ينمو نتيجة لتلقي خبرات تستثمر عند الإنسان في مراحله المختلفة.

– النمو العقلي: هو ما «يتعلق بالوظائف العليا Higher Mental Functions كالإحساس والإدراك والانتباه والتفكير والذاكرة والتخيل، وكذلك التغيرات المتعلقة بالذكاء والقدرات العقلية»[٦].

– النمو الانفعالي الوجداني: ويتضمن الجانب الوجداني من التكوين النفسي للطفل مثل: الحب/الكراهية، التواد/العدوان، الأمان/القلق أو الخوف، الهدوء/الغضب[٧]. وللنمو الانفعالي مظاهر عضوية، ومظاهر عامة تظهر في سلوك الفرد عند المواقف.

– النمو الاجتماعي: ويتناول تكيف الفرد في المجتمع وعلاقاته بالآخرين وتمثله لأعراف المجتمع وانتمائه الأسري، والتزامه الديني[٨].

– النمو اللغوي: اللغة نشاط إنساني يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، وهي أداة الفكر والاتصال، بل هي النشاط الإنساني الفاعل بالصوت أو بالسكون، فحتى أثناء توقف الإنسان لحظة عن الكلام فاللغة لا تتوقف. إذ هي مستمرة، حالة من النمو المتصل في الداخل، وتحوطه من الخارج، فلحظة الفعل اللغوي لا تقتصر على المتحدث فالمستمع في حالة نمو لغوي ومثله القارئ، وهي حاضرة في جميع أحواله الانفعالية وسلوكه الاجتماعي، وهو في حالة نمو لغوي متصل.

ويعد مبحث النمو اللغوي من المباحث التي شغلت علم اللغة الاجتماعي وقام عليها علم اللغة النفسي، وأثار هذا المبحث الدارسين منذ بدء الاهتمام باللغات ونشأتها ودراسة أنظمتها وتطورها، ولذلك كان الاهتمام بالنمو اللغوي عند الطفل نقطة البداية، لأنه يمثل المراحل المختلفة للنمو اللغوي، وتحوط هذا المبحث إشكاليات عدة: متى يفطن الطفل للغة ويسمعها؟ وهل يرتبط تأخر الكلام بتأخر النمو العقلي؟ أي ما علاقة الذكاء بالكلام؟ وما المراحل التي يمكن تمييزها في سير العملية الكلامية؟ وهل اللغة سلوك فطري؟ وهل تكون سرعة النمو في الأنواع المختلفة واحدة؟ وهل تتداخل أم تتباين؟ إذ يتضح الارتباط بين نواحي النمو المختلفة بشكل خاص في الأيام الأولى من حياة الطفل، «ويتعذر علينا في هذه المرحلة أن نميز تمييزا واضحا بين ما هو عقلي وما هو حركي، وما هو اجتماعي وما هو انفعالي. غير أن كثيرا من هذه النواحي التي كانت في الأصل

متشابكة غير مميزة تصبح بمرور الزمن بعد ذلك أكثر تحديدا وأكثر تميزا. ولو أن الصلة الوثيقة بينهما باعتبارهما جميعا أوجها لشيء واحد تظل موجودة»[٩]. ويقرر العلماء أن المظاهر السلوكية المختلفة لاتنحو منحى واحدا عند النمو لا في الزمن ولا في المستوى الشكلي «ومعنى ذلك أن لكل مظهر من مظاهر النمو المنحنى الخارجي الخاص به، فمعدل الزيادة في النمو الجسمي مثلا يكون كبيراً في المراحل الأولى من حياة الطفل، في حين يكون معدل الزيادة في النمو اللغوي أقل بكثير في الفترة نفسها، كذلك تزداد سرعة النمو الجسمي في مرحلة المراهقة في حين تبطؤ سرعة النمو العقلي في المرحلة نفسها وهكذا»[١٠].

منشأ العملية الكلامية

الكلام عملية معجزة معقدة تتهيأ له أجهزة متعددة في الجسم الإنساني، وتؤثر فيه عوامل خارجية تساهم في أداء العملية الكلامية مثل الظرف الاجتماعي، وتأثير الحالة النفسية للمتكلم، بل حالة الطقس والمناخ ومايطرأ على المجتمع من تغيرات سياسية واقتصادية يتفاوت تأثيرها في آليات الكلام عند الفرد. ويكشف مسار العملية الكلامية عن «العلاقة التكاملية بين النمو الفسيولوجي والنمو اللغوي بل إن أحد العلماء (ترايز Trayer) تشدّد على عامل النضج والنمو للأعضاء الفسيولوجية، فالتدريب يكون ذا مفعول أجدى وأقوى كلما كانت الأعضاء أكثر نموا ونضجا. وإن نمط الاستجابة يكون مع النمو أكثر وضوحا وتحديدا»[١١]. فالعملية الكلامية تخضع لمؤثرين: مؤثر داخلي وهو آلية النطق، ومؤثر خارجي مكتسب. وكلا المؤثرين يعتور تركيبه نظام معقد متشابك متصل بأنظمة أخرى داخلية وخارجية «فنحن لكي نلفظ بلفظة واحدة نحتاج إلى تحريك مئة عضلة من عضلاتنا، ولابد أن يتم ذلك في توقيت محدود معلوم، فالعضلات المتحكمة في صندوق الصوت أو الحنجرة لابد أن يتوافق عملها، الذي يسير في شبكات عصبية في قشرة الدماغ، مع العضلات المسيطرة على حركة الصدر والبطن، كما يرتبط كلاهما بحركة عضلات الفم والحلق. ولعل أشد الألحان الموسيقية تعقيدا يقصر في توافقه عما تحتاج إليه جملة واحدة ننطق بها كقولنا: إنه يوم جميل جدا»[١٢]. والجانب الآخر هو المؤثر الخارجي، أي الذي يكون فيه المتكلم مكتسبا متأثرا بما يحيط به من منتج لغوي، أو يؤثر على آلية النطق عنده، وعلى عامل الفعل في إخراج اللغة، ونقصد به مجموع العمليات العقلية من قبول ورفض وتذكر وتخيل واسترجاع...إلخ.

مراحل سير العملية الكلامية

النمو اللغوي مثل غيره من أنواع النمو لا يحدث دفعة واحدة، ولا ينتج من عدم. وقد كان لتقدم العلوم التقنية في رعاية الأم والطفل اثر كبير في كشف كثير من الألغاز المحيرة حول مراحل النمو اللغوي، بل إنه صحح معلومات شائعة في تحديد بداية سير العملية الكلامية. إذ كانت مرحلة الصراخ هي المرحلة الأولى للغة التي يجمع عليها أكثر الباحثين. إلا أن العلم الحديث كشف عن استجابات الطفل المبكرة للغة وهو جنين في رحم أمه[١٣]. ويتراوح المدى بين الأصوات العالية الفجائية التي قد يستجيب لها بحركة عنيفة داخل الرحم، والأصوات الموسيقية الرتيبة[١٤].

وقد أثبتت الملاحظة العادية للأمهات «أن معظمهن يحملن أطفالهن باليد اليسرى ليضعنهم بجوار القلب فيساعدن على تهدئتهم»[١٥].

وتتميز العملية الكلامية بمراحل:

أولا: مرحلة ما قبل اللغة

وهي المرحلة التي تستغرق الشهور الأولى الثمانية من عمر الطفل. وفيها نرصد موقفين لغويين يصدران عن الطفل: أحدهما يتمثل بالصراخ والصياح، والآخر يكون الطفل فيه متلقيا للغة من حوله، ولعموم الأصوات إنسانية أو غيرها.

واستماع الطفل للغة يحقق له متعة. فمثلا طفل الشهور الستة الذي يتعثر في عملية الجلوس ينتصب قاعدا عند سماع صوت الآذان، ولا يعني هذا بالضرورة فهمه للغة. «ففي عمر تسعة شهور فقط ينصتون للشعر والأغاني والقصص على الرغم من أنهم لا يفقهون شيئا مما يسمعون. ويبدو أن الصوت وحده هو الذي يجذبهم وليس معاني الكلمات»[١٦].

مرحلة المناغاة

وهي داخلة في المرحلة السابقة إلا أنها تتميز بإصدار الطفل للأصوات الإنسانية جميعها حتى الأصوات التي لاتوجد في النظام الصوتي للغته أو لغة المحيطين به، كما أنه كلماتقدم في العمر اختفت الأصوات التي لاتستخدم في المحيط اللغوي حوله[١٧].

ولسنا نعلم لهذه التنغيمات ظرفا انفعاليا محددا غير أن الطفل يفرد في أحوال متفاوتة في

الراحة والشبع، أو عند الإثارة البصرية أو السمعية. ولكن هل المناغاة مرحلة واحدة؟ إن المتأمل لمناغاة الأطفال في الشهر الثاني يلاحظ مراحل تلقائية لا إرادية تصدر من الطفل أولا، ثم تعقبها مرحلة إرادية يكون الطفل فيها فاعلا لا لسبب أو مثير فقط، وإنما فعل إرادي ذاتي محض يستمتع الطفل فيه بسماع صوته[١٨]. وتكون المناغاة فعلا إراديا عند التجاوب مع شخص يناغيه كأن تغني له الأم أو يلاعبه أحد الكبار «فالأطفال الذين تربوا في منازل تتبادل الأم مع الطفل اللعب اللفظي نجدهم يتلفظون أكثر وبصورة أكثر تنوعا وشمولا من الأطفال الذين نشأوا في بيوت تكون فيهامثل هذه المبادلة قليلة»[١٩]. ويمكن القول إن هذه المناغاة لا تكون تقليدا وتبقى مهمة الكبار قاصرة على التحفيز والمشاركة فقط. فهي نوع من التواصل الإنساني من جهة، وتطوير وتمرين تجريبي يستعد به الطفل للمرحلة اللاحقة. فهو في المراحل المتقدمة من فترة المناغاة يدرك التنوع الصوتي الصادر عنه، ومن ثم يحاول إخضاع إمكاناته الصوتية للتجريب، ويتلذذ بسماع نتائج فعله، مع ملاحظة أن ما يصدر عنه لا يعدو كونه لعبا بالأصوات قد يحقق فعلا اجتماعيا، لكنه يقصر عن أداء الوظيفة الرمزية للصوت[٢٠].

مرحلة الكلام

يتلقف الطفل اللغة من الآخرين، ثم يعبّر عن ذلك بالمحاكاة والتقليد، ويزامن النشاط الاستقبالي نشاط تحليلي «فيبني الطفل تنظيمه اللغوي استنادا إلى عدد من العمليات الذهنية التي ترتبط بنموه الإدراكي»[٢١].

فالطفل يتعلم شكل الألفاظ الصوتي والتراكيب اللغوية، ولكن وفق تنظيم يسيطر عليه ذاتيا وتحكمه قدراته الصوتية والإدراكية. ويتمثل ذلك في نطقه مقلدا ما يسمعه. فما ينطقه كثيرا ما يختلف إما في نوع الصوت (خس/حس) نتيجة للإبدال الصوتي، أو في ترتيب الأصوات وهو ما يعرف بالقلب المكاني مثل (مسكة—— سمكة). ويحدث في تركيب الجملة تقديم وتأخير أو حذف لبعض أجزاء الجملة، وقد يكتفي الطفل أحيانا بنطق الجزء الأخير من الجملة المسموعة. مثلا لو سألنا الطفل (أنت تحب السيارة أو الطيارة؟) لأجاب: الطيارة. ولو كان السؤال (أنت تحب الطيارة أو السيارة؟) لأجاب: السيارة. ورغم كل ما يطرأ على لغة الطفل من سمات شخصية ينفرد بها إلا أنه يتقن بوعي شديد التنغيم السائد في لغته القومية[٢٢]. والطفل حين يكتسب اللغة كأنما يكتشف قواعد تلك اللغة[٢٣]. وتتحقق مراحل الإدراك اللغوي متزامنة مع قدرات أخرى

وهي: الإدراك السمعي، والإدراك البصري. وتتضافر مقدرة السمع والبصر على ترجمة حركات الشفاه، وتمييز الأداء الحركي للمتكلم الذي يقلده الطفل بوعي شديد «فلكل شعب حركاته الجسمية أو كياناته (Kinesics) التي تميزه عن سائر الشعوب، وهذه الحركات يتعلمها الأطفال في السنوات الأولى من حياتهم كما يتعلمون لغة بلادهم سواء بسواء»[٢٤]، مثال ذلك ظاهرة التصفيق المصاحبة لأغنية التصفيق، فيكتسب الطفل التصفيق متدرجا من الفعل اللاإرادي إلى الفعل الإرادي الواعي، فالمشاهدة عنصر أساسي في العملية الكلامية، والمكفوفون الذين استكملوا المقدرة على الإدراك السمعي يكتسبون اللغة، لكنهم يفقدون عنصرا مهما في تكاملها بالأداء الحركي، والإحساس اللوني، لذلك لاحظ الباحثون فروقا في لغة الأكمه ولغة من كف بصره في مرحلة تالية من طفولته أو عمره. وعبقرية مبدع مثل طه حسين الوصفية تفسر بقوة الخيال الذي ازدادت حدته بعد أن كف بصره فاستثمر ما اختزن في ذاكرته من مشاهدات. ويعضد الإدراك الحسي والذهني بقية القدرات، وتتمثل مقدرة الإدراك الحسي في اللمس والتذوق، وهذه المقدرة تضيف للطفل مكتسبات معرفية تنمي قدراته الذهنية[٢٥]. وملاحظة الطفل وهو يتعرف على الأشياء بلمسها ووضعها في الفم مباشرة تكشف لنا أهمية الإدراك الحسي، ولهذه المقدرة أهمية مؤثرة في تعليم المكفوفين[٢٦]. والإدراك الحسي باللمس والتذوق مقدرة فطرية يولد بها الطفل، فهو يخرج للحياة مزودا بقدرته على المص، بل إن هذه القدرة هي نافذته إلى المعرفة.

وتنمو القدرة على الإدراك الذهني سابقة القدرة الكلامية[٢٧]، والطفل قد يفهم آلاف الألفاظ، لكنه لا يستخدم منها إلا قليلا[٢٨]. فالطفل قد يستطيع تمييز الطلب الموجه إليه، ويجيب عليه بالحركة مثل: أن يُسأل الطفل في سن ثمانية شهور وتسعة شهور أين عينك؟ أين فمك؟... إلخ. أو أن نسأله أين بابا فيرفع عينه إما إلى صورته أو إلى الباب منتظرا دخوله، كذلك قدرته على التقليد نتيجة لإدراكه الذهني. فهو يقلد الكلمة صوتيا دون أن يدرك معناها، أو إخراج أصواتها، ففي (لعبة الصفاقة) يستطيع الطفل أن يتابع التصفيق مع الأغنية المغناة:

صـفـاقـة حـق الـبـابـا   مـن طـرشـتـه مـا خـابـا

وكذلك في اللعبة الحركية على الأصابع: (هذا بابا.. هذي ماما)

ولا تقف المقدرة الذهنية عند القدرة على التجاوب أو التقليد، فالطفل قد يتجاوز ذلك إلى القدرة على تمييز الخطأ من الصواب، وذلك عندما تقوم الأسرة بتصحيح نطق الطفل الذي يعمل مع

تقدمه في النمو على «استبعاد الأخطاء، والتنبه لأغلاط اللفظ، وكل هذا وذاك يعمل على تثبيت الأصوات الملتقطة بكثرة أمام الطفل فتنطبع في ذهنه، ويبدأ بالتعرف على دلالتها»[٢٩]، ومن إدراك الطفل للخطأ إدراك طفل في الثانية من عمره أن الصواب في اسم أخته المولودة حديثا هو (غيد) لا (عيد) وقد كان يناديها (عيد) قبل شهر فقط. وتزداد مقدرة الطفل على إتقان قواعد اللغة والقياس على أمثلتها، إلا أنه يواجه بمشكلة عند تعدد القواعد فالتأنيث مثلا بالتاء (شاطر/شاطرة)، (حلو/حلوة)، إلا أنه عندما يقيس (أحمر/أحمرة)، (أحمق/أحمقة) يطالب بتصحيح الخطأ، وكذلك الجمع فهو يتلقى قاعدة الجمع السالم أولا، وذلك لسهولة إدخال اللاحقة على المفرد، لكنه يخطىء عند اختلاف القاعدة. فجمع الصفات اللونية أيضا يأتي على جمع السالم (الأخضرين)، (حمار/حمارين، شيطان/شيطانين). فالطفل لديه مقدرة فائقة على تنويع مدركاته اللغوية إذ «يلتفت مرة إلى الجانب الشكلي من اللغة، وأخرى إلى الجانب المعنوي»[٣٠]. وفي مرحلة الإدراك الذهني تتوقد إيجابية الطفل وفاعليته وهناك من الباحثين من يرى «أن الطفل لا يكتسب اللغة عن طريق محاكاة البالغين، بل إنه يفعل ذلك عن طريق الفرضيات»[٣١]، وتلك الفرضيات تظهر في سلوكه الإدراكي بعد تمكنه من اللغة، ففي سن الخامسة غيرت ابنتي بدور من لكنتها إلى لكنة المسرحيات الكويتية، وهي لكنة لا تستخدم في محيطها البيئي الأسري، وإنما اكتسبتها من مشاهدة المسرحيات التي نالت رضا في وجدانها. ويرى أصحاب نظرية تحليل المعلومات أن الأطفال في كل مكان في العالم يتعلمون قواعد لغوية بالغة التعقيد بسرعة هائلة، مما يوحي بأن الإنسان ذو تركيب خاص يؤهله لاكتساب اللغة التي يتلقاها، وتكون الفرضيات حول كيفية بناء التركيبات اللغوية، وأصحاب هذه النظرية يسبغون الفضل في تعلم اللغة على الطفل لا البيئة[٣٢].

وتنمو قدرات الإدراك الذهني بصورة متنوعة، مثل: قدرة التذكر المباشر، والقدرة الاستقرائية، والاستنباطية والمكانية[٣٣].

ويعد الاستخدام الصحيح لأزمنة الأفعال وأقسام الكلمة والتسلسل السليم للصفات والأسماء والأفعال والظروف في الجمل مهارات يكتسبها الطفل عادة من دون تعلم مباشر[٣٤].

الخصائص المميزة للغة الموجهة للطفل

إن مقدم الطفل لا يفرض نظاما لغويا خاصا للأسرة، وإن كان يلون لغة الأسرة السائدة

باستخدامات لغوية استجدت مع مقدم الطفل، فقد درجت أسر كثيرة على محادثة الطفل منذ اليوم الأول بلغة مميزة لها خصوصيتها، فالطفل يتعرض لنظامين لغويين: نظام خاص يوجه له فقط وآخر عام يتمثله بقية أفراد الأسرة المحيطين به، وينتبه الكبار إلى الفروق بين مستويات الاستخدام فيسلكون طرائق لغوية وظيفية عند محادثة الطفل وإن كانت أحد جوانب النظام اللغوي العام الموجه للكبار، فأغنية الطفل مختلفة والحكايات (الحزاوي والسواليف) لها نظامها، وتسمية الأشياء والأعلام تسلك مسلكا مختلفا عما يخاطب به الكبار. والطفل يسمع اللغة حتى وإن لم توجه له بصفة خاصة، ومن ثم يتعرض للازدواجية اللغوية بين المستوى الموجه له والمستوى الموجه للكبار.

وأهم ما تتميز به اللغة الموجهة للطفل:

١- الكلمة الجملة: تستعمل الكلمة المفردة محملة دلالة جملة كاملة مثل (عم)، أو (أم) - بالميم المفخمة - وهي تقابل: تناول طعامك، ومنه كلمة (بح)، وهي بمعنى انتهى، ويصاحب النطق أداء حركي يميز المعنى، ويكشف دلالته. ويكون الطفل كلمته الأولى بدلالات مختلفة فهو يسمي المواقف اللغوية المتصلة بشيء محسوس باسم الشيء ذاته. فقد شاهدت طفلا كانت كلمة كرة (كله) من كلماته الأولى - باللام المفخمة - فإذا أراد الكرة قال: (كله)، وإذا لعبها قال (كله)، وهنا يمد الصوت بامتداد ماتتدحرج فيه الكرة، وإذا أراد إرضاء الأم أو الإخوة يتودد إليهم مادا الكرة مكررا (كله، كله) كأنما التكرار إلحاح في طلب الرضا.

وتفسر الكلمة الأولى بأنها قد تكون: إما محاكاة للغير، وإما أول كلمة يفهمها، وإما أول كلمة يستعملها تلقائيا(٢٥).

ومن الممكن أن نضيف أن الكلمة الأولى هي الكلمة التي تحقق له متعة وسعادة.

٢- التصغير: تكثر صيغ التصغير في اللغة الموجهة إلى الطفل، وعلة ذلك أنها سمة من سمات اللهجة المحلية، مثل: «احليبة، اميهة، ابنية، أوليد». ومن الأسباب التي يمكن أن ترد إليها ظاهرة التصغير مناسبة صغر حجم الطفل، كما أن التصغير شحنة عاطفية تنطوي فيها الألفاظ على تنغيم يتجاوز البنية الصرفية إلى ما يتصل بوجدان الصغير فيحسه وينفعل به.

وثمة مقولة هي أنه: «كما يسمع الطفل ينطق، فلغة التصغير تمثل نموذجا يحتذيه، وهي تحاصره في اللغة الموجهة له وفي الأغاني التي يسمعها:

قـمـيـر الـدودو ما شـفـت الـبـابـا

والأم تخاطبه في أغانيها بلفظ (أوليدي) أي: يا وليدي، أو لابنتها (ابنيتي) أي: بنيتي، التي تحييها بتحية الصباح منشدة:

صـبـاحـك اصـبـاح والـورد والـتـفـاح

وعـويـنـتـك هـالـزيـنـة سـلابـة الأرواح

والتصغير يتناول صفات الطفل وما يحيط به.

٣- وجود الكلمات التي تحاكي الطبيعة مثل: صوت السيارة (عن)، ولمناغاة الطفل (أغو)، والعنز (امباعو) لارتباطها بالدلالات الحسية التي يدركها الطفل.

٤- الكلمة المقطعية: يظهر الطفل في بدء نطقه للكلمات ميلا شديدا إلى تكرار في مقاطع الكلمة (ديد، وحوح، ماما، بابا)، وتعين الكلمة المقطعية الطفل على تكرار نطقها وتثبيتها في لغته، بما لها من سهولة في النطق وجرس صوتي موسيقي. ويرى بعض الباحثين أن أول ما يتعلمه الطفل ليس الأصوات المنفردة، أو الكلمات، بل المقاطع[٣٦]. فوجود الكلمات ذات المقطع الواحد المكرر مرتين مثل الجرح (دودو) والسيارة (الديد)، والمأكولات الجيدة (النانا)، والثوب الجديد (النيني) فيه ربط بين المقطع الصوتي والدلالة يميزه ما لأصوات العلل الطويلة من قيم خلافية.

٥- وجود أسماء أصوات وأسماء أفعال مثل (الأوف) للرز، ذلك أن إطعام الطفل الرز يقتضي تبريده بنفث الهواء، وهو ما تحكيه كلمة (الأوف) فتشعر الطفل بحرارة الطعام وتربيه على الصبر، وأما الطفل فيقرن بين الصوت (الأوف) والرز، فهو يصدر هذا الصوت (الأوف) حين يرى الرز مرة أخرى، ومثلها كلمة (أح) يعبر بها عن الحار بعد تعرضه للسعة شيء حار.

٦- كثرة استخدام الألفاظ التي تتصل باهتمامات الطفل من ملبس مثل: (النيني)، والطعام (التاح)، بعض الحيوانات المنزلية مثل (الهدع) للغنم، و(الوحوح) للكلب، و(النيو) للقط[٣٧].

وتمثل اللغة الخاصة الموجهة للطفل عائقا - في بعض الأحيان - يحول دون النمو اللغوي المأمول للطفل، فإذا ما استمر الأهل في مخاطبته بتلك اللغة الخاصة فقط تظهر بعض إسقاطات تلك اللغة بين حين وآخر في مراحل متقدمة من عمر الطفل، وقد رصد الباحثون مفردات مثل (امبو)، و(الدودو) عند بعض الأطفال الكبار[٣٨].

والموقف اللغوي للطفل يأخذ بعدين: بعد أفقي وفيه يتبادل اللغة مع أقرانه، وبعد رأسي وفيه يتبادل اللغة مع الكبار. وتلتقي هذه الازدواجية في الموقف اللغوي مع ما يقع فيه من مستويين لغويين صادرين عن الكبار أحدهما بلغة خاصة موجهة، والآخر بلغة عامة موجهة للكبار، ومن ثم شابت لغة الطفل الصادرة عنه سمات اللغة الموجهة إليه.

خصائص لغة الطفل

نميز هنا بعض الظواهر في الأصوات وشكل الجملة، وأنواع الكلمة الصرفية في منطوق الطفل في السنة الأولى.

الأصوات

تتميز مرحلة المناغاة بإطلاق الطفل للأصوات الصائتة المتكررة الوحدات، وتقل فيها الأصوات الصامتة التي تظهر منها مبكرا أصوات الحنجرة والحلق، ثم الشفوية والسنية، وأخيرا الأنفية[٣٩]. وتتميز الأصوات الشفوية الباء والميم ثم الدال بأولوية الظهور[٤٠]. ويستعمل الطفل سبعة أصوات مختلفة قرب الشهر الثاني[٤١]. ويلاحظ أن الأصوات الأولى (الحنجرية والشفوية) هي أصوات لا إرادية، يقل فيها جهد الطفل. أما الأصوات الأخرى الإرادية فهي تتطلب مجهودا لا يتأتى للطفل إلا بعد حين، وقبل أن تستكمل أعضاء النطق عند الطفل كفاءتها يلجأ الطفل إلى الإبدال فكلمة (براية) تصير (بلاية/بغاية) ويتغير شكل الكلمة بالنبر والتضعيف، أو مطل الحركة تعويضا عن المحذوف مما لا يستطيع نطقه إما لذات الصوت أو لأن الصوت جاء مجاورا لصوت آخر في منظومة صوتية متتابعة من صوامت وحركات فكلمة مثل (علك) سمعتها من أحد الأطفال يقولها (عِكّ) فحذف اللام وعوض بتضعيف الكاف. ويتخلص إلى الإدغام وكلمة مثل (حمد) -علم- يستبدل بالحاء همزة (آماد)، والغريب أن الطفل يوظف أصوات المد فـ (حمد) إذا كان قريبا (آمد) من دون مد، وإن كان بعيدا فهو (آماد).

وإذا كانت أصوات الكلمة المسموعة جديدة على الطفل فهو يلجأ إلى كلمة أخرى أصواتها أكثر ألفة لديه. فأحد الأطفال -عمره سنة- كان يعرف اسم الفاصوليا فلما طلب منه أن يحيي إحدى الزائرات واسمها (سهيلة) قال خالة فاصوليا. وليس الملاحظ هنا مجرد معرفته كلمة (فاصوليا)، بل التدرج في نطقها وفق مخارج أصواتها، كما أكسبتها أصوات المد تشكيلا مقطعيا مفتوحا

بخلاف الاسم (سهيلة). ويقرر أحد الباحثين أن الأصوات التي هي أكثر تميزا (More Marked) من حيث ملامحها المميزة (Dictinctive Features) أصعب في الاكتساب من الأصوات التي هي أقل تميزا (Less Marked)، إذ يتدرج الطفل في اكتسابه الأصوات من الأقل إلى الأكثر تميزا[٤٢].

أقسام الكلام في لغة الطفل:

شكل الجملة

١- الكلمة الجملة، وتخضع لظروف النطق في بداياتها من عدم تمكن وضعف، وتبدأ في أواخر السنة الأولى وبداية الثانية.

٢- الجملة من كلمتين، وتبدأ في النصف الثاني للسنة الثانية حتى الثالثة، وتتميز هذه الجملة بأنها تتكون من كلمتين يغلب عليها الأسماء، ولابد أن يتصدر الاسم إن ظهر الفعل مثل (محمد أخذ)، (بدر قال) إلا في الصيغ الأمرية: هات، وهي كلمة أي (عطه).

٣- تتطور الجمل بعد ذلك بتوظيف الأدوات الرابطة مع تقدم العمر.

أنواع الكلمة الصرفية:

١- الأسماء أكثر شيوعا من غيرها، وتفسر كثرة شيوع الأسماء، لأن الطفل يتعرف على المحسوسات، وأما الأفعال فإنها تتخلف عن الأسماء في الاستخدام، فالأسماء هي أول ما ينطقه الطفل وهو يتعامل لغويا مستثارا من الأشياء التي تحيط به.

٢- الأفعال: ورد في إحدى الدراسات أنها تشكل ربع الكلام فقط[٤٣]. ويفسر تخلف الأفعال في كلام الطفل أن الأفعال ترتبط «بمفهوم الزمن الذي لا يكتسب ولا تتم السيطرة عليه إلا في مراحل متأخرة من الطفولة»[٤٤].

٣- الحروف والأدوات:

إن طبيعة الحروف والأدوات الوظيفية ذات دلالات تجريدية لا يدركها الطفل في المراحل الأولى للكلام فهي تحتاج إلى مهارة في التركيب، وخبرة في الاستعمال، وهذا لا يتاح للطفل في بداية الكلام، لذا فإنها تتأخر، وتقل نسبتها حتى يستكمل الطفل قدراته اللغوية، وتربك الطفل أحيانا،

فقد كان أحد الأطفال لا يفهم كلمة (عند) في أمر الأم له: (نام عند الجدار)، فسأل عن معنى (عند)، ذلك لأنه لا يفهم (عند) إلا للملكية في فهمه (عندي كتاب/عندي قلم) ومثلها: عندك، لكن الجدار كيف يكون له (عند)[45]؛ فالأدوات والحروف تختلف دلالاتها في سياقات متعددة، ولا يتقن الطفل مهارة توظيفها في الجملة إلا بعد أن يحصل على خبرات لغوية ومساعدة من الآخرين[46].

معوقات النمو اللغوي

هذا مبحث دقيق في درس النمو اللغوي، وثمة دراسات مستفيضة في هذا الموضوع[47]، لكننا نشير هنا إلى أهم عوامل هذه المعوقات:

١- عامل معنوي.

٢- عامل نفسي.

٣- عامل بيئي.

وتجملها على النحو التالي:

١- ظهور الأسنان.

٢- ظهور مهارة المشي[48].

٣- ضغط الكبار في تدريب الطفل على النطق[49].

٤- عدم تنوع لغة الخطاب بالنسبة للمتحدثين مع الطفل من حيث: أقرباء، وغرباء، كبار وصغار، ذكور وإناث، في المنزل أو خارجه[50].

٥- المستوى الاجتماعي والمادي لأسرة الطفل، فقد دلت الدراسات على أنه كلما ارتفع مستوى الأسرة ماديا واجتماعيا، وتحددت طبقتها المتميزة في المجتمع ازداد المحصول اللغوي للطفل، وذلك لأن هذه الظروف تؤدي إلى اتساع نطاق خبراته[51].

٦- عدم التساهل في إطلاق حرية التعبير، وضبط المعايير بمعنى تصحيح النطق نحويا وصرفيا لا صوتيا فقط[52].

٧- تحريم الكلام على الطفل إلا في أوقات محددة[53].

٨- انعزال الأطفال سواء في الملاجىء أو تركهم مع الخدم أو لعمل الأم ساعات طويلة، وانشغالها خارج البيت أو سفرها فترات طويلة، والعزلة أيضا تفسر تأخر لغة التوائم اللذين يتركان معا فترات طويلة، وتفسر أيضا عيوب النطق عند الطفل الوحيد الذي يعزل عن الأصدقاء، ولا إخوة له أو أقارب يلتقي بهم.

٩- صعوبة التواصل اللغوي مع الكبار، فالطفل الذي يكثر القلب المكاني عنده، أو الإبدال أو الحذف يصبح غير مفهوم عند الآخرين «وتسبب عملية الحذف هذه صعوبة في فهم كلام الطفل ومعرفة الحاجة أو الفكرة التي يريد أن يعبر عنها، مما يؤثر على الطفل ويؤدي إلى إرباكه وشعوره بعدم القدرة على إيصال أفكاره إلى الآخرين»(٥٤).

حوافز النشاط الكلامي

يستقبل الطفل مؤثرات مختلفة تعمل على تشكيل محصوله اللغوي من حيث الكم والكيف، بعضها ذاتي وبعضها خارجي، فالذاتي مثل يقظة الطفل، والخارجي مثل الجماعة اللغوية ووسائل الإعلام:

١- العوامل الذاتية

يقظة الطفل

تكون يقظة الطفل المبكرة نتيجة واستجابة لإحساسه بالحاجة، فاحتياجه للرضاعة يتطلب يقظة وانتباها وفعلا، ومن ثم يكتسب الطفل تلبية احتياجاته، وفي مرحلة الكلام يتفاوت الأطفال في استجابتهم للعب والأغاني كل حسب درجة يقظته وقدراته الذاتية. فالفروق الفردية تؤثر في المكتسبات الجديدة التي تحقق للطفل المتعة والإحساس بالنضج. وتنمو هذه اليقظة مع مواصلة الحديث مع الطفل ومعاملته كقرين، «فالتعرض للغة أكثر فاعلية من تعلم اللغة. ويرى بعض الباحثين أن التحادث مع الطفل أقدر على الإسراع في اكتسابه إياها، ولكن سماع اللغة يؤدي إلى تعلمها حتى ولو لم يمارس الطفل الكلام، لكن عملية التعلم تكون أكثر بطئا»(٥٥). فاليقظة تعمل على إثراء محاوراته الذاتية التي يستثمر الطفل حريته في انتقاء ألفاظه وتعديل ما يريد فيها(٥٦). وتتوقد اليقظة في المحاورات الذاتية الجماعية التي «فيها يضم الآخر إلى فعله أو إلى تفكيره

الآتي، ولكن دون اهتمام بأن يكون مسموعا أو مفهوما فعلا، إن وجهة نظر المتحدث إليه لا تتدخل إطلاقا فالمتحدث لا يشكل إلا منبها تظهر وظيفته في الاتصال بوضوح في الأوامر والتوسلات والتهديدات مما تظهر في تبادل الأسئلة والأجوبة»[٥٧].

٢- العوامل الخارجية

اللغة نشاط إنساني مبدع، وهي أهم أدوات الاتصال الحضاري والتواصل الإنساني الاجتماعي «وقد أصبح عزل الناس عن بعضهم وسيلة من وسائل التعذيب، فالسجن والنفي نوعان من التعذيب، وأهم ما فيهما هو حرمان الإنسان من التكلم مع الغير، أو الاستماع إليه، أو كلا الأمرين»[٥٨].

المؤثرات الاجتماعية

الأم، الأسرة، الرفاق

الأم: هي الفعل الأكثر مضيا في خبرات الطفل فهو يتلقى منها الغذاء، والمشاعر والتوجيه واللغة، والعلاقة بينهما تأخذ بعدا متناغما. فثمة مساحة من فهم الآخر، والإحساس به، والتفاعل معه، كل بنصيبه، وكل له فاعلية في التأثير على الآخر وتحريك استجاباته. ويرى (تريفاتن) أن «السياق الإبداعي الذي يؤدي إلى التفاهم، والتفاعل بين الأم والطفل، يشكل حجر الزاوية في التطور المعرفي اللغوي وإدراكه المعنى»[٥٩]، ولأهمية الأم تسمى اللغة القومية اللغة الأم[٦٠]. فالطفل يرضع من الأم الغذاء، ويرضع في الوقت نفسه انفعالاتها، والموروث الثقافي الذي تحمله له أغانيها، ومداعباتها له، وترقيصها له، وما يصاحب ذلك من حركة ونغم «وتجدر الإشارة إلى أن الأم التي ترضع الطفل عند طلبه تجد من الفرص للتفاعل معه والحديث إليه أكثر من الأم التي ترضع وفق برنامج محدد»[٦١].

فأغاني المهد مثير لغوي تؤديه الأم تعبيرا عن احتياجاتها النفسية أولا، ثم يتطور ليأخذ بعدا وظيفيا تعليميا في مرحلة لاحقة من نمو الطفل، وارتباط اللفظ بمدلوله - مثل كلمة: «أحبك» ودلالاتها الحسية المتمثلة بالتقبيل- يكشف عن أثر أغنية المهد وثرائها فهي تمتد في يوم الطفل من الصباح إلى المساء، تصاحبه في الأكل والنوم واللعب، ويأخذ اللعب جانبا وظيفيا عند الأم، مثل لعبة الصفقة، ولعبة هذا بابا هذا ماما التي تعرف فيها الأم الطفل على أفراد الأسرة. وفي بعض

البينات البدوية سمعتها (طبّاخ نفّاخ كليب البدو نبّاح) وعند بعض الأسر الكويتية سمعتها (شاح باح كشمش تفاح)، وتهتم الأم بترديد اسم الطفل على مسامعه، بل إنها تتلذذ وتستعذب تشكيل الصورة النطقية لهذا الاسم ما بين ترخيم وتصغير وتحوير مثل: ابريه ترخيم إبراهيم، والعُبُد لعبدالله، وفي أسماء البنات المحلية مثل غنيمة «غنّومة»، ولطيفة «لطّوفة»، وتقيس الأم الأسماء الحديثة على ما سمعت مثل: ديمة «ديّومة»، فتقول :

ديـــومـــة مـــن تمـــر   يـــعـشـقـونـهـا الـسـمـر
ويـــعـــزل بـــوحـــلاوة   ويـــبـــســـط بـــوتمـــر

ومن طرائق التشكيل تلك التراكيب اللغوية التي تصف الاسم وتميزه من ذلك:

منيرة خزنة الديرة أو مناير خزنة التاير-التاجر-وحمودي دهن العودي، والريم خلاقها عظيم، وحمدلي في السوق لبد لي، حصوص أم الفصوص، سلومي بياع اللومي، بدور سراج الدور، سعاد زينة البلاد.

وللأم القدرة على اختراع مثل هذه التراكيب متى أعوزتها الحاجة.

ويأخذ التزويد اللغوي منحى أكثر اتساعا بعد أن يتقدم الطفل سنا، فالأم تحادث الطفل كثيرا، وتجيب عن أسئلته الأكثر، وتعبر أغلب أسئلة الطفل إما عن لهوه، وإما عن حاجة معرفية، وإما إثارة انتباه المحيطين به، وأما الأسئلة التي لا يعرف إجابتها فهي التي ترتبط بمعرفة الأشياء المثيرة والصورة التي تثير الانتباه، والأم أكثر الناس قدرة على معرفة مدلولات ماينطق به الطفل، إذ إن معظم الاتصال اللغوي للطفل يتم مع أمه خصوصا في الأشهر الأولى من العمر[٦٢]. وتكثر بعض الأمهات في مخاطبتها الطفل من الأمثال الشعبية المتصلة بتربية الطفل وتوجيهه، مثل (طقاق روحه مايصيح) وهو يقال عند وقوع الطفل أثناء تعثره بشيء ما على الأرض، ويتضح من المثل السابق حرص الأم على تقوية صحة الطفل النفسية، وعدم الاستسلام للبكاء. ومثل (يا ماشي درب الزلق لا تامن الطيحة)، وهو أسلوب تحذيري ينمي عند الطفل النظرة المستقبلية للقادم من تصرفاته، ومنها (شور من لاستشار مثل سراج بالنهار). وتمثل الأمثال الشعبية البوتقة التي تصب فيها تجربة الأمة وتنقلها الأم لابنها لتتوارثها الأجيال فيما بعد «فالأمثال الشعبية رغم بساطتها تحمل من تجربة الإنسان عمقا جميلا لخصها الشعب حسب ظروف بيئته وبأسلوبه

الخاص»[٦٣]. والأم تقص على الطفل الحكايات الشعبية والسوالف، وفي الحكاية والسوالف أفق رحب للثراء اللغوي، والاتساع المعرفي. من ذلك حكاية مريم أم الدل والدلال[٦٤]. والحكاية الشعبية تحكى للطفل منذ السنة الثالثة، وعالم الحكاية هو عالم الخيال المجنح، فالطفل يجلس مشدودا جامعا كل قدراته الإدراكية متيقظا لكل شاردة أو واردة حتى إذا ما توقفت الأم لتلتقط نفسها أو تتذكر بادرها بالسؤال (ويعدين؟) ويقتصر دور الأم على الرواية أما الفعل فهو للطفل إذ يعمل الخيال على رسم عوالم الزمان والمكان والشكل واللون مستفيدا من خبراته السابقة في تشكيل الصورة، وإدراك ما جد عليه من معارف، وقد تثيره بعض الألفاظ فيطلب المعاني أحيانا، لكنها لا تبعده عن سياق الحكاية فيواصل السؤال: ويعدين؟ وتؤسس الحكاية الشعبية قيم الجمال، وعالم الرفاه والطموح إلى مستقبل وردي يشرق في عقل الصغير، ويندمج الوعي بالخيال، ويبني الصغير في مخزون ذاكرته قيما تظهر في المستقبل، فلهذه الحكايات أثرها الفاعل في رسم صورة الشخصية القدوة. وتأتي ممارسات الأم اللغوية اليومية مدرسة يتعلم منها الطفل ويزيد محصوله اللغوي سواء كان الخطاب موجها له أم لغيره أثناء ملاحقته لأمه وجلوسه قريبا. فألفاظ التحية وما نطلق عليه (الرد والبدل) مثل: (خطاك السو) تقال للمريض أو المصاب، وهو يجيب (خطاك اللاش) وللتعبير عن حلاوة الشخص المقابل يقال في المجاملة (يا حلوة) فيجيب الشخص الآخر (حلت دنياك)، وفي التهنئة بعودة الغائب: (قرت عينك)، وجوابه (بوجه نبيك). وتحفل اللهجة بكثير من أمثلة الاتباع وتساق على لسان الأم في مواقف مختلفة في التدليل والخصام والرضا والغضب والفخر والندم... إلخ. من ذلك للتعبير عن الحب (أحبك وآلبك) وللاستهتار بما تسمع (خربوطة بربوطة) أو (خوى موى)، وللتعبير عن الأصوات الكثيرة (حنة ورنة)، وتقال في سياقات متناقضة فإذا أزعجها الطفل فهو (حنة ورنة) وإذا افتخرت ببيت الأسرة فله (حنة ورنة) كناية عن عمار البيت بالأهلين، والافتخار والاعتزاز (طش ورش) أو (صيت وصليت)، وفي تعويدها له على الالتزام بالمسلك اللغوي المقبول اجتماعيا فإنها ترد عليه ناهية إياه إذا قال (هه) ملبيا نداءها بقولها (لا هويت ولا في جليب دويت)، أما إن كانت في حالة غضب فتجيب (هويت في جليب)[٦٥]. فاللفظ المناسب للإجابة عن ندائها هو: (لبيه/ سمّي/نعم/أبشري) كما تشترك مع أفراد الأسرة في توجيه الطفل للمتلازمات اللغوية مثل (أسلوب التشميت) والدعاء لمن قال (هني) الإجابة: (هناك الله بالإيمان وطاعة الرحمن ومعصية الشيطان). وللحديث المتبادل بين الأم والطفل أهمية في تنمية قدراته اللغوية. فالأطفال الذين تربوا في منازل تتبادل فيها الأم مع الطفل اللعب اللفظي نجدهم يتلفظون أكثر وبصورة أكثر تنوعا وشمولا من الأطفال الذين

نشأوا في بيوت تكون فيها مثل هذه المبادلة قليلة[٦٦]. ولاحظ الباحثون أهمية الأم وأثرها في أطفال المدارس الداخلية، إذ أولئك الأطفال تزداد حصيلتهم اللغوية في فترة الإجازات، ويقابل ذلك أن بعض الأطفال الذين يكونون في السنة الثانية، أي في بداية التمكن من القدرة الكلامية، يفقدون موهبة الكلام عند سفر الأم[٦٧].

الأسرة: الأسرة هي المؤسسة الاجتماعية الأولى التي يتعرف عليها الطفل ويتأثر بها، وهي «المسؤولة عن اكتساب الطفل أنماط السلوك الاجتماعي، وكثير من مظاهر التوافق أو سوء التوافق يرجع إلى نوع العلاقات الإنسانية في الأسرة»[٦٨] وهي المسؤولة عن تربيته الدينية وطبيعة معتقداته «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[٦٩]. والأسرة (الأم والأب والإخوة والجد والجدة إن وجدا). وقديما كانت الأسرة الكبيرة تعيش في بيت واحد، الأعمام وأسرهم بوجود الجد والجدة، وكان لهذا النوع من النمط الأسري إيجابية، وإن كانت له بعض السلبيات الاجتماعية. فبالنسبة للنمو اللغوي للطفل تكون الأسرة الكبيرة رافدا يمد الطفل بالقيم ويستثمر يومه في ممارسة اللغة مع الكبار والصغار، ويتمكن من فهم المواقف وإيجاد الحلول لها نتيجة كثافة الخبرات التي يتلقاها. فهو يدرك مفردات القرابة بوعي لأنه يعيشها يوميا، وقد لاحظت -شخصيا- في هذه الأيام أن الطفل الأول الذي يولد في أسرة كبيرة أكثر أفرادها من الكبار يكون أسرع في اكتساب اللغة، كما أن حصيلته اللغوية أغزر مادة وأكثر تنوعا. ويتميز فهمه للمواقف، وقدرته على التوافق الاجتماعي عن الطفل الذي يولد لأسرة تعيش مستقلة عن الأسرة الكبيرة. فالنمو اللغوي يعتمد في جوهره على تقليد الأطفال الصغار لذويهم ولإخوتهم الكبار في أصواتهم وحركاتهم المعبرة[٧٠]. ومن الملاحظات الشخصية أن الطفل الأول لوالدين على قدر من الثقافة والتعليم يتميز اكتسابه اللغوي وتتنوع قدراته اللغوية عن إخوته الأصغر منه سنا بوجود الوالدين معا. والأسرة هي النبع الصافي الذي يستقي منه الطفل ثقافته القومية التي تتأصل فيه، وتعمل على زرع الروح الوطنية والاعتزاز بالانتماء لمجتمعه. ومن خلال «هذه الثقافة الاجتماعية المتوارثة يكتسب الطفل قيمه ومعايير الخطأ والصواب وطريقة التفكير المنظم، والمنطقية في التفكير»[٧١]. كما تقوم الأسرة بتقويم السلوك غير اللائق اجتماعيا، وتعمل على تهذيبه، وتخفف حدة تمركز الطفل على ذاته، وذلك بمعالجة بعض السلوكيات غير اللائقة مثل: العناد، العدوانية، السيطرة، القيادة، حبّ الذات، العداء للجنس الآخر، والغيرة[٧٢]. وتكون تلك المعالجة بالحب وإغداق العواطف الموجهة التي تقوي عند الطفل عامل التوازن النفسي، وتوجيه سلوكياته عن طريق القدوة الصالحة، فالطفل الذي يستمع إلى أسرته التي تكثر من استخدام أساليب الشكر

والامتنان، وتتمثل القيم الأخلاقية العالية مثل الصدق والإحساس بالآخر وتتحاشى اللفظ البذيء»[٧٣]. مثل هذه الأسرة تكون دافعا لمواطن صالح، وقد عرفت أسرا تحرم على أبنائها لفظ الملاعنة بأي صورة اشتقاقية كانت، واستمعت إلى أمهات في غاية الغضب إلا أنهن لايتجاوزن لفظ (الله يصلحك) مثل هذه البيئة اللغوية ينشأ الطفل فيها متوازنا، نقي النفس، صافي اللغة، قادرا على إدراك ما له وما عليه. إذ إن «من خلال العلاقات الأسرية يتعلم الطفل مسايرة الجماعة وقيمها وتقاليدها، ويتعلم التعاون مع الآخرين والأخذ والعطاء»[٧٤]. ويرى القوصي أنه «إذا لم يتهيأ للطفل إدراك هذا المفهوم يتعذر عليه فيما بعد فهمه فينشأ شغوفا بما له من حقوق ناسيا ما عليه من واجبات، وهذا عيب خطير في المجتمعات»[٧٥].

والأثر اللغوي للأسرة يحيط الطفل ويحاصره طيلة يومه، ويتميز هذا النشاط بممارسة أفانين من المأثور القولي الشعبي تتمثل في:

- تدليل الطفل.
- ألفاظ السلوك الاجتماعي اليومي.
- أغاني المناسبات.
- الألغاز والمعاضلات.

أما الأسرة التي تقصي الطفل وتتركه للمربيات فإن محصوله اللغوي يتأخر، وكذلك أطفال الملاجئ[٧٦].

تدليل الطفل

يتلقف الكبار الطفل متبادلين حمله مغنين له:

«مـــن إيـــد ل إيـــد يـــكـــبـــر ويـــزيـــد»

ويشارك الأب والإخوة في لعبة التصفيق ولعبة عد أفراد الأسرة على أصابعه التي تعرفه رتب الأقارب، هذا بابا، هذا ماما، هذا عمك، هذا خالك... إلخ. كما يستلهمون من الأم مناداته بالتعابير المختلفة سواء أكانت متوارثة مثل: حمودي دهن العودي، أم مرتجلة نحو مناداتي لا بني: «أووسة حلاوة وبسبوسة» -هكذا ناديت ابني أوسا- وفي تعليمه المهارات تتضافر الجهود في مساعدته

على الجلوس، وعند بداية تعلمه المشي تساهم الأسرة في مساعدته بالغناء والتصفيق وتعزيز ذلك بتلقفه من واحد لآخر مغدقين عليه من القبلات ما يعينه على مواصلة التجربة حتى إتقانها. ومن اغاني تشجيع الطفل على الجلوس:

بـــو اربــــعـــة ربـــعـــوه   وان مـــا قـــعـــد صـــفـــعـــوه[٧٧]

وأغنية المشي:

هـــدا هـــدا مـــشـــى وعـــدا   حـــمـــودي يمشي   يـــبـــي غـــدا

وفي رواية: عسى يمشي حق الغدا

وفي اللعب معه يغنون له:

قمير الـدودو ما شفت البابا فـارش عـبـاتـه قـاعـد يـصـلـي

ألفاظ السلوك الاجتماعي

يكتسب الطفل لغة التخاطب الاجتماعي، وقد سبقت الإشارة إليها في حوافز النشاط الكلامي، فيتعلم كيف يرد على الكبار (سم)، و(لبيه)، وكيف يخاطبهم: (طال عمرك)، وإذا أراد طلبا (الله يسلمك)، ويسمعهم يقولون لمن قال (كرمك الله): (كرمت)، ولمن عطس يشمتونه، وإذا عطس الطفل قالوا له:

عـــشـــت واصـــلـــحـــك الـــلـــه   عـــشـــت وارحـــمـــك الـــلـــه

عـــشـــت ولـــبـــســـت الـــبـــشـــت   عـــشـــت وعـــشـــعـــشـــت

وتـــرســـت الـــبـــيـــت فـــريـــخـــات[٧٨]

ويتلقى الطفل ألفاظ التحية والتهنئة في المناسبات كالأعياد والزيارات فيتلقفها ويتقنها بصورة تلقائية. ومما يكتسبه الطفل من المأثور الشعبي في المستوى السلوكي الاجتماعي الكنى والألقاب، فالمجتمع يعرف كنى خاصة به فكنية (عبداللطيف): أبوشميس، وعبدالله: بونيم (أبونجم)، ناصر: بويدر، سلطان: بوماجد، عبدالمحسن: بوبراك، عيسى: بوعبدالله، محمود: بوشاكر، أحمد:

بوشهاب، عبدالرحمن: بوفهد. أما بقية الكنى فهي مشتركة في البلاد العربية مثل علي: بوحسين، وسليمان: بوداود، ويعقوب: بويوسف...إلخ[٧٩].

ومن مكتسبات الطفل اللغوية ألفاظ المدح التي تكون عاملا تحفيزيا على مواصلة انخراطه في الجماعة وتوافقه معها، من ذلك: «كفو، والله/والنعم وسبعة انعام/ بيض الله وجهه/من أهله، والله»[٨٠]، وتحمل مثل هذه الألفاظ دلالات تعكس ثقافة المجتمع. فالحس الديني واضح في ذكر الله في أكثر الألفاظ والعدد سبعة يحمل البعد الديني في مفهوم الكثرة العددية، والدعاء بتبييض الوجه كناية عن الفخر والترفع عما يشين، ثم «من هله والله» تمام الاعتزاز بالأسرة، وعروقها الضاربة في القدم المعروفة بالفضيلة والقيم. ويتلقى الطفل كنايات لغوية سكت في قوالب لا تحيد عنها اللهجة، مثل: «دابة الله بارض الله/طويفه هبيطة، وفي الشتائم: ثور بهور/حمار جت/عقرب رمل/حية رقطه/قطو مطابخ»[٨١].

أغاني المناسبات وأناشيدها

يعرف المجتمع مناسبات اجتماعية ودينية تحتفل بها الأسرة، بل تطوف أحيانا فئات من الشعب على الأحياء يطرقون الأبواب مهنئين بالمناسبة، أداتهم في ذلك أغانيهم الشعبية «التي تعكس شعور الجماعة وذوقها أكثر مما تعكس شعور مغنيها وذوقه، وهي تتسم بأنها غير ثابتة البناء، ففي كل لحظة من تاريخها يمكن أن يعاد خلقها من جديد، وأن تضاف إليها أشياء، وأن تحذف منها أشياء، كما أنها لا توجد في شكل واحد فقط ولكن في أشكال عدة»[٨٢]. وتتميز أغاني المناسبات والاحتفالات بأنها قصائد مطولة وليست مُقَطَّعات كأغاني المهد والترقيص، ولو تساءلنا عن مؤلفها لن نعرف الإجابة فالوعي الجمعي قد وعاها، إذ إن الأغاني الشعبية «هي التي استمرت على مدى واسع، واشترك الشعب في صياغتها لتعبر عن ذاته وأصبحت من نتاج الجماعة وملكا لها»[٨٣]. كما أن حياة هذا الإبداع الفردي وانتشاره مرهونة بمدى قبوله لدى الجماعة ورسوخه في وجدانها على مر الأيام.

ويعرف المجتمع الكويتي مناسبات عديدة يعبر فيهاعن الوجدان الشعبي مثل أنشودة التهليل، وهي عادة قديمة عند خسوف القمر، فكان أهل الكويت يخرجون إلى الشوارع حاملين المصاحف وكل جماعة معها قائد إمام يقرأ والجماعة ترد بالتهليل: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. والجماعات تطوف كل جماعة في حيها وتتجاوزه إلى أحياء أخرى، وقد تلتقي جماعتان فتندمجان

او تفترقان حتى يظهر القمر فيتبادلون التهاني، فكان اليوم عيد، والأنشودة ينشدها القائد وتجيبه الجماعة بالتهليل، وهذا نصها[٨٤]:

لا إلــــه إلا الـلــــه   مـحـمـد رسـول الـلـه

(تهليل الجماعة)

مــولانـا يـا مــولانـا   يـا سـامـع دعـانـا

(تهليل الجماعة)

ونـدور بـالـمـصـاحـف   نـبـي رضـا مـولانـا

(تهليل الجماعة)

اشـفـع لـنـا يـا مـحـمـد   يـوم الحـشـر والـقـيـامـة

(تهليل الجماعة)

مـحـمـد عـلـى سـيـادتـه   بـاتـه الـغـزالـة ونـادتـه

(تهليل الجماعة)

مـحـمـد زيـن كـلـه زيـن   مـولـود ضـحـى الاثـنـين

(تهليل الجماعة)

هـدي قـمـرنـا يـا حـوتـه هـديـه هـديـه

وقد يتعرض الطفل - قديما - لهذه المؤثرات اللغوية منذ الخامسة، إذ يخرج إلى الشارع مصاحبا الجماعة المنشدة مما يؤثر في لغته وذوقه الفني الموسيقي، وقدرته على الانخراط في الجماعة المؤدية ومعرفة دوره فيها.

وهناك مناسبة أخرى هي ختم القرآن تعقد لها الاحتفالات، فحفظ القرآن غاية لا يدركها إلا كل لبيب، وهو حلم تتعلق به الأسرة، فالأم تسمع ابنها شوقها إلى حفظ القرآن، ويرتبط هذا الشوق بحبها له:

يا حبي لك حبين

بنيت بالقلب شعبين

شعبيب ينحر الوادي

وشعبيب ينحر سدير

وشعبيب قال يا يمه

حفظت اليوم جزوين[٨٥]

وبعد أن يختم الطفل القرآن تقام الاحتفالات في طقوس مهيبة[٨٦].

ويخرج الصغار والكبار إلى دار تحفيظ القرآن حيث يجلس (المطوع) ويجانبه خاتم القرآن ووالده وسط رهبة الجميع وفرحهم ينشد (المطوع) التحميدة، وبعد كل مقطع يرد عليه الحاضرون (آمين)، ويستمع الطفل المصاحب للأسرة إلى هذا الإنشاد ويؤثر فيه بالغ التأثير، ويعمق عنده قيما دينية وحبا للعلم ومكاسب لغوية تثيرها التحميدة[٨٧]. وهذا نصها:

الحمد لله الذي هدانا	(آمين)
للدين والإسلام اجتبانا	(آمين)
نحمده وحقه أن يحمدا	(آمين)
ما فتق الزهر وما طاح الندى	(آمين)
ثم الصلاة كلما الحادي حدا	(آمين)
على الذي قد جاء بالهدى	(آمين)
هذا غلام قد قرا وقد كتب	(آمين)
وقد تعلم الرسائل والخطب	(آمين)
ولا تقصر يا ابن أشراف العرب	(آمين)
واطرح على اللوح دراهم وذهب	(آمين)

- وفي رواية: ولا يكن طرفك هما وغضب -

علمني معلم ماقصرا	(آمين)
رددني في درسي وكررا	(آمين)
إني علمت كتابا أكبرا	(آمين)
حتى قرات مثله كما قرأ	(آمين)
جزاك الله يا والدي الجنانا	(آمين)
وشيد الله لك البنيانا	(آمين)
الجد والجدة لا تنساهما	(آمين)
فعند ربي جزاهما	(آمين)
في جنة الخلد مع الولدانا	(آمين)
اعطوا المعلم حقه عظيما	(آمين)
لأنه كان بنا رحيما	(آمين)
الحمد لله الحميد المبدي	(آمين)
سبح له طير السماء والرعد	(آمين)[٨٨]

والطفل الذي يشارك في هذه المناسبات يستثمر النغم في تأسيس وتدعيم محصوله اللغوي، فالأغنية الشعبية من أقدم أشكال التعبير التي عبر بها الإنسان عن ذاته، وهي تصاحبه من المهد إلى اللحد، وتواكب الإنسان في موكب الحياة في كل شكل من أشكال ممارسة الحياة في دورتها المستمرة، يشارك الإنسان في الإبداع الشعبي لمجتمعه سواء في أداء جماعي أو بدور فردي هو في حقيقته تكامل اجتماعي[٨٩].

الحكاية الشعبية

الأسرة تجلس معا فترات طويلة، وتتاح للطفل فرصة الاستماع إلى أحاديث الأسرة وأخبارهم، فهم وسيلة الإعلام التي تنقل الطفل إلى عوالم مختلفة، والحكايات أحد هذه العوالم. والحكايات نوعان: حكايات (سوالف) وحزاوي: وأما السالفة فتتصل لغويا بجذر (س/ل/ف) فهي اسم فاعل

من الفعل سلف أي مضى، والسلف هم من سبقونا من الأجيال لذا نقول السلف الصالح. فالسالفة جملة أخبار نتناقلها، ولها أصل قد حدث فعلا معلوم الأين والآن. تُوَثَّقُ نسبته إلى شخوصه الذين كانوا أبطال الحدث على مسرح الواقع. ويأتي دور الرواية الشعبية في تناقل الحدث ممن شهده إلى من سمعه جيل عن جيل، تسقط كلمة هنا ويتناثر وصف هناك، وتهب على اللغة عواصف التغيير، إلا ان جسمها يبقى على أصالته صلبا قائما لا يتغير مهما أتت عليه عوادي الروايات المنقولة.

اما الحزاية فهي من التحزي وهو التكهن اي القول بظن. فهو القول الذي لايتصل بالواقع. قال رؤبة:

لا يَأخُذُ التأفِيك والتَّحَزِي فينا، ولا قولُ العِدى ذوا لأزٌ

وسميت الحكايات الشعبية المتصلة بالخرافة بالحزاية في الكويت، وهي عند أهل نجد تسمى السباحين ومفردها: سبحانية، لأنها تبدأ بالتسبيح.

ولكل من سوالف البحر وحزاويه عبق فاعل يقير عوالم كثيرة تتقلقل في وجدات السامع - ابن البيئة - فتفجر في داخله ركام الذكريات يتجاوز معها الزمان والمكان.

من سوالف البحر سالفة دانة ياقوت[٩٠]، وهي دانة تنسب إلى عمر الياقوت وقد كانت لؤلؤة كبيرة الحجم تزداد قيمتها كلما انتقلت من مالك إلى اخر، إلا انها ارتبطت في تاريخ تنقلها بحوادث وكوارث أصابت ملاكها، مما دعا كل من اقتناها إلى سرعة بيعها للتخلص منها. وانتهت الى تاجر فرنسي كان مفتونا بلؤلؤ الخليج عاشقا له، فلما حصل عليها مقابل ثمانية عشر ألف روبية هندية - وكانت في ذلك الوقت ثروة طائلة - إلا أن التاجر الفرنسي كان سعيدا بالدانة يحتفظ بها في جيبه، حتى إنه أمنّ على الدانة بمبلغ يساوي قيمتها، وفي يوم كان واقفا على سطح يخته في عرض البحر يقلبها في يده منتشيا بجمالها ونسمات البحر العليلة تداعبه، غير أن البحر كان أشد شوقا منه إلى الدانة، تُنازعه نفسه إلى الاستحواذ على تلك الدانة، فهي بنت أحشائه. فتسلطت الريح التي هبت عاصفة فعصفت بالفرنسي ودانته فتدحرجت فالتقمها البحر، وغابت في جوفه، فلم يتمالك التاجر الفرنسي نفسه فقذف بنفسه في جوف البحر وراء دانته، وتنتهي السالفة هنا. اما الحزاوي فهي حكايات شعبية متوارثة، منها حزاوي البحر الكثيرة مثل حزاية أمي السميكة، وحزاية سمكة أم تسعة وتسعين لون[٩١]، وحكاية ابو درياه، وربما كانت بعض الحزاوي

علة في حدوث بعض الحوادث الطريفة. فمن ذلك ما حدثني به والدي رحمه الله عن موقف حدث لبعض البحارة، قال: إنه في ليلة من الليالي بعد عناء يوم شاق، بين الغوص والعمل اجتمع البحارة في جانب من سطح السفينة يتسامرون ويخففون من شقاء، ومعاناة نهار لاقوا فيه ما لاقوا من كبد وشظف وانتصارات وإحباطات، وكان مما يتحدثون فيه أبو درياه وهو كائن مخيف يظهر للبحارة أحيانا، وفي هذه الأثناء والخوف قد أخذ ببعضهم سمعواحركة غريبة في الطرف الآخر من السفينة، حيث كان الموقد، فشدهم إليه فلما التفتوا ناحيته رأوا أبا درياه يتسلق السفينة، ويتجه نحو الموقد باسطا جناحيه، فاضطرب البحارة بين خائف وجل وحائر مشده، وترددوا بين مهاجمته والهرب، فانبرى أحد البحارة الجسورين، وتقدم نحوه، وأمسك بتلابيبه، وأصوات البحارة تعلوا في دهشة وجزع وتحسر على ذلك المسكين الذي غامر بنفسه، وإذا بصاحبهم يجر أبا درياه إلى رفاقه الذين أخذوا يتدافعون نحو الخلف حتى كاد يقع أحدهم في البحر، فصرخ صاحبهم: هذا أبوقلان الطباخ. وكان الطباخ قد قذفت به الريح في البحر على غفلة من البحارة، فلم يشعروا بغيابه، غير أنه استطاع أن يتشبث بأحد الحبال وتسلق على ظهر السفينة، وجر لحافا قريبا منه ليتدثر به، وهذا ما بدا للبحارة أنه جناحا أبي درياه، وأحدث اللحاف المبتل بالماء وارتطام الرجل على ظهر السفينة ذلك الصوت الذي زاد من فزعهم.

وأمثال هذه الحكاية والحزاوي مما احتفظ به المأثور الشعبي القولي تنصب في ذاكرة الطفل، وتشكل جزءا من تكوينه الوجداني واللغوي، وقد ينسى الطفل تفاصيل الحكاية أو الحزاية، ولكنه يعود بمتلازماتها التي تفتتح بها مثل: الصلاة على النبي، ثم قولهم: «زور ابن الزرزور من عمره ما كذب زور ذبح بقة وترس عشرة جدور، وخلى اللحم والشحم على الصواني منثور»، وتختتم بمثل قولهم: «خلصت وملصت ويت الديايه وعنفصت»، «والسلام ختام وبيت منهم ما عطوني شي».

المثل الشعبي

يختزن المثل تجربة يستحضرها أصحاب اللغة عند الحاجة تأييدا لحجة أو شرحا لحالة، وهو يختزل بمضمونه ما يطول تفصيله، وهو أبلغ في أداء الرسالة. إذ قد يرتفع إلى مقام القواعد المقررة، مثال ذلك قولهم (لِ فات الفوت ما ينفع الصوت).

الألغاز والمعاضلات (الغطاوي)

كانت الحياة قبل تغيرها بظهور النفط تتيح للأسرة فرصة للقاء الحميم في المساء لتبادل المسامرات والأخبار ولشيء من اللهو البريء، من ذلك الألغاز والمعاضلات التي تحلو معالجتها ليلا أو نهارا[٩٢]، وفي جلسات الألغاز الخاصة بالأطفال عادة ما يراعى العمر العقلي للطفل، ويحاول الكبار مساعدته على الإجابة لتدريبه[٩٣]، إضافة إلى ذلك فالألغاز الموجهة للطفل تتميز بتجانس الأصوات والجرس السائد فيها، مثل:

(رمانتي لقفتها فيها سحر فيها بحر فيها عيون تبتحر)، ومنها: (إن طقيته طار، وإن شقيته طار، وإن قطيته طار، وإن خشيته وإن حطيته طار). والمعاضلات هي نوع من الألغاز الهدف منه لغوي بحت لصقل مهارة النطق، والتمكن من المخارج مثل: إذا أظلمت الدنيا وتغطلمطلست وجاء عباد الله المتغطمطلسين[٩٤].

دور الرفاق

في أواخر السنة الثانية وبداية الثالثة يتقدم النمو الاجتماعي للطفل، ويبدأ في الاندماج مع غيره من الأطفال، ومشاركتهم ألعابهم، وهنا تفتح له مساحات جديدة داخل المنزل وخارجه، وكل هذه الآفاق يرتادها بأدواته اللغوية البسيطة التي تزداد نموا بازدياد خبرته اللغوية الجديدة، فالطفل سريع التقليد، وعنده قدرة على اقتران التجربة وتذكرها فيما بعد[٩٥]. فقد يلتقط الطفل ما يزوده به الصغار من محصول لغوي أثناء اللعب والشجار من لغة مألوفة لديه، وأحيانا تكون جديدة في الصوت واللفظ والتركيب. وللأقران قبول عند الطفل أكثر من الكبار[٩٦]. فالطفل ربما تابع أقرانه حتى إنه قد يرفض بعض المقولات التي تصدر عن الكبار، لأنها تخالف ما نقله عن الصغار.

ففي مجال اللعب يتعرف الطفل على أيام الأسبوع في لعبة (السبت سبتبوت)، وفي لعبة التداعي ينمي مهارات ذهنية إلى جانب مكتسبات دلالية

(يا مرت ابوي – وين راح ابوي[٩٧])

وخروج الطفل للعب خارج المنزل يزوده بمعجم لغوي متميز، تقول كافية رمضان: «أما في البيئات التي يكثر فيها نزول الطفل للشارع والاختلاط بالأطفال الآخرين، فإن هذا كله مدعاة لأن

يزوده بمعجم لغوي متميز، فكلما تعددت خبرة الطفل واتسع نطاق بيئته زاد نموه اللغوي.[98]

وهذا المعجم يتناول أسماء ما يحيط بالأطفال من حياة في الشارع: مثل المحلات والناس والعاب الظواهر الطبيعية مثل لعبة (أم الغيث) للبنات، والعاب أخرى مثل (خروف مسلسل)[99] للصبيان.

وهناك نوع من الألعاب اللغوية غير المعاضلات يرددها الصغار، فاللاعب الثاني عليه اختيار أن يردد مقطعا في نهاية الكلمة كأنه رجع الصدى، وعلى الأول أن يلون في المقطع الأول بحيث يوقع الثاني في موقف يثير ضحك الآخرين مثل:

يا صاحبي	بيخ
علمتك	(بيخ)
تاكل الط	(بيخ)
تاكل...	(بيخ)
يا صاحبي	آن
علمتك	(آن)
أكل الربيـ	(آن)
أكل	(آن)

وفي الشارع يستمتع الطفل إلى ألفاظ الباعة والمتجولين:

طـمـاطـه حـمـره شـوبـاش يـاكـلـونـهـا وايـا الـمـاش

وتضيف أصوات شوباش تنغيما موسيقيا ليس له مدلول معجمي.

وفي رمضان تجتمع البنات والأولاد للقرقيعان كل على حدة، ويصاحب هذا التقسيم اختلاف في الأغنية المؤداة.

ويكثر في الشارع الشجار وما يتبعه من لغة خاصة تحمل ألفاظ التنابز (المعيارة) مثل:

بـوتـنـبـه كـسـر الـلـمـبـه صـحـن تـين صـحـن هـمـبـه
زبـوط الـنـقـعـه.... إلـخ.

ويتعلم الصبيان أسماء الطيور فقد كان الصيد هواية محببة لهم، ويحبون مطاردة الحيوانات[١٠٠].

إن دراسة معجم الطفل تكشف لنا عن هذا التنوع الهائل في روافد النمو اللغوي عند الطفل الخليجي اليوم، فمجتمعه تكتسحه عوامل من التغيير اللغوي أتاحتها التغيرات الاجتماعية والحضارية، وانفتاح العالم، وكثرة الاتصالات بين أمم الأرض، وغياب في المأثور القولي الذي انصرف عنه أهله إلى متابعة ما تبثه أجهزة الإعلام المختلفة، وماتلوكه ألسنة العمالة الوافدة إلى منازلهم، مما جعل بعض الأطفال في حالة اغتراب لغوي، وخلط في استعمال الصيغ والتراكيب والمعجم، وهو اضطراب يصاحب الطفل حتى مراحل متقدمة من التعلم. ويبقى بعدُ السؤال الذي طرح في مقدمة هذا البحث: هل الثروة اللغوية تطرد مع النمو العقلي؟ وهل نقص المعجم اللغوي يكشف عن نقص في الذكاء؟ أم هل تأخر الكلام دليل على تأخر الذكاء؟

لقد كشف البحث العلمي عن خطأ النظرية التي تربط تقدم الذكاء بسرعة الكلام. فتأخر الكلام قد لا يقتضي تأخرا موازيا في الذكاء. فإن كان التأخر في الكلام لا يعني تأخرا في الذكاء دائما فإن العكس صحيح، إذ تأخر الذكاء يقتضي تأخرا في الكلام[١٠١]. وهناك من يربط النمو اللغوي بالذكاء[١٠٢]. ولا يمكن إغفال أثر النضج اللغوي في استيعاب المحيط الاجتماعي والتقاليد الأسرية والثقافية القومية. يقول (سرجيو سبيني): «إن نمو الذكاء يتم على قدم المساواة مع النضج اللغوي»[١٠٣].

اما بيان أثر المأثور القولي في نمو لغة الطفل فهو ما سنحاول الكشف عنه بتحليل بعض النماذج من هذا المأثور القولي، ويبقى أن ننبه إلى أن نمو لغة الطفل مسألة نسبية تحكمها جملة من المتغيرات منها هذا المأثور، ومنها مستوى صحة الطفل العقلية والنفسية والبدنية، وبيئته الخاصة.

تحليل مضمون المأثور القولي ووظائفه

نتناول في هذا القسم نماذج من الأغاني الشعبية. نقف عندها بالشرح والتحليل، ثم نتبع ذلك بنتائج عامة حول الأغاني الشعبية، ونقف فيها على أهم خصائصها.

وتجدر الإشارة إلى أن اللعب الشعبي والأغاني الشعبية تحقق غايات نفسية في أهدافها، إلى جانب غايات أخرى سنذكرها في الدراسة التحليلية، كما نلحظ أن الطفل يتعلم باقتدار فائق مما حوله، وتأتي الأغاني والألعاب لترسخ ماتثيره جميع مصادر المعارف من حوله فتجتمع لديه المتعة واللهو والمعرفة، لذا نتناول أنواع الأغاني بالدراسة والتحليل لبيان خصائصها.

أنواع الأغاني

تنقسم الأغاني وظيفيا إلى:

اغنية الترقيص: ومنها اغاني التدليل، مثل (احبك حبين)، واغنية التشجيع (صفاقه حق البابا)، و(انقزي انقيزة)، واغنية التعليم (هذا بابا هذا ماما)، وأغنية التنويم: مثل (نام يا وليدي نام). والأغنية المصاحبة للعب ومنها: التحذير. ومنها تنمية المهارات البدنية: (ليش تبوق اللومية)، (خروف مسلسل)، (طبق حنه طبق ماش)، ومنها أغنية التداعي: (يا مرت ابوي).

أما أغاني المناسبات فمنها: المناسبات الدينية مثل أغنية القرقيعان، والتحميدة. ومن المناسبات استبطاء البحارة: (توب توب يا بحر). والاستسقاء، والشجار، ونداءات الباعة.

اغنية الترقيص

وقد ذكرت الأغنية متفرقة عند بزة الباطني[١٠٤]

النص:

أحبك يا ولوفي   واذبح لك الخروف
وفي محمل المشايخ   وصول خالك دفوف
واحبك حبين   وفي القلب شعيبين
شعيب ينبت الحنه   وشعيب ينبت الهيل
واحبك من عطا الرب   وافرش لك المضرب
وفوق موسدة ريش   وتحتك بنت مجرب
واحبك حب عاجر   لجاها الجنين
واحبك حب تاجر   مغرب من سنين
واحبك حب اجنون   والناس ما يدرون

مستوى الأغنية

هي من أغاني ترقيص الطفل، تغنيها الأم أثناء حملها للطفل ومداعبته في السنة الأولى حتى منتصف الثانية.

موضوع الأغنية

تحمل الأغنية في سياقها النظمي تاريخ الأم وتاريخ البيئة المحيطة، وتسكب الأم في المفردات مشاعرها، وتغلف أنغامها بتجربتها وآمالها. فلفظ أحبك يتوالى في الأغنية كالجملة الموسيقية اللازمة في المقطوعة الغنائية، وتكرار لفظ أحبك في بداية كل مقطع يمثل رتما يذكر بنبض القلب، وتلك المشاعر المختلفة التي تؤججها عاطفة متقدة بين اعتزاز الأم بأسرتها (وصول خالك دفوف)، وما تحلم به لهذا الوليد من مستقبل (وافرش لك المضرب)، أي حين تتزوج بابنة رجل من خيرة الرجال (مجرب).

غايات الأغنية

١- التواصل النفسي بين الأم وطفلها، فهو مشارك بالنظر إلى وجهها المتهلل أثناء الغناء، وتشنيف آذانه الصغيرة بالنغم الجميل. فالغناء يحرك عضلات الوجه، ويتلقى الطفل انعكاس حركة العضلات فإن كانت وادعة منبسطة حققت له فرحا وانشراحا أثار لديه استجابات سريعة بالابتسام والتمسك بالأم ومبادلتها النظر إلى وجهها «فكل فعل أو حركة لأحد الطرفين يقع ضمن جملة مترابطة تشكل وحدة سلوكية متكاملة ومتوافقة مع أفعال الطرف الآخر»[١٠٥].

٢- نمو حركي للطفل، فالأم تغني له أثناء الترقيص والحمل والمداعبة، فتثير عنده استجابات سريعة في الانتفاض ومبادلة الحركة بحركة أخرى، مما يعمل على تقوية عضلاته وشدها.

٣- كشف مشاعر الأم، وإسقاطها على الطفل، فالأم تعتز بأسرتها، وتفخر بإخوتها، فوصولهم يحتفى به بالدفوف، وهي تتطلع إلى يوم يكبر فيه هذا الطفل وتزف إليه عروسه (وافرش لك المضرب) وهذا المضرب رمز الرفاهية التي ينعم بها المقتدر ماديا، فهي تطمح إلى أن يكون مستقبل ولدها مشرقا سعيدا رغدا.

٤- الحضور البيئي، فالكويت تحيط بها صحراء برية وصحراء بحرية، وهذا الحضور يستغرق الاغنية كلها إذ يمتد فيها طولا، ويتمدد فيها عرضا، فألفاظ البيئة البحرية وما فيها من معاناة تشيع فيها، فالانتظار للمسافر في رحلة الغوص أو السفر ولحظة الوصول تعني الفرج (وصول خالك دفوف)، (حب تاجر مغرب من سنين)، هذا حب لا يعرفه إلا من عانى مرارة انتظار الغائب، وحرقة شوق المغترب للحظة العودة، وجذوة اللقاء.

أما الصحراء البرية فانبساطها واتساعها تعكسه في القلب عبارة: «ينبت فيه شعيبين» يفوحان بالعطر الصحراوي المحبب (الحنة والهيل).

٥- معاناة المرأة الممتدة عبر الزمان والمكان (احبك حب عاجر لجاها الجنين)، فأي حب هذا الذي تحمله المرأة ويتلقاه الطفل، إنها تجربة أزلية يسمعها الطفل دون وعي بمضامينها، إذ تتعذر الأهداف التعليمية لصغر سن الطفل فلا يدرك إلا النغم الموسيقي المصاحب للحركة، لكن الإحساس والنغم يفعلان به سحرا مشوبا بتوقد الحس وتوهج العاطفة، إذ «يتمكن الصغير في عامه الأول قبل الكلام من الدخول في علاقات اجتماعية مع البالغين، وينمي تدريجيا مهارات للتواصل مع الآخرين»[١٠٦]. فالغايات قد لا تكون آنية، لكن الخبرات المختزنة يستمدها الصغير من الأم لتصبح رصيدا يحرك نموه الاجتماعي، فالطفل «يظهر التفاعل الاجتماعي في الأشهر السنة الأولى. إن اهتمام الطفل يتركز على المؤثرات الصادرة عن الأم»[١٠٧].

- غاية لغوية، فالأغنية تثبت معنى الحب عند الطفل بالمفهوم الكويتي، إذ غالبا ما تشفع الأم كلمات الأغنية بتقبيل طفلها فتصبح دلالة لفظ (أحبك) مقابلة لعملية التقبيل، وتصرح بذلك في أغنية أخرى:

حـبـيـنـي واحـبـك زود　　بـكـر امـك وابـوك الـعـود

اغنية التنويم:

النص:

نـام نـومـه هـنـيّـه　　نـومـة الـغـزلان فـي الـبـريـه
نـام نـومـه هـنـيّـه　　نـومـة عـلـي ويّـا خـديّـه

وليدي ينام وطيب الله نومه وعدو وليدي ما يهتنى في منام
وعدوة وليدي واللي ما تحبه لها الرجز مجسوم والغبن زام
نام يا وليدي نام ولك رب ما ينام
نام يا وليدي نام يرعاك رب الأنام
ويحفظ عيسى وموسى والمصطفى عليه السلام

أداء الأغنية

تؤدي الأم الأغنية أثناء محاولة هدهدة الطفل لتنويمه، حاملة إياه على صدرها، أو وهي متقرفصة في جلستها محتضنة جسمه ليرقد بسكون في حجرها، وتهز بفخذها عند رأسه بانتظام يبعث الخدر في جسم الطفل. وتؤدى هذه الأغنية لطفل المهد وتمتد حتى بعيد الثالثة من عمره.

موضوع الأغنية

تحمل أغنية التنويم في تضاعيفها الخيال الذي يجنح بالطفل، فيأخذه إلى عالم الاسترخاء والهدوء. فما بين الدعاء واستحضار ذكر الأنبياء إلى البراري الفسيحة الممتدة، ثم معاناة الأم التي تجد متنفسا لها في هذه الأغنية (نومة أمك يوم هي ابنيه) فهي لا تحثه على النوم فقط، بل تعكس احتياج هذه الأم المسكينة إلى سويعات من النوم خالية البال متخففة من المسؤوليات المنوطة بها تجاه أسرتها، وأين منها تلك الأيام الخوالي (يوم هي بنيه)؟ مكفولة غير مسؤولة، كما لا يغيب عن الأغنية الهاجس المقلق وهو الخوف على الطفل من أعدائه ومبغضيه، وهي دعوة مستقبلية فالصغير لاعدو له ولا مبغض، وإنما العدو متوقع في مستقبل الأيام، لذا فالدعاء عليه (الا يتهنى بمنام)، أما من تتحقق كراهيتها لهذا الابن فلها (الرجز مجسوم والغبن زام).

ما تحققه الأغنية

- الرغبة الخالصة في تنويم الطفل.
- التأصيل النفسي والنمو الوجداني المتنامي بين الأم وابنها، فهو أقرب مايكون التصاقا بها،

تحوطه ذراعاها، أو مستقرا في أحضانها، تنحني إليه وتحنو عليه، تلمسه كفها مربتة، فيتواصل إحساسه بها ويتناهى إليه صوتها منغما تشوبه موسيقى هادئة، تتيح له تأمل ما يصل إليه من لفظ بوعي يشده إلى عالم الخيال ثم الاسترخاء، والاستغراق في نوم تحلم به الأم ذاتها، غايتها نوم طفلها ونوم آخر تتوق إليه وتأباه جفونها التي أرهقتها مسؤوليات الأسرة.

- تنمي الأغنية عالم الخيال عند الطفل، فالنومة الهنيّة هي لغزلان البريّة، والغزلان تمثل عالما يحيط بالطفل في كثير من ألعابه، وما يسمعه من غناء، فهي تأتي في بدء اللعب عند إجراء القرعة:غزالة/بزالة.. وهي أمنية الطفل في بداية استبدال الأسنان وهي أن يعطي الشمس سنه القديم مشفوعا بسبع من نوى البلح، مرددا بصوت عال تسمعه الشمس: يا عين الشمس خذي ضرس حمار وعطيني ضرس غزال، ومولد الغزالة خبرة اكتسبها عندما تظهر الشمس بين السحب الممطرة فيصيح الأطفال: ولدت الغزالة(١٠٨). وهو لفظ التحبيب والفخر (يا غزال)، وفي أغنية أخرى:

هبت هبوب من شمال   يوم نزلت بدور غزال

والغزالة ترتبط بالوجدان الديني في أغنية الخسوف وتسمى أغنية التهليل:

محمد على سيادته   جاته الغزالة ونادته

والغزالة هي الشمس.

فالغزالة مثير لتداعيات الصور الجميلة التي تحيط بالطفل أثناء نومه فهي رمز الجمال، والحنان، والأمومة في القصص الشعبي (الغزالة ربت الولد)، وفي بعض البيئات يقال للأطفال قبل نومهم إن الذي ينام دون أن يشرب ماء فإن (الغزيل) تزوره في الليل وتسقيه من لبنها. وقد لا يكون الطفل قد رأى الغزالة من قبل فيجول به الخيال في البراري حيث (نومة الغزلان في البرية)، والبرية مرتبطة لديه بالبر الجميل حيث اللهو واللعب.

- ترسيخ مفردات متصلة بمضامين دينية: الدعاء (يرعاك رب الأنام/طيب الله نومه)، وذكر الأنبياء (عيسى وموسى والمصطفى)، وارتباط ذكر النبي بالسلام عليه: (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) [٥٦-الأحزاب].

– الشعور بالخوف والقلق على هذا الوليد من العيون الحاسدة، والقلوب المبغضة، وظاهرة الخوف هذه نوع من الهلع الإنساني يصاحب الإنسان في كل مراحل حياته، وهلع الأم أكثر حدة تنقله مترجما في كثير من أغانيها للطفل:

صبابات عيني صبابات   جعل من يبغضك مات
ولا يقرا التحيات   وكل نسله ابنيات
وليه ياب الولد مات

فالدعاء بالموت على الأعداء يكثر في أغاني الترقيص، مثل:

اللي ما تقول لك يا عيني   تعمى من الثنتيني
ويموت ريل صباها   ويكثر عليها الديني
واللي ما تقول لك يا شكر   ما عاش في حيها ذكر
غير العيوز وبنتها   والشايب محني الظهر

والتعوذ من الشر وأهله في الأغنية

أهلا هلا واهليه   واكفاه شر الأذيه
واكفاه شر الأعادي   وساعد ابوه في كل نيّه
هلا وهلا وامهلّي   والشر عنك مولّيّ

ولكن هل هذا النوع من أغاني القهر الإنساني مناسب لنوم الصغير؟(١٠٩)

– التنغيم والموسيقى هو ما تحققه أغنية التنويم، وتتميز هذه الأغنية بأصوات المد التي تطاوع التنغيم فتوفر للأم إمكانات متعددة في تلوين الصوت بين الارتفاع والانخفاض، وتتراوح المقاطع والمقطعات بين الطول والقصر، يحوط ذلك نظام مطرد في التكرار (نام نومه هنيه/نام يا وليدي نام)، ويأتي السجع والجناس ليعطي إيقاعا جميلا منسابا يخدم الأغنية في مثل: نام/أنام، هنيه/بنيه. ويرى رشدي حنين «هذه الخاصية بحقيقة أن الأصوات الموزونة المتقطعة تهدئ أكثر مما تفعله النغمات الثابتة»(١١٠).

أغنيّة اللعب:

النص الأول:

السـبـت سـبـنـبـوت   والاحـد والـعـنـكـبـوت
والاثـــــنـــــين   بـــــابـــــين
والـثـلاثـا مـنـاره   والاربـعـا ابـشـاره
والخـمـيـس   نـذبـح ابـلـيـس
والجـمـعـه عـيـدنـا وعـيـد الـرسـول

معاني المفردات

سبنبوت: كلمة مأخوذة من (مسبوت) بمعنى ميت، وذلك بالقلب المكاني بين السين والميم، وإقحام باء زائدة لغاية موسيقية، والباء والميم من مخرج واحد، وتمثل الكلمة مشاكلة للبنى المتوالية في الأغنية: سبنبوت/عنكبوت.

بشارة: فهي في المجتمع فرحة الأولاد بالطواف على الجيران، فإذا بشر أحدهم الجيران بالمولود الجديد أو بقدوم البحارة أو الحاج فذلك يعني مايحبونه من هبات تسعده وتشجعه على مواصلة الطواف على الجيران، فهو أداة الاتصال في زمن لم تعرف فيه الهواتف.

منارة: هي الرمز الديني ورمز الحياة البحرية، إذ هي أول ما يراه العائد من رحلة الغياب فيقوم البشير بالبشارة.

أداء الأغنية المصاحبة للعب:

تؤدى الأغنية في مجالين:

١- مجال تلاعب فيه الأم الطفل الصغير ما بعد السنة الأولى.

٢ - مجال يلعب فيه الطفل بالكرة منفردا أو مع أقرانه، وذلك بعد السنة الثالثة، عندما يبدأ معرفة طريقه خارج المنزل، وتؤدى الأغنية أثناء رمي الكرة على الجدار لو كان منفردا، أو على رفيق اللعب المشارك في أداء المقطع التالي. فالأول يقول: السبت سبنبوت، والثاني يرد: والأحد عنكبوت (هكذا لعبتها شخصيا).

موضوع الأغنية

تعد الأغنية من أغاني اللعب اللغوي الذي يحافظ فيها التقسيم الموسيقي والبناء اللفظي، وهذا القيد قد يكون له وظيفة معنوية كما في (الخميس نذبح ابليس)، وقد يكون من أجل المشاكلة اللفظية للمحافظة على الايقاع والموسيقى مثل (السبت سبنبوت/والأحد والعنكبوت)... إلخ.

غايات الأغنية

تحقق الأغنية والحركة المصاحبة بقذف الكرة غايات نفسية، ومعرفية، ولغوية، واجتماعية، وعضلية.

الغايات النفسية والاجتماعية

تنمو روح المشاركة عند الطفل أثناء اللعب وتأدية الأغنية، فإن كان صغيرا فهو برفقة أمه، أو من يلاعبه ويشاركه اللعب بندية تنمي إحساسه بالنضج، وتشبع احتياجاته العاطفية. وإن كان مشاركا لرفيق فاللعبة تعوده على الانضباط والالتزام بالدور، واحترام حق الآخرين وعدم تجاوزه. وإلى جانب إحساسه بأنه مقبول اجتماعيا فالمشاركة في اللعب صورة من صور القبول الاجتماعي الذي يحقق تطورا في شخصية الطفل. والبشارة سلوك اجتماعي يحقق له وللآخرين الفرح، بل إن الأربعاء يبشر بالخميس ثم الجمعة.

الغايات المعرفية

تعرّف الأغنية بأيام الأسبوع، وتصوغ ذلك في قالب موسيقي عماده التقسيم وإقفال المقطع، مما يستهوي الطفل ويعينه على حفظ أيام الأسبوع، كما تعرّف بالمناسبات والمفاهيم الدينية (الخميس نذبح إبليس)، و(الجمعة عيدنا وعيد الرسول)، فينمو إحساس الطفل مع الزمن ليصل ابتداءً من السنة السابعة إلى التكليف بالصلاة، وأن الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما، وهذا التجمع الكبير للصلاة هو عيد، وختام أسبوع من العمل والدراسة هو عيد أيضا.

الغايات اللغوية

- إن تسمية أيام الأسبوع تستحق جهدا أثناء التعلم إلا أن وجودها في هذا السياق الترفيهي الموسيقي يسهل عملية حفظها.

– حصيلة من المفردات المتباينة. فالعنكبوت ثم البابن والسبتبوت، والبشارة ثم المنارة، وهذه الألفاظ المتعددة تنقل الطفل إلى عوالم تثير أسئلة كثيرة، وتنمي غريزة حب الاستطلاع. فلفظة سبتبوت – التي تظهر من الوهلة الأولى على أنها نوع من البنى الصوتية- تحافظ على الإيقاع الموسيقي، وتفتتح به اللعبة كأنما هو قرع يؤذن ببدء الأغنية. إلا أن هذه الكلمة لها دلالة معجمية وهي الراحة فالميت مسبوت والسبت آخر أيام الأسبوع[١١١]، وتعزز اللفظة في لعبة شعبية أخرى (أبوسبيت حيّ لوميت)[١١٢]، وثمة تفسير آخر، أن لهذه الكلمة مدلولا حسيا عند أهل الكويت وهو نوع من القواقع البحرية يعرف بالصبمبو والصاد تخفف موسيقيا لتصبح سينا، ولكن يُقفل المقطع بالتاء، وهو معروف في العربية القديمة، بقيت منه صور لفظية: رهبوت/ملكوت. ولعل تفسيرها بالصبمبو هو ما كنا نظنه في طفولتنا أثناء أداء اللعبة والأغنية، فالبحر وما فيه وما يثيره أقرب إلى خيال الطفل، وكأنما تأبى قواعد اللعبة إلا أن تشد الأطراف المشاركة إلى البيئة البحرية، بل هي طقوس يحافظ عليها بأداء حقوق البحر بمواصلة اللقاء، فإن لم يكن ذلك فبالذكر واللعب والغناء، وما البشارة والمنارة إلا ألفاظ تعزز هذه القيمة الوجدانية في الارتباط بالبحر والفرحة بعودة البحارة.

الغايات العضلية

تحقق اللعبة للصغير نموا عضليا يحرك به جسمه كله إذا كان جالسا على الأرض مع أمه. وتحقق للطفل الذي يؤدي اللعبة خارج المنزل نموا عضليا أكبر فهو يتحرك بحركة الكرة، ويركض هنا وهناك وراء الكرة، والمبادلة مع الرفيق تتفاوت فيها القدرات العضلية بين اللاعبين.

النص الثاني[١١٣]:

حديّه بديّه ناصر ديّه
حيّ الكور على الزنبور
يا قناص قوم اقنص
شبّط خيلك شبّطها
مرّيت على بابين باب الحلة وباب الشام
لقيت إعرابين ياكلون من سحتين؟

قلت يا عمي يابو حسين كم على عيد ارمضان

سـبـعـة أيـام والـتـمـام

احاديها وا باديها   واضرب الخيل امعاديها

خرجه برجه   طاحت بالما قالت وش

أنا نايم في الدربية   أسمع دبكة حراميه مدري عقرب مدري حية

(تبي دوسة الفرس والا   المهيرة؟ تبي قرصة العقرب والا الحية؟)

قاق

شتبي يا غراب؟

ابي عشاي

خذ عشاك

معاني الكلمات:

حدية: تصغير (واحدة) بصورتها المقلوبة (حادية). ويرى السعيدان أن (حديّة) تصغير حداة اليد[١١٤].

بديّة: تصغير بداة.

ناصر ديه: ساعد هذا، أوساعد يديه.

الكور: بيت الزنابير[١١٥]. وفسرها الشملان بالحفرة[١١٦]. وللكور في اللهجة الكويتية معان متعددة[١١٧].

أبوحسين: يرى السعيدان أنه شخصية شعبية[١١٨]، وأرى أنه اسم وافق الروي.

اعرابين: مفرد اعريب، وأبناء اعريب أي أبناء العرب[١١٩].

مستوى الأغنية

تؤدى الأغنية في مستويات عمرية متعددة، ويشترك فيها أحيانا الكبار والصغار، وفي لقاء الكبار مع الصغار في هذه اللعبة، يفتح المجال أمام الطفل لاكتساب خبرات متعددة، لغوية وحركية، إلى جانب الترفيه، ويشترك فيها الطفل منذ السنة الثالثة.

أداء الأغنية

هي من الأغاني المصاحبة للعب في الليالي الشتوية في البر، وتؤدى الأغنية أثناء اللعب، فيتحلق اللاعبون كبيرهم وصغيرهم حلقة واحدة وأكفهم مبسوطة على الأرض منفرجة الأصابع، ويبسط القائد يدا واحدة، أما الأخرى فهي مقبوضة على هيئة التشهد، ويبدأ اللعب بأن ينقر بالشاهد على الأكف المبسوطة مبتدئا من جاره الذي على يمينه، ويغني بحيث توافق كل كلمة نقرة على كف: حديه/بديه/ناصر/ديه... إلخ. وحين يصل إلى كلمة (حية) يسأل صاحب الكف السؤالين المذكورين في الأغنية ويلبي له اختياره، فأما قرصة العقرب فتكون بأصابع القائد، وأما قرصة الحيّة فبأظافره، وأما دوسة الفرس فهي ضربات قوية من قبضة القائد على الكف، وأما دوسة المهيرة فهي ضغط خفيف بقبضته على الكف على نحو دائري، ولذا فالغالب أن يختار اللاعبون دوسة المهيرة، إلا من يجد في نفسه قوة وحبا للتحدي وإظهارا للصبر، ورغبة في إمتاع اللاعبين الذين يتضاحكون من انفعالات المعاقب التي قد تظهر بشكل طريف. وتخرج بعد هذا العقاب المذكور تلك الكف وترفع من الأرض وتخبأ في الجيب أو في الحضن أو تحت الإبط، لتكون دافئة، وتبدأ الأغنية من جديد حتى ترتفع جميع الأيدي، فيدور الحوار الذي في نهاية النص، والقائد يسأل واحد اللاعبين الواثق من دفء يده يجيب.

القائد: قاق

اللاعب: وش يبي يا غراب [ومنهم من يقلب: يا براغ]

القائد: أبي عشاي

اللاعب: خذ عشاك [وذلك بأن يضع كفه الدافئة على خد القائد]

والقائد أن يحكم بالرضا أو الرفض، وليس للرضا ثواب سوى سلامة اللاعب من العقاب، أما إن رفض فعقابه شديد يجتلب كثيرا من ضحك اللاعبين وصراخهم وحبورهم.

أهداف الأغنية

تبتعد هذه الأغنية عن تأثير البيئة البحرية فلا نشعر بوجودها أو إيحائها، إذ إنها لعبة البر والبادية، وأكثر ما تكون في ليالي الشتاء الباردة التي يحلو فيها طلب الدفء، وغاية اللعبة طلب الدفء للقائد أو ما يصاحبها من حركة اللاعبين للفرار من القائد عند الحكم عليهم بالعقاب، لهذا كله تعددت غايات اللعبة، وأهدافها على النحو التالي:

١- غاية اجتماعية

تصاحب الأغنية اللعب الجماعي مما ينمي عند الطفل روح الجماعة، ويثير فيه الإحساس بالنضج إذ يشارك الكبار لعبهم وتزوده اللعبة بقوة نفسية تتحمل عواقب الفشل، وتعمل على تنمية قابلية التآلف مع الآخرين والتحرك في دائرتهم.

٢- غاية لغوية

تساق الأغنية في تسلسل تحكمه تقسيمات متوازية متوازنة يقيدها الرويّ، ويلونها التجنيس: حديه/بديه، الكور/الزنبور، واحاديها/ واباديها/ معديها، غرابين/ سمتين/ بوحسين، أيام/ التمام، خرجه/ برجه، الدبيه/ حراميه.

وتردد في الأغنية كلمات تنتمي إلى جذر واحد مما ينمي عند الطفل الإحساس بالجانب التصريفي للغته (يا قناص/قوم اقنص)، وتعيد الأغنية إلى الأذهان مفردات قديمة لم تعد في دائرة الاستخدام مثل: الكور، شبط سحتين.

ويلون اسم الصوت (وش) جو الأغنية بمثير صوتي يشد السامع ويهيئ، فقلة مناسبة، ينتقل بعدها إلى قسم آخر من الأغنية.

وتحتوي الأغنية على ألوان من الجمل الخبرية والإنشائية، الضيقة والموسعة، وأما المضامين فليس ثمة صلة قوية بين أجزاء الأغنية، وهذا يغلف اللعبة بشيء من الغموض الملائم لحالة اللاعبين المترقبين لمن ينتهي عنده الإنشاد وينال العقاب.

٣- غاية تعليمية

تتنوع المعارف المكتسبة من هذه اللعبة والأغنية المصاحبة لها، منها إظهار فكرة التتابع والدورة المتكررة التي هي سنة كونية مشاهدة (ليل/نهار، شتاء/صيف)، ويظهر التتابع في تقسيمات الأغنية وتوالي حركة القائد بشكل دائري. ولإعادة الأغنية بعد إخراج كل كف أهمية في حفظ كلمات الأغنية، وتنشيط ملكة الحفظ عند اللاعبين.

ومن الغايات التعليمية التعرف على الدلالات العددية في اللغة. فالأغنية تشتمل على المفردات والمثنيات والجموع.

وتأتي الأغنية على ذكر بعض جوانب الحياة البيئية من قنص وما يتصل به من حركة، وإعداد (شبط خيلك شبطها)، وحيوانات وهوام (خيل، مهيرة، غراب، عقرب، حية)، ومن ذلك المناسبات الدينية مثل (عيد رمضان)، وتعبر الأغنية عن شوق الناس إلى هذه المناسبة الدينية التي تلي صيام رمضان وهو شوق يكشفه السؤال الملح (كم بقي على عيد ارمضان). والأطفال ينتظرون العيد فهم يعانون من تغير نمط الحياة في نهار رمضان، وتعودوا الفرح بالعيد والعيدية.

أغنية المناسبات

الأغنية التي تستعجل عودة البحارة (توب توب يا بحر):

توب توب يا بحر — اربعه والخامس دخل
ما تخاف من الله يا بحر — أربعه والخامس دخل
جيبهم — خاطفين إبجيبهم
ماتخاف من الله يا بحر — أربعه والخامس دخل
توب توب — جيب صباح العتوب
ماتخاف من الله يا بحر — أربعه والخامس دخل
يا لجوهره — هاتي حسين من ابحره
يا للومي — هات البرومي

توب توب يا بحر   أربعه والخامس دخل
يا الليان   هات أبو نيّان
ما تخاف من الله يا بحر   أربعه والخامس دخل
يا لقاز   هات أبو قمّار
يا الراعي   هات المناعي
توب توب يا بحر   أربعه والخامس دخل
ماتخاف من الله يا بحر   أربعه والخامس دخل
يا لرحى   هاتي اللي يقيل من ضحى
يا لدانه   جري شملان من اذانه
توب توب يا بحر   أربعه والخامس دخل
يا رمان القطيف   هات عبد اللطيف
يا ملة الزري   هاتي حسين بن علي
توب توب يا بحر   أربعه والخامس دخل
ماتخاف من الله يا بحر   أربعه والخامس دخل
يا الخناصر   هاتي ناصر
يا الكبريت   هات محمد العفريت
توب توب يا بحر   أربعه والخامس دخل
ما تخاف من الله يا بحر   أربعه والخامس دخل

ففي هذه الأغنية عدد من المفردات اللغوية، ثم تعريف بأسماء عوائل وأسر كويتية ذات صلة بالبحر وتجارة اللؤلؤ.

نتائج الدراسة

نجمل في هذا العرض نتائج الدراسة التحليلية للأغنية الشعبية فنجد أن آثارها على الطفل قد تنوعت ما بين المفاهيم والأثر الموسيقي والأثر اللغوي.

١- المفاهيم

يستطيع الطفل توظيف المأثور القولي في موقفه المناسب تبعا لما تلقاه، وتكون له القدرة الفائقة في تمييز المواقف وما يناسبها، كما يستطيع التعرف على أفراد الأسرة، وتنمية روح الانتماء من خلال ارتباطه بالأغنية الشعبية أو الحكاية أو المثل، من ذلك أغنية (قمير الدودو ما شفت البابا)، وأغنية التصفيق (صفاقة حق البابا)، ولعبة العد على الأصابع (هذا بابا هذا ماما)، وأغنية الترقيص (احبك يا ولوفي)، و(خوالي يا حلالي)

وخالي يا بو لبنيه عمامته حريه
اخذها رضخا بالقاع طلعت له ابنيه
ابنيه اسمها دمدم تلعب بقرون الحنطه[١٢٠]

أما الانتماء الوطني فيظهر في أغنية الترقيص:

أحبك حب تاجر مغرب من سنين

أي حب تاجر لوطنه، وكذلك التعرف على رموز الحكم:

احنا بنات أحمد تلاقينا كلينا حلوه دبق أيدينا
والشام والباروت بايدينا
يا صباره ما دريتي عن خطاره النفوذ
قالوا لها امشي امشي هناك أحمد ولد الشيوخ
قاعد على النثرية قاعد يعد فلوسه[١٢١]
والنور ساطع بوجهه في مصحفه يقرا[١٢٢]

ويتعلم الطفل القيم الدينية ومناسباتها فـ (بيت الله) يكثر في أغنية:

اطريف اطريف   يا أهل البيت
عطونا الله يعطيكم   بيت مكة يوديكم
يا مكة يا المعمورة   يام السلاسل والذهب يا نوره
احبك يا يمه   واوديك بيت الله(١٢٢)

وأغنية القرقيعان والمطر والتهليل، جميعها تقوي الوازع الديني عند الطفل، وينمو معجمه اللغوي الديني.

ومن المفاهيم البر بالوالدين:

أمي تناديني   مدري اشتبي فيني

وأغنية:

يا يمه قومي طلي   شوفي البحر محتاس
شوفي اشراع ابيي   ابيض كنه القرطاس

وفي أغنية (اطريف اطريف) وعد بأن الابن سيعمل على أن يحقق لأمه أمنية الحج (واحججك يا يمه   واوديك بيت الله).

ومن المفاهيم التي تزرعها الأغاني الأجنبية رفض الأجنبي مثال أغنية:

شمبل شمبل شمبيله   عنكريزي بوتيله
سنه يدعج المرمر   عساه يموت الليله

٢- المعارف

بيئة مثل الكويت يمثل البحر شريان حياتها، ومن ثم شكلت أغاني البحر رافدا معرفيا تنتقل بالمؤدي والمتلقي إلى فنون معرفية مختلفة فمثلا أغنية:

(يا الصاجه ويا الصاجه　　ما صدقتي　　صاجه)[١٢٤]

يا نوخذاهم　　لا تصلب عليهم　　صاجه

ترى حبال الغوص　　قطع ايديهم　　صاجه

يا ليتني ادهبنه　　وادهن ايديهم　　صاجه

يا ليتني إخويمه　　واظلل عليهم　　صاجه

يا خوي محلى السفن　　لي لزت السيف　　صاجه

كلها صبيان　　تجر المجاديف　　صاجه

والمفردات البيئية في معجمها: (لا تصلب): لاتثقل عليهم بالأوامر، (إخويمه): تصغير خيمة، (لي): بألف ممالة هي (إلى) بعد حذف همزتها وهي تستخدم بمعنى إذا، (لزت): لاصقت، (السيف): بياء المد هو الشاطئ.

ومن أغاني البحر ما تشفق فيه الأم على ابنها مغبة المخاطرة والمغامرة في البحر، تقول:

يـا طـويـل الـظـهـر　　ويـن انـت رايـح

تحـسـب الـغـوص　　لـعـب الـبـرايـح[١٢٥]

ويختلط الفخر والاعتزاز بالأسرة بفرحة العودة:

يـا يمـة قـومـي طـلـي　　شـوفـي الـبـحـر محـتـاس

شـوفـي شـراع ابـيـي　　ابـيـض جـنـه الـقـرطـاس

شـوفـي شـراع غـبـور　　أسـود جـنـه مـخـمـه

(محتاس): من الحوس وهو الاختلاط والمقصود هنا أنه هائج، (غبور): صيغة مبالغة من الغبرة، كناية عن العدو، (جنه): كأنه، (مخمة) مكنسة.

وتشكل الألعاب وأغانيها الشعبية مادة معرفية تطوف بالأطفال من بلد إلى بلد فتعرفهم عليها.

فنلحظ طائفة من أسماء المدن والمناطق مثل:

احنا بنات أحمد تلاقينا   كلينا حلوه دبق ايدينا

والشام والباروت في ايدينا

(دبق): فعل ماض من الدبق وهو ما يعلق من مواد سكرية لزجة باليد.

وأغنية أخرى تقول:

يا ليتني لوميه   مزروعة بعمان

يا كلني عبدالله   ويقشرني سلمان

سلمان اخو شيخه   يا مراطن العجمان(١٢٦)

وفي أغنية التداعي:

يا مسرت ابوي   يمنا مسرت ابوي

وين راح ابوي   وين راح ابوي

راح البصرة   راح البصرة

ومن المعارف التي تحفل بها الأغاني الشعبية لفظة التمر، وما يتعلق به. وغير خاف أهميته الغذائية في بيئة مثل الكويت، فيتغنى الطفل بالتمر في أغنية المطر:

يا ربنا عطنا المطر ازين   حتى تزعل أم حسين

وناكل تمرها الزين   ونخلي لها التمر الشين(١٢٧)

وأغنية أخرى تغنيها البنات أثناء اللعب:

انا خلاله حمره   انا خويط بريسم

واغنية:

خميسوه حلاوي   ياكل تمر خضراوي[١٢٨]

ولعالم الجن نصيب مما تقدمه الأغاني من معارف وثقافة تصور المعتقدات المحلية:

تحت الباب جني   يصفق ويغني

والشرطي شخصية معروفة أيضا لدى الأطفال. فترقص البنات:

الشرطي باني بيته   باني بيته
خبز ولبن عشيته   عشيته

٣- خصائص الأغنية

تتصف الأغنية الشعبية بجملة من الخصائص اللغوية نذكر أهمها:

- الأصوات: تهيىء أصوات المد جملة من المتماثلات الصوتية تناسب مقام الأغنية مثل أغنية نهاية اللعب:

(صنّوح ملّوح   اللي يدل بيت أمه وابوه يروح)

فالمد هنا ينبه اللاعبين البعيدين بوقت الانصراف.

- الاتباع: تعتمد بعض الأغنيات في موسيقاها الداخلية على الاتباع اللغوي مثل أغنية التداعي: شرق/ورق، وأغنية الترقيص: أحبك/والبك، وأغنية اللعب: سحر/بحر.

- اللوازم: تكتسب الأغنية الجماعية التي يكثر فيها المؤدون جملة من اللوازم اللغوية التي تقوي الأغنية وتبث وهجا عاطفيا في نسيج الأغنية مثل أغنية البحر: يا الصاجه، صاجه، وأغنية: توب توب يا بحر - اربعة والخامس دخل، وأغنية التحميدة (ختمة القرآن): آمين.

- التصغير: اتسمت لغة الأغاني بالتصغير اللغوي الملائم لحال الصغار، ولأنه ينطوي على دلالات تمليحية وتحببية مثل أغنية: قمير الدودو، ياوليدي، بنيه، خويط بريسم، مضيعدي يالهلالي، خويمة.

– ألفاظ تنبيهية: تصدر بعض الأغاني بافتتاحية تنبه السامع إلى موضوع الأغنية كما في الأغنية التي توجه للإنجليزي الذي يمثل شخصية مكروهة بصفته مستعمرا، مثل أغنية: شمبل شمبل شمبيله [كلمات غير مفهومة تناسب كلام الأجنبي].

ألفاظ تعبر عن الحركة: يتعانق فعل اللغة بملفوظها الصوتي في أداء واحد في مثل أغنية: دور دور يا البطه، صفاقه حق البابا، انقزي انقيزة.

– ألفاظ اللامساس (التابو): مثل ألفاظ التنابز، وبعض الألفاظ التي تشير إلى الأعضاء الحسية.

خاتمة

كشف البحث أهمية المأثور القولي الشعبي، ونبه إلى انحساره في الاستخدام وتقلص توظيفه لعوامل ومتغيرات سبق الإشارة إليها، وقد نبهت إليها دراسات كثيرة. ولعل من المفيد أن نوصي بما يلي:

١– الاهتمام برعاية الأم الحامل رعاية تثقيفية إلى جانب الرعاية الصحية.

٢– حث الأم على الالتصاق بالطفل وعدم تركه للخدم ومواصلة الحديث معه في مناسبات عدة، وذلك بمد إجازة الأمومة حتى مرحلة النطق.

٣– تطوير المناهج التعليمية بحيث توظف المأثور الشعبي المنتقى مثل القصص والسوالف والأمثال والأغاني مع أهمية انتقاء ما يوافق الفصحى، وقد أثبت أحد البحوث العلمية السابقة أن ٤/٣ من كلام الطفل المصري فصيح[١٢٩].

٤– تفعيل عمل وسائل الإعلام في كيفية التفاعل الحضاري مع الغزو الثقافي الخارجي دون مسخ للهوية الشخصية للمجتمع، وصد جماح هذا الغزو الثقافي الخارجي، وذلك بتأصيل المنتقى من المأثور الشعبي في إنتاجها الفني، ومتابعة أنشطة الوسائط الثقافية المعنية بهذا النشاط، وبخلق طرائق للاستفادة من النتاج الثقافي الخارجي مما لا يتعارض مع قيم المجتمع وأعرافه وأصالته.

٥– ضرورة التعاون بين المؤسسات المعنية بخدمة التراث الشعبي في مجتمعاتنا الخليجية والعربية لتبادل الخبرات، والعمل على إبراز هويتنا العربية المشتركة من التراث.

تعريب التعليم الجامعي

«أضواء على تجربة»

تحقيق :د. تغريد نصر أصفر*

مقدمة

يحكي صاحب «الفهرست» عن السبب الذي من أجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في البلاد العربية الإسلامية زمان المامون، أن رجلا مهيبا تجلى لهذا الرجل المحب للمعرفة والحكمة في منامه، وأوحى له بان يستخرج كل ما سبقه من فلسفة وعلوم لينقلها إلى العربية[1]. هذه هي الرواية المتفق عليها حول سبب إنشاء المامون لـ«بيت الحكمة» عام ٨٣٢/٢١٧م، والذي يعد بحسب تعبيرنا اليوم أبرز مؤسسة علمية شهدها التاريخ العربي الإسلامي على امتداده، وليس مصادفة أن عصر الترجمة والنقل الذهبي إلى العربية كان عصر بلوغ الإشعاع الحضاري العربي الإسلامي الذروة. فقد كان مترجمو ذلك الزمان من أبرز مفكريه، كما ولم تكن هناك مسافة بين الترجمة والإبداع. أما عصر الترجمة الثاني الذي

* باحثة من سورية .

ابتداه محمد علي فقد اختلف عن عصرها الأول بانه كان عبارة عن انعكاس لضعف حضاري لا قوة، وبان الإبداع فيه تاخر عن النقل، وبان هذه الحركة لم تتسم بالعمق والاتساع الكافيين لكي تنجح في ترك بصمة مرئية.

أما في يومنا هذا فلا مخرج من تكرار النغمة الحزينة ذاتها، فما يسر من حالنا وإياكم اقل بكثير مما يبهج. وهنا فالحديث يدور عن الموقع الذي نحتله كعرب في سلم الحضارة العالمي، وعلى الأخص فيما يتعلق بالعلم والتكنولوجيا. وفي أجواء كهذه لا أعتقد أننا بحاجة للتاكيد على أن اللغة العربية هي أثمن ما تبقى لنا على امتداد البلاد العربية، وانها الحقيقة الوحيدة التي نجتمع حولها دون خلاف. إن المحافظة على هذه اللغة لا تتم بالتعامل معها على انها أحد الأنواع المهددة بالانقراض، ويجب وضعها في محميات وصونها من أي نسمة هواء، كدأب بعض اللغويين المحنكين المستعدين للتضحية بوظيفة أساسية للغة على حساب نقاء نحوي ولغوي مفترض. بل على العكس يكون الحفاظ عليها بفتح الأبواب والنوافذ في وجهها، بتعريضها لمختلف الرياح وإقحامها في كل المجالات. إن من يقول إن لغتنا اليوم لغة أدب وعلوم كلام وليست لغة علوم ومصطلحات ليس مخطئا كليا، فستظل لغتنا بعيدة عن العلم وأسلوبه ومنهجه ومصطلحه مادمنا قد تخلينا عنها في هذا المجال، ومادامت لم تعرك بعد في معمعان الثورة العلمية بكل تعقيدها وشموليتها. ومادامت علوم اليوم تدون أصلا بغير لغتنا فإن علاقة لغتنا العربية بها ستقتصر في مرحلتنا هذه على تطويع اللغة لنقل أكبر كم من هذه العلوم والمعارف، وعلى أفضل وجه، إلى أن يحين وقت تعود فيه لغتنا لتأخذ مكانها كلغة علم أصيلة ينقل عنها إلى اللغات الأخرى.

لقد تخلينا عن تعريب العلوم تحت مختلف الذرائع، فماذا سيكون مصير اللغة العربية بعد عقود من عدم استعمالها فيما يختص بالعلوم؟ طبعا لا يحتاج الأمر لنباهة لإدراك بأن هذه الوظيفة الأساسية للغة ستموت، وأن الوقت سيتجاوزها بحيث يصبح من المتعذر تلافي هذا النقص مهما حاولنا. عندها سيكتب على كل ناطق بالعربية في أجيال ستأتي نأمل أن تشارك في صنع العلوم، أن يقوم بنشاطه العلمي بغير لغته. وسيصبح من المتعذر على غير المشتغلين بالعلوم وغير المتقنين

للغات أخرى متابعة مايجري من حولهم، وهي حالة مرضية سبق وأن وعت إلى خطورتها الدول المتقدمة، فبذلت جهودا كبيرة في سبيل عدم ترك أحد خارج تيار الثورة العلمية.

ليس هذا السيناريو مستقبليا جدا بأي حال من الأحوال، بل إن يومنا هذا يحمل كل مؤشراته. هل من متابع لشؤون الفكر في يومنا هذا يحمل بذرة شك في أن وضع اللغة العربية مهدد كلغة علم، وأن إنعاشها بحاجة لقسم العناية الفائقة، وأن خلاصها لايتم إلا بتضافر جهود الأكاديميين في كل مكان ممن يتقنون ليس فقط لغة العلم بل ومنهجه أيضا. إن من يعول عليهم هم الأكاديميون الحقيقيون الذين لا يترفعون عن لغتهم الأم بسبب رطانة أكاديمية، أو تعصب للبلد الذي نهلوا منه العلم، أو للحفاظ على ما يشبه مجتمع الصفوة العلمي الذي يروق له التميز عن العامة بتعمد الإيهام والترميز، والذي هو أقرب إلى نهج المشعوذين منه إلى أهل العلم.

لكن الحماس للشعارات كشعار التعريب هو أسوأ ما يمكن أن يحصل لهذا المشروع. ولربما كان إخراج هذا الموضوع من حيز تداول المنظرين إلى خبرة المجربين هو أكثر ما يمكن أن يضخ في عروقه دماء جديدة. وفي كثير من الأحيان كانت معالجات هذا الموضوع، المبنية على تجارب واقعية، تأتي من مواقع مسؤولة لأناس شغلوا مفاصل محورية في خطط التعريب الجامعي، فكان أن جاءت مقارباتهم عبارة عن مديح فج لسياسة ساهموا في صياغتها وتنفيذها، وربما أيضا في فشلها!

إيجابيات التعريب والتدريس باللغة العربية

«المترجمون خيول بريد التنوير» بوشكين

١- إن النقل النشط للعلوم والمعارف إلى اللغة العربية لهو من أهم عوامل خلق التربة والمناخ الملائمين للدخول في عملية التحديث والمشاركة الفاعلة في تيار التطور العلمي والحضاري العالمي. فقد ترافقت كل حركة نهوض وانبعاث على مدى التاريخ بحركة ترجمة نشيطة. وتكاد لا توجد نهضة علمية فكرية تنمو في فراغ، بل تبنى دائما على ما حققه الآخرون. ويعبر الباحث اللبناني عبد الكريم ناصيف عن هذا الطرح بقوله: «إذ تسبق حركة الترجمة دائما حركة التأليف، بالمعنى العام للكلمة، وتمهد الأولى للثانية حيث يبدو جليا إذا ما ألقينا نظرة على تاريخ الأمم أن حركة الترجمة كانت دائما هي المرحلة الانتقالية ما بين مرحلة الجدب...، ومرحلة الإبداع والتأليف»[٢].

لقد ترافق عصر الترجمات الكبرى مع أكبر ازدهار عرفته الحضارة العربية، كما لعبت الترجمة عن العربية دورا بارزا في دخول أوروبا عصر النهضة. فنحن اليوم مأخوذون بمنجزات الحضارة الغربية التي نحاول نقلها إلى العربية كما كان أسلافنا يقفون من حضارة ومعارف الإغريق، مع فارق جوهري، وهو أنهم كانوا أكثر شجاعة وتحررا من عقدة النقص في نقلهم عما سبقهم. ويتفق الكثيرون على أن هناك شروطا معينة يجب أن تتوافر في الترجمة لكي يمكن أن تسهم في المشروع التحديثي، ومن أهمها بحسب تعبير الباحث هاشم صالح أن تكون الترجمة «عملا إبداعيا يقوم به رجل عالم وباحث في نفس الوقت». أي أن النقل يجب أن يكون تعريبا أكثر مما هو ترجمة حرفية[3]. فالترجمة الخلاقة ليست عملية نقل حرفي، بل هي عملية إبداعية تنجم عن تفاعل فكر وثقافة المترجم مع فكر وثقافة المؤلف من دون انتهاك لروح العمل، لهذا لم تكن ترجمة كهذه في متناول الكثيرين. بينما تعجز حركة الترجمة المعاصرة عن لعب الدور نفسه لأسباب عدة سيتم التعرض لبعضها لاحقا. ويمكن أن أورد قول الباحث جورج طرابيشي الذي يعتبر الفرق الأساسي ما بين المرحلتين يتمثل في الحاجة التي ينطلق منها العقل العربي في عملية الترجمة «في عصر الترجمة الأولى كان العقل العربي مكونا،... أما في عصر الترجمة الثاني فكان العقل العربي- ولا يزال- قيد التكوين»[4].

٢- إن اللغة العربية هي لغة التواصل في المجتمع. بمعنى أنها لغة الاتصال والتأثير والتأثر. ومن الأهمية بمكان أن يكون الأكاديميون من خريجي الجامعات، ومدرسيها، قادرين على أن يوصلوا علومهم ومعارفهم لمجتمعاتهم، وأن يسهموا في تنمية الوعي العلمي والعقلية العلمية في هذه المجتمعات، لا أن يكونوا طبقة علوية مستقلة يفهم بعضها بعضا فقط. وقد لايتم لهؤلاء ترك بصمة على مجتمعاتهم إلا إذا تمكنوا من العلوم التي يَدرسونهـا أو يُدرِّسونها باللغة العربية، وإلا إذا توفرت المنشورات العلمية والتعليمية على جميع المستويات بالعربية. فجميع علماء الدول المتقدمة يستطيعون التعبير عن تخصصاتهم وأفكارهم بلغاتهم المحلية، وظاهرة المختص الأبكم نكاد ننفرد بها عن غيرنا من الأمم. لذلك فإن جهدا من طرف الأكاديميين يجب أن يبذل من أجل بناء جسور التواصل مع العامة. فلم يعد مقبولا تعمد الإيهام والحشو للمصطلحات الأجنبية أثناء التوجه للعامة لإحداث شعور «كاذب» لدى المتلقي بتفوق المتحدث وسعة معارفه. وحتى عندما

يكون المتحدث على مستوى عالمي فإن جهله بالعلم- موضوع اختصاصه باللغة العربية- يجعله عاجزا عن إيصال ماالديه للمتلقي العربي العادي، وعلى التأثير الإيجابي في محيطه. إن إقصاء السواد الأعظم من الجمهور عن حلقة العلم في الدول العربية سينعكس سلبا في النهاية على مسيرة العلم ككل. إذ لايخفى أن تمويل الأبحاث، واستمرار الدعم الحكومي للجامعات والأكاديميين يعتمد بشكل أساسي على وجود رأي عام إيجابي فيما يخص دور العلم والعلماء في حركة التنمية. وهذا لا يتم إلا بتبسيط العلم والسعي الدائم لإبقاء الغالبية العظمى من المجتمع على مسافة ليست بالبعيدة مما يجري على جميع جبهات العلم، وأهمية وحيوية البحث العلمي بالنسبة لجميع مناحي الحياة.

٣- إن اللغة هي الوعاء الذي تنضج فيه الهوية وحس الانتماء إلى المجموعة الأكبر. وقد يبدو هذا الكلام للبعض شعاراتيا فضفاضا لكثرة ما استعملت تعابير كهذه كقوالب جاهزة لابد من إلقائها في أي خطاب ليأخذ طابعا وطنيا. وما يهم هنا هو التركيز على حقيقة أن اللغة تؤثر على تشكل الشخصية الإنسانية على كل المستويات، بل وتؤثر على الانفعالات والأحاسيس والذائقة، وحتى على منظومة القيم والعلاقات الاجتماعية. وغالبية تأثيرات اللغة هذه تعمل في اللاشعور. فعلى المستوى الفردي، تسهل اللغة للشخص اكتساب الثروة اللغوية للأمة التي يعيش فيها كيما يصبح عضوا كاملا في هذه الأمة. وهنا فإن اللغة تلعب دور وسيلة للإخوة ووسيلة للاتصال في الوقت نفسه. كما تمكن اللغة المتحدث بها من التفاعل مع محيطه المشترك، وتسلحه بالأداة التي يستعملها في كشف وتحليل عملياته المعرفية ليوصل إلى الآخر ما يريد فعله وقوله. وأخيرا، وكما يقول ليباج Le Page فإن اللغة تكسب صاحبها سهولة التعرف على تجارب الآخرين ومفاهيمهم[٥]. أما على مستوى المجتمع، فإن اللغة بحسب الباحث عمر عسوس: «هي المستودع التعليمي للمعارف، والمعايير الثقافية، والتاريخ الاجتماعي-الثقافي المتوارث عن طريق العملية التعليمية. وتعمل اللغة كالغراء الاجتماعي الذي يتم بموجبه الشعور بالارتباط بالماضي والحاضر والمستقبل»[٦]. ومن البديهي أن تشعر النخب المثقفة التي تلقت تعليمها بلغة أجنبية فقط بالاستعلاء والامتياز وعدم القدرة على التماهي مع المجتمع بمفهومه الأعم. فاللغة لاتأتي بمعزل عن مناخاتها، وعن منظومتها الاجتماعية والثقافية، بل وعن تعصبها الثقافي. وفي هذا السياق يقول ساموييل

كودجو Kodjo حول أهمية الدور الذي تلعبه السياسة التعليمية واللغة في تشكيل الوعي الثقافي للنشء في البلدان التي احتلتها فرنسا حتى بعد الاستقلال: «إن السياسات والممارسات التعليمية دعمت بصورة مباشرة أو غير مباشرة المجهودات الاستعمارية المبذولة في سبيل إدماج الشعوب المستعمرة ثقافيا، كما رسخت الأنظمة والممارسات التعليمية بعد الاستقلال التقاليد الاستعمارية وسياسة التغريب، ومن ثم أدت إلى زيادة الاغتراب والتبعية الثقافية»[٧]. بيد أن هذا لا يعني أننا ننكر على أحد ما تمتعه بالقراءة بالفرنسية وسماع اديث بياف، أو الإعجاب بأفكار وكتابات فولتير. فهذا يختلف طبعا عن الانحياز الثقافي الذي يؤدي إلى اتخاذ موقف مناهض للغة والثقافة العربيتين كما هو حال بعض المثقفين الفرنكوفونيين الذين يذهبون إلى حد وصف اللغة العربية بالميتة، أو بأنها لغة التخلف، أو أنها لغة الجمود والصعوبة واللاعلم[٨]. ومن هنا فإن بعدا جديدا يضاف للمعادلة بشكل يستحيل معه أن يتعايش الانتماءان الثقافيان للفرد، فيصبح غريبا في مجتمعه لا يستفيد من معارفه إلا القلة، ولا يشارك المحيطين به آمالهم وأحلامهم، والأهم من ذلك جهودهم للخلاص مما هم عليه من تخلف أو تبعية. ومن المفيد التذكير هنا بأن ابن سينا كتب مؤلفاته الطبية والفلسفية باللغة العربية، بينما كتب مؤلفاته العاطفية باللغة الفارسية، أي أن العربية كانت بنظر هذا العالم المتفرد لغة العلم والمعرفة. فلماذا تحاول اليوم نفي هذه الصفة عنها؟! ومن أهم الأمثلة في هذا الصدد ما لعبته الازدواجية اللغوية في لبنان من دور هدام برأيي لحس الانتماء للوطن الأم على حساب الانتماء للثقافة الفرنسية، والذي ساعدت على تغذيته بعض الدعوات الدينية. يقول الباحث اللبناني كمال الحاج في معرض انتقاده للازدواجية اللغوية التامة– أي تعايش لغتين تتقاسمان دورا متساويا في مجتمع ما– في لبنان: «لقد جلهنا فلسفة اللغة، فكان أن سرنا عكس الواقع البشري، دون أن ننتبه إلى الخطأ التربوي الذي ارتكبته مناهجنا التعليمية ودون أن ننتبه إلى الشق الذي أقمناه بين اللبناني كفرد ولبنان كوحدة شعب»[٩]. وفي المقابل يرجع الباحث سليم عبو الازدواجية اللغوية (العربية–فرنسية) إلى معطى اجتماعي ناجم عن احتضان لبنان لتجمعين دينيين مسلم ومسيحي «المسيحي يشعر بالراحة أكثر حين يستعمل اللغة والثقافة الفرنسيتين، والمسلم يشعر براحة أكبر حين يستعمل اللغة والثقافة العربيتين»[١٠]. بل هو يذهب إلى القول: «ومن هنا فإن طرح الازدواجية اللغوية أو إرادة التعريب يظهر كعامل لطرح

مسألة الثقافة الوطنية للمناقشة، بل وحتى وجود الدولة نفسه»[١٠]. وهنا نشهد وجود تباين جذري في وعي ما تعنيه الثقافة الوطنية ناجم عن اختلاف الثقافة السائدة لدى كل فئة. فالمسافة الفاصلة بين التعصب اللغوي العلمي اللّبوس والتعصب الثقافي لا تكون بعيدة إذا ما استفدنا من دروس التاريخ. لذلك لابد من التعريج ولو بسرعة على الازدواجية اللغوية في المغرب العربي، وتشكل الجزائر الحالة الأوضح بينها. وتأتي أهمية الحالة الجزائرية بالنسبة لموضوعنا هذا، من حقيقة أن الاتجاه السائد في الجزائر كان ينحو إلى استعمال اللغة الأجنبية- الفرنسية هنا- لتدريس العلوم، بينما تترك العربية لتدريس التاريخ والفلسفة. وهو طرح يلقى تجاوبا واسعا في الأوساط الأكاديمية حتى في البلاد العربية الأخرى. أو بحسب عبد المالك الصياد تكون اللغة الفرنسية هي اللغة الدنيوية المعبرة عن عالم المادة، بينما تترك اللهجات التقليدية للتعبير عما هو مقدس وديني[١١]. وبغض النظر عن هذا التقسيم الوظيفي اللغوي، فإن اللغة تتجاوز - كما سبق وأشرنا- وظيفتها المصطلحية والدلالية لتؤثر في التركيبة الثقافية-العلائقية في المجتمع. تقول الباحثة إيفون لوفيفر في هذا الشأن: «ليست الازدواجية اللغوية عبارة عن لغتين فقط، وإنما هي أيضا مجموعتان بشريتان، وثقافتان تدخلان في علاقة متبادلة، وكل واحدة منهما تخضع لقوانين خاصة». ثم تطرح جوهر مشكلة علاقة لغة التعليم بنوع التنشئة التي يخضع لها المتعلم في الجزائر: «إن وظيفة التمييز الاجتماعي التي لعبتها الفرنسية خلال الحقبة الاستعمارية تبدو وكأن التعليم المدرسي المزدوج اللغة قد أخذها على عاتقه»[١٢]. فالتعريب في الجزائر كان عبارة عن إدماج العربية في النظام التعليمي نفسه، لذلك عانى من شتى أنواع المصاعب. إن الالتباس الذي تفرضه الثنائية اللسانية يؤدي حتما إلى التباس يتعلق بالازدواجية الثقافية. إن هذا الفصل في فهم مهام اللغة سيؤدي بالتدريج إلى وضع ترتبط به إحدى اللغتين بالحداثة والأخرى بالتقاليد. وهذه كلها من العوامل التي أدت للنظر إلى اللغة العربية بكونها قاصرة على استيعاب منجزات العلوم والتقانة. ومع محاولة عدم الوقوع في التعميم الذي يختزل تأثير العوامل الأخرى على مجمل الوضع في الجزائر ولبنان، فإن هذين البلدين اللذين شهدا الازدواجية اللغوية- الثقافية الأكثر حدة في الوطن العربي عانيا من أعنف الحروب الأهلية.

٤- إن الاعتماد على لغة عربية علمية موحدة هو عنصر ائتلاف وتعاون مهم بين الدول العربية

وأكاديمييها على وجه الخصوص. إذ لا تقتصر المشكلة حاليا على اعتماد كل دولة عربية على لغة أجنبية مختلفة عن الأخرى كلغة للعلم، بل إن لكل دولة عربية لغتها العربية العلمية الخاصة بها. فقد أدى عدم التنسيق في هذا المجال إلى نمو مصطلحات محلية في جميع أوجه الفكر من علوم إلى نقد إلى فلسفة، وأصبح من المتعذر فهم النصوص العلمية المعربة من دون الرجوع إلى الأصل في معظم الحالات. إن وجود لغة علمية واحدة يتكلم بها الأكاديميون العرب لهو حيوي جدا من أجل التعاون العلمي، وتبادل الخبرة، بل وبناء جسور الثقة بين البلدان العربية. كما انه حيوي لإرساء منظومة معرفية مشتركة تستطيع استيعاب كل ما يرفدها من نتاج علمي وفكري من كل بلد عربي.

٥- إن التعريب والترجمة يضيفان إلى اللغة العربية ويغنيانها، بل وينقذانها من الموت الحضاري. فاللغة تعتمد على الترجمة من أجل أن تعيش وتتكاثر وينمو قاموسها، كما أن الترجمة توسع صياغات اللغة وتخصب مفرداتها وتراكيبها. فقد ترافق عصر الترجمة الذهبي أثناء حكم المأمون بتبلور اللغة الاصطلاحية والتقنية المختصة بعلوم ذلك الزمان، والتي لم تكن موجودة قبله. وبحسب هنري كوربان فإن اللغة العربية أصبحت تمتلك وللمرة الأولى لغة اصطلاحية حديثة بمعنى ذلك الزمن (٣). كما يشهد عصرنا هذا دخول لغة العلوم في جميع مجالات الحياة، وذلك نتيجة لسهولة انتشار المعلومات وثورة الاتصالات، مما يقتضي تطور اللغة بحيث تستطيع التعبير عن واقع اليوم، واقع عصر الهندسة الوراثية والموصلية الفائقة والإنترنيت، لا أن تقتصر على وصف مطالعة العاشق لطل حبيبته. فالترجمة والاحتكاك باللغات الأخرى، وباللغات العلمية التخصصية والأخذ عنها، يضمن عدم تحول اللغة إلى نوع من الأحافير لا يمكن إلا أن تدل على العصر الذي شهد نشأتها وشيوعها. إن الميادين الجديدة التي تدخلها اللغة، وأعني هنا ميادين العلوم المعاصرة، تقتضي منها ليس البحث عن مصطلحات جديدة فحسب، بل عن صيغ ومفاهيم وأساليب وحتى تراكيب بنيوية جديدة. ومن هنا فالترجمة تلعب دوراً رئيسيا في التعرف على التراكيب اللغوية المبتكرة، وعلى مناطق الجدة والحيوية في اللغات الأخرى، وعلى الأساليب المختزلة والمفهومة في الوقت نفسه التي تشيع في لغة العلوم المعاصرة.

٦- للترجمة دور حيوي للاطلاع على منجزات العلوم باللغات الأخرى، واطلاع الآخرين على ما

نحققه في هذا المجال. فمع أن إتقان اللغة الإنجليزية أصبح ضرورة حيوية لكل المشتغلين بالعلوم- كونها اللغة العلمية الأوسع انتشارا-إلا ان الترجمة تتيح الاطلاع على النصوص العلمية غير الإنجليزية، كما توصل أهم منجزات العلوم لمن لا يتقن الإنجليزية، أو لمن- لسبب أو آخر- لا يستطيع تأمين المخطوطات العلمية بلغتها الأصلية. وهنا لابد من الإشارة إلى المكانة الخاصة للغة الإنجليزية كلغة عالمية للعلم، والتي لا يتوقع أن تنافسها فيها أي لغة أخرى في المستقبل القريب. فالمشتغلون بالعلم في كل العالم أصبحوا مجبرين على إتقان اللغة الإنجليزية نطقا وكتابة إذا كانوا راغبين في الانضمام إلى المجتمع العلمي العالمي. وبغض النظر عن العوامل الخاصة التي جعلت الإنجليزية تتبوأ هذه المكانة، فإن وضعها هذا يحتم علينا التعامل معه بما يقتضيه، بل واستغلاله لصالح نشر منجزاتنا في حقول العلوم. ومن هنا فإن ترجمة بحوثنا العلمية للإنجليزية، وتأسيس منشورات عربية علمية تستخدم اللغة الإنجليزية لهو ذو أهمية فائقة في بقائنا على الخارطة العلمية العالمية وعدم انعزالنا. كما أن إعطاء الاولوية للغة الإنجليزية في النشر العلمي، والاعتماد على محكمين ومحررين أجانب يضمن لنا إمكانية إدخال منشوراتنا العلمية في الفهارس العلمية العالمية مثل Science Citation Index (SCI). اي يضمن بقاءنا ضمن الحلقة الداخلية للعلم، وإمكانية اطلاع العلميين في كل العالم على ماننجزه في هذا المجال. وهناك تجربة رائدة وممتازة في تمكن الاستفادة منها وهي تجربة المجلات الطبية في الخليج وخاصة «المجلة السعودية للاطباء» Saudi Medical Journal، و «المدونات الطبية السعودية» An-nals of Saudi Medicine، و«مجلة الكويت الطبية» Kuwait Medical Journal. وهي دوريات محكمة تصدر باللغة الإنجليزية مع إعطاء ملخص بالعربية لكل بحث. فقد نجحت هذه الدوريات في اكتساب احترام عالمي نظراً لحيادية تحكيمها ورقي معاييره، مما أهلها لدخول بعض الفهارس العالمية كالـ Current Content.

معوقات التعريب في العالم العربي

لابد من الإشارة في البداية بانه لايوجد تعارض بين مبدأي التعريب والمحافظة على سوية التعليم. ومن جهة أخرى لابد من الإقرار بأن تجربة تعريب التعليم الجامعي كما هي عليه اليوم قاصرة قصوراً شديداً عن الايفاء بمتطلبات التعليم الاكاديمي والبحث العلمي، وأيضاً بأن وضع

هذه التجربة لن يشهد تحسنا ملموسا في المستقبل القريب. وهكذا يكون الحديث عن معوقات التعريب واقعيا بل ومطلوباً. فهذا الموضوع حساس جداً وحيوي جداً، وإذا كان من المتعذر القيام به كما ينبغي فإن مساوئه ستفوق محاسنه.

يقول الباحث اللبناني حسن قبيسي: «يبدو أن البلدان العربية قد حسمت أمرها منذ زمن على تعريب التعليم،... فإن الواقع المعاش في هذه البلدان يشير إلى أنها مصممة على المضي في تنفيذ هذا القرار دون توفير أسباب تنفيذه»[١٣]. يلخص هذا القول ببساطة جوهر مشكلة تعريب التعليم الجامعي في الأقطار العربية التي سارت به. طبعا الحديث هنا أطول من سابقه، والخوض في معوّقات ومشاكل التعريب هو العمود الفقري لهذا البحث في محاولة لرصد تجربة قائمة على الأرض، تتميز باختلاف تطبيقها وشمولها واستراتيجياتها باختلاف البلدان العربية. وفي ما يلي أهم معوّقات وسلبيات التعريب:

١- غياب الدعم المادي الملائم لحركة التعريب والترجمة

قد يبدو مستغربا للبعض وضع مسألة التمويل وتأمين الدعم المادي لعملية الترجمة والتعريب كأول وأهم ما تعاني منه حركتا التعريب والترجمة العربيتان. فقد تعودنا في الدراسات التي تبحث في هذا الموضوع عدم إيلاء هذا الجانب الاهتمام الكافي، واستباق الجوانب النظرية من استحداث سياسات تعريب موحدة إلى اتخاذ قرارات تنسق وتنظم التحول نحو التعريب إلى ضرورة إنشاء معاهد ومراكز متخصصة للترجمة وتعريب العلوم... إلخ. إن التركيز على هذه الجوانب أدى إلى التقليل من الدور المحوري للعامل المادي في إنجاح هذه العملية. إن كل السياسات والبرامج والمؤتمرات لن تقدم في الواقع إلا القليل لعملية الترجمة والتعريب بغياب التمويل والدعم المادي الكافيين، والعكس فإن توفر الفيض الكافي والمستمر من الأموال المخصصة لعملية الترجمة ونقل العلوم للعربية سيؤدي إلى نتائج إيجابية حتى بغياب أي من العناصر السابقة. ليس هذا فحسب، بل إن توفير الدعم المادي اللائم ينطوي على قدرة ذاتية على تجاوز الأخطاء والارتقاء بالنوعية. فالأجر المادي المجزي يدفع أفضل العلميين والمترجمين إلى التفرغ لمتطلبات عملية التعريب والترجمة العلمية، وبالتالي تخلق بيئة تنافس تؤدي إلى تطوير حركة الترجمة، كما يغري المردود المادي الجيد العديد من الشباب الموهوبين على دخول معترك هذه المهنة وتكبد مشاق الإجادة فيها. هذا يعني أهمية دور التمويل في تنشيط حركة الترجمة عن طريق

تخصيص ميزانيات ضخمة سنوية لهذا الموضوع، أي تمويل ربما يتجاوز قدرة الأفراد والمؤسسات إلى تمويل حكومي. ولإضاءة هذا الجانب يمكننا الرجوع إلى تجربة ناضجة للترجمة العلمية عالية النوعية في الوطن العربي، وهي تجربة مجلة «العلوم» التي تصدر عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، والتي تعتبر بمعظمها ترجمة للمجلة الأمريكية Scientific American. فوجود التمويل الكافي لإصدار هذه المطبوعة بصورة لائقة ووفق المعايير العالمية، إضافة إلى توفر الحوافز المادية المناسبة لاستقطاب أفضل المترجمين العلميين من جميع الأقطار العربية، ولتشغيل جهاز تحريري متخصص على أعلى مستوى، كلها ساهمت في النجاح منقطع النظير، وفي الفائدة الكبيرة التي قدمتها وتقدمها هذه المجلة لعملية ترجمة العلوم ونشرها بالعربية. وقد لانكون مبالغين إذا قلنا إن هذه المجلة منفردة قدمت من الفائدة للمشتغلين والمهتمين بالعلوم في الوطن العربي بما يفوق كل ما قدمته الإصدارات العلمية المترجمة وكل مؤتمرات ولجان التعريب وقراراتها وتوصياتها مجتمعة. ومن الجدير بالتنويه أننا بالطريقة التي نتعامل معها اليوم مع التعريب والترجمة وضعنا أنفسنا في سباق خاسر مع الزمن حكما. فإذا غضضنا النظر عن موضوع النوعية ونظرنا فقط إلى الترجمات الراقية للمراجع العلمية والطبية المتوفرة اليوم بالأسواق، نرى أن واحدها يكون قد تقادم حتى قبل طرحه في الأسواق بسبب الوقت الذي يتطلبه إعداد ترجمة الأعمال الضخمة، والإيقاع السريع للتطور العلمي اليوم. ولا حل لهذه المشكلة إلا أن تتم عملية ترجمة المراجع العلمية بشكل متواز ومتزامن مع عملية تأليفها، كما هو متبع حالياً في الإصدارات الأصلية بلغات مختلفة للمراجع العلمية المهمة. ويحيلنا هذا الأمر إلى الجانب المادي مجددا. إذ لا يخفى أن اتباع هذه الطرق التي تتبعها الدول المتطورة كلها يتطلب شراء الحقوق والإيفاء بالالتزامات المالية التي تنظم هذه العملية بموجب اتفاقيات عالمية، بينما يكون معظم كتبنا المترجمة- السيىء والجيد منها- عبارة عن قرصنة نشرية. وإذا كان موضوع الوقت ثانويا في الآثار الفنية والأدبية، فإنه أساسي في المنشورات العلمية، ومن غير المعقول أن يقوم المرء بشراء مرجع علمي بإصدار حديث، تعود أحدث معلومة فيه لسنين مضت. كما يفرض التكاثر الأسي للمنشورات العلمية، توظيف استثمارات مادية مربحة في عملية الدعم المادي للترجمة، مما يتيح إمكانية مسايرة الإنفاق على الترجمة للتزايد في الإصدارات العلمية. أما الوضع الحالي كما يظهر من الشكل ١ (B،A)، فإنه يعكس بوضوح تراجع حصتنا العالمية من الكتب المنشورة بدلا من زيادتها.

٢- عقم هيئات التعريب وجهود التعريب المشتركة

ليس المرء بحاجة إلى ذكاء لإدراك بأن حال جميع البنى والهيئات العربية المشتركة كحال الأميرة النائمة إذا ماتعرض الأمير لحادث سير وهو في طريقه لتقبيلها. فالمنطق يحتم علينا أن ننظر إلى هذه الهيئات كانعكاس للحال العربي بمجمله. ولا أعتقد أن التساؤل عما تفعله جامعة الدول العربية، أو منظمة حقوق الإنسان العربية يدخل في خانة خيانة الأمة. وعلى هذا المنوال جاءت جهود الهيئات والمنظمات والندوات العربية التي أنشئت لدفع عملية التعريب، ولتعريب المصطلح العلمي وتوحيده... الخ، كليلة غير باضعة. إنه في أحسن الأحوال لاتجد الجهود المبذولة ضمن هذه البنى طريقها نحو الانتشار والتطبيق، ولاتصل إلى الشرائح المعنية بها. وإذا تساءلنا عن الأسباب أخشى أن يكون من الصعب تقديم إجابات مقنعة. فعلى الغالب لا تلتزم الدول العربية بقرارات وتوصيات المنظمات العربية المختصة كـ «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- اليسكو» المفترض إشرافها على شؤون الثقافة العربية بمختلف وجوهها. فقد تطلب من منظمة اليسكو على سبيل المثال الحصول على بيانات من الدول العربية حول الكتب المترجم فيها ثلاث توصيات وأكثر من خمس سنين، وفي النهاية قدمت فقط سبع دول البيانات المطلوبة [١٤]. وقد يكون من الأسباب غياب القناعة الحقيقية بصلاح عملية تعريب التعليم الطبي والعلمي الجامعي، بالصورة الشاملة التي يطرح عليها، من قبل الغالبية من القيمين على الجامعات العربية، خاصة من قبل الجامعات التي تعتمد اللغة الإنجليزية ويشارك في عضوية هيئاتها التدريسية مدرسون أجانب، رغم مشاركة ممثلين عنها في المؤتمرات والهيئات، وتوقيعهم على البيانات الختامية إلى ماهنالك. وقد يكون السبب الآخر قلة الأكاديميين الحقيقيين بين القيمين على الجامعات العربية والتعليم العربي، رغم حمل أغلبهم لأعلى الألقاب العلمية قبل أسمائهم، فهم في أفضل الحالات ساسة أولاً وأكاديميون ثانياً، ومن غير المعقول أن تتماشى حسابات الساسة مع متطلبات العمل الأكاديمي. فالكثير ممن يشتركون في هذه المنظمات والهيئات والمؤتمرات يهمهم تسجيل المواقف وتحقيق الانتصارات السياسية، وذلك عبر صياغة التوصيات والبيانات الختامية وبرامج العمل بما يتوافق مع توجهات دولهم السياسية وليس بما يتلاءم مع الضرورات الأكاديمية.

٣- غياب حرية الفكر

يجب ألا نتوقع ظهور حركة ترجمة نشطة كتلك التي تسبق فورات النهوض الحضاري بوجود المحرمات العديدة في حياتنا. وهذه مشكلة تعاني منها الدول العربية كلها من دون استثناء ولو بدرجات متفاوتة. فنحن مقيدون بألف رقيب ورقيب، منها ماهو داخلي، ومنها ماهو خارجي، وتتكاثر المقدسات في حياتنا العربية على حساب الأمانة في التعامل مع الحقيقة العلمية والنص العلمي. فالسياسة في عالمنا العربي كانت ولا تزال هي الغول الأساسي الذي يهدد نعجة الثقافة كلما حاولت أن تشرد عن القطيع. لذلك فإن لغتنا تتحول وبشكل تدريجي غير منظور إلى لغة تصالحية رمادية مبطنة غير مباشرة تبهم أكثر مما تشرح وتخفي أكثر مما تبدي. وهذا مما لاشك فيه ينعكس على لغة العلوم والمعارف التي يجب أن تكون بطبيعتها عكس كل ماسبق. ولا شك فإن هذا ما يحدو البعض، عن سوء أو حسن نية، إلى وسم العربية بالبعد عن متطلبات اللغة العلمية.

من الحقائق المعروفة في علم الاجتماع أن كل مجتمع يسيج نفسه بسياج أيديولوجي وعقائدي يحميه من رياح الخارج، ويزداد السياج ضيقاً وقوة كلما ضعف المجتمع وضعفت حركته وحركة الفكر والإنتاج فيه، لأنه يخشى على نفسه من أي وافد. وتدخل ضمن هذا النطاق محاولاتنا الماضية والحالية جميعها للحد من انتشار كل الأقنية التي يمكن أن تسهل اتصالنا بالعالم الخارجي وبآخر منجزات العلوم، في وقت يتبلور فيه مفهوم القرية العالمية أمام أعيننا، كالفاكس والصحون التلفزيونية والبريد الإلكتروني والإنترنيت... إلخ. ليس هناك شك في أن هذه الوسائل يمكن أن تقدم مايمكن أن يضر المجتمع والفرد على حد سواء. إنما نحن نستسهل الأمور، وبدلاً من أن ننضم إلى جهد عالمي يهدف إلى ترشيد وتطوير هذه الوسائل، فإننا نتجاهلها مضحين بكل فوائدها من أجل مساوئ، معدودة (طبعا يتفاوت النظر إلى وسائل الاتصال هذه تفاوتا كبيرا باختلاف البلد العربي). ويطرح الباحث حسن قبيسي هذا الأمر من منظور آخر ففي رأيه أن «الغربيين يقولون بلغاتهم قولا معينا يسفر عن إغناء المعارف، فلأن لديهم ما يقولونه أولا، ولأنه ليس لديهم ثمة موانع تمنعهم من قوله في معظم الأحيان إن لم يكن في جميعها»، ثم يتابع فيتساءل: «هل نكون قد بدأنا نفقد لغتنا لأننا بدأنا نفقد حرية استعمالها؟»[١٢]. فعلى سبيل المثال قد لا يبدو غريبا في عالمنا العربي أن تسمح هيئات التحرير لنفسها بحذف مقاطع من كتاب مترجم، وأحياناً تضيف مقاطع على الكتاب المذكور بغية إغنائه!! كما تحذف أقساماً من كتاب

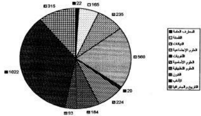
مترجم لدافع ديني أو سياسي أو ماهنالك. أما المضحك في الأمر فهو أننا نقوم في حالات «انتقائية جدا» بتجاوز عملية نقل المعارف العلمية بشكل أعمى إلى مناقشتها والبحث فيها وإغنائها. وأسوق هذا الكلام لأتحدث عن الهستيريا التي رافقت أخبار استنساخ النعجة دوللي في عالمنا العربي. فقد سمح الكل لنفسه من أمي إلى متعلم إلى متدين إلى متفلسف بمناقشة مختلف الجوانب العلمية والفقهية والأخلاقية للاستنساخ، في تصور شبه ساذج بأن مناقشتنا لأعقد الأبحاث، ولو من الناحية الأخلاقية، تضعنا في مصاف الدول المشاركة في الحدث العلمي.

٤- عدم توفر المترجمين الأكفاء

يمكننا في الواقع الاستعاضة عن مقولة ندرة المترجمين الأكفاء بتعبير بطالة المترجمين الأكفاء. إن انعدام سوق الترجمة عالية النوعية أدى- وبشكل تدريجي- إلى عزوف المؤهلين عن الاشتغال بهذا المجال، وأيضاً إلى تناقص في الكوادر الشابة المؤهلة التي تقدم على اختيار الترجمة العلمية كتخصص وحرفة للمستقبل. وبينما تزخر صفحات المجلات واسعة الانتشار بماهب ودب من القطع العلمية المترجمة بالسطر أو بالمتر مقابل أجر مادي زهيد، أو لمجرد فرحة المترجم برؤية اسمه وهو يذيل مقالة مطبوعة، يعزف الأكاديميون المؤهلون عن إضاعة وقتهم من دون أجر مجزي أولاً، ومن دون فائدة حقيقية ثانيا. والترتيب مهم جداً، لأننا نحاول هنا أن نلامس الواقع ومتطلباته ونتعامل مع الأكاديميين والمترجمين تعاملنا مع أناس ذوي حاجات أولاً. ومن هنا يكون من المشروع أن نطرح السؤال التالي: هل بإمكان أكاديمي متخصص أن يضمن لنفسه حياة كريمة من عمله في الترجمة العلمية فقط؟ فإذا كان الجواب لا، وهذه هي الحال على أغلب تقدير، فإن الخطاب السائد على الساحة العربية في هذا الخصوص يصبح من دون معنى. لننظر ما يقول أحد المختصين العراقيين عن واقع الترجمة في العراق: «ولكن تجري الرياح بما لاتشتهي السفن فالحماس شديد والإمكانيات المادية متوفرة، لكن العنصر البشري المؤهل بشكل جيد هو ماينقصنا. وهو -لعمري- نقص كبير». ويناقش خبير آخر أردني المشكلة من جانب آخر فيقول إن «ثمة نقصا مؤسفا جدا في كفاءة المترجمين إلى اللغة العربية فهم لا يحسنون لغتهم العربية»[11] أي أن المشكلة هنا ثنائية الجانب فهو جهل باللغة الأم، كما هو عدم كفاية باللغة الأجنبية، وفي حالة الترجمة العلميةيضاف بعد ثالث وهو ضرورة الإلمام بالعلم موضوع الترجمة. وسأعود لمناقشة هذه النقطة الأخيرة لاحقا. إذن هناك إجماع على وجود مشكلة أساسية في نقص المترجمين الأكفاء، ولكن دعونا نطرح تساؤلات أخرى مشروعة، كم من الوقت والجهد يصرفه المترجم لإيجاد من ينشر له نتاجه حتى ولو كان على أعلى مستوى؟ وهل سيكون العائد المادي،

إذا كان هناك عائد مادي، يوازي الجهد المبذول؟ لابد أن مثل هذه التساؤلات ستفتح باب الحسرات والزفرات لكل قارئ، ممن زاول عملية الترجمة العلمية فالوضع معروف وهو أكثر من مؤلم. يدفعنا هذا إلى القول مجددا بأن ندرة المترجمين الأكفاء، وتناقص عددهم، وإن كان واقعا معاشا إلا أنه تالٍ لضعف الإمكانات المادية المخصصة للترجمة، ولغياب في تنظيم مهنة الترجمة.

ومن بين الحلول المطروحة اليوم على الساحة العربية لتلافي النقص في المترجمين الأكفاء، إنشاء فروع متخصصة بالترجمة في الجامعات العربية، أو معاهد متخصصة في الترجمة، ومع القناعة بأن هذه الخطوات مهمة ومفيدة، إلا أنها ليست كافية، خاصة إذا حصرنا حديثنا بالترجمة العلمية. عموماً تنشأ هذه الفروع الجامعية ضمن الكليات الأدبية، وفروع الألسنيات مما لايؤهل هؤلاء للترجمة العلمية وخاصة في الفروع الدقيقة المعقدة. حتى بالنسبة للترجمات الأدبية، فإن تجارب السنين الماضية علمتنا بأنه لكي تترجم أدب أحد أعلام الفكر العالمي على المستوى اللائق يتوجب أن تكون من الدارسين الجديين لأدبه والمهتمين به. أي لا تكفي هنا المهارة اللغوية مهما كانت عالية النوعية. أما في الترجمة العلمية فقد يكون الوضع أسهل. وهنا يجب التفريق بين أنواع الأعمال العلمية المطلوب ترجمتها. فقد لا تتطلب ترجمة مرجع بالطب التشخيصي أو السريري مواهب خاصة «بالطبيب» المترجم غير إتقانه للغتين اللتين يتعامل بهما، بينما تحتاج ترجمة الأعمال العلمية المتعلقة مثلاً بتقنيات الدنا DNA Technology أو بالبيولوجيا الجزيئية Molecular Biology إلى دراية كافية بالعلم موضوع الترجمة. وأظن أن هذا الموضوع ينطبق على مجمل التخصصات العلمية الدقيقة في يومنا هذا كفيزياء الجسيمات الدقيقة وغيرها ومما يدلل على قولي هذا أنه على الرغم من قيام بعض الدول العربية (سورية - الأردن-تونس-السودان-الجزائر-العراق-ليبيا- على سبيل المثال) بإنشاء دبلومات ومعاهد للترجمة، فإن كمية الكتب العلمية المترجمة تبقى قليلة جداً (شكل٢) [١٥]، ويطال النقص الكتب في باقي الفروع، هذا من دون التطرق إلى نوعية هذه الترجمة. وفي الحقيقة فعلى الرغم من عدم وجود التخصص العالي على النحو الذي نعرفه اليوم، فقد كان جل المترجمين الأوائل من المشتغلين بالعلوم والآداب ذاتها التي يترجمون عنها، ولم يكونوا مترجمين محترفين فقط، لهذا برعوا وأضافوا. فالكندي الذي كرس كفيلسوف كان مترجما، يضاف إلى ذلك أن كل كبار الفلاسفة كانوا قد مارسوا عملية التعليق والشرح على المؤلفات الفلسفية اليونانية وأبرزهم ابن رشد الذي ترجم وشرح فلسفة أرسطو. فالترجمة كانت تتميز بكونها اختيارا مسؤولا، وبحثا علميا حقيقيا، وتميز المترجمون بالجرأة والانفتاح على جميع الأفكار والثقافات التي سبقتهم رغم كونها صادرة عن حضارات وثنية بمعظمها.



شكل٢: عدد الكتب المترجمة إلى العربية في كل فرع من الفروع ما بين العامين ١٩٧٠-٨١ في الوطن العربي بحسب إحصاء قامت به منظمة اليسكو.

٥- سيطرة الخطاب السياسي

مما لاشك فيه أن القرار بتعريب التعليم الجامعي هو قرار سياسي أولاً وأخيراً في الدول العربية التي أخذت به أي أنه لم يكن قرارا أكاديميا نابعا من رؤية الأكاديميين لأهمية هذه العملية وكيفية تطبيقها. إذن فمنذ البداية هناك خلل كبير ناجم عن اختلاف بين في حسابات كلا المعسكرين. لقد ارتبطت عملية تعريب التعليم الجامعي منذ البداية بخطاب قومي وحدوي يعلي الشأن القومي على كل ما عداه، ولا يأبه بالجانب الأكاديمي لامن قريب ولامن بعيد. وفي المقابل قوبل التعريب بفتور بالغ من قبل البلدان التي لم تشغل نفسها كثيرا بالمسألة القومية. وعندما تكون المبررات الأساسية لعملية التعريب سياسية، يغدو أي اعتراض أكاديمي على الخطوات التعريبية مهما كانت دوافعه خيانة لقضايا الوطن العظمى، وتمسكا بالقشور لعرقلة المسيرة الهادرة للشعوب العربية. وقد شبه الكثيرون العقلية التي أديرت بها عملية التعريب بوضع العربة قبل الحصان، أي اتخاذ القرار قبل توفير أسباب نجاحه. وفي المغرب العربي كان المحرك للتعريب هو انفعال حماسي قومي ينادي بإعادة المكانة المفقودة للغة العربية، وتوثيق أواصر اللحمة بين البلدان الإخوة. ومع جمال هذا الطرح فإن تطبيقه المشوه- ومن دون دراسة وتحضيركافيين- لم

يلحق الأذى بالعملية التعليمية فحسب، بل أدى في بعض الأحيان إلى ارتكاس في علاقة هذه البلدان باللغة العربية، وبالمشروع العربي على حد سواء. ولدى النظر في الوثيقة الختامية للقاء الأول حول «علوم الطب: المفاهيم والمصطلح-١٩٩٤»[١٦] نرى سيطرة الخطاب السياسي في كثير من المناحي، رغم أنه من المفترض في لقاء لبحث هذا الموضوع أن يكون أكاديميا وتنظيميا بالدرجة الأولى. فمن البنود ما يتحدث عن الأخطار والمؤامرات التي تواجه الأمة، والصراع المرير مع التيارات اللغوية المناهضة، واحتواء النزعات القطرية في وضع المصطلح العلمي والطبي، ومناشدة القيادات السياسية إصدار القرار السياسي بالتعريب، وهذه كلها تعكس تصورا سياسيا استاتيكيا لروح المشكلة، بمفرداته المعروفة من مؤامرات إلى هجمات شرسة إلى منعطفات تاريخية. وبديهي القول بأننا كلما أقللنا من هذه المؤامرات وركزنا على روح المشكلة نكون قد اقتربنا من الحل. وفي هذه الوثيقة نلاحظ أيضاً أن هناك توصيتين تشيران إلى ضرورة العمل على استصدار القرار السياسي بالتعريب، وتقديم الدعم اللازم له. وهذا يعطي الانطباع بأن القرار السياسي هو جوهر المشكلة، وأن صدوره هو الهدف. إن تقديم الكلمات وتأخيرها لايمكن أن يكون أكثر حيوية كما هو عليه في هذه الحالة. فتقديم الدعم اللازم لقيام حركة ترجمة نوعية وتعريب نشطة يجب أن يسبقها قرار بتعريب التدريس وليس العكس. فتعريب التعليم الجامعي هو قمة الهرم الظاهر، والذي يجب أن يرتكز على قاعدة واسعة من البنى التي تضطلع بالمهمات الضخمة التي يتطلبها هذا العمل. وهكذا فإن القرار السياسي رغم أهميته هو أسهل حلقات هذه السلسلة تحقيقا. كما يسهم المثقفون القوميون أنفسهم في إشاعة اعتقاد مفاده أن عملية نقل العلوم والمعارف من الضخامة بحيث يصعب تحقيقها من قبل كل دولة على حدة. وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام الخطاب الوحدوي الفج الذي يحاول أن يصور أن لاشيء ممكن التحقيق من دون دولة الوحدة الجامعة المانعة، وأن أي جهود متفرقة عن هذا المنحى ما هي إلا ضياع وقت ومال لايمكن أن تصب إلا في مصلحة «الاستعمار». إن جعل نقل العلوم والمعارف الأجنبية مشروعا مؤجلاً مشروطا بحصول اجتماع عربي، يحمل على الاعتقاد على ما نعلمه من الحال العربي اليوم بأنه يدخل في خانة المستحيلات «الأربعة». كما يتميز الخطاب السياسي بالاختزال والتبسيط الشديدين، وأيضاً بالابتعاد عن التدقيق بالتفاصيل وبالخطوات العملية الجزئية. ففي دراسة للدكتور عادل عوض الأستاذ بجامعة تشرين (إحدى الجامعات السورية التي تدرس

بالعربية) يقول: «إننا ننظر إلى اللغة العربية كعامل أساسي من عوامل تحقيق الوحدة العربية، والتدريس باللغات الأخرى سيكون دون شك عامل تجزئة وتفرقة، ... «وسيجبرنا التعريب على أن تكون لدينا مؤلفات كثيرة ومختبرات للبحوث ومراجع علمية تزخر بها مكتباتنا» (١٧). ما يلاحظ هنا مرة أخرى تقديم الضرورات السياسية لعملية التعريب على الشروط الأكاديمية لإنجاحها، كما يلاحظ عدم واقعية الطرح كله، فالكاتب لا يكلف نفسه على امتداد الدراسة عناء الشرح لنا لماذا سيجبرنا التعريب على أن تكون عندنا مراجع ومختبرات كثيرة، كما لا يشغل نفسه كثيرا بحساب النوعية. فمن دون شك ترافقت حركة التعريب في الجامعات السورية بازدياد هائل في كم الكتب والمراجع العلمية المترجمة، لكن سوية أكثرها مع الأسف الشديد مخجلة. إن إجراء بحث بسيط في فهارس المقالات الطبية المنشورة في المجلات العلمية المحكمة خلال فترة عشرالسنوات الأخيرة يبين الندرة الشديدة للبحوث العلمية الصادرة عن الجامعات السورية (جميعها معربة). أما بالنسبة للجامعات التي كان التدريس بها بالإنجليزية ثم عربت كجامعة حلب فقد ترافق هذا التحول بانخفاض كبير في عدد ما ينشر منها من البحوث العلمية في المجلات العالمية المحكمة، رغم الازدياد الكبير في عدد أعضاء هيئتها التدريسية في عشر السنوات الأخيرة. ويبين الشكل٣ النسبة المئوية لحصص الدول العربية الأولى من حيث نشر البحوث العلمية بالنسبة لمجمل الإنتاج العالمي،وهي بمجملها تقع في أسفل الترتيب العالمي. كما يتميز تسييس العلم بتأليه الأرقام. فبدلاً من التركيز على دراسة وضع الجامعات من مختلف المناحي وعلاقتها بالإنتاج والتنمية، يتم التركيز على الأرقام المجردة كعدد طلاب المدارس والجامعات، وعدد الجامعات والكليات والمعاهد وغيرها . ومع أن هذه الأرقام كثيرا ما استعملت من قبل مختلف البلدان العربية كدلائل على التطور والتنمية، فإنها لاتزال- حتى إذا ما اقتصرنا على حساب الأرقام-دون مستوى البلدان المتقدمة شكل(٤). بالإضافة إلى ذلك تتعاظم نبرة الخطاب السياسي التآمري، وهي مشكلة نعاني منها بشدة ليس في مجال الترجمة والثقافة فحسب، بل وفي مختلف جوانب حياتنا . فنحن حذرون وانتقائيون في كل مايخص النقل عن الآخر بدعوى الحرص على نقاء سياسي أو ديني أو أخلاقي مزعوم. وفي الواقع فإن كل هذا من مظاهر عقدة الدونية الحضارية، فالأمة الراسخة حضاريا تفتح الأبواب على كل التيارات والرياح، تهضمها كلها لتتمثل مايلائمها منها ويفيدها.

تعريب التدريس الجامعي، أضواء على تجربة من الواقع

لعله من الصعب إعطاء تقييم موضوعي لكامل تجارب التعليم الجامعي المعرب في الوطن العربي، إنما سنحاول التطرق إلى المشاكل التي تعاني منها إحدى التجارب الرائدة وهي تجربة التعليم الجامعي المعرب في كلية طب حلب إحدى الجامعات السورية المعربة كليا.

١- انخفاض نوعية الكتب والمراجع المعربة

وهو تدني كبير في النوعية وليس تراجعاً بسيطا، ولهذا أسباب موضوعية. فقد بدأت عملية التعريب في سورية بقرار سياسي. ومع أن الجامعات المعنية نفذتها على مراحل، إلا أنها لم تكن مستعدة أبدا للتغير الكبير الذي يفرضه هذا التحول، مما أدى إلى ظهور ملخصات وكتب جامعية رديئة جدا علميا ولغويا. ولا أبالغ إذا قلت إن فهمها بالعربية أصعب من فهم الأصل الإنجليزي، وكثيرا ما كان الطلبة يعودون للأصل في محاولة لفهم مايقصد بالعربية. وهذا التدني لم يرافق فترة التحول نحوالتعريب فحسب بل استمر لاحقا نتيجة عوامل متعددة أهمها ضآلة الحافز المادي المقدم للترجمة والتعريب مقابل جسامة المهمة، وقد يكون من الممتع للقارئ، أن يعلم أن تعويضات التأليف والترجمة للكتاب الجامعي في الجامعات السورية تتراوح ما بين ١٥٠٠٠- ٢٥٠٠٠ ل.س. (بين ٣٠٠-٥٠٠$). وإذا أخذنا بعين الاعتبار بأن عملاً كهذا يشارك فيه مؤلفون أو مترجمون عدة ، ويحتاج إلى أشهر طويلة من العمل المضني سيظهر بمستوى لائق. ومن المستغرب أن نعلم أنه على الرغم من كل هذه الأوضاع، قام البعض بتقديم جهود حقيقية وتضحيات كبيرة من أجل تقديم الكتاب المعرب الجيد للطلاب. إنما، وبسبب أن مثل هؤلاء هم من المعادن النادرة في كل زمان ومكان، بقيت المعادلة خاسرة، وبقيت كمية الكتب والمراجع والدوريات المترجمة ضئيلة جدا بالقياس إلى الكم الهائل الذي يصدر عالميا شكل١ B. كما يتقادم بسرعة ماهو متوفر وتختفي الترجمات أو النسخ المعربة من الدوريات الطبية والعلمية، وهي تفوق أهمية المراجع كونها تحتوي على آخر الدراسات، وكون الاطلاع عليها حاجة ماسة للعاملين في مجال البحث العلمي. والجدير بالذكر أن هذه الدوريات لاتوجد حتى بلغتها الأصلية لمن يريد الاطلاع عليها. وقد لا يكون لعملية التعريب علاقة بهذا، ومن اللفت للنظر أن هذه الدوريات أخذت تختفي تدريجيا من مكتبة كلية الطب مع الاتجاه نحو التعريب، وحلت محلها مجلة تدعى «مجلة البحوث الجامعية»، وهي مجلة بالعربية لا تتوفر فيها أي معايير للنشر العلمي. ومن المؤسف حقا أن طلاب كلية الطب

بحلب لايزالون اليوم، وبعد حوالي عقدين على التعريب، يحضرون لامتحاناتهم في الكثير من المواد من أعمال جامعية مكتوبة بخط اليد، وبعيدة كل البعد عن شروط المراجع العلمية والكتب الدراسية.

٢ - فشل تعليم الإنجليزية كلغة ثانية رديفة

لتلافي الانتقادات بأن تعريب التعليم الجامعي الطبي سيحرم طلاب وخريجي هذه الجامعات من إمكانية الاطلاع على المنشورات التخصصية باللغات الأجنبية وخاصة الإنجليزية، تم استحداث خمسة مقررات لتدريس اللغة الإنجليزية الطبية على مدى خمس سنوات في كليات الطب السورية. أي أن هذه المادة أعطيت من ساعات التدريس ما لم تأخذه أي مادة علمية تخصصية أخرى. وفي المحصلة فإن نتيجة هذا كانت أصغرية، والأسباب هنا قد تختلف باختلاف ظروف الجامعة المعنية. فمقررات هذه المناهج غير مدروسة، ومن يدرّسها هم في الغالب من غير المختصين في تدريس اللغة، بل هم مدرسون لمواد أخرى كلفوا بهذه المهمة بحكم تخصصهم في الخارج وإتقانهم للغة الأجنبية. والطلاب يتعاملون مع هذه المواد كمواد غير لازمة تدرس لكي تنسى بعد عبور الامتحان، لغياب الحاجة الحقيقية لاستعمال اللغة الأجنبية خلال سنوات الدراسة الجامعية. فمن دون الحاجة إلى استعمال مستمر للغة الأجنبية، ووجود ضرورة للقراءة والكتابة بها، خاصة اللغة العلمية فإن الفائدة من مناهج كهذه كفائدة كتب تعلم اللغة الأجنبية في سبعة أيام. ومن المناسب هنا أن أورد استطلاعا قام به المجلس الصحي الأمريكي الدولي لتقييم تجربة التعريب في كليات الطب السورية[١٨]. فطلب من ٤٦ طبيبا من خريجي الجامعات السورية الإجابة على مجموعة من الأسئلة تتعلق برأيهم في عملية التعريب من خلال تجربتهم العملية. صرح ٣٢ في المئة من هؤلاء بأن انتقالهم من اللغة العربية إلى الإنجليزية لاحقا (في أمريكا) كان سهلا، بينما واجه ٤٤ في المئة منهم صعوبة نسبية، وكان الانتقال بالنسبة لـ ٢٤ في المئة صعبا. ويعتبر ٤٢ في المئة من المشاركين بأن التجربة السورية في تعريب الطب ناجحة، و٣٤ في المئة أنها غير ناجحة، ولم يستطع ٢٤ في المئة أن يقرروا. وتوحي نتائج هذا الاستطلاع للوهلة الأولى بأن تجربة التعريب ناجحة بالمجمل، لكنها بحاجة إلى تطوير وتحسين، أما إذا طبقنا بعض المبادىء الأساسية في علم الوبائيات، لعلمنا أن استطلاعا كهذا مغلوط منذ البداية. فلكي تكون العينة المدروسة ممثلة للمجموعة الأوسع المختارة منها يجب أن تتساوى حظوظ الانتقاء للاشتراك بهذا الاستطلاع بين

الجميع. بمعنى أن تكون هناك فرصة متساوية لكل خريج من هذه الجامعات أينما كان موقعه لكي يساهم برأيه. أما أن يتم استطلاع الأطباء الموجودين في أمريكا، والذين هم أصلا أفضل الطلاب في اللغة الإنجليزية، والذين يعني تواجدهم في أمريكا نجاحهم المسبق في اختبارات المعادلة (حيث يشترط عموما على الخريجين السوريين النجاح في هذه الاختبارات للحصول على تأشيرة الدخول). أي أننا انتقينا الحالات الناجحة لغويا، وسألناها عن رأيها في تجربة التعريب. يدعى هذا الخطأ الشائع في الاستطلاعات (تحيز الانتقاء) Selection bias، وهو يجعل النتائج غيرذات قيمة. ومع هذا فإن تجربة التعريب برأي هؤلاء، تعاني من مشاكل جدية.

٣ - عدم وجود قاعدة بيانات Database معربة

إن من يعمل بالحقل الطبي والعلمي يعلم كم هو مهم وحيوي وجود قواعد البيانات الطبية والعلمية مثل الميدلاين Medline والإم بيس EMBASE و(SCI). وبظروف التعريب يصبح توفر قاعدة بيانات علمية معربة ذا قيمة استثنائية، فهو يمكن من الاطلاع على آخر ما ينشر في المجلات العلمية بشكل ملخص لحين توفر الأصول الأجنبية أو تراجم لها. أما الأهمية الحقيقية لهذا الأمر فهي لوجستية في المرتبة الأولى، فتعريب الميدلاين مثلا يغنينا عن التخبط العشوائي في الإصدارات الطبية محاولة لتبين الصالح منها للترجمة. ونظرا لأن المقالات التي تحتويها قاعدة البيانات هذه هي في الأصل منتقاة من المجلات المحكمة الجيدة. أي يتيح لنا هذا الأمر - ومن خلال التعامل السهل مع منظومة واحدة- الحصول على نظام متكامل معرب يمكن بواسطته الاطلاع على آخر الأبحاث المهمة في جميع الاختصاصات الطبية. ولسنا هنا بحاجة لتأكيد حيوية هذا الأمر، نظرا لاستحالة متابعة ما ينشر في كل المجالات العلمية المهمة وترجمته عمليا. وهكذا يمكن أن يبقى الطالب والدارس والباحث على اتصال بجميع المستجدات في أي حقل ولو بشكل ملخص، مع إمكانية الحصول على البحث كاملا بلغته الأصلية إذا تطلبت الضرورة. ومن الجدير بالذكر أن معظم كليات الطب في أوروبا والتي تدرس الطب بلغتها الوطنية تحتوي على قواعد بيانات مترجمة للغتها، لتسهيل عمل الطلاب والمدرسين، رغم إتقان هؤلاء للغة الإنجليزية. ولا يغيب عن البال أن القيام بعمل كهذا يختلف عن ترجمة الكتب والمراجع، حيث يتطلب عملا وملاحقة يومية لما يصدر من الأبحاث تباعا لترجمته. أي يتطلب هذا المشروع إنشاء هيئات وإدارات مختصة.

٤ - عدم وجود مجلات علمية طبية محكمة باللغة العربية

إن تعريب التدريس الجامعي كلية يعني أن اللغة العربية هي لغة العلم المتبعة، أي يجب أن تتوفر إمكانية كتابة البحوث ونشرها باللغة العربية، وترد هذه الضرورة أيضا في توجهات التقرير الختامي للقاء الأول حول علوم الطب والمصطلح، والذي ينص البند الثالث من مبادئه على أن اللغة العربية يجب أن تستخدم «تدريسا وبحثا وتأليفا وإعدادا للمصطلحات العلمية الطبية»(١٦). إلا أن هذا غير ممكن، بسبب عدم توفر مجالات علمية بالعربية، وإن وجدت تكون غير معترف بها وغير موردة في الفهارس العلمية العالمية، هذا يعني استحالة الاطلاع على نتائجها إلا بصورة مباشرة من المجلة، وحتى في هذه الحالة فإن هذه النتائج غير ذات قيمة لأن المجلة لاتتوافر فيها شروط النشر العلمي الأساسية. أي أن القيام بالبحث والنشر في مجلات كهذه هو جهد ضائع علميا، كما أنه جهد ضائع على الصعيد الشخصي، فإن احتوت سيرتك الذاتية على مائة بحث علمي منشور في مجلة كمجلة البحوث الجامعية الآنفة الذكر لا يساوي أن تحتوي على بحث علمي واحد منشور في مجلة New England Journal of Medicine، أو حتى في من هي أدنى منها مرتبة. فما هو الدافع للبحث والنشر بالعربية في هذه الحالة؟!

٥ - ضعف أو انعدام البحث العلمي

أدى التحول إلى اللغة العربية إضافة إلى ما قد سبق ذكره من غياب مطبوعات ومراجع وقواعد بيانات، إلى الانقطاع شيئا فشيئا عن مسيرة البحوث العلمية الطبية. وأصبحت الجهود في هذا المجال إما تكرارا مشوها لما سبق إنجازه، وإما أعمالا تنقصها ضوابط ومنهجية البحوث العلمية. إضافة إلى أن التعريب رافقه الاستغناء الكامل عن الخبرة الأجنبية، مما انعكس سلبا على عملية البحث العلمي، وعلى مستوى التدريس بشكل عام، ليس لأن الأساتذة الأجانب هم أفضل من الخبرة المحلية، بل لأنهم من المتفرغين للتدريس قدموا خصيصا لأداء هذه المهمة، بينما يعمل أعضاء الهيئة التدريسية المحليين في أعمال أخرى خاصة تأخذ منهم جل وقتهم وجهدهم رغم أنهم متفرغون للتدريس أيضا، لسبب بسيط إنما حيوي، وهو عدم كفاية الراتب الذي يتقاضونه من الجامعة للعيش حياة كريمة، أو حتى دون الكريمة. إذ يبلغ معدل راتب عضو الهيئة التدريسية (الحائز على شهادة PhD أو ما يعادلها حكما) في الجامعات السورية حوالي ١٠,٠٠٠ ليرة سورية شهريا (تقريبا ٢٠٠دولار).

٦ - تخلف المصطلح الطبي المعرب عن مواكبة سرعة التطور العلمي

وهذه مشكلة عامة جامعية وغير جامعية. فرغم عشرات المؤتمرات والندوات واللجان والمجامع والتوصيات فإن المصطلح العلمي والطبي خصوصا لايزال يلهث للحاق بركب التطور العلمي ولا يدركه، ولا يزال يعاني من التعدد والتعقيد وعدم الدقة. فهو إن وضعه لغويون أتى غير دقيق علميا، وإن وضعه علميون جاء غير دقيق نحويا وإن اشترك الاثنان في وضعه جاء معقدا غير عملي. وحتى لو أتى على درجة من الكفاية فإنه يحتاج إلى المصطلح الإنجليزي بجانبه عند استعماله للمرة الأولى في النص منعا للالتباس، أي أنه لم يغننا تماما عن المصطلح الأجنبي. ومن الجدير بالتنويه هنا، أن كليات الطب الأجنبية التي تدرس بلغاتها المحلية حافظت على المصطلحات اللاتينية والإغريقية، ولم تترجمها في معظم الأحيان. فعلم التشريح مثلا يدرس باللاتينية في كل كليات الطب العالمية. أما القائمون على تجربة التعريب العربية فلم يرتضوا أن يقال إن هناك ما هو غير قابل للتعريب، فعربوا علم التشريح بمجمله، ولم يقطعوا الاتصال التشريحي مابين طلابنا ونظرائهم في كل العالم فقط بل قدموا لنا مجموعة من المصطلحات المعربة، تتسم بالتعقيد والغرابة واللاعملية. وفي مجال المصطلح، فقد زودتنا التكنولوجيا الحديثة بما يمكن أن يساعد أخيرا على الحل النهائي لمشكلة تعريب وتوحيد المصطلح، عن طريق إنشاء بنك موحد للمصطلحات الطبية والعلمية موصول بشبكة الإنترنيت، وتشرف عليه هيئة دائمة تعمل على إغنائه وتطويره المستمرين، يقضي على حيرة العاملين في المجال العلمي والتعريب على وجه الخصوص. أي القواميس أفضل؟ وماهي البدائل المتاحة للمصطلح المعني؟ من دون الخوض في قرارات وإصدارات هيئات ومجامع التعريب المختلفة والكثيرة. يسهل بنك كهذا الوصول إلى المصطلح العلمي المعرب بشكل كبير، كما أن إمكانية الاتصال من جميع الجامعات العربية بهذا البنك والقائمين عليه يتيح عملية تبادل الآراء حول المصطلحات المعربة، واقتراح الجديد منها ممن لم يرد ذكره، وتعديل المصطلحات الموجودة بغية جعلها أكثر تلاؤما وعملية. ومن دون مبالغة فإنني من الحماس لهذه الفكرة حيث أعتقد بأنها قادرة على أن تحل مشكلة المصطلح المعرب.

الخلاصة والنتائج

يتبين مما سبق أن هناك طريقاً طويلة وشاقة يتوجب قطعها قبل الوصول إلى التعليم الجامعي المعرب ذي السوية. فالتعريب بحالته الراهنة لا يحقق غايات التعليم الجامعي الطبي والعلمي؛

ورغم أن بعض المشاكل التي تعاني منها الجامعات السورية لا علاقة لها بالتعريب، فإن أكثرها مرتبط به أو ناجم عنه. وفي محاولتي المتواضعة هذه لإلقاء الضوء على هذه التجربة العملية توصلت إلى قناعة مفادها أن لا صيغة سحرية لحل إشكالية المضي قدما في عملية التعريب مع المحافظة على السوية العلمية، ومواكبة التطورات الكبيرة التي تشهدها المؤسسات العلمية في كل العالم. بل ربما كان الاعتماد على صيغة سحرية أو مجموعة حلول أو مقررات هو سبب المشكلة. ويبدو أن المطلوب هنا هو مرونة فائقة في التعامل مع هذا الموضوع، وأيضا إلى انفتاح عقلي يتجاوز كل عصبية قومية وسياسية أو ثقافية. فبالإضافة إلى اختلاف ظروف الجامعات العربية الذي يجعل استحداث سياسة تعريبية موحدة غير واقعي، فإن نجاح خطوة بعينها قد يكون متفاوتا بين جامعة وأخرى بسبب مجموعة عوامل قد لا يمكن التنبؤ بها. لهذا فإن المحك أولا وأخيراً هنا هو الواقع ومعطياته.

لكن ما هي الثوابت التي يجب ألا نبتعد عنها في محاولتنا لتعريب وتطوير التعليم الجامعي في الوقت نفسه؟

أولاً: التأكيد على أن الأولية هي للمستوى الأكاديمي والعملية التعليمية وليس لأي شعار براق مهما بدا مهما.

ثانياً: التأكيد على أن المدى الذي يجب أن تذهب إليه عملية التعريب هو موضوع نسبي ومختلف بحسب اختلاف الجامعات، وما تسمح به ظروفها من توفر المدرسين المؤهلين للشروع في عملية التعريب، إضافة إلى عوامل أخرى متعددة. وهذه النقطة الأخيرة مهمة جداً، حيث لا يجب أن يوضع هدف نهائي هو التعريب الشامل لمجمل التعليم الجامعي مهما كانت الخطة الموضوعة للوصول إليه تدريجية. فبحسب ظروف الجامعة قد لا يكون من المجيد أبدا تعريب التعليم الجامعي بمجمله، أو قد تقرر جامعة ما التراجع عن مقررات سبق وعربت لتعاود التدريس بها باللغة الأجنبية، وقد ترتئي جامعة أخرى السير إلى منتصف الطريق منذ البداية. وهنا أيضا فإن الضرورات الأكاديمية ومقتضيات العملية التعليمية هما العيار ولا شيء آخر.

ثالثاً: إعطاء الأولوية في تقرير الشؤون المتعلقة بالتدريس والبحث العلمي للأكاديميين المشتغلين في الجامعة لا لأي جهة أخرى، فبقدر ما تبتعد الجامعة عن الايديولوجيا بقدر ما تقترب من العلم.

في طور التنفيذ : معجم جديد للترجمة من العربية إلى الإنجليزية

محمد محمد حلمي هليل*

مقدمة

تعاني أقسام اللغات والترجمة في معاهدنا العربية من قصور شديد في المعجمات العربية - الإنجليزية. ويزداد إحباطنا إذا ماقارنا هذه المعجمات العربية - الانجليزية بالمعجمات الإنجليزية - الفرنسية، والفرنسية - الإنجليزية (Robert & Collins 1987)، أو الإنجليزية - الألمانية، والألمانية - الإنجليزية (Collins Klett 1983). حفزنا هذا الوضع على القيام بدراسة استقرأنا فيها أهم المعجمات العربية - الإنجليزية، ومنها المعجم الذي وضعه (١٨٩٠) Salmone ، ومعجم (١٨٨٨) Wartabet ، ومعجم إلياس (١٩٢٢)، ومعجم (١٩٦١) Wehr ، ومعجم البعلبكي (١٩٨٨) كما اطلعنا على أحدثها (مجاني الطلاب ١٩٩٥). وقد أحصينا بعضا من مثالبها نوجزها في النقاط التالية:

* قسم اللغة الإنجليزية - كلية الآداب - جامعة الكويت .

١ - اقتصارها على تزويدنا بالكلمات العربية دون شرح كاف يحدد معناها بدقة للمترجم سواء كان من أبناء العربية أو من غير أبنائها.

مثال ١ : بَدَّد : شَتَّت

(إلياس)

مثال ٢ : بَدَّد : فَرَّق، شَتَّت، أزال ,to scatter, disperse, diffuse, strew about disband, separate, break up, dispel, drive away, to remove, eliminate, get rid of, do away with

(البعلبكي)

لا يَتَّضح للمترجم مجال الاستعمال. فما الذي سيتفرّق أو يتشتّت؟ وهل ستُتَرْجِم بَدَّد جُهْدَه بأيٍّ من هذه المقابلات؟

٢ - استخدام المترادفات الكثيرة كمقابلات إنجليزية للكلمة، أو التعبير العربي دون أي تمييز بين دلالاتها وإيحاءاتها.

مثال: مُنْفَرِد- Solitary, alone, single, lone, sole, isolated, separate, several, distinct, individual.

مما يصعب معه اختيار المقابل المناسب للنص الذي يعالجه المترجم.

ترى كيف يختار المترجم المقابلات المناسبة في ترجمة العبارات التالية:

١- عزف منفرد.	٢- اجتماع (اتفاق) منفرد.
٣- حبس منفرد.	٤- منفرد بذكائه.
٥- عاش منفردا.	٦- منفرد برأيه.

٣- غياب المتلازمات اللفظية في الشقّيْن العربي والإنجليزي فتزويدنا بالمقابل الإنجليزي غير كافٍ على الإطلاق. ففي أغلب الأحوال يكون الفعل الإنجليزي أو الصفة مثلاً مُتعدِّد المعاني بتعدّد استعمالاته مع فاعل أو مفعول أو مُلازِمٍ مُعين، ويكون المتلازم غالباً وهو الذي يُحدِّد المعنى، كما أن

المقابل يرد في مجموعة من المترادفات مما يجعل عملية الترجمة شاقة للغاية، مُضَيِّعَة للوقت والجهد.

مثال: بَرّاق : لامع - shining, sparkling, flashing, gleaming, glittering, glistening, glimmering, shimmering, radiant, dazzling, bright, brilliant, refulgent, resplendent, beaming, shiny, lustrous

(المورد)

تُرى ايصلُح ايّ من هذه المترادفات لترجمة «وعود برّاقة» حيث يتحدّد معنى «برّاقة» بمتلازمها «وعود»؟

٤- الاهتمام بالكلمات المُفْرَدة اكثر من المُرَكّبات الإضافية والتعبيرات الاصطلاحية كما يتضح من القائمة (جدول١) التي تضم ثلاثين مُركّبا إضافياً وتعبيرا اصطلاحيا اخترناها عشوائيا من بعض النصوص، وكشفنا عنها في مُعْجَمين عربيين - إنجليزيّين، وتشير العلامة (✓) إلى وجود المركب أو التعبير في المعجم المقصود، وتشير العلامة (x) إلى غيابه.

٥- تركيز هذه المعجمات على المعنى الحَرْفي للكلمة المصدر وتجاهلها للمعنى المجازي الذي يُشكّل عبئا على المترجم لغيابه غياباً يكاد يكون كليا.

مثال : وَأدُ المولود burying alive (a newborn girl)

وهو معنى وَاد الحرفي «اما استعمالها مجازيا فقد غاب عن واضـع المعجم، وهـذا بالضبط ما يحتاجه المترجم، فالاستعمال المجازي مرتبط بخصوصية اللغة. بل إنه في أبسط الحالات، وهو الفعل دخل، لم نجد أيّ مقابل يساعدنا على الترجمة بِدِقّة.

مثال: التعبيران المجازيان

١- دخل السجن : He was imprisoned, put into prison, jailed, in carcerated, locked up (coll).

٢- (الدولة) دَخَلت الحرب (The country) went to war with or against...)

وحتى تتضح الصورة فضلنا أن نقوم بعرض سريع لمنهجية كل معجم من هذه المعاجم الخمسة:

١- المعاجم العربية - الإنجليزية

أ- معجم Salmone (1890)

يتبع نظام الجذر وبدلا من أن يضع تحت كل جذر الأسماء والصفات وغيرها يُحيل المستعمل إلى جداول وأشكال للأنماط الاشتقاقية العربية (انظر جدول ٢و٣).

ويزيد من تعقيد المعجم انتهاجه لرموز وأرقام عديدة منها:

١- في المصدر العربي يحيل إلى رقم لنمط معين في الجدول.

مثال: (صَعَدَ) والإحالة إلى الرقم والمختصرات n.ac 27

(Noun of action) (فُعُول) لنصل إلى (صُعُود) (انظر جدول ٢).

٢- استعمال a, b, c للإشارة إلى المعاني المختلفة للفعل أو الشكل المُشتق.

٣- استخدام الأرقام الرومانية ..I, II, III لتمثيل تصريفات الفعل العربي (انظر جدول ٣).

٤- استعمال الأرقام العربية 1,2,3 وغيرها في فقرة جديدة في المدخل للإحالة إلى الأسماء والصفات المُشتقة (انظر شكل١)

بَحَثَ * *A* (*n. ac.* 1) [Fi], Searched into, investigated; ferreted, wormed out, grubbed, scratched up.—(*b*) ['An], Sought for; inquired into.—III, Discussed, argued with.—V, *see* I(*b*).—VI, *see* III.—X, *see* I(*b*).

1, (*pl.* 88), Search, inquiry, examination, investigation.—(*b*), Discussion, controversy.—(*c*), Mine.—17, (*pl.* 44), Research.—24ᵗ, Earth, mould.

مُبَاحَثَة Discussion, argument, controversy.

شكل : (١)

على الرغم من ميزات هذا المعجم وهي كثيرة وشموله لعدد كبير من المعاني والمشتقات وسلامة وسلاسة لغته الإنجليزية وثرائه في المترادفات فهو يفتقر إلى السياق الُوضّح للمعنى كما ينقصه الكثير من التعبيرات الاصطلاحية.

ب- معجم Wartabet (1888)

يعتمد هذا المعجم على الجذر أيضا، ويهتم بالفروق بين المعاني وظلالها (انظر شكل٢)، لكنه يلجأ إلى الفاصلة والفاصلة المنقوطة ليُبيّن القُرب أو البُعد في معانيها وليست تلك بالوسيلة الناجحة السهلة التي يُمكن أن يتّبعها الُترجم في بحثه عن المعنى:

مثال ١ : تَجمّل -to be embellished, use courteous language. To bear pov erty with patience and silence.

مثال ٢ : جانٍ .a gatherer. Sinner, criminal

وقد يشير إلى مجال الاستعمال حينا :

مثال: بسَط يَبْسُط بَسْطا : To spread out (a garment or cloth). open the hand. stretch out the arm.

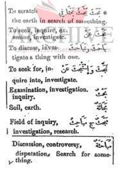
بسط يبسط بساطة: Tobe free, without restraint (in speech)

ويُهمله في كثير من الأحيان:

سَلِم من : To escape, to be free from

سَلَّم بـ : To admit, submit to

كم سيكون الأمر جَليًا إذا أضفنا (سَلِم من المرض/ الآفة/الخطر/الأذى) وسلم بـ (القدر) مثلا.



* بَحَثَ يَبْحَثُ بَحْثاً فِي To scratch the earth in search of something.

بَحَثَ عَنْ To seek, inquire, examine, investigate.

بَاحَثَ وتَبَاحَثَ To discuss, investigate a thing with one.

بَحَّثَ وَإِسْتَبْحَثَ عَنْ To seek for, inquire into, investigate.

بَحْثٌ Examination, investigation. inquiry.

بَحَّاثَةٌ Soil, earth.

بَحْثٌ ج مَبَاحِثُ Field of inquiry, investigation, research.

مُبَاحَثَةٌ Discussion, controversy, disputation, Search for something.

شكل : (٢)

ج- معجم إلياس (١٩٣٣)

ما يتميّز به هذا المعجم تحديد الكلمة العربية أو تفسيرها بكلمة عربية مرادفة لها تمهيدا لذكر المقابل الإنجليزي.

مثال :

٥بَحَثَ في الموضوع	To investigate; search; look, or inquire, into.
— الأمرَ : دَرَسَه	To study; examine.
— عن الشيء	To look, or search, for.
باحَثَهُ، تَباحَثَ معه في الأمر	To discuss a question with.
— . — . — معه: حاوره	To reason, or argue, with.
بَحْث : تَفْتِيش	Research; careful search.
— : فَحْص	Examination; investigation.
بَحّاث، بَحّاثة، باحِث	Researcher; investigator.
∆بُحَيْث جزيرة : شِبْه جَزيرة	Peninsula.
مَبْحَث: مَوْضوع	Theme; a subject set for speculation or discussion.
— : مَوْضوع يُدْرَس	Research work.
مُباحَثَة	Discussion; argument; debate.

شكل (٣)

وقد تقدم هنا إلياس بالمُعَجمِيَّة الثُّنائية خُطوة إلى الأمام في إشارته في بعض الحالات لا كلّها إلى التلازم اللفظي وتبقى حالات كثيرة بلا سياق يُحدّد معناها واستعمالها.

مثال : أيّد : عزّز To support ; maintain

- : اثبت To confirm ; establish

- : ساعد To help ; support

فما الذي سيُعَزّز والذي سيُثْبَت؟ فالمستعمل يحتاج إلى سياق مُوضِّح كأن نقول أيّد حكماً : أثبته، وأيّد موقفا : دعمه ونصره.

د- معجم Wehr (1961)

يُعَدّ معجم Wehr (1961) ، وكذلك معجم البعلبكي (١٩٨٨) افضل وأشمل مُعجَمين من العربية للإنجليزية بالنسبة لمفردات اللغة العربية وعباريّتها (Phraseology) ، لكن يبقى الكثير مما يجب القيام به هذا إذا ما قارنا بين هذين المعجمين والمعاجم العربية – الفرنسية، والعربية – الروسية (انظر المنجد ١٩٨٠، والسبيل ١٩٨٣، والقاموس العربي-الروسي ١٩٩٣).

تنتظم المفردات في معجم Wehr تَبَعاً للجِذْر العربي. ويستعمل المعجم النظام الأوروبي في تمثيل النظام الصرفي... .I, II, III (ص XIII)، وتمتلىء كلّ صفحة منه بعدد مهول من المقابلات الإنجليزية بشكل يصعب معه على المترجم استعمال المعجم (انظر تعليق Hoogland 1993)، ويستعمل الفاصلة للتفريق بين التعريفات المترادفة، والفاصلة المنقوطة للإشارة إلى بداية التعريف في نطاق دلالي مختلف (انظر شكل ٤)، مما يزيد من صعوبة الاستعمال. كما يستخدم /S.thing s. one لتوضيح الاستعمال، لكنها غير كافية إطلاقا فيلزم في الاستعمال تحديد (الشيء) وتحديد (الشخص)، وهذا هو ما تعاني منه أغلب المعاجم العربية وكثير من المعاجم الإنجليزية- الأمريكية.

مثال :

بَخَسَ to decrease, diminish, reduce (هـ s. th.),

to lessen (e.g., قيمته the value of s. th.);

to disregard, neglect, fail to heed (هـ s. th.)

كما نُلاحظ في المعجم تعدّد المرادفات المُبتسرة من السياق:

مثال :

طنّان ringing, sounding, pealing

jingling, resounding reverbating,

echoing, humming, buzzing,

droning; whistle, buzzer (of a kettle);

famous, renowned, celebrated.

تُرى أي كلمة نختارها من هذا الركام الترادفي لترجمة قصيدة طنّانة أو كلمات طنّانة، وأي مقابل إنجليزي سنستعمله مع (النحلة)، ومع (الجرس)، ومع (الذباب)، ومع (اسم) في السياقات: نحلة طنّانة، جرَس طنّان، ذباب طنّان، واسم طنّان.

هـ - البعلبكي (١٩٨٨)

يختلف المورد عن بقية المعاجم العربية - الإنجليزية فهو مُرتب ترتيبا ألفبائيا وفق الحروف الأولى للكلمات دون الاعتداد بجذر الكلمة أو الأصل المُجرّد الذي اشتُقّت منه. وعندما يكون للكلمة العربية أكثر من معنى واحد فإنها تُقَسّم إلى فروع يلي كلا منها تعريف أو شرح أو دليل بالعربية يُميّز بعضها عن البعض الآخر (انظر شكل ٥). وقد خطا المورد هنا في خدمة المترجم خطوة إلى الأمام، وأوْلى عملية الشرح أهمية لاتجدها في Wehr ، وقد استوحى الفكرة من إلياس، ولكنه وُفّق في تفريقه بين المعاني بشكل ميزه عن غيره:

مثال: رفع : أزال to remove, take away, eliminate, lift, raise, end, put an end to

رفع : زاد، to raise, increase, step up, hike up, scale up, jack up, sky-rocket, heighten, intensify, enhance.

بَحَثَ (عن): فَتَّشَ، نَقَّبَ to search for, look for, seek, quest, hunt for, fish for, try to find, to grub for, rummage, search about; to prospect for, drill for, excavate

بَحَثَ: دَرَسَ to discuss; to consider, look into; to study, explore, inquire into, delve into, scrutinize, examine, investigate, inspect, check out; to deal with, treat; to research, do research

بَحْث (عن): تَفْتِيش، تَنْقِيب search for, quest of, searching for, looking for, seeking, hunt(ing); prospection, drilling, excavation

بَحْث: دَرْس، فَحْص discussion; consideration, looking into; study, exploration, inquiry, scrutiny, examination, investigation, inspection, checking; treatment, treating, dealing with

بَحْث: دِرَاسَة research, research work; study; survey; report; treatise, paper

بَحْثًا عن in quest of, in search for

تَحْتَ البَحْث، قَيْدَ البَحْث under consideration, under discussion, on the tapis, on the carpet

شكل : (٥)

وعلى الرغم من أن محاولة البعلبكي في إعطاء المعنى بالعربية هي محاولة جديرة بالثناء، فينقصه المزيد من المعلومات الدلالية حتى يزول اللبس الذي يسببه العدد الوفير من المترادفات التي تفتقر إلى مُحدِّد ومُفَرِّق بين معانيها، وإلا فكيف يهتدي المترجم إلى ترجمة رَفْع الحِصار عن المدينة، ورفع المُرتَّب. ومثل معجم Wehr يَفْصِل بين الكلمات الإنجليزية المترادفة بفاصلة. أما الشَوْلة المنقوطة فتفصل بين الكلمات الإنجليزية ذات الدلالات المختلفة اختلافا يسيرا، أو بين ظلال المعاني المتقاربة، ولكن دون أن تكون مترادفة. وكل هذا لا يُسَهِّل استعماله.

مثال: باكورة firsfruits; firstling, first (early, earliest

produce or product or result; first sign,

first in diction, herald, harbinger, forerunner,

precursor; beginning, start, rise, dawn; first, initial, early

ويلاحظ في مثالنا هذا كثرة المرادفات كثرة تزيد عن الحد دون متلازمات لفظية تُفرِّق بينها، بل يلجأ في بعض الأحيان إلى إعطاء مترادفات دارجة في اللغة الانجليزية كإعطائه hike up, jack up لمعنى (رفع: زاد - انظر المثال أعلاه).

٢ - معجم جديد

وحتى نتلافى أوجه النقص هذه نجد أن على المعجمية الثنائية التي اتخذت من الترجمة هدفا لها أن تُغيِّر من وسائلها، وأن تُعيد النظر في منهجيتها. من هنا تُولِّدت لنا فكرة معجم الترجمة. وحيث إن الترجمة كما يقول Hartmann (1989:9) : «عملية معقدة تتضمن المقدرة على صياغة معنى التعبير الواحد باللغة المصدر واللغة الهدف» فالجمع بين معجم عربي أحادي اللغة، ومعجم ثنائي من نوع خاص هو من أفضل آليات الترجمة.

المقابلات بين اللغات، وأفضل التعريفات هي التي تركز على الصفات المميزة للمعنى إذ إنها:

(أ) توضِّح المعاني المختلفة للكلمة.

(ب) تفرِّق بين المعاني المتصلة.

وهذا بدوره يساعد على إيجاد المقابل الإنجليزي.

١٠٢- السياق

قد لا يكون للكلمات في حد ذاتها أي معنى من المعاني، لكنها لديها القابلية أن تحمل معنى معينا، وتتحقق هذه القابلية في السياق اللغوي أو الاجتماعي. فمعاجمنا لا تهتم بما يطرأ على معنى الكلمة الإحالي (referential meaning) أو المرجعي، وما تكتسب من إيحاءات، بل هي

تجرد المعنى. ومن ثم فالتعريف المقتضب فيها غير كاف، بل إن التعريف الكامل أيضاً يحتاج إلى تعزيزه بالسياق. فالكلمة يتلون معناها بتغير السياق (انظر Jackson 1988 : 60).

مثال١: خادم الحرمَيْن (custodian) = القيِّم عليهما، الأمين عليهما، راعيهما.

مثال٢: البيت العتيق (Kaaba) = الكعبة.

٢٠٢- الجذر

إن صيغة الكلمة في اللغة العربية، باعتبارها لغة سامية، تُبنى على قاعدة من السواكن والحركات عمادها الجذْر، وهو هيكل من السواكن. وعلى النقيض من الانجليزية التي تعتمد على مورفيم الأساس (base morpheme) أو الجذْع (stem) فالجذر العربي لا يكوِّن كلمة في حد ذاته، بل هو مجرد سلسلة من السواكن يحمل معلومات دلالية عامة. والمعنى المحدد يمكن أن نصل إليه بشكل عام إذا رجعنا إلى الجذر لكل الاشتقاقات الممكنة من الجذر تُمثِّلها في المعجم مداخل منفصلة لكنها مترابطة معجمياً. إن اللغات السامية، ومنها العربية، تتميز بأن الجذر هو الأصل المتوهم الذي اشتقت منه الصيغ المختلفة في اللغة، وهو مكوَّن من السواكن فحسب، ولا يطابق أي صيغة موجودة في تلك اللغة. من ثم نقترح اتباع منهج ابن فارس في معجم مقاييس اللغة (انظر خليل ١٩٩٧) فيكون الجذر أو الأصول هاديا لفهم كل كلمة ومشتقاتها وينتظم المدخل العربي فيحوي كل مدخل كلمات مترابطة دلالياً.

مثال: رخص الراء والخاء، والصاد أصل يدل على لين وخلاف شِدّة. من ذلك اللحم الرَّخْص: هو الناعم ، ومن ذلك الرُّخص خلاف الغلاء. والرُّخصة في الأمر: خلاف التَّشْديد.

[معجم المقاييس في اللغة ص٤٤٧]

٣٠٢- الأمثلة التوضيحية

إن الشواهد التوضيحية باللغة العربية والتي قد تأخذ أشكالاً عديدة فقد تكون شبه جملة أو متلازماً لفظيا أو جملة كاملة تعزز التعريف بالكلمة، كما تساعد على التفريق بين الكلمات المتقاربة في معناها، فالمترجم يبدأ عمله من الشق العربي فيتعرف من التعريف على الصفات الدلالية

المميزة للوحدة المعجمية سواء كانت كلمة او أ كثر، ثم يبدأ في اختبار مدى صلاحيتها لفهم النص. فإن لم يسعفه هذا لجأ إلى الأمثلة التوضيحية، فإن كانت هذه قد أُحْسِن اختيارها حَفَزَته على إيجاد الترجمة المناسبة. لذا وجب الاهتمام بوضع الشواهد وحسن اختيارها على الا تُثْقَل بمعلومات زائدة عن الحاجة، أو تتوه في التفاصيل، او أن تكون مبتوره موجزة فتثير حيرة المترجم (في الأمثلة واختيارها انظر Minaeva 1992). ونضيف أن استعمال المرادف لشرح معنى الكلمة العربية كما تفعل بعض المعاجم الثنائية كإلياس والبعلبكي، وبعض المعاجم الثنائية الإلكترونية لايساعد كثيرا على فهم المعنى المراد:

مثل١ : طرح: ١-اقتطع ٢- رمى ٣- خلع

[المعاجم: **القاموس الناطق**]

مثال٢ : برز: حدث to occur, happen, take place

باخ: كان بائخا

[البعلبكي]

ويختلف معجم الترجمة الذي نقترحه عن هذه المعجمات التعليمية فالقصد منه هو حفز المترجم على فهم اللغة المترجم منها فهما دقيقاً في سياق معين، وإعطاء المقابل المناسب باللغة المترجم إليها في سياق مماثل، وتنبني المقابلات على السياق المحدود أي التلازم اللفظي أساساً. كما تنبني على التلازم النحوي أو ما يعرف بـ colligation كارتباط الاسم بحرف جر معين، أو الفعل بحرف جر معين. ومعجمنا في واقع الحال يغني عن معجمين يرجع إليهما المترجم في انتقاله من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية: معجم عربي - عربي، ومعجم عربي- إنجليزي. إذ يمد المترجم بمعلومات دلالية في كلتا اللغتين. فالتمييز الدلالي ضروري في حالة الفهم وكذلك التعبير. والشق العربي في المعجم يخدم الفهم، أما الشق الإنجليزي أو الأجنبي فيخدم التعبير في الوقت نفسه.

وترتكز خطتنا في تنفيذ هذا المعجم على بعض العناصر المعجمية الوثيقة الصلة بعملية الترجمة وأهمها:

٤٠٢- التعريف

إن المعجم أو الشق العربي على وجه التحديد في معجمنا لاغنى عنه فهو عماد المترجم في تحليل كلمات النص الأساسي لأنه يُعَرِّف معاني هذا النص داخل اللغة التي كُتِب بها. وحيث إن إحدى المهارات التي نستثمرها في عملية الترجمة هي القدرة على التعبير عن معنى الشيء في إطار اللغة المصدر فالتعريفات ينبغي أن تكون دقيقة وكاملة وواضحة فهي على حد قول Stein (1978:8) «التي تُمكّن المستعمل من تَعَرُّف خصائص معاني الكلمات». فالتعريفات في المعجم الأحادي (الشق العربي) ضرورية لأنها هي أول ما يحفز المترجم على إيجاد المقابل إذ إن الكلمات العربية للنص المصدر يجري صياغة معناها في هذه التعريفات وصياغة المعنى هذه من أكثر الطرائق شيوعاً.

إن معجم الترجمة الذي نبتغيه سيكون عوناً على تفكيك معنى اللغة المصدر أو اللغة الأم (العربية) [ل١]، وإعادة صياغته باللغة الهدف (الإنجليزية) أو اللغة الأجنبية (ل٢). إن المترجمين سيفيدون كثيراً من الوعي بأهمية الدور الذي يلعبه المعجم الجديد بالنسبة لعملية الترجمة. وأقصد هنا نوعين من المترجمين الطالب الذي يتم تدريبه وإعداده ليكون مترجماً في المستقبل (المرحلة الجامعية في أقسام الترجمة)، والمترجم الذي يمارس مهنة الترجمة. ويلجأ الدارس في أغلب الأحوال إلى المعجم الثنائي ليستعين به في عمله الترجمي، أو على فهم اللغة الأجنبية ولا سيما في المراحل الأولى لتعلّمها. وقد ظهر حديثاً نوع جديد هجين مولَّد من معاجم الدارس يجمع حسنات كلٌ من المعجم الأحادي والمعجم الثنائي، ويعرف بالمعجم شبه الثنائي (bilingualised/semi-bilingual)، أو المعجم «المترجم» (translated)، أو المعجم «المشروح» لأنه جاء نتيجة لتكييف المعجم الأحادي اللغة للغة الأجنبية كالإنجليزية مثلا لسد حاجات الدارسين المتحدثين بلغة أجنبية كالإسبانية مثلاً. وقد شهدت الثمانينات ظهور ما يزيد على ٢٠ معجما من هذه المعاجم شبه الثنائية ذات الأغراض العامة للمتحدثين باللغات العربية والصينية والفرنسية واليونانية والعبرية والايطالية واليابانية والنرويجية والبولندية والبرتغالية والإسبانية وقد زيدت عليها حديثاً اللغة الروسية واللتوانية والسلافية (Kernerman 1997).

وفيما يلي (شكل٦) نعرض مثالين لهذا النوع من المعاجم: النوع الأول (كلمة El drag)، وهو من الإنجليزية إلى الإسبانية وبه عمودان والمعاني فيه مرقمة ومعها تعريفات بالانجليزية ومقابلاتها على اليمين باللغة الإسبانية مع جمل توضيحية بالإنجليزية. أما النوع الثاني (E2) فيقتصر على

إعطاء المقابل بالإسبانية لكل من المعاني المرقّمة والمعرّفة بالشرح باللغة الهدف (انظر في الإنجليزية–العربية معجم (Harrap 1980)، ويترك الأمثلة الإنجليزية بلا ترجمة ويختار مقابلاً واحداً بالإسبانية. ويجمع المعجمان بين ميزة الشرح والأمثلة باللغة الهدف، وتزويد الدارسين بترجمات مباشرة لها باللغة الأم.

E1

drag [drag]—verb dragged, dragging 1. To draw or pull along with force. 2. To move or go too slowly. 3. To trail or cause to trail along the ground. 4. To search the bottom of a river or lake for sunken objects.

drag verbo 1. Halar o tirar con fuerza; arrastrar. 2. Moverse o andar con demasiada lentitud; desarrarse; retrasarse, ir a la zaga: *His speech dragged on and on.* = *Su discurso se demoró interminablemente. Janice dragged behind the other girls.* = *Janice iba a la zaga de las otras chicas.* 3. Arrastrarse o ser arrastrado por el suelo: *Her coat drags behind her because it is too long.* = *Su abrigo le arrastra por ser demasiado largo.* 4. Buscar objetos hundidos en el fondo de un río o lago; rastrear; dragar.

(DICCIONARIO INGLÉS, ed. F. de Mello Vianna, Voluntad/NTC/ Houghton Mifflin 1982: 141)

E2

drag [dræg] n. 1 *what a drag!* (slang) how boring! ⊔ ¡qué rollo!
2 (slang) wearing of women's clothes by a man: *he was in drag.* ⊔ disfrazado de mujer
■ v. (he dragged) 1 to pull something heavy along: *he was dragging a chair behind him; she dragged her children into the shop.* ⊔ arrastrar
2 to hang back/to stay behind; to go slowly: *the lawsuit is dragging.* ⊔ demorarse
3 *to drag a lake,* to pull a net along the bottom of a lake to try to find something. ⊔ dragar
drag on v. to continue slowly: *the war dragged on for years.* ⊔ prolongarse
drag out v. to pull out: *I had to drag him out of bed.* ⊔ sacar de la cama

(PASSWORD ENGLISH DICTIONARY FOR SPEAKERS OF SPANISH, comp. P.H. Collin, transl. R. Sainz-Ezquerra, Harrap/ Kernerman/Ediciones SM 1980/ 91: 154-155)

شكل : (٦)

٥-٢ الاستعمال المجازي

معظم الكلمات من أسماء، وصفات وأفعال وأفعال جرّيّة يمكن أن تتسع في معانيها أو تُستعمل مجازياً، وهنا تكمن صعوبة ترجمتها فالاتساع والاستعمال المجازي يعكسان حضارة اللغة التي ننقل منها أو إليها. ومن ثم وجب أن نشمل في معجم الترجمة هذه الاستعمالات بوجه خاص. ولنأخذ التعبير التالي كمثال «دخلت الثورة عامها الرابع». حاولنا البحث عن هذا المعنى المجازي للفعل دخل في معاجمنا الثنائية، كما بحثنا عن الاستعمال المجازي للتعبير «دَخَلَ الجامعة» والتعبير «دَخَلَ الجنة»، فلم نجد أياً منها.

٦٠٢- المعنى الغرضي (pragmatics)

قد نحتاج بعض الكلمات العربية إلى أكثر من جملة أو عبارة شارحة فنحن نستعمل الكلمات لتأدية أمور عديدة منها التعبير عن المشاعر او تاكيد مانقول او دعوة شخص أو نصحه أو الاعتذار إليه أو تهنئته أو تحذيره أو التعهد له بالقيام بعمل ما وغير ذلك. وحتى تكون الترجمة فعالة لابد وأن تنقل هذا الجانب الغرضي (pragmatic) إلى اللغة المترجم إليها. كل ذلك ظلّ بمعزل عن معاجم الترجمة، بل وحتى عن المعاجم الأحادية. وقد أولى معجم Collins CO-BUILD في طبعته الأخيرة (١٩٩٥) اهتمامه لهذه الناحية، واستخدم لها علامة محددة. تدور الغرضية حول: كيف ومتى ولماذا نستعمل الكلمة أو التعبير. والمثال التالي يوضح الطريقة التي يمكن أن نلقي ضوءا على غَرَضيّة تعبير من التعبيرات.

مثال١: مستشفى استثماري: تعبير يطلق على المستشفيات التابعة للقطاع الخاص في مصر ليعني خدمة افضل بكثير من التي تُقدمها المستشفيات الحكومية. يُنْظر باستهجان إلى لفظ «استثماري» من كثير من المتحدثين باللغة العربية في مصر.

مثال٢: شَهِد الله أنّي لم انقاض أجرا: يُستعمل للتاكيد أو القَسَم.

٧٠٢ - المقابلات

تهدف بعض المعاجم الثنائية إلى تزويدنا بمقابلات لكلمات من اللغة المصدر ويسود الاعتقاد بأن هذا هو قمة العمل المعجمي، وأن هذه المقابلات يمكن بسهولة إحلالها في النص المترجم كما هي بلا تحوير أو تغيير (انظر Zgusta 1970)، وتلك فكرة خاطئة في الأساس لم تول السياق ومتطلباته وغرضيته حقها، بل ترى أن نقتصر على مقابل واحد، والحجة في ذلك هي السعي نحو الدقة وعدم إرباك المترجم. وفي الطرف الآخر نجد معجما مثل Wehr وكذلك من بعده البعلبكي يزودنا بعدد هائل من المترادفات دون تمييز، ويزيد من حيرة المترجم في الحالتين أن المقابل الذي يزوده به المعجم الثنائي هو في أغلب الأحوال غير مفهوم لأنه منزوع من السياق، وكذلك الكلمة الرئيسية للمدخل هذا إذا لم يعززها السياق. من هنا جاءت أهمية السياق في معجم الترجمة المقترح أي أن المحور الذي ينبغي أن يبنى عليه هو الموازنة بين سياق وآخر، أو إيجاد المقابل النصي، أي ذلك المقابل الذي يتغير بتغير النص. لذا فنحن نؤيد هنا فكرة تعدد المقابلات التي

تنقل كل ظلال المعاني حتى يختار المترجم من بينها (انظر Manning 1990:163) شريطة أن يصحبها ملازمها اللفظي. وكما يقول (Cruse 1986:53):«إن المعنى الواحد يمكن أن يعدل منه السياقات المختلفة وبطرق لاحصر لها، وكل سياق يؤكد صفات دلالية بذاتها ويخفي معالم أخرى ويحجبها» (انظر Walter وتمييزه بين المترادفات : idle/ lazy, humid/muggy, excitement/ exhilaration وغيرها). لذا يصبح لزاماً على واضع المعجم أن يطرح عددا من المقابلات العربية غير منفصلة عن سياقاتها حتى يمكن للمترجم أن يختار من بينها ما يتفق والنص، هذا إن وجد، أو أن تحفزه في إلى إيجاد المقابل المناسب (انظر Kussmaul 1995).

قارن بين spreading, dissemination, propagation; grief, sorrow بث

(Wehr)

واقتراحنا التالي:

بث: البث [الإذاعي]، البث [التلفزيوني] : الإرسال radio transmission, radio broadcast/ telecast.

بث [المعرفة] propagtion/ dissemination of knowledge

بث [الاضطراب] [الخبر] و [الاشاعة] spreading disorder, the news, rumours

بث [الألغام] laying mines

بث [الأسرار] divulging secrets

بث [الرعب] striking terror into (the hearts of people).

بث: حزن شديد sorrow, grief, sadness.

٨٠٢ - الوحدات متعددة الكلمات

على الرغم من أن المعاجم الثنائية قد اهتمت إلى حد ما- ولاسيما معجمي Wehr والبعلبكي- بالوحدات متعددة الكلمات فلا تزال قاصرة في ثلاث ظواهر:

آفاق نقدية

- العولمة : الآثار البشرية (عرض كتاب)
- بين التذوق والنقد المسرحي
- علم النفس والتحكم: نظرة للحروب البارزة

العولمة: الآثار البشرية

تأليف: زايجمونت باومن

عرض وتقويم: د. شفيقة بستكي

Globalization
The Human Consequences
by Zygmunt Bauman
(Cambridge: Polity Press 1998)

يتضمن الكتاب خمسة فصول بالإضافة إلى مقدمة، ويقع في (١٢٧ صفحة + i - v)، وهوامش (١٢٨-١٣٣)، وفهرسا بمواقع أهم المصطلحات في صفحات الكتاب (١٣٤-١٣٦). مؤلف الكتاب هو زايجمونت باومن أستاذ فخري في علم الاجتماع بجامعتي ليدز في بريطانياووارسو في بولندا.

عرض الكتاب

يهدف الكتاب إلى التحذير من المآسي البشرية المترتبة على العولمة، ومن ثم التعرض للعوامل الاجتماعية السلبية التي تفرز، في مقابل ظاهرة العولمة، ظاهرة الانكماش المحلي الرافض لكل ما تقدمه العولمة

* عرض وتقويم: د. شفيقة بستكي - قسم الفلسفة جامعة الكويت.

من معالم الاختزال الزماني والمكاني. فإذا اتفقنا مع افتراض المؤلف في أن الاختزال في بعديه الزمني والمكاني يختصر تحولا متعدد الوجوه لمؤشرات الوضع البشري. وإذا تفحصنا الأسباب الاجتماعية للاختزال والنتائج المترتبة عليه، تبين مدى افتقار مسيرة العولمة إلى الوحدة المفترضة في الآثار. فالعولمة في رأي المؤلف تفرق بقدر ما توحد، إنها تفرق عندما توحد. أسباب الفرقة هي ذاتها الأسباب التي تعزز التماثل العالمي، فإلى جانب المسار العالمي المنبثق من مجالات إدارة الأعمال والمال والتجارة والمعلومات، ثمة مسيرة محلية تعزز المكان. وبين المسارين وبهما تتحدد الشروط الوجودية لمجموعات سكانية متكاملة، والفئات العديدة ضمن كل مجموعة. فما يبدو عولمة عند البعض، يعني المحلية عند البعض الآخر، ومؤشر الحرية الجديد عند البعض، ينزل قدرا محتوما قاسيا على البعض الآخر. القدرة على الحركة ترقى إلى أعلى المستويات في سلم القيم. حرية الحركة، وهي بضاعة نادرة ومرغوبة، وغير متساوية التوزيع في العالم الجديد، تصبح العامل المؤثر في التدرج الاجتماعي. (ص٢). فالمحلية علامة على العوز والانحطاط الاجتماعي في العالم الجديد. وذلك لأن الحياة المحلية تفقد القدرة على إعطاء المعنى والتفاوض عليه، وتصبح معتمدة على سلوكيات لا تحكمها مبددة بذلك أحلام مثقفي العولمة في التكامل العالمي بين البشر. إن ما يثير القلق أن الفجوة الاجتماعية في الاتصال والآخذة في الاتساع بين النخبة العالمية والبقية المحلية جزء لا يتجزأ من مسيرة العولمة.

يتناول الفصل الأول، وهو بعنوان (الزمن والطبقة)، الارتباط بين الطبيعة المتغيرة تاريخيا للزمن والمكان من جهة، ونمط التنظيم الاجتماعي وتوازنه من جهة أخرى. ويبحث بشكل خاص في الآثار

المقترنة بالاختزال الزمني/المكاني على تنظيم المجتمعات والمجموعات وبنيتها. فمن أهم هذه الآثار الشكل الجديد لغياب الإقطاعية حيث تتحرر النخبة من السلطة الثقافية والسياسية للوحدات المحلية، وتفقد الوحدات المحلية نفوذها. وتتمثل أسباب هذا الانفصال بين القمة والقاع في التنظيم المتغير للمكان والمعنى المتغير للسمة المحلية في المدينة المعاصرة.

يبدأ الفصل الأول بمقولة مشهورة لألبرت دنلب مفادها أن الشركة تنتمي إلى المستثمرين فيها، لا إلى العاملين ولا إلى الموردين، ولا إلى المحل الذي تقع فيه. هذه المقدمة الأساسية تعتبر المستثمر هو صانع القرار الذي له الحق في نبذ المصادرات التي قد يعمل في ظلها موظفو الشركة والمتعاملون معها. فالمستثمر هو صانع القرار الحقيقي الذي يحل ويربط ويمنح ويمنع مايشاء بغض النظر عما يراه العاملون والموردون والمدراء من الجماعة. لقد أصبحت هذه المقولة من الحقائق التي لاشك فيها، والتي تفسر العالم دون أن تكون بحاجة إلى تفسير.

القضية الثانية التي تستعمل في إثبات جوهر مسألة الفصل الأول أن الحراك المستمر أصبح أهم عامل استراتيجي في بناء الطبقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية وإعادة بنائها. هذه المقدمة الثانية تبين أن قابلية الانتقال أصبحت هي المادة المحركة لبناء المراتب والطبقات الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. لقد اكتسب المستثمر بفعل القدرة على الحركة والتنقل بين الأسواق العالمية حرية، منقطعة النظير، من الواجبات الاجتماعية نحو المساهمة في الحياة اليومية واستمرار حياة الجماعة.

ومن هاتين المقولتين نحصل على حقيقة ثالثة وهي أن حرية الحركة التي حصل عليها المستثمر تعني التحرر غير المنظور وغير المشروط من الواجبات والمسؤوليات المترتبة على قراراته. وهذه أهم جائزة يحصل عليها رأس المال الحر غير المقيد محليا من قابلية الحركة. الحرية الجديدة لرأس المال تعيد إلى الذاكرة حرية الإقطاعي الغائب في إهمال حاجات الفلاحين العاملين على توفير القوت لهم. بيد أن الحرية الجديدة المتمثلة في حركة رأس المال السائل لا تواجه الموانع الحقيقية الثابتة التي تفرض الالتزام.

إن تجربة النخبة في السلطة غير المرتبطة بمحل ما تثير الرهبة، وتجمع بين الأثيرية والقدرة المطلقة من جهة، واللامادية والقدرة على تكوين الواقع من جهة أخرى. ويتمثل ذلك في عالم الفضاء الإلكتروني. (ص ٦-٢٦).

يتناول الفصل الثاني وهو بعنوان (حروب المكان) المراحل المتعاقبة للحروب الحديثة التي قامت لتأمين الحق في تحديد معنى المكان المشترك وتعزيزه. وفي ضوء هذه الفكرة، تحلل المغامرات الماضية في التخطيط الشامل للقرية، والتوجهات المعاصرة في التصميم الجزئي، والبناء من أجل تحقيق العزلة. وأخيرا يفحص المصير التاريخي الذي آلت إليه ظاهرة (مراقبة الكل) البانابتكون، وهي النمط الحديث المفضل للسيطرة الاجتماعية وخصوصا وضعها الحالي المهمل ونهايتها المتدرجة.

يبدأ الفصل الثاني بمقولة إن البدن البشري كان منذ الأزل مقياسا لكل شيء، ثم يحدد هدف حرب المكان بتسخير المكان الاجتماعي لخريطة معتمدة ومدعومة من قبل الدولة، وهي مهمة موازية لرفض كل مجهود منافس آخر لتأويل المكان، ومن ثم تقويض المؤسسات التي تعمل على رسم الخرائط إن لم تكن مأذونة من الدولة أو مدعومة منها أو مرخصة منها. إن دراسة العلاقة بين المكان والخريطة تعكس علاقة غير متماثلة بين الاثنين. لقد كانت الخريطة في الماضي تسجل تضاريس المحل وتعكسه. أما الآن فقد جاء دور المحل ليكون انعكاسا للخريطة، وليرتفع إلى صف الشفافية المنظمة التي تسعى الخريطة إلى تحقيقها. لقد تشكل المكان وفقا لقرار راسم الخريطة، وليس العكس كما كان الحال في الماضي. إن العمل بمبدأي الانتظام والاطراد في تخطيط المدن يكرس المصادرة بالتسخير العملي للحلول الهندسية والسكانية لحاجات المدينة - ككل - دون اعتبار للفروقات التي تفصل الأسر القاطنة أو الجماعات والطبقات الاجتماعية فيها.

إن الالتزام بمبدأي الانتظام والاطراد في وضع الخرائط، ومن ثم في تنظيم المكان، أدى إلى العبث بحياة الناس الحقيقيين من أجل تحقيق خطة مجردة للنمو والتجديد. ولاشك في أن الاطراد يفرز الطاعة، وعدم التسامح هو الوجه الآخر للطاعة. ففي المحل المتجانس يصعب اكتساب خصال الشخصية والمهارات اللازمة للتعامل مع الاختلاف بين البشر والظروف المتقلبة. وفي حال غياب هذه المهارات يستسهل الخوف من الغير لأنه غير مفهوم وغير متوقع. ومن هنا ينشأ الخوف من الغير، وتنشأ الحاجة إلى مراقبة الغير، عندما يقوم ممثلو الدولة وحراسها بمراقبة الجميع، وهي الظاهرة التي يطلق عليها اسم البانابتكون Panopticon أو مراقبة الكل. وقد شاعت الإشارة إلى هذه الظاهرة في روايات عديدة منها على سبيل المثال: رواية أورويل (ألف وتسعمائة وثمانون وأربعة) حيث يمتلك كل شخص جهازا تلفزيونيا خاصا به، ولكن لا يسمح له

بإغلاقه، ولا يتمكن الشخص من معرفة اللحظة التي يستعمل فيها الجهاز كآلة تصوير من قبل القائمين على البث. ظاهرة مراقبة الكل تتحول إلى ظاهرة مراقبة القلة أي السينوبتكون Syn-opticon في عصر العولمة. والمراقَبون (بفتح القاف) في هذا العصر هم (المشهورون) النخبة الذين ينتمون إلى العولمة. ويتحقق ذلك عن طريق متابعة مشاهدتهم على شاشات التلفزيون والإنترنيت. وهكذا يتقابل- على الرغم من انفصالهم وافتراقهم- المحليون المشاهِدون (بكسر الهاء) والعالميون المشاهَدون (بفتح الهاء)، وذلك عبر أجهزة وسائل الإعلام في الفضاء (ص ٢٧-٥٤).

يتناول الفصل الثالث وهو بعنوان (ماذا بعد الدولة الوطنية؟) مستقبل السيادة السياسية للمجتمعات المحلية، وخصوصا حكمها الذاتي، ودستورها الذاتي في ظل ظروف العولمة في الاقتصاد والمال والمعلومات. فالملاحظ اتساع الهوة بين مؤسسات اتخاذ القرار ومراكزه من جهة، والعالم الذي تنتج فيه المصادر الضرورية وتُوزع وتُمتلك وتُنشر، مما ينعكس سلبا على قدرة الحكومات المحلية في إدارة المجتمع، واتخاذ القرار وتطبيقه.

يبدأ الفصل الثالث هكذا: «في الجيل الماضي كانت السياسة الاجتماعية مبنية على الاعتقاد بأن الأمة ومن ضمنها المدينة قادرة على التحكم بمقاديرها، أما الآن، فثمة شق فاصل بين السياسة والاقتصاد» (ص ٥٥). لقد كان العالم مقسما بين كتلتين قادرتين على تحديد النظام العالمي للأشياء، من خلال تزويد كل جزء منهما مهما تناهى في الصغر بدوره المقدر المهم ضمن المجموعة الكبرى. لقد كان العالم كلاً، فلكل جزء أهميته الخاصة. أما الآن فلا سيطرة لأحد على قدراته، بل لا يمكن تحديد معنى التحكم والسيطرة في ظل الظروف الجديدة. في هذا الفصل أيضا يتم تحديد المعنى العميق للعولمة وهو: السمة غير المحددة وغير المحكمة والمدفوعة ذاتيا لشؤون العالم، وبعبارة أخرى، العولمة تعني غياب المركز وغياب مكتب التحكم وغياب مجلس الإدارة. العولمة تعني الفوضى العالمية الجديدة. هذا التصور للعولمة يختلف اختلافا مطلقا عن تصور الكوننة. في التصور الأخير، نلمس الأمل، والنية، والتصميم على جعل النظام كليا عالمي المدى بالفعل. فتصور الكوننة يتضمن النية في تحسين ظروف المعيشة لكل البشر في كل مكان، وربما المساواة المطلقة فيما بينهم. أما تصور «العولمة» فيشير إلى الآثار العالمية غير المقصودة وغير المتوقعة، وبالتالي تنفي المبادرة العالمية وفعاليتها. فكرة العولمة تشير إلى القوى المجهولة التي تعمل في المناطق المحايدة التي تقع خارج حدود السيطرة.

في هذا العالم الجديد يصعب الحفاظ على التمييز بين السوق المحلي والعالمي، بل بين الداخل والخارج بالنسبة للدولة إلا بالمعنى المختص بالبلدية والشرطة المستخدمة في مراقبة السكان. فالنظام العالمي الجديد يحتاج إلى المحافظة على الدول الضعيفة التي تقوم بدور الشرطة المحلية لتيسير عمل المؤسسات التجارية العالمية دون أن تخشى عرقلة حرية الشركات العالمية. ومن المبادئ التي يستخدمها المؤلف في تأكيد تصوره السلبي للعولمة، المبدأ البيروقراطي الداعي إلى أن كل سيطرة تتضمن استراتيجية واحدة: احفظ أكبر قدر ممكن لحرية الحاكم، وافرض أكبر قدر من القسر على حرية قرار المحكوم. لقد طبقت هذه الاستراتيجية بنجاح من قبل حكومات الدول التي تجد نفسها الآن في مكان المحكوم. وبهذه الاستراتيجية يتحالف التجزىء السياسي مع العولمة الاقتصادية. فالعالم يشهد اليوم ترتيبا طبقيا جديدا للتدرج الاجتماعي والثقافي على المستوى العالمي. وهكذا يتم اختيار مستخدمي الشبكة العالمية للمعلومات التي تعتبر بوابة الحرية ومبدأ المساواة القادمة، ويقل روادها خصوصا في العالم الثالث. فالعولمة مفارقة. إنها مفيدة جدا للأقلية، بينما تهمل ثلثي سكان العالم. إن الثروة الجديدة بدأت أخيرا في التحرر من معوقاتها الأبدية المتمثلة في المواد المصنعة وخلق الوظائف وإدارة الناس. الأغنياء الجدد ليسوا بحاجة إلى الفقراء. وتساهم وسائل الإعلام في تعزيزصورة العولمة المعتنية بمعاناة الفقراء والمحتاجين. فتقام الحفلات الخيرية، وتبرز صور المساعدات التي تقدمها الدول الغنية في الأزمات والمجاعات والكوارث الطبيعية. هذه المظاهر تساهم في تحصين الذات العالمية بحزام واق ضد الشعور بتأنيب الضمير فينام النظام العالمي قرير العين بأنه ساهم في رفع المعاناة عن الجياع والمساكين! (ص ٥٥-٧٦).

يرصد الفصل الرابع وهو بعنوان (السواح والمشردون) العواقب الثقافية للتحولات السياسية والاقتصادية السابقة. ويفترض أن التأثير العام هو التشعب والاستقطاب في التجربة البشرية مع رموزها الثقافية المشتركة التي تخدم تفسيرين متمايزين تماما. فلقابلية الحركة المستمرة معنيان متعارضان تماما للقمة والقاع، بينما يتأرجح الباقي في الوسط بين الطرفين متحملا بذلك نتائج هذا الصراع ومعاناة القلق والخوف والتذبذب. ومن القضايا التي يؤكدها هذا الفصل أن محاولات تخفيف المعاناة وتحييد عدم الرضا عامل قوي بدوره في تقسيم معنيي القابلية للحركة.

يرصد المؤلف في الفصل الرابع حالة التنقل التي تكتنف حياة المرء في عصر العولمة. والتنقل ليس بالضرورة في المكان، فمن الممكن أن تنتقل على شبكة المعلومات من موقع إلى آخر دون أن

تتحرك من مكانك. المرء يعيش في دائرة غريبة مركزها في كل مكان ومحيطها خارج المكان. إن فكرة السكون تفهم فقط في عالم يبقى ثابتا، صلب الجدران، ومتماسك الطرق، ومحدد العلامات.

ويتمثل التنقل أكثر ما يتمثل في مجال الاقتصاد، حيث يأخذ الإنتاج شكل السراب الضبابي المتغير والمتذبذب. فقد تقلصت الخدمات والمنتجات كماً وكيفا لصالح ما هو مؤقت ويعتمد على الدوام الجزئي المرن. فالصناعة تكرس في إنتاج ما يغري ويجذب باستعمال مبدأ «استبعاد الانتظار من الرغبة لاستبعاد الرغبة من الانتظار»، وذلك في إطار مجتمع استهلاكي يعتبر القيام بدور المستهلك فيه واجبا أساسيا لأعضائه. إن التنقل في مجتمع الاستهلاك بحثا وتنقيبا عن البضائع الاستهلاكية غير المتوفرة ليس مرضا، لا شفاء منه، يصيب المستهلك، بل هو الإحساس الواعد بالنشوة بعينها. فالرغبة لاترغب الإشباع، بل ترغب الرغبة ذاتها. إن حالة التنقل المتواترة تفرز تجربتين لأعضاء مجتمع الاستهلاك. التجربة الأولى هي تجربة السائح المتجول الذي يضع الحنين إلى الوطن فوق أسباب الراحة في الوطن لأنه يريد ذلك إما لأن التجول أفضل استراتيجية متاحة له في الحياة الآن، وإما لأنه لم يقاوم جاذبية حياة جامع الملذات الحقيقية أو الخيالية. التجربة الثانية هي تجربة المشرد الذي يتجول لأنه دفع من الخلف بعد أن تم تجريده من الارتباط الروحي بالمكان الذي لم يعد واعدا له بشيء. فالسائح يبقى في حالة التجول والتنقل لأنه يرغب في ذلك، أما المشرد فهو على علم بأنه غير باق في المكان ذاته لفترة طويلة، مهما رغب في ذلك، لأنه لايلقى الترحاب في أي مكان. السائح يتنقل لأنه يجد العالم جذابا فيقبل عليه، أما المشرد فإنه يتنقل لأنه يجد العالم المحلي معاديا لا يحتمل. السائح يسافر لأنه يريد ذلك، والمشرد يسافر لأن الخيار الآخر لا يطاق.

العولمة مسخرة لتحقيق أحلام السواح ورغباتهم والتأثير الجانبي الثاني المحتوم هو تحويل الآخرين إلى مشردين. المشرد هو المسافر الذي حرّم عليه مكانة السائح، كما حرّم عليه البقاء في مكانه أو البحث عن مكان أفضل. والنتيجة هي الضوء الأخضر للسائح والضوء الأحمر للمشرد. المشرد هو الأنا الآخر للسائح. المشرد هو المعجب الأكبر بالسائح، ففي عالم اللاسكون تكون السياحة هي الشكل البشري الوحيد للاسكون. لقد تحول السائح إلى مستهلك، والمشرد إلى مستهلك، ولكن الأخير تشوبه الشوائب، وذلك لأن إمكانياته محدودة بقدر مصادره. فهو لا يساهم في زيادة الثروة، لأن الاقتصاد تحول إلى اقتصاد سياحي.

إن عصر الاختزال الزماني والمكاني هو أيضا عصر السقوط التام للاتصال بين النخبة المتعلمة والعامة. فليس لدى الفئة الأولى، وهي المُحْدَثة من دون حداثة، من شيء تخاطب به الفئة الأخرى. فلا تفاعل في ذهن الفئة الأولى كصدى لتجربة الفئة الثانية وتوقعاتها. (ص ٧٧-١٠٢).

في الفصل الخامس وهو بعنوان (القانون العالمي والنظم المحلية)، تحدد فكرة المرونة باعتبارها مثل القيم الأولية العليا التي تخفي العلاقة الاجتماعية. فالمرونة تتطلب إعادة توزيع السلطة، وتستلزم مصادرة سلطة المقاومة عند المتصلبين المطلوب هزيمتهم. تتظاهر المرونة بأنها المبدأ الكلي للعقلانية الاقتصادية الذي يقبل التطبيق بنسبة متساوية على جانبي العرض والطلب في سوق العمل. إن ذاتية الحد تخفي جوهرها المختلف على طرفي التقسيم. فالمرونة في طرف الطلب تعني حرية الحركة إلى مواقع أفضل، وترك النفايات والفضلات في الخلف لكي تنظف وتعقم من قبل المحليين. المرونة تعني التملص من كل اعتبار إلا ما يكون اقتصادي المعنى. أما معنى المرونة على طرف العرض فهو أن يكون عرض العمل متصلبا غير مرن، وذلك بالحد من حرية الاختيار بالقبول أو الرفض، وانعدام فرض القواعد الخاصة بالعمل. فعندما نضع اختيار المستثمر في إطاره العالمي في مقابل الحدود المحلية المفروضة على خيار عارض العمل، يتبين عدم التماثل بين الاثنين مما يؤكد سيطرة الأول على الثاني. لقد بيّن المؤلف في كتابه ما بعد الحداثة والاستياء منها (١٩٩٧) ان عالم النفس الشهير فرويد، سواء كان على صواب أم خطأ، اعتبر المتاعب النفسية وآلامها في عصر الحضارة الحديثة نتيجة لمبادلة جزء كبير من الحرية الشخصية في سبيل تحقيق الأمن المضمون جماعيا. أما اليوم في مرحلة ما بعد الحداثة فإن الاتجاه المعاكس هو السائد. إن النزعة في مبادلة قدر كبير من الأمن في مقابل إزالة المعوقات التي تحول دون ممارسة الاختيار الحر هي التي تولد المشاعر السائدة من القلق والخوف. ولفهم تحول القلق هذا، ينبغي أن يوحد ما فرقته اللغة بين كلمات الأمن والأمان والثقة في تجربة واحدة وهي تجربة الطمأنينة.

إن وجود اليوم ممتد عبر العالمي والمحلي حيث الحرية العالمية في الحركة ترمز إلى الترقية الاجتماعية، والنجاح والتقدم، وحيث السكون يرمز إلى الهزيمة والحياة الفاشلة والتخلف إلى الوراء. فالحرية تعني قبل كل شيء حرية الاختيار، والاختيار اكتسب بشكل ملفت للنظر بعدا مكانيا. ففي زمن الاختزال الزماني/المكاني، ثمة مشاعر لم تجرب من قبل تدعو من بعيد إلى ازدياد الاستمتاع بالوطن في تجربة الشوق إليه من بعيد.

لقد قيل إن النظام الجزائي يضرب قاع المجتمع لا قمته. وفي محاولة علماء الاجتماع تفسير هذه الحقيقة تُرصد أسباب عدة تتكرر مناقشتها. السبب الأول هو النوايا المختارة للمشرع المعني بالمحافظة على نوع من النظام. فالأفعال التي يرتكبها المسحوقون هي التي تظهر في نصوص قانون العقوبات. أما سرقة ثروات الأمم، وسرقة الأسر من أسباب أرزاقها فلا تدخل ضمن قائمة الأفعال التي يعاقب عليها القانون. السبب الثاني هو صعوبة سبر أغوار الجرائم التي يرتكبها الكبار في القمة، وبالتالي صعوبة تفريقها عن الأعمال اليومية للشركات والمؤسسات. السبب الثالث هو أن عزيمة العامة في ملاحقة الجرائم العليا متذبذبة ومؤقتة وأحيانا غير موجودة. أما أهم الأسباب، فهو أن الجرائم العليا تنم، في التحليل الأخير، عن القلق الوجودي الذي يعاني منه مجتمع ما بعد الحداثة. وأخيرا فهناك الميزة الكبيرة التي تحظى بها النخبة عندما تواجه القائمين على النظام: القوانين محلية، أما قوانين السوق الحرة التي تطيعها النخبة فهي عبر المحليات. هذه الأسباب مجتمعة تؤدي إلى نتيجة مشتركة وهي تجريم الفقر وتحديد الجريمة بالفقراء المحليين، فمصادر الجريمة هي مصادر محلية.

إن رفض الرافضين يؤدي إلى تعزيز تحول المحل إلى قلعة حصينة. فكلتا المهمتين تعزز الأخرى، وتؤكدان فيما بينهما أن الانحلال والاغتراب في القاع شقيقان توأمان للعولمة في القمة. (ص ١٠٥-١٢٧).

مناقشة نقدية

الانطباع العام الذي يخرج به قارئ هذا الكتاب هو أن العولمة شر مستطير في تأثيره على عامة البشر، وأن الخير كله يأتي بمحاربة هذه الفوضى التي تبثها في أرجاء المعمورة قلة نخبوية غير مسؤولة دون وازع من ضمير. فالآثار البشرية التي تنشأ عن العولمة تكرس الانقسام والاستغلال والتسلط والسخرة والقلق والتذبذب وعدم التسامح والتشرد والضياع. فالعولمة في آثارها البشرية انقلاب شامل على القيم، وانحسار مطلق للمثل العليا، وتكريس متشعب للوضيع والحقير في نفوس البشر. يرصد هذا الكتاب الآثار السلبية فحسب، ويتنكر تماما لأي أثر إيجابي على مجموع البشر. فالكتاب الذي بين أيدينا كتاب ناقص لا يفي الموضوع حقه من رصد لظاهرة العولمة بمنهج علمي محايد يتناول النتائج على البشر كافة دون تحيز أو محاباة للظواهر المؤيدة

للفرض المطلوب إثباته على حساب الظاهر، المفندة للفرض المطلوب إثباته. ومن ثم فالحاجة ماسة إلى كتاب آخر يستكمل ما قام به هذا الكتاب فيرصد الآثار الإيجابية للعولمة على حياة البشر. إن الكتاب الآخر الذي نقترح على المؤلف كتابته، وبالتالي استكمال كتابه عن العولمة سيكون قادرا على تفسير أهم مفارقة كان ينبغي تحليلها، وتفسير عدم توقعها من قبل علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة الذين ينتمي إليهم مؤلف الكتاب.وهذه المفارقة: هي أن العولمة التي أنجبتها الرأسمالية في نهاية القرن العشرين هي القائمة على تحقيق أحلام الشيوعيين في وحدة البشر، وتحرير الحصول على المعرفة من الارتباط بالمقدرة المالية. المعرفة بفضل العولمة متاحة بالتساوي للجميع فلا فرق بين الفقير والغني، ولا العالمي والمحلي، ولا الشمالي والجنوبي، ولا الشرقي والغربي. لقد طمست هذه الحقيقة اللامعة من مظاهر العولمة وهي في رأيي جوهر مسيرة العولمة وماهيتها. فإن لم يكن للعولمة إيجابيات أخرى لكفى بها تحرير العقل البشري من حدود الزمان والمكان لينهل ما يشاء من المعرفة التي يساهم في خلقها البشر في كل مكان وزمان. فطالب المدرسة في أقاصي الأرض قادر على الاتصال بمكتبة الكونجرس الأمريكي (أكبر مكتبة في العالم) للحصول على ما يشاء من المعرفة بغض النظر عن مكانته الاجتماعية والطبقية والثقافية. فمن أهم عيوب هذا الكتاب أنه يتجاهل رصد الآثار الطيبة للعولمة على الرغم من زعمه أنه يتناول الآثار على البشر. والآن من العموميات إلى تحليل المقدمات التي يفترضها الكتاب في فصوله الخمسة وصولا إلى النتائج التي تسجل عيوبا في العولمة.

يفترض المؤلف في الفصل الأول ظهور طبقتين متنافرتين تحددان المراتب الجديدة في بناء الطبقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، وهما طبقتا المستثمر والعامة من البشر، بما في ذلك العمال في المصانع والفلاحون في المزارع والمدراء والموردون في الشركات. ولما كان الاستثمار حرا في الانتقال من مكان إلى آخر فهو غير ملزوم بأي واجبات اجتماعية نحو المساهمة في الحياة اليومية واستمرار حياة الجماعة. وثمة خطآن منطقيان في هذا القياس: الأول هو اعتبار الفئتين متنافرتين، والثاني هو أن الحرية في تنقل الاستثمار هي تحرر من القيود والواجبات الاجتماعية نحو استمرار الجماعة.

إن فئة المستثمر في عالم اليوم لا تشكل طبقة اجتماعية سياسية ثقافية اقتصادية متجانسة السمات منافرة لفئة العامة، بل هي فئة متغيرة العناصر والسمات. ولذلك لا تتحقق فيها شروط

الهوية التي تحدد سماتها. فالشخص المستثمر اليوم قد لا يكون كذلك في الغد. ومن ينتمي إلى فئة المستثمرين قد ينتمي في الوقت نفسه إلى فئة العامة بمعنى أنه ربما كان عاملا في مصنع أو فلاحا في مزرعة أو معلما في مدرسة.

ومن جهة أخرى فإن اللزوم بين حرية الحركة في الاستثمار والتملص من الواجبات الاجتماعية ليس تحليليا ولم يبرهن عليه. إن الحديث عن حرية المستثمر في تحريك استثماراته من مكان إلى آخر، أو من شركة إلى أخرى لايعني على الإطلاق الحرية من القيود التي تُفرض في المكان الذي يتعامل معه ولا القيود التي تفرضها التنظيمات العالمية لتأمين التعامل المنصف. فالقيود الضريبية والتعامل مع المحليين في أسواق المال المختلفة تؤمن التزام المبادئ، والقيم التي اقتنع بها العالم المعاصر وأصبحت قيما عالمية. إن تصوير المستثمر العالمي كما لو كان خارجا على القانون المحلي والعالمي مجاف للحقيقة لأنه في نهاية المطاف يعتبر العالم سوقا للمنتجات التي يستثمر فيها. فإذا لم يلتزم المستثمر بمتطلبات السوق في موقع م١ وم٢ وم٣، لم ينجح في تحقيق المردود المطلوب لاستثماره. وبذلك تسقط القيمتان الأساسيتان في الفصل الأول.

نأتي الآن إلى الفصل الثاني الذي يدرس علاقة المكان بالخريطة التي تعكس علاقة غير متماثلة. وبعد أن كانت الخريطة انعكاسا لتضاريس المكان، أصبح المكان انعكاسا للخريطة، وتحقيقا لنوايا المخطط التي تتمثل في العمل بمبدأي الانتظام والاطراد. وبهذا يسعى المؤلف إلى إثبات مقولته وفق القياس التالي:

١- تخطيط المكان وفق الخريطة المجردة يكرس مبادىء الانتظام والاطراد.

٢- الالتزام بمبادىء الانتظار والاطراد يفرز الطاعة.

٣- الطاعة لما هو سائد تفرز التجانس الذي يساوي عدم التسامح مع المختلف.

٤- الخوف من المختلف يستلزم مراقبته.

إذا كان هذا القياس تعبيرا عما يرصده المؤلف في فصله الثاني، فنحن أمام نظرية المؤامرة في أبهى صورها. فالخريطة المجردة أدت إلى سقوط قيم التسامح والتواصل. وذلك لأن الخريطة إما أن تكون انعكاسا للمكان، أو أن يكون المكان انعكاسا للخريطة. هذا التصور يهمل بديلا ثالثا

بحثه فلاسفة العلم للتعبير عن العلاقة بين القوانين والواقع فتصوروها بمثابة العلاقة الوظيفية القائمة بين الخريطة والمكان عندما تستخدم الخريطة كوسيلة للوصول إلى المكان المطلوب. لا تغدو الخريطة وسيلة لتحقيق المؤامرة الكبرى على عامة الناس، بل مجرد أداة نافعة يستفيد منها العامة في تسيير أمور حياتهم اليومية.

ومن جهة أخرى نجد في المتسلسلة التي تتبعناها في القياس ١-٤ مبادئ، يصعب قبولها لأنها لا تستند إلى أدلة الدراسة التجريبية المتأنية، ولا إلى مبادئ تحليلية. فالقول بأن التجريد مولد لقيم معينة يمكن تفنيده بالإشارة إلى افتقار الصورة إلى المحتوى، وافتقار نظرية المنطق (وهي نموذج التجريد بعينه) إلى القيم الإيجابية أو السلبية إلا إذا تم تحليل الصدق كقيمة أخلاقية.

والمبدأ الآخر الذي يصعب قبوله أن الالتزام بمبادئ الانتظام والاطراد يفرز الطاعة. لا أدري إن كان هذا مبدأ سيكولوجيا عاما وضع نتيجة لدراسة امبيريقية، أم أنه مبدأ في علم الاجتماع طبق على مجتمعات مختلفة وتبين أنها جميعاً تلتزم بهذا المبدأ. وأغلب الظن أنه ينتمي هو الآخر إلى سبيل التعميمات الفارغة التي تفتقر إلى البرهان العلمي الرصين.

في الفصل الثالث نحصل على تعريف جديد للعولمة، وهو أن عصر العولمة هو عصر فقدان السيطرة على المقدّرات، وبالتالي فالعولمة تكافئ غياب السيطرة وفلتانها. واستنادا إلى هذا التعريف يميز المؤلف بين العَوْلة (globalization)، والكَوْننة (Universalization).

فالكوننة تصور إيجابي لتحقيق الوحدة والألفة والتكامل بين البشر دون اعتبار للعرق أو الثقافة أو الطبقة الاجتماعية أو الخلفية السياسية. بيد أن التساؤل الأساسي الذي لا نجد له جوابا في هذا الفصل هو ما المبرر أو المسوّغ المنطقي الذي يعتمد عليه المؤلف في تقديم هذه المعاني؟

إن التصورين المطروحين لا يستندان إلى تحليل لغوي ولا تحليل منطقي. بل يمكن القول إن هذه مصطلحات جديدة لا تاريخ لاستعمالها لأنها تفرض ظواهر جديدة غير مسبوقة في تاريخ البشر. فإذا اختلفنا مع المؤلف في المعاني التي يسندها إلى التصورين فلكل الحق في الاحتفاظ برأيه دون الالتفات إلى الحوار لحسم المسألة علميا.

القضية الأخرى التي يؤكدها هذا الفصل هي أن العولمة تهمل ثلثي سكان العالم لأنها ليست

بحاجة إليهم. إن العولمة في مجالها الاقتصادي والإعلامي لا تملك إلا أن تهتم بالمستهلكين في أسواق العالم الكبرى التي تكتظ بالسكان، لأن العالم أصبح سوقا مفتوحة يسعى المستثمرون إلى الوصول إلى أكبر عدد منهم بالدعاية والإعلان لتحقيق مردود أعلى وعائدات أكبر. ولذا فالعولمة لا تملك إهمال المستهلك الممكن أي ثلثي سكان العالم، بل إن الهجمة الإعلامية التي تتعرض لها دول آسيا المكتظة بالسكان مثل الصين والهند لتأمين الوصول إلى أسواقها لخير دليل على ذلك.

وأخيراً فهناك المبدأ البيروقراطي الذي يدعو إلى إفساح المساحة الواسعة لحرية الحاكم ورفضه للمحكوم في عالم العولمة. والحق أننا نجد صعوبة بالغة في تحقيق هذا المبدأ في عصر العولمة. يقدم الكتاب صورا لتطبيق هذا المبدأ في زمن الدولة الوطنية عندما تتحقق للحكومة كل الحرية وتحدد الحرية للمحكومين أي عامة الناس. أما في زمن العولمة، فالحكومة الوطنية تجد نفسها مقيدة بأنظمة وقوانين تسعى إلى تأمين حرية حركة رأس المال والاستثمار العالمي، وشل ساعد الحكومة الوطنية في المراقبة وتطبيق القوانين المحلية. أي أن الحكومة الوطنية تصبح محكوما. فتقع المسؤولية عليها في توفير الحماية الداخلية لرأس المال والاستثمار العالمي الذي أصبح حاكما. بيد أن هذه الصورة تعجز عن إدراك حقيقة مهمة، وهي أن العولمة شراكة بين الدول الوطنية جميعا لتحقيق الصالح العام. فهو عقد تدخل فيه الدولة الوطنية طواعية لتحقيق مصلحتها المشتركة مع المتعاقدين الآخرين. فكما يتخلى الفرد طواعية عن بعض حرياته الشخصية عندما يدخل في شراكة مع الأفراد الآخرين في المجتمع المدني، تتخلى الدولة الوطنية عن بعض حرياتها لتأمين مصالح عليا لا تتحقق إلا بالدخول في المنظومة العالمية التي تنظم مستويات العمل العالمي المشترك.

في الفصل الرابع، يستعرض المؤلف فئتين متنافرتين تتقاسمان إنسان عصر العولمة، وهما فئتا السواح والمشردين. الفئتان تعبران عن طبقتين اجتماعيتين وثقافيتين لا تواصل بينهما، ولا تبادل بينهما. فئة السواح سعيدة متنقلة تفعل ما تشاء، وتحقق رغباتها الآن وهنا، وطبقة المشردين تعيسة تبقى في مكانها الذي لم يعد يرحب بها.

بيد أن حقيقة الأمر هي أن الفئتين تمثلان أدوارا متغيرة يمكن أن يقوم بهما شخص واحد ينتمي أحيانا إلى هذه الفئة، وينتمي أحيانا أخرى إلى الفئة الثانية. فالشخص الواحد يمكن أن يقوم بدور السائح في مجال ما، وفي ظروف معينة، ويقوم بدور المشرد في مجال آخر وفي ظروف

مغايرة. فربما كان الشخص سائحا في مكان أقام فيه في الماضي، وتعرف على ثقافته والأساليب الاجتماعية السائدة فيه، ويصبح مشرداً نظراً لتغير وضعه الاقتصادي. إن مفهومي السياحة والتشرد غير واضحين. فنحن لا نعرف متى يكون الشخص مشرداً، ولا نعرف متى يكون سائحا. فشروط الهوية التي تحدد التشرد من جهة، وتلك التي تحدد السياحة، غير محددة. هل من شروط التشرد أن يفقد الشخص مسكنه مثلا؟ أو أن يكون مهاجراً من بلده مثلا؟ إن عدم الترحيب به في المكان لا يمكن أن يكون شرطا كافياً للتشرد، لأن السبب قد يكون سيكولوجيا أو اجتماعيا أو عرقياً أو مهنياً أو أي أمر آخر.

يبدو لنا أن مجتمعي السواح والمشردين ليسا مجتمعا واحدا، بل هما مجتمعان لا سبيل إلى الاتصال بينهما. بيد أن المؤلف يؤكد أنهما ينتميان إلى مجتمع الاستهلاك الذي يعتبر الاستهلاك واجبا على كل مواطن، فكلما زاد استهلاك (س) عن استهلاك (ص) ارتفعت قيمة (س) ووزنه في المجتمع عن مكانة (ص) وأهميته في المجتمع. وبموجب هذا المعيار ترتفع مكانة السائح لأنه أقدر على الاستهلاك من المشرد الذي لا يساهم شيئا في مجتمع الاستهلاك.

في الفصل الأخير من الكتاب، يطرح المؤلف عددا من المبادئ العامة المستقاة من مصادر متنوعة لإثبات أن العولمة تسخر النظم المحلية في خدمة القانون العالمي، وهي مبادئ بحاجة إلى تسويغ عند تطبيقها خارج إطارها الخاص بها.

المبدأ الأول هو مبدأ المرونة الذي يشبه بالقيم الأولية العليا من حيث إخفاء العلاقة الاجتماعية. فعند تطبيق المرونة على طرفي العرض والطلب من سوق العمل، يبين المؤلف أننا أمام معنيين متعارضين على الرغم من استعمال الحد ذاته في حالتي التطبيق. فالمرونة في طرف الطلب تعني «حرية الحركة إلى مواقع أفضل، وترك النفايات والفضلات في الخلف لكي تنظف وتعقم من قبل المحليين». المرونة تعني التملص من كل اعتبار إلا ما يكون اقتصادي المعنى. والمرونة على طرف العرض تعني «أن يكون عرض العمل متصلبا غير مرن، وذلك بالحد من حرية الاختيار بالقبول أو الرفض، وانعدام فرض القواعد الخاصة بالعمل» (ص١٠٤). لاشك أن الفصل بين معنيين متعارضين لمبدأ واحد يستلزم الاستشهاد بأدلة من الاستعمال اللغوي الفعلي. فلا يمكن أن نخترع المعاني المتعارضة للفظ واضح الاستعمال من دون مبرر. فلا يمكن أن نسند إلى المرونة معنى حرية الحركة في حالة (س) ونسند إلى المرونة معنى التصلب وتقييد الحركة في حالة

(ص).

المبدأ الثاني، وهو مبدأ سيكولوجي وضعه فرويد - عالم النفس الشهير- في إطار تفسيره للمتاعب النفسية، ينقلب رأسا على عقب في هذا الكتاب. ينص مبدأ فرويد على أن المتاعب النفسية تنشأ عن التضحية بالحرية الشخصية في سبيل تحقيق الأمن المضمون جماعيا. أما في هذا الكتاب، فالمتاعب النفسية تنشأ نتيجة للاستعداد السائد في عالم اليوم للتخلي عن الأمن المضمون اجتماعيا في سبيل إزالة المعوقات التي تحول دون ممارسة الحرية. كيف اثبت المؤلف هذا القانون السيكولوجي الجديد؟ لقد بنى فرويد تعميمه السببي نتيجة لملاحظة عدد كبير من المرضى النفسيين الذين كان يعالجهم على امتداد فترة طويلة. أما مؤلف كتابنا هذا فلاشك انه لايمارس مهنة الطب النفسي، وبالتالي لا يجوز اعتبار قانونه أكثر من تعميم عرضي لا يستند إلى دعم الدليل العلمي.

المبدأ الثالث هو أن نظام الجزاء يضرب عامة الناس، ولا يتعرض للجرائم التي يرتكبها أهل القمة. ولتفسير هذه «الظاهرة» ترصد الأسباب الاجتماعية التي ذكرت في عرض الكتاب (ص٥). بيد أن المؤلف يختار السبب الأهم، وهو في رأيه أن الجرائم التي يرتكبها أهل القمة تعبير عن القلق الوجودي في مجتمع ما بعد الحداثة. بيد أن التفسير المقدم هذا لا يفسر التشريع الذي أدى إلى «الظاهرة» في كل قطر على حدة. ومن جهة أخرى لايمكن اعتبار «الظاهرة» عالمية بمعنى أن المجتمعات كافة تمر بالتطور الاجتماعي ذاته الذي أدى إلى التعبير عن القلق الوجودي. لاشك أن المشرعين في المجتمعات المختلفة يستمدون تشريعاتهم من مصادر مختلفة، ومن الصعوبة بمكان أن نسلم بأن الدساتير كافة متفقة في التحليل الأخير على تجريم الفقر، علما بأن أغلب الدساتير جاءت نتيجة لثورات الفقراء لإنصاف المظلومين. لا أدري كيف يمكن أن نحمل العولمة مسؤولية «الظاهرة» التي تضمن ظهور جرائم المسحوقين في نصوص قوانين الجزاء. ولا يمكن أن نتفق مع المؤلف في أن كل الجرائم التي يرتكبها أهل القمة تنأى عن العقاب، لأنها تحتمي بقوانين العولمة في مخالفتها للقوانين المحلية، ولأنها تخالف الفرض الذي فرضه المؤلف نفسه عندما اعتبر التشريع المحلي قاصراً على تدوين الجرائم العليا في نص القانون.

بين التذوق والنقد المسرحي

دراسة تحليلية لجماليات التلقي المسرحي

د. أحمد صقر*

يعتقد الشراح والمنظرون للدراسات النقدية ان قضيتي التذوق [1] والنقد من القضايا التي لم تحسم في النقد المسرحي. ذلك أن التذوق شخصي، وكذا النقد، إلا ان الفيصل بين الاثنين ان التذوق يظل عملية استيعابية شخصية للمتلقي المسرحي لا تتطور إلى ما تتطور إليه عملية النقد المسرحي التي تتطلب من الناقد الموسوعية في الاطلاع والمعرفة لكي يتمكن من إرساء القواعد الأساسية في عملية التلقي المسرحي التي تعد مهمة جدا نظرا لما للناقد من دور مهم وحيوي في دفع العملية المسرحية تقدما سواء في مجال الكتابة او التمثيل او الإخراج او الحرفية المسرحية.

* استاذ مساعد في قسم الدراما والنقد المسرحي - المعهد العالي للفنون المسرحية بدولة الكويت.

إذا كنا نتحدث عن قضيتين من القضايا المهمة التي تشغل المتذوق العادي وكذا المتخصصين من النقاد، فإننا لا ننسى حقيقة مهمة مؤداها أن القضيتين تتداخلان تداخلا كبيرا، والفاصل بينهما يتمثل في أن المتذوق قد لا يتعدى تذوقه حدود الذات أو المجموع المتمثل في لقاء الأصدقاء والمقربين حيث يبدي كل منهم رأيه فيما شاهده، وهو بطبيعة الحال رأي شخصي مبعثه الذوق الشخصي لصاحبه، وهذا يأتي بخلاف الناقد الذي يستطيع أن يتذوق، وأن يترجم هذا التذوق ليصبح رأيا نقديا يجب عليه حين يدلي به أن يدرك أنه سوف يحدد ويبلور الكثير من الحقائق، بل وسوف يؤكد بعض القيم ويرفض البعض الآخر.

إذا كان الأمر كذلك فإننا نقف عند هاتين القضيتين لنبين حدودهما ومجالات وجودهما.

تحدث الكثير من علماء الجمال والمتخصصين عن الذوق، وبرغم تعدد التعريفات وتنوعها إلا أنها تأتي متفقة في كثير من جوانبها.

وعليه هنا أعرض بعضا من هذه التعريفات الخاصة بمصطلح التذوق بشكل عام والتذوق الفني والمسرحي بشكل خاص محاولا بعد ذلك أن أوضح جوانب الاتفاق والاختلاف بين التذوق والنقد.

تحدثنا د. أميرة حلمي مطر عن التذوق بقولها: «إن التذوق ليس مجرد عملية تقبل سلبي، وإنما يفترض القيام بعمليات إيجابية، لأنه يفترض القدرة على الاختيار والانتباه لعناصر الجمال، ولخصائص العمل الفني، لأننا عندما ندرك عملا فنيا معينا لا نراه دفعة واحدة، بل نأخذ في تعديل رؤيتنا وننتقل تدريجيا من زاوية إلى أخرى. وتذوقنا للعمل الفني يعتمد على خبرتنا السابقة» [٢]. أي أنها تشير إلى طبيعة التذوق الذي يميل بطبيعة الحال إلى العمل الفني، والاستمتاع به دون وضع مجموعة من الأحكام أو المعايير بشكل مسبق.

أما عن علاقة التذوق بالخبرة الجمالية فتحدثنا الدكتورة/ وفاء محمد إبراهيم عن الخبرة التي تضم بداخلها بطبيعة الحال الحقيقة الجمالية والذاتية الإنسانية، وترى أن: «موقف التذوق هو الأساس الذي يبدع من خلاله شخص استطاع أن يحول بحساسيته الجمالية مادة تذوقه إلى مادة جمالية تجسيدية في عمل فني، موسيقى أو تصوير أو نحت أو شعر، وشخص آخر أصدر حكما بالقيمة من خلال خبرة متشابهة في فاعليتها لخبرة الإبداع» [٣].

هنا نجد أن عملية التذوق لا تأتي من فراغ. ذلك أن الكثير من المهتمين بالذوق سواء علماء الجمال أو علماء النفس قد أشاروا إلى عملية الإبداع وعملية التذوق، وقالوا إن «المتلقي يفتقر إلى كثير من الحرية التي يمتلكها المبدع، من حيث الإلغاء والحذف وسهولة الإعادة والإضافة.. إلخ. أما المتلقي فهو مقيد بما قدم له في وحدة تشكيلية عليه أن يجول في حدود قيمتها وكيفياتها، ومن

هنا يصاب المتذوق المتمكن أحيانا بالإحباط عندما يجد أن ثمة تغيرا أو تحويرا كان ينبغي أن يتم، ولكنه لم يحدث. ولذلك فإن المتذوق للعمل هو خالق من وجهة نظره الخاصة، ولكنه خلق من المرتبة الثانية، أي كأنه يعمل على قماش آخر أسبق من قماش العمل المعروض أمامه»[٤].

وفي مجال التذوق الفني يعرفنا الدكتور/ حسن محمد حسن على جانب آخر من جوانب التذوق، ويقصد به فن التصوير بشكل عام وكيفية تذوقه فيقول إن: «أول خطوة في مجال التذوق الفني هي أننا لا نكتفي بالنظرة العابرة للعين، بل يجب أن نعيش في الأشياء التي نلاحظها ونشاهدها أمامنا»[٥].

إن التذوق بمعناه العام هو قدرة الإنسان على مشاهدة إبداع فني ما، ثم استيعاب هذا العمل. ومن خلال التذوق المتمرس الخبير والمستوعب لأصول التقنية الفنية يستطيع المتذوق أن يصدر حكما غالبا ما يدور في فلك الذاتية التي مرجعها دون شك ذات المتذوق إلا أن هذه المرحلة مرحلة انتقالية سرعان ما تتراجع الذات بعد أن يسيطر المتذوق على الموضوع.

إن المتلقي سواء كان متذوقا أو ناقدا يبحث في جوانب التجربة المبدعة عن جماليات التلقي الفني عموما، والمسرحي بوجه خاص، مما يترتب عليه نجاح هذا الإبداع الفني في فتح جسور التواصل مع المتلقي المسرحي.

ويضيف د. مصطفى يحيى للتذوق تعريفا يقول فيه: «التذوق هو عملية اتصال وتواصل بين أعمال الفنان، وبين المتذوق أو المستمتع بها، والتفاعل معها برؤية تأملية، وأيضا هناك تواصل في اتجاه عكسي نتيجة لرد فعل الجمهور واستجابته لأعمال الفنان، وبذلك نرى أن عملية التذوق واستجابته لها من جهة أخرى»[٦].

إن حكمنا على الإبداع (لوحة - مسرحية - فيلم سينمائي أو غير ذلك) بالجمال معناه أننا قد نفذنا إلى دواخل هذا الإبداع وتذوقناه، وحدث نوع من الألفة والتلاقي بيننا وبين هذا العمل المبدع. إلا أن هذا لايعني أننا حينما نتحدث عن التذوق فإننا نقصد نوعا من الانغلاق الداخلي القاصر على الذات، بل إننا نقصد بالتذوق أن: «الذات خلال لحظات التذوق تتعاطف مع الموضوع لإدراك معناه، والكشف عن تراثه الفني، ومدى ما يتكشف فيه من اتحاد بين الشكل والمحتوى أي بين المادة والصورة»[٧].

وهذا يجعلنا ندرك أن المتذوق يعيش تجربتين لا تجربة واحدة فهو يعيش تجربة المبدع سواء كان هذا مؤلفا مسرحيا يكتب إبداعا دراميا يتمثل في معالجة موضوع معين من خلال نص درامي، أو كان مخرجا يقوم بتنفيذ هذا الإبداع النصي، ليصبح رؤية متكاملة الأبعاد عن طريق وضع خطوط لتنفيذ هذا النص بواسطة الممثلين والفنيين. وبذلك نستطيع القول إن المتذوق هنا

سوف يمر بمرحلة إبداع هذا النص، وما يقدمه من قضية شغلت ذهنه، وكيف استطاع المخرج بترجمة هذه المعالجة على خشبة المسرح أن يقدم لوحة فنية جمالية تحمل الكثير من نواحي التجربةالفنية الناجحة.

يتحدث علماء الجمال عن التذوق بقولهم إنه يجعل المتذوق يمر بالعديد من المواقف والخطوات المتتالية أو المتداخلة التي تجعل الإحساس بجمال الموضوع وتذوقه يكتمل، وقد افترضوا مراحل عدة:

١ - التوقف لمثول شيء غير مألوف أمام الذات.

٢ - العزلة: استئثار الموضوع بكل انتباهنا.

٣ - إحساسنا بأننا ماثلون أمام ظواهر لاحقائق.

٤ - الموقف الحدسي: أي الموضوع الماثل أمامنا.

ويدفعنا إلى الحدس المباشر فنميل إلى الموضوع أو ننفر منه.

٥ - الطابع العاطفي أو الوجداني: الموضوع الفني الماثل أمامنا يثير فينا أحاسيس وانفعالات خاصة بسيطة.

٦ - التداعي: تثير هذه الانفعالات ذكريات ماضية لنا فنشعر بالتأثير.

٧ - التقمص الوجداني: نضع أنفسنا، موضع الأثر الفني فتتحقق بيننا وبينه مشاركة وجدانية أو محاكاة باطنية، وهذا هو الذي يجعلنا نشعر بالألم لأبطال المسرحية، ويظهر على قسمات وجوهنا ما يشير إلى تقمصنا لمواقف أبطالها [٨].

ونظرا لاختلاف طبائع الناس مما يترتب عليه اختلاف أذواقهم، وعليه فإننا سنجد أنفسنا أمام أكثر من حكم على العمل الفني الواحد، وطالما أن الإنسان يصدر حكما شخصيا فإنه بذلك بحاجة إلى الاقتراب بما يسمى تربية الذوق الجمالي.

تربية الذوق الجمالي

إن تربية الذوق الجمالي عملية ضرورية من أجل تكوين نشء على دراية تامة تمكنهم من حسن استخدام حاستي السمع والبصر اللتين يعتمد عليهما في الإحساس بالجمال، وهذا يجعلنا نفكر بأن الأمر بحاجة إلى أن نبدأ في مرحلة مبكرة فيستطيع الطفل أن ينمو ويكبر ويصبح له ذوقه الخاص به الذي يميزه عن أقرانه.

«إن التفاوت الملاحظ بين الأفراد بصدد أحكامهم الجمالية، وإن كان يستند إلى حد ما إلى

تأثير قدراتهم الخاصة التي يمكن قياسها سيكولوجيا سواء كانت فطرية أو وراثية أو مكتسبة، إلا أنه قد تأكد لدى علماء التربية أن قسطا كبيرا من هذا التفاوت إنما يرجع إلى نقص في التربية الجمالية فينسحب بدرجة أكبر على البيئة بمعناها الواسع»[٩].

وما ينسحب على العام - أي الذوق الجمالي العام - ينسحب بطبيعة الحال على الخاص، وأقصد به تربية ذوق مسرحي يستطيع من خلاله مشاهد خشبة المسرح أن يتذوق الأعمال المسرحية التي تقدم، والتي تختلف بطبيعة الحال وفقا لاختلاف المدارس والمناهج والاتجاهات مما يترتب عليه تعويد وتدريب المتذوق المسرحي لكي يتعود منذ حداثة سنه على مشاهدة أعمال مسرحية تجعله عندما يكبر يألف مثل هذه الأعمال، ويترتب عليه بطبيعة الحال القدرة على التمييز بين مسرحية وأخرى معتمدا بذلك على حصيلة مشاهداته التي تجعله يتمتع بمخزون وفير يجعله قادرا على تذوق الأعمال، وإصدار أحكام تميزها الحكمة والدراية.

إن تربية الذوق قضية مهمة مؤداها - كما سبق وذكرنا - أن الذوق لاتحده حدود، وإنما معياره الأساسي الرأي إذا غابت المعايير، إلا أنه رغم ذلك لا يحل محل المعايير التي يعتمد عليها النقاد في التقييم، إلا أنه - أي الذوق - يتذبذب حسب الحالة النفسية والمزاجية للمتذوق، ومع ذلك نؤكد على إمكانية تطوير الذوق، ذلك لأنه فطري فهو «في أصله هبة طبيعية تولد مع الإنسان، يعبرون عنها بصفاء الذهن وخصوبة القريحة منذ الطفولة إلى كل فن من الفنون الجميلة دون غيره ممن يسلبون هذا الاستعداد، وبعد ذلك يأتي التهذيب والتعليم، فليس من شك أن الدراسة تنمي الذوق وتهذبه وتسمو به إلى درجة محمودة، فالأديب ذو الفطرة الذواقة يغير من قراءة الأدب، ومعالجة الفنون فتراه بعد قليل مصقول الذهن والذوق، يضع يده على العبارة البليغة، والخيال الجميل، ويدرك صدق العاطفة»[١٠].

أما عن الشروط التي تتحكم في تربية الذوق بعد أن أدركنا أنه مكتسب من خلال القراءة والاطلاع والمشاهدة، وغيرها من صنوف التلقي فقد حددها الأستاذ/ أحمد الشايب[١١] في خمسة مؤشرات بها تتحقق تربية الذوق وهي: البيئة.. «الزمان، الجنس، التربية، الشخصيةالفردية أو المزاج الخاص».

فيقصد بالبيئة هنا العصر والظروف التي تحيط بالمتذوق سواء كانت اجتماعية أو ثقافية فجميع هذه الظروف تؤثر على الذوق ويحدث التفاوت. ويقصد بالزمان نمط الحضارة والتطور والرقي الذي يشهده المجتمع حيث تزداد مساحات التقدم والاطلاع على ثقافات الآخرين، وهنا يتغير الذوق بعد أن تكون وتهذب وترقى. العنصر الثالث يقصد به الجنس، ويعني العادات والطبائع المشتركة عند أمة من الأمم مما يجعل لهذا الشعب مجموعة من السمات التي يتوارثها

الأبناء عن الآباء، وتصبح جزءا من وجودهم. والتربية وهي العنصر الرابع ويقصد بها ما يحصل عليه الفرد داخل الأسرة الواحدة من معلومات ثقافية ودراسية، وقدرا من الصقل والتهذيب مما يوجد قدرا من التفاوت بين أفراد الأسرة الواحدة. أما العنصر الأخير فيقصد به الشخصية الفردية أو المزاج الخاص، وهو أهم هذه العناصر لأنه دائما المرجع الأكيد حينما نحتكم إلى الذوق الشخصي.

وربما انتقلنا هنا إلى نقطة مهمة كثيرا ما تثار على ساحة المسرح المصري والعربي، بل والعالمي، وهي:

لماذا يتذوق المشاهد العربي عامة والمصري خاصة تلك النوعية من المسرحيات الملحمية والسياسية والميلودرامية والرومانسية والكوميدية، على حين يقف المتذوق أمام مسرحيات العبث واللامعقول والمسرحيات الفكرية وذات الاتجاهات الوجودية من أعمال سارتر وغيره، يقف أمامها على غير انسجام مما يترتب عليه عدم اندماج المشاهد، وهو ما يجعل متذوقي مثل هذه المسرحيات يجدون ما يعوقهم عن تذوقهم، وربما يرجع ذلك إلى اللغة التي كتبت بها، هذا إلى جانب افتقاد بعض جمهورنا لخلفيات هذه المسرحيات الفكرية والثقافية، مما يترتب عليه رفضها، وهو ما يثير رفضا على طول الخط.

إن مشاهدي المسرح اليوناني بمختلف طوائفهم وعلمهم وثقافتهم قد تذوقوا أعمال كتاب المسرح اليوناني، وهو ما تحقق أيضا عند متذوقي أعمال كتاب عصر النهضة وعصر عودة الملكية، وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن التذوق المسرحي لا يخص فئة واحدة، وإلا لماذا شاهدت فئات الشعب كلها في المسرح اليوناني ومسرح عصر النهضة - كما سبق وذكرت - هذه الأعمال وتذوقتها.

وفي هذا الصدد يضيف د. محمد صدقي الجباخنجي إلى ما سبق قوله: إن التذوق الجمالي في الفن يتأتى نتيجة تدريب حواسنا على تقبله، بينما نجد باقي أنواع التذوق (واستعمل هنا كلمة «تذوق» مجازا وبديلا لكلمة «تغيير») يواجه الحقائق التي لاتحتاج إلى تدخل المدارك الجمالية أمام مشتهيات النفس» [١٢]

الذوق المسرحي

كثيرا ما نسمع أن رواية كذا أو قصة أو مسرحية هذا الكاتب، لم تلق قبولا أو استحسانا، أو نسمع ما يقول إن عرض مسرحية كذا قد استحوذ على إعجاب الجمهور من المشاهدين وعندئذ يتبادر إلى الذهن هذا التساؤل:

لماذا فضل القراء أو المشاهدون أو المستمعون هذا عن ذلك؟

– ولماذا اجتمعت الآراء كلها على هذا العمل؟

إن الإجابة على مثل هذه الأسئلة عسيرة جدا لأنها تشبه التساؤل الذي يقول: لماذا يذهب المشاهدون في وقت معين إلى مشاهدة افلام الكاراتيه أو أفلام العنف دون غيرها من الأعمال الاخرى؟

إن رقي الذوق عند هذه الجماعة من الناس جعلهم يتفقون على تفضيل هذا العمل على ذلك، ومرجع هذا إلى توافر العديد من الخصال والسمات التي جعلت هذا العمل الفني يجتذب هؤلاء الناس، ويجتمعون معا لتتوحد أذواقهم رغم اختلاف ظروفهم المعيشية وظروف نشأتهم الأسرية واختلاف كثير من الطبائع، ومع ذلك فقد التقوا وتوحد ذوقهم، الأمر الذي يؤثر في نجاح هذا العمل واكتساب شرعيته عن طريق جمهور المشاهدين.

وهنا نتساءل على قدرة وسطوة هذا الذوق، هل من الممكن أن يرتقي ليصبح وسيلة مشروعة مثلما هو الحال مع النقد للحكم على عمل فني ما؟

إن قضية الذوق المسرحي أمر لا يزال يحير الكثير من الدارسين والباحثين، ذلك أننا نتفق على أن الذوق الشخصي غير مؤهل في كل الأحوال ليصبح خاليا من الهوى، وبعيدا عن شاطحات النفس، وكل هذا دفع الكثير من النقاد إلى ضرورة إخضاع النقد للمذاهب العلمية الموضوعية التي تحاول أن تضع معايير وأحكاما تلزم الناقد كي يلتزم بها، ولا أقول أن يطبقها حرفيا، ولكنها مثل معايير كتابة النص المسرحي يعرفها المؤلف، ويهضمها ثم يتركها جانبا ليكتب مسرحيته دون أن تعوقه هذه القواعد او المعايير، ولكن مع ذلك نستطيع أن نرصدها وأن نحددها إن أردنا ذلك.

وإذا اردنا طرح قضية إخضاع التذوق عامة، والتذوق المسرحي – الذي هو موضوع بحثنا – للمناهج العلمية، ونفترض أننا قادرون على أن نفصل ذواتنا، وأن ننعزل كلية كما يحدث معنا عند إقدامنا على تقرير حقيقة علمية، إذا افترضنا بأننا قادرون على ذلك، فهذا معناه أننا ننكر ونلغي حقيقة مؤكدة وثابتة في مجال الفن عموما، وهي أن الذاتية والتأثيرية «هي النهج الوحيد الذي يمكننا من الإحساس بقوة المؤلفات وجمالها. فلنستخدمه في ذلك صراحة، ولنتعرف مع احتفاظنا به كيف نميزه ونقدره، ونراجعه، ونجده. وهذه الشروط الأربعة لاستخدامه. ومرجع الكل هو عدم الخلط بين المعرفة والإحساس، واصطناع الحذر حتى يصبح الإحساس، وسيلة مشروعة للمعرفة»[١٣].

ومما سبق نستطيع القول إن التذوق المسرحي من الممكن أن يتطور ويرتقي لكي نستطيع من خلاله الحكم على الأثر الفني، وذلك في حالة ما تتوافر الخبرة والدراية والحاسة، عندها نقول إن

هذا الحكم النابع من قبل المتذوق صحيح لاستناده على العديد من الأسانيد التي تصح ويتقبلها الكثير من الناس، إلا أننا قد نجد من يعارضها - من قبل متذوقين آخرين - بأسلوب آخر، ويقنعنا أيضا، وهكذا يكون الذوق المسرحي قد تربى ونضج لتصح رؤاه. وهنا يأتي رأينا متفقا مع رأي أستاذنا الدكتور/ محمد زكي العشماوي الذي يرى: «أن الرجوع إلى الذوق أمر لا مفر منه في الحكم على الأثر الفني وتقديره»[١٤].

بيد أنه لا يقصد بطبيعة الحال الإحساس السطحي، أو اللذة وحسب، وإنما يقصد الذوق المدرب البصير.

أما عن النقد والعلاقة بينه وبين التذوق فقد تحدث الكثير من النقاد والدارسين عن تعريف النقد. وقد تعددت التعريفات، إلا أنها برغم ذلك تتكامل، فمنهم من يعرف النقد بقوله إنه يعني الحكم[١٥]. أما الدكتور/ محمد حافظ دياب فيعرف النقد عامة والنقد الأدبي خاصة بأنه يعني التمييز والتقويم والتاريخ[١٦]، وهو ما يتفق مع رأي د. عز الدين إسماعيل في قوله إن النقد يعني «الحكم الأدبي»[١٧]. ومهما اختلفت التعريفات فإنها تتفق في أن مجال انطلاقها واحد، ورأي الدكتورة/ أميرة حلمي مطر قريب من حديثنا فيما يتعلق بالعلاقة بين التذوق والنقد، فهي ترى أن: «التذوق والنقد عمليتان متصلتان كل الاتصال»[١٨].

إن النقد المسرحي ميدانه المسرح، كما أن المسرح هو المادة الأساسية للنقد المسرحي الذي يقوم بتحليل عناصر العمل المسرحي حتى يظهر وقع هذا العمل في نفس المشاهد.

إن النقد المسرحي عملية تحدث بعد أن يكتب المؤلف ويخرج المخرج هذا الإبداع، وبعدها يأتي الناقد الذي يعيد تقييم هذا العمل بعد أن كتب وقدم معتمدا على ذاتيته، وكذا على الجوانب الموضوعية، وعلى مقارناته.

أما عن النقد ووظيفته، وهل من الممكن تربية الحس النقدي، فإننا ندرك من خلال ما تناولته أقلام عدة أن النقد المسرحي لون من ألوان النقد الأدبي، جاء متأخرا إلى ساحة النقد، ارتبط في مجيئه بظهور وظيفة المخرج وهي وظيفة مستقلة عن العمل المسرحي الذي ارتبط منذ نشأته بالخريجوس ذلك المسؤول عن تقديم العمل المسرحي ككل، ولم يكن له مسمى المخرج، ولكن كانت له وظيفة المخرج - كما أعتقد - وقد اهتم - ولم يكن النص قد طبع بعد - بمحاولة تقديم هذا العمل إلى المشاهدين، ونحن نعلم أن أرسطو قد عاصر هؤلاء الكتاب إذ إنه كتب كتابه «فن الشعر» في أعقاب كتابة هؤلاء الكتاب لمسرحياتهم، وتقديم الخريجوس لها.

إن كتاب «فن الشعر» لأرسطو اختلف عليه الكثير من الشراح والمنظرين، ولكنني أتساءل عن حقيقة هذه الدراسة التي كتبها أرسطو. هل حقيقة هي دراسة تحلل ما شاهده مما قرأه من

أعمال، أم هي لا تتعدى أن تكون «نقدا تقنينيا كان يضع أسسا معينة (الفن كمحكاه - الحبكة كروح - والبطل المأساوي كوسيط بين الخير المطلق والفساد المطلق) ويقيم تصانيف وفروقا مختلفة (الحبكة البسيطة في مقابل الحبكة المعقدة وأنواع الإدراك)، ولكنه لم يكن يقوم بتفسير النص أو استكشاف مستويات معينة»[19].

وهنا نعرض لإشكالية أخرى ذات صلة مباشرة بموضوع الدراسة وأقصد بها الفروق الجوهرية بين التلقي المسرحي والتلقي الأدبي، أي جمالية التلقي عند مشاهد العمل المسرحي وعند قارئ، وسامع الإبداع الأدبي. إن التلقي المسرحي يتم بعد مشاهدة عمل مسرحي، وهو أمر يجعل من حق المتلقي للعمل المسرحي أن يستنبط - سواء كان ناقدا أو قارئا عاديا - من العمل الذي أمامه ما يشاء من المفاهيم والمدلولات وأن يضيف إلى تفسيرات الآخرين الذين شاهدوا العمل ما لم يُذكر من قبل، والدليل على ذلك أننا إلى اليوم نضيف ونعاود الشرح من جديد إلى مسرحيات شكسبير.

أما عن التلقي الأدبي لرواية أو قصة أو شعر فإن الأمر يتحقق بالكيفية نفسها. غير أن قراءة هذه الأجناس الأدبية تتم في أجواء تختلف عن جو المسرحية. فالعمل المسرحي برغم وجود نص درامي إلا أنه تحول على خشبة المسرح ليصبح أداة واحدة ضمن مجموعة أدوات إبداعية أخرى، وعليها يتغير الوسيط مما يترتب عليه تعدد الآراء واختلافها، وهو يختلف عن الرواية أو القصة أو الشعر الذين يتميزون بصفة الثبات كنتاج، إلا أنه أيضا يعطي للمتلقي الحق في أن «يستنبط من العمل الأدبي الذي أمامه ما يشاء من المفاهيم والمدلولات والقيم ما دامت طبيعة العمل تحمل هذا. والمتلقي - في مثل هذا الصنيع - أشبه بمن يغوصون في أعماق البحر، فقد يستخرج أحدهم اللؤلؤ، وقد يعود الآخر بالمرجان، وقد يرجع ثالث بالصدف وغيره»[20].

وعليه يختلف أيضا التذوق المسرحي عن التذوق الأدبي طبقا لطبيعة النتاج، غير أنني أرى أن النقد الأدبي يختلف عن النقد المسرحي. ذلك أن النقد المسرحي تبلور وظهر في نهايات القرن التاسع عشر، وهو يختلف عن النقد الأدبي كونه يكتمل باكتمال رؤية المسرحية مجسدة على خشبة المسرح.

إن النقد المسرحي جنس من أجناس الإبداع الأدبي عامة، ولكنه يزيد عليه في كونه يكتمل بعرض العمل المسرحي على جمهور المشاهدين، وبعد أن نجد أنه على مستوى النص قد تتشابه الرواية مع المسرحية، إلا أنها تختلف عنها كما سبق وأسلفت في كون الرواية فنا مكتملا بمجرد طبعها، بخلاف المسرحية تظل فنا ناقصا إلى أن يرى النور على خشبة المسرح.

وعليه فإن تعريف النقد المسرحي بذلك يأتي هو الآخر بعد أن ينتهي الكاتب من إبداعه

المسرحي النصي، ثم يأتي النقد ليحكم ويقيم ويحلل ويوجه هذا الإبداع سواء اكتفى بالنص وحده أم إنه استكمل عمله كناقد - وهذا هو المنهج الصحيح - بالعرض المسرحي.

وعليه نقول إن للنقد وظائف عديدة منها: «الحكم أو النقد أي الاهتداء إلى مبررات تؤيد حكم القيمة. غير أن للنقد وظائف أخرى. فهو يحاول أن يفسر أو يوضح العمل الفني» [٣١].

إذن تتحدد بعض من وظائف النقد في ضرورة الحكم والتفسير، وهو - أي الناقد - يهدف من وراء ذلك إلى ضرورة الاقتراب بعمل الكاتب المسرحي، وكذا المخرج - أي العرض المسرحي ككل - من جمهور المشاهدين ليتفهموا هذا العمل وأبعاده، وما خفي فهمه على الجمهور.

وبذلك نقترب من النقطة المهمة مثار حديثنا، وهي هل من الممكن أن نطور الحس النقدي عند الناقد المسرحي؟ إن الإجابة على هذا الاستفسار ليست بالأمر العسير، وخاصة إذا علمنا أن النقد المسرحي قد استفاد من العلوم والفنون وخاصة في مجال الإخراج، وذلك «اننا لا ينبغي أن ننكر الدور المؤثر الذي لعبه كل من (الفريد جاري وانتونان ارتو) على المستويين العملي والنظري في هذا الصدد» [٣٢].

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على الاستفادة الكبيرة التي استفادها النقد المسرحي من علوم الإخراج في وقتنا الراهن، وهو ما يؤكد قدرة الناقد المسرحي على تربية حسه النقدي بالمشاهدة والاطلاع، ذلك أن القرن العشرين شهد «تطورا هائلا في كل المجالات، ولاسيما العلوم الإنسانية التي نذكر منها علم الاجتماع وعلم النفس واللسانيات بكل فروعها، والفلسفة والتاريخ والانثروبولوجيا» [٣٣]. وكان طبيعيا أن يستفيد النقد المسرحي من تطور هذه العلوم.

وهنا نعود فنقول: إن النقد يسهم دون شك في «تطوير حاسة التذوق» [٣٤] هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى علينا أن ندرك أننا من خلال الدراسات الجمالية والنقدية فإننا نقترب من ألفاظ عدة تستخدم جميعها في مجال التذوق وعليه فإننا «نستخدمها ونعني حينئذ أشياء مختلفة طبقا لوجودها في النص، أو في السياق العام للمعنى «فمن الممكن أن تعني الإعجاب أو الإدراك Appreciation، ولكن من الممكن أن تعني denigration ، ومن الممكن أن تعني معنى فلسفي Philosophical ، أو جمالي Aesthetic التقييم» [٣٥].

إذا كنا قد أدركنا وظيفة النقد، وكيف أنها لا تعد مرحلة للاستمتاع باللذة أو التذوق، ولكنها تتخطاها إلى مرحلة يستطيع فيها الناقد أن يحكم على الأعمال الفنية حكما سليما لا يخالف أحكام الآخرين مخالفة الأبيض للأسود، إذا كنا قد علمنا هذا فإننا نتيقن من قدرة هذا الناقد على أن يستوعب هذا العمل الفني، وأن ينزله منزلته، وهو هنا على يقين من علاقة هذا العمل بالعصر

الذي كتب فيه، ثم قدرته على مقارنته بالأعمال الأخرى التي كتبت في هذا العصر، ثم الدراية بتحديد القيم الجمالية لهذه المسرحية أو تلك.. وهي أمر يجعل الناقد قادراً على أن يصنف أعمال الكاتب المسرحي الواحد، ويضع كلا منها في مرتبة تتقدم على الأخر أو تتأخر عليه. فإذا قلنا إن «الناس اللي تحت» «الناس اللي فوق» «عيلة الدوغري» أعمال مسرحية تحمل الكثير من القيم الفنية والفكرية والجمالية، وتحتل مكان الصدارة بين أعمال نعمان عاشور، هنا يأتي هذا الحكم معتمدا على أسانيد ومبررات تقوي كلامنا. وهو رأي يأتي متفقا مع رأي أستاذ الأجيال محمد زكي العشماوي في درته الثمينة (قضايا النقد الأدبي) قوله: «ليس من شك في أننا حين نضع كل واحد من هؤلاء - يقصد دانتي وشكسبير وصوفوكليس وجيته - في مكانه الخاص من هذا السلم -يقصد سلم القيم - إنما نستند في ذلك إلى أسانيد، إن لم تكن لها دقة الأرقام العلمية فليس ينبغي أن يكون فيها سعة التفاوت»[٢٦].

ومما سبق نستطيع القول إن هذا التقدير والتقريب الذي نسعى الى تحقيقه لتقييم عمل فني ما، يجب الا ننسى عند قيامنا بذلك أن نضعه من وجهة نظر شخصية تقريبية مؤداها اتفاق رأي الجماعة وذوقهم، والأمر قد مر قبل وصوله إلى هذه المرحلة بجدل طويل، وهو أمر طبيعي «ولكنه لا ينبغي أن يكون إلا بدرجات متقاربة حتى يصبح من الممكن أن يتحقق الميزان الدقيق في النقد»[٢٧].

إن ما تسعى إليه العلوم الإنسانية حين تحدد بعضا من السمات التي تميز التذوق، أمر يأتي مختلفا حين نسعى لتحديد مهام الناقد المسرحي الذي لابد وأن يستمتع بقدر ما افترضه ت. س. اليوت حين تحدث عن تذوق الشعر، ولا أرى هنا مخالفة في أن ينسحب هذا الرأي على المسرح أيضا إذ يقول «إن الأساس في النقد هو القدرة على اختيار قصيدة جيدة، مسرحية جيدة مثلا، وإهمال أخرى رديئة، وإن اي اختيار يتعرض له الناقد إنما هو في مقدرته على تفضيل قصيدة جيدة، وفي الاستجابة الصحيحة لخلق فني جديد، وإن الخبرة التي تتطور وتنمو في الشخصية الواعية الناضجة ليست فقط مجموع التجارب الناشئة عن رؤية القصائد الجميلة. فإن الثقافة الشعرية إنما تتطلب تنظيما خاصا لهذه التجارب»[٢٨].

إن التمييز بين الناقد والمتذوق يتحقق في مجال بحثنا الا وهو موقف كل من الناقد والمتذوق من الإبداع بشكل عام. ذلك أن الناقد عندما يتعامل مع إبداع ما هنا نجد أن مهارته هي «مهارة تكنيكية تستند إلى معايير مستمدة من مذاهب فلسفية مختلفة، وقدرته تكمن في نجاحه في التطبيق الجيد لفرض البداية الذي اختاره وبرع في استخدامه»[٢٩]. اي أن الناقد يختلف عن المتذوق في أنه يعتمد في تقييمه وإصدار أحكامه على مجموعة من المعايير والقواعد التي لاتأخذ

مكانها الطبيعي عند المتذوق الذي «لا تحكمه - في أحكامه - إلا حصيلة ثقافية ومهارة إدراكية، مما يترتب عليه الميل إلى تقديم افضلية ما في درجة التذوق لعمل واحد» [٣٠].

إن الفارق بين الناقد والمتذوق في تعامله مع الأعمال الفنية إنما يتحدد في أن «موقف الناقد ينبغي أن يكون متسلحا بأدوات كثيرة اولها الممارسة الجيدة للأعمال الفنية من خلال تذوقها وفهمها عن طريق الإلمام التام بتاريخها وتطورها ومواقفها المختلفة من العصر الذي وجدت فيه» [٣١]. وهو أمر يختلف في حالة المتذوق وموقفه من الإبداع، ومدى خبراته الجمالية التي تتجلى من خلال أقواله. فالمتذوق يستجيب للإبداع، وفي استجابته تتحدد نوعية وطبيعة التجربة التي يعيشها.

إن خبرة المتذوق واستجابته إنما هي «بدورها تجربة مماثلة وشبيهة بتجربة الفنان المبدع، أي هي عملية إعادة خلق للعمل الفني» [٣٢]. إذن يعتمد المتذوق في أحكامه على إعادة تنظيم وتأليف أبعاد العملية الإبداعية التي مر بها الفنان المبدع لها.

إن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن الناقد إنما هو متذوق مر بالعديد من التجارب، واختزن الكثير من الخبرات وتدرب وتمرس حتى أصبح قادرا على إصدار حكم به الكثير من الصحة، وهو بذلك ابتعد عن المتذوق الذي قد يخطئ، في بعض الأحيان نظرا لوقوعه في شرك وضلالة العلم، إذ يخدع بأنه على علم ويدلي بدلوه، وهو في كثير مما قال قد عرض نفسه للخطأ. وأسوق مثالا على ذلك مسرحية للكاتب الإنجليزي الشهير هارولدبنتر «لغة الجبل» حيث إنها تقدم موضوع حظر التعامل بلغة معينة، وهي لغة أهل الجبل بين الاكراد بتركيا، ومن الوهلة الأولى فإن الكثير من النقاد انساقوا وراء ما بهذه المسرحية من سياسة. واعتبروها تتويجا مسرحيا لنشاطه السياسي والاجتماعي. على حين وجدنا عددا قليلا من النقاد لم يفته إدراك مدى سياسية مسرحيات «بنتر» السابقة، وعدداً قليلاً منهم فهم ذكاء «بنتر» في إبعاد مباشرة السياسة عن مسرحياته، كما ان بعضهم فهم كيف اعتاد «بنتر» أن يلقي- بين الجد والهزل - أحكاما نقدية ساخرة يتلقفها كتاب الصحف والنقاد والدارسون فيقتلونها بحثا وتمحيصا واستخراجا للمعاني الكامنة خلف المعنى الظاهر.. إلخ، ثم يكتشفون في النهاية قدرة «بنتر» على الهزل أحيانا [٣٣].

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن كثيرا من الأعمال المسرحية تحمل وراء معناها الظاهر الكثير من المعاني التي قد لا يلتفت إليها الكثير من النقاد مما يترتب عليه انقسام النقاد إلى اكثر من فريق، مما يترتب عليه أيضا وقوع القارئ في حيرة من أمره بينهم.. أيهما صاحب التفسير الصحيح. ذلك أن «بنتر» وغيره من الكتاب مثل «صيموئيل بيكيت - وكافكا» قد اهتموا

اهتماما بالغا بقضية الفرد المطارد من المجهول(نظام الدولة أو أي قوة مادية أو ألوان من القهر والاستعباد) كل هذه جعلتهم حسب قول «مارتن اسلن» يقتربون ليصبحوا أصحاب قضية واحدة، وهي بطبيعة الحال قضية فكرية، وقد تكون فكرية واقعية، أو قد تكون مجردة، إلا أن هذا لا يجعل النقاد مع ذلك يقربون بينهم ليصبحوا جميعا من حيث الشكل من كتاب مسرح العبث.

وهذا الأمر قد يختلف عندما نقرأ أو نشاهد مسرحية أخرى مثل مسرحية «لعبة النهاية» لـ«صيموئيل بيكيت»، تلك المسرحية التي تحتاج من النقاد والدارسين أن يبصروا قراءنا ومشاهدينا بهذه النوعية من الأعمال التي تبتعد كثيرا عن التقاليد المسرحية من حيث الكتابة أو العرض، والتي طالما تعود عليها جمهور المشاهدين. هنا يأتي دور النقاد في تبصيرهم بهذا الاتجاه، ومحاولة إيجاد مرتادين له، والا نكتفي بالأعمال المسرحية السهلة بحجة أن هذه الأعمال بها الكثير من التداخل والصعوبة بحيث تفهم من قبل جمهورنا، وعليه يجب أن «نفيد منه ما استطعنا من وجهة نظر دعاته، ومن وجهة النظر الإنسانية، ما دمنا نسلم بداهة أنهم لا ينتجون هذا الأدب عبثا، على حين يصفون به العبث. فمن وراء التصور للموقف في حلكته المروعة بعث قوي على التفكير في خطورته، ومن هنا تتعدد المخارج منه»[٢٤].

إن البحث عن المعاني الغامضة في بعض النصوص مهمة تخص الناقد المتخصص والمتذوق لهذه الأعمال، بحيث يستطيع أن يؤدي بعضا من مهامه في تتبع مراحل كتابة نص معين - كما حدث في تعرفنا على نص لغة الجبل - والظروف التي كتب فيها العمل محققين في ذلك المنهج التاريخي في عملية النقد، والذي لخصه مقال لـ «فيليبس م. جونز» جاء فيه: «إن أول مهمة يؤديها الناقد هي أن يوضح لنا المبهم فيما نقرأ، وأن ينظم النص تنظيما يخرجه من الفوضى التي ربما كانت تسوده نتيجة لبعد العهد الذي كتب فيه، وكثرة الآراء التي تضاربت في أصله وتفسيره»[٢٥].

ونستطيع أن نستفيد من تطبيق هذا المنهج على الأعمال المسرحية العالمية والمحلية التي مضى عليها الزمن، ولم يدون لها أو يكتب عنها من قبل النقاد، وبذا ينقصها الكثير من التفاسير لكي نوضح مابها من غموض أو التباس، وهو ما يساعدنا في إجلائها وإبعاد الآراء المضللة التي تفسر وتشرح دون علم بأصول ومعطيات هذه الأعمال. وهي مهمة شاقة تساعدنا مثلا في التعرف على كثير من أعمال كتاب المسرح الكلاسيكي، وتفسرها - كما تعرفنا - بكثير من ميراثنا المسرحي الذي كتب في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ولا نعرف عنه الكثير. تلك مهمة يقوم بها النقاد وهم بذلك يتجنبون هذه الأعمال مغبة التحريف والتغيير.

علاقة التذوق والنقد ببعض المدارس الأدبية والفلسفية وكذا المناهج النقدية

١ - المدرسة الكلاسيكية وموقفها من التذوق والنقد

تميزت المدرسة الكلاسيكية بقدرة أدبها على الخلود على مر الأزمان، كما يتميز هذا الأدب بأنه يركز على محاكاة الآداب اليونانية والرومانية، وقد استمرت الكلاسيكية حتى القرن السابع عشر، وتمثلت في أعمال «كورني وراسين وموليير» إلى أن وصلنا إلى القرن العشرين، ولا تزال الكلاسيكية تمارس مهامها من خلال محاولة الكثير من الأدباء والفنانين المحافظة على مجموعة من المعايير كـ «الرصانة والتوازن، والقوة، واحتواء المثل الإنسانية الخالدة». ومن هنا يمكن وصف أسلوب اليوت بالكلاسيكية [٣٦]. أي أن الأدب الكلاسيكي لا يعني آداب اليونان والرومان وحسب، بل وينسحب على بعض من النتاج الأدبي والفني والمسرحي في القرن العشرين.

إن إطلاق مصطلح كلاسيكي على بعض الأعمال المسرحية والأدبية والفنية بشكل عام قد ينسحب أيضا على «كل كاتب يجيد التعبير اللغوي - نظرا لحرص المذهب الكلاسيكي على جزالة التعبير اللغوي ونصاعته - وحتى وإن لم يكن من أنصار المذهب الكلاسيكي المتقيدين بقواعده وأسسه الفنية والفكرية» [٣٧].

لابد وأن نعي في البداية أن الاتجاه الكلاسيكي في الأدب والمسرح قد صحبه اتجاه نقدي كلاسيكي أيضا عرف باسم النقد بواسطة القواعد، وهو الذي اعتمد على القوانين الصارمة التي وضعها أصحاب هذا المبدأ و على رأسهم أرسطو، وظل العمل بهذه القواعد دون الالتفات إلى محاولة إدخال التغيير عليها، إلى أن وصلنا إلى القرنين السادس والسابع عشر، حيث اهتم الكثير من نقاد هذه المدرسة باتباع ما سجله أرسطو وهوراس، إلا أنهم سعوا إلى إدخال بعض التعديلات عليها، وقد «انحصر اهتمام الكلاسيكية الجديدة في موضوعات عدة وهي: نقاء النماذج الدرامية.. أهداف الدراما.. مفهوم محاكاة الواقع أو الإيهام به، ومفهوم اللائق، ثم وحدات الحدث والمكان والزمان. أما الأشكال الدرامية المعترف بها فقد اقتصرت على التراجيديا والكوميديا، على أن يكون كل منهما شكلا قائما بذاته لايسمح بالخلط بين الاثنين، وعلى أن تكون لكل منهما القواعد والقوانين الخاصة بها» [٣٨].

استمرت الكلاسيكية بعد ذلك، وانبعثت مرة أخرى في القرن التاسع عشر محاولة أن تنظر إلى الأمور «نظرة تجمع بين الموضوعية الجامدة للكلاسيكية القديمة، والذاتية المتطرفة للرومانسية الجديدة» [٣٩] أي أنها حاولت قدر الإمكان تقليص مساحة الكلاسيكية القديمة بما تفرضه من قوانين صارمة، قد يقول البعض إنها سعت مابين توازن العقل، والمخيلة، والشعور توازنا واعيا يكون الحضور الأكثف فيه للعقل، بالإضافة إلى حضور العنصرين الآخرين» [٤٠].

ونقاد هذا الاتجاه يسعون سعيا حثيثا من أجل الإقلال من سيطرة العقل، وكذا التقليل من حدة التقاليد، وهم يقدرون أن التقاليد الأدبية «مفيدة عندما تكون في خدمة التشكيل الفني للعمل الأدبي. فالتقاليد ليست مجرد قوالب صماء تفرض قسرا على العمل الفني، لأن العكس هو الذي يحدث»[41]. وهو ما يتحقق عندما يحدث التطور الحياتي الذي ينعكس بطبيعة الحال على العمل الأدبي، والذي يصل تأثيره إلى النقد ليستجيب لهذا التطور. الأمر الذي لا يجمد المعايير أو القوانين التي تخصص لنقد العمل المسرحي.

ان ما سبق ذكره يأتي متفقا مع ما ذكره «جيروم ستولنتيز» فيما يختص بالدروس التي يجب ان يتعلمها الناقد حين يتعامل مع هذا المنهج القائم على المعايير او القوانين، إذ يضيف قوله: «إن الناقد ينبغي أن يظل متيقظا للتجديد في الفن، وينبغي أن يكون على استعداد للتخلي عن المعايير التقليدية عنده، والتي لا تكون صالحة للحكم على أعمال جديدة مختلفة»[42].

وعليه فإن علاقة هذا المنهج النقدي بقضيتي التذوق والنقد بحاجة إلى تحديد وبلورة، ذلك ان مشاهد او قارئ العمل الكلاسيكي عليه - أي المتذوق - ان يدرك ما يتضمنه العمل من طبيعة متميزة تفجر حواس التذوق فينفعل ويحزن ويفرح، مما يجعله يقترب من روح المؤلف فينفعل بشخصيات مسرحياته وأحداثها، وهو ما يسعى إليه الكاتب الكلاسيكي. أي ان المتذوق لابد أن يدرك موطن الجمال في هذا العمل دون أن يشغل نفسه بتحليله إلى جزئيات.

إذا كنا نذكر ذلك للمتذوق فلا ندعي بضرورة أن يلتزم - وكذلك الناقد - بحرمان أحاسيسه ونوازعه من الانطلاق. ذلك أنه - وكذلك الناقد - إذا سجنا أنفسهما في سجن القواعد مما ينتج عنه ان يكون الناقد «عاجزا نتيجة لاتباع هذا المنهج عن تذوق قيمة العمل، ويطيش نقده، سواء كان تقديريا او تفسيريا، عن الهدف تماما»[43].

مما سبق نستطيع القول إن منهج النقد بواسطة القواعد يحتضن المدرسة الكلاسيكية بمراحلها الثلاث، هذا إلى جانب انه يحتضن وينسحب كذلك على منهج النقد التفسيري، وكذلك منهج النقد التقديري (الحكمي). هذا إلى جانب منهج النقد الموضوعي الذي يعتمد على القواعد والأصول النقدية التي قال بها أرسطو، ومن أتوا بعده من المنظرين والشراح للحكم على العمل الفني من منطق القواعد.

٢ - علاقة التذوق والنقد بمذهب الفن للفن

إذا كان لنا ان نتعرف على مكانة التذوق الفني والمسرحي وكذا دور النقد في علاقته بأصحاب مذهب الفن للفن، او كما يسمى أحيانا بـ «المدرسة التعبيرية» فإن أول ما يقابلنا في طبيعة تعاملهم

مع التذوق الفني للعمل المبدع إنما هو أمر لا يشغلهم كثيرا وكل مايشغل أصحاب هذه المدرسة هو رفضهم لأن «يخضع الفن لقواعد الأخلاق والدين، وقد عرف هذا المذهب باسم (مذهب الطبيعيين)، وقد جاء هذا المذهب كرد فعل للرأي الذي يربط بين الخير والجمال. أنشأ هذا المذهب (بلزاك)، وتبعه (أميل زولا)، وكان من المتابعين لهذا المذهب الشاعر الفرنسي(بوبلير) ومن أتباع مذهب الفن للفن أيضا (تولستوي)»[٤٤].

إن اعتماد مذهب الفن للفن على ضرورة تقليص مساحة الحض على الفضيلة، والترغيب في النبل، أمر ربما يأتي متفقا مع رسالة المسرح عامة، والأدب خاصة، إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال تقليص دور التذوق المسرحي، ومن ثم النقد المسرحي نظرا لأننا سوف نتخلى حينئذ عن رسالة المسرح والأدب «في عالم التذوق الفني، والمهارة في البناء»[٤٥].

إن مساحة التذوق من منطلق هذه المدرسة سوف تقل أو سوف تقتصر على ضرورة إخضاع أذواق المشاهدين لوتيرة ومبدأ واحد هو ضرورة تحقيق هذا العمل للفضيلة والخير والنبل، وهو ما تنافى مع إبداعات كتاب المسرح اليوناني، رغم حرصهم عليهما - الخير والنبل - إلا انهم اهتموا بضرورة أن يصل الفن إلى مرتبة عالية، ولايدنو فنهم من هذه المكانة وإنما تركوها «لمن هم أدنى منهم مرتبة من الكتاب والشعراء»[٤٦].

إن أصحاب مذهب الفن للفن بعد أن سعوا إلى ضرورة عدم إخضاع الفن للقواعد الصارمة التي تلزم المبدع مراعاة الدين والفضيلة. بعد هذا كان عليهم أن يبلوروا رسالتهم بشكل معقول ومقبول، إلا أن هذه المدرسة لم تستطع أن تمنع نفسها من طغيان الشكل والصورة الذي يجرد الفن من كل مضمون لا يثير الإحساس بالجمال في نفس الإنسان[٤٧]. مما سبق يتضح لنا أن أرسطو بذلك قد رفض أن يتحول الفن - الشعر - إلى خطابة ووعظ وإرشاد، لأنه أدرك أن ذلك سوف يسلبه صفة الخلق الفني، وقال أرسطو: «إن العقل غير الناضج الذي يفتقر إلى ملكةالابتكار على استعداد دائم لأن يتلقى الحكمة من الآخرين»[٤٨].

إذن يدعو أرسطو إلى المحافظة على ما للشعر من قيم جمالية تنمي حاسة التذوق الفني والجمالي للمتذوق وكذا الناقد، وهي ما ساد طوال عصور الأدب والمسرح - تراجعا أو ازدهارا - إلى أن وصلا إلى القرن العشرين حيث اعتبر النقاد نظرية الفن للفن «دفاعا مستميتا عن الفن حتى لا يستخدم في الأغراض النفعية المؤقتة، ولكن كان من أعداء النظرية من حاول دفعها بالهروب من الارتباط بالحياة وتوجيه مجرى الأمور اليومية»[٤٩].

إن كثيرا من المهتمين بحركة الأدب عامة والمسرح خاصة قد فهموا «نظرية الفن للفن»[٥٠] فهما خاطئا إذ اعتبروها هروبا من الحياة ومن الناحية النفعية، والانغراق في عوالم الضياع والتشتيت

والغموض، وربما هذا يعطي فرصة كبيرة لازدياد مساحة التذوق الإبداعي، إلا أنه من ناحية أخرى يفقد الإبداع الصلة المباشرة - أي الفن القائم على الخطابة والوعظ - بينه وبين الجمهور، لأنه سيتحول - أي الفنان - إلى مصطلح اجتماعي ينشغل فقط بالتركيز على ترسيخ المبادئ، والقيم العليا.

مما سبق نصل إلى حقيقة مؤداها أن المتذوق المسرحي أو الناقد المسرحي لابد وأن يعي جيدا أنه أمام مثل هذه الاتجاهات - اقصد الاتجاه الفلسفي الممثل لمذهب الفن للفن - وعليه أن يستفيد من تركيز هذ المذهب على الجانب الجمالي والابتعاد عن الناحية النفعية، وهو ما يساهم في نمو حواس المتذوق أو الناقد، وتربية ذوقه إلى أن يصل إلى مرحلة التعلم والقدرة على التقييم لهذا الإبداع الفني الجمالي المبتعد عن الناحية النفعية، وهو ما اعتقد انه يؤخذ على أصحاب هذه المدرسة الذين «يعتقدون أنهم - بذلك - حماة الفن من السوقية والدعاية والإسفاف، وهم في الوقت نفسه من أعداء الفن لأنهم يمنعون عنه الهواء المتجدد، ويقطعون شريان الحياة الذي يمده بالدم من المجتمع»[٥١].

وإذا نحن اقتربنا من المنهج الذي يصلح للناقد في تقييمه لأعمال هذه المدرسة فإننا سنجد أن المنهج التأثيري (الانطباعي) - الذي هو أيضا مدرسة أدبية وفنية - يحتضن مذهب الفن للفن، وكذا الرومانسية، مرورا بالواقعية ثم الرمزية، والطبيعية، والتعبيرية، والعدمية، والوجودية، وأخيرا العبثية. وعليه نستطيع القول إن هذا المنهج وإن كان قد «ظهر في التاريخ القديم، الذي صاحب ظهور فنون الأدب المختلفة وبخاصة فنون الشعر، ولكن هذا المنهج كما قلنا لم يختف قط، بل ظل قائما وضروريا حتى اليوم، وكل ما طرأ عليه أنه قد أصبح يعتبر مرحلة ضرورية وأساسية وأولية في النقد، ولكنه لا يمكن الاكتفاء به والوقوف عنده»[٥٢].

٢ - المدرسة التأثيرية وعلاقتها بالتذوق والنقد المسرحي

إذا كنا قد أدركنا ما لمذهب الفن للفن من مقصد صريح في الإعلاء من شأن الجمال والابتعاد عن القوانين العقلية البالية التي سادت وسيطرت على الكلاسيكية، فإننا هنا أمام المدرسة التأثيرية - الانطباعية -تقترب من مذهب الفن للفن في كونها تحدد «قيمة العمل الأدبي أو الفني بمدى ما يستطيع هذا العمل أن يثيره فينا من عاطفة وإحساس غير عابئين بما يتضمنه العمل من أي مقوم من مقومات الحياة الإنسانية»[٥٣].

مما سبق يتحدد المنهج النقدي لهذه المدرسةالتأثيرية التي تعلي من شأن الإحساس بمقدار ما يتركه فينا العمل من أثر يحرك حواسنا، الأمر الذي يجعل المتلقي سواء كان متذوقا أو ناقدا

حرية التعبير الشخصي والذاتي لرد فعله، وهو ما عاب عليه الكثير. إذن كيف نعتمد على إحساس الناقد، وانطباعاته في تقييم العملية الإبداعية؟ إنهم بذلك يتركون العنان لكل من يتحول دون مقدمات إلى فنان وهم - أي الانطباعيين - «جروا وراء التسجيل الحرفي للانطباع، ونسوا القيمة الجمالية، والضرورة الدرامية اللتين تحتمان وجود الشكل الفني الذي يحول هذا الانطباع المجرد إلى جسم فني جميل من خلال العمل الأدبي»[٥٤].

إنني لا أعترض على المنهج التأثيري الانطباعي في مجالي التذوق أو النقد، ذلك أنه في مجال التذوق يعد المنهج الأساسي الذي يعتمد عليه المتذوق، وكذا على خبراته الحسية في استقبال ما يقرؤه أو يشاهده. أما فيما يختص بالنقد فإن هذا المنهج الذي يركز على ذات الناقد وعلى تجاربه الذاتية من أجل الانتقال فيما بعد إلى مرحلة أخرى «موضوعية يفسر ويبرر فيها الناقد انطباعاته بحجج موضوعية يستطيع الغير مناقشتها»[٥٥]، وهو ما يؤكد عليه د. محمد غنيمي هلال في أهمية هذا الاتجاه التأثيري الذي يتمثل في كونه يسعى إلى «الإلحاح على ضرورة تذوق الجمال الأدبي، والحرص على الشعور بالمتعة الفنية، في وجه غلواء المقيدين التقريريين الذين قصر إدراكهم، فوقفوا عند النظريات المحدودة بها وهم عبيد لها»[٥٦].

مما سبق نصل إلى حقيقة مؤداها أن المنهج التأثيري في النقد منهج برغم كونه تأثيريا انطباعيا فإنه يتضمن قدرا من الذاتية التي هي جزء أساسي عند المبدع سواء كان كاتبا مسرحيا أو قصصيا أو روائيا. إذن لا ننكر جانب الذاتية في حياة المبدع أو الناقد، على أساس أن هذه المدرسة - أي الانطباعية - إنما هي اتجاه «يدخل في جميع المدارس الأدبية دون استثناء حيث الانطباع عنصر أولي في خلق أي عمل فني، ولكنه ليس كل شيء، كما نادت الانطباعية الخالصة. لذلك اندثرت عندما اقتصرت على تسجيل الانطباع كهدف في حد ذاته، ولكن مع ذلك يظل الانطباع المادة الخام التي يتشكل منها أي عمل فني ابتداء من الرومانسية ومارا بالواقعية والرمزية والطبيعية والتعبيرية والعدمية والوجودية والعبثية»[٥٧].

٤ - المدرسة الإنسانية وما بعدها ومنهج النقد السياقي

إن الحديث عن المدرسة الإنسانية إنما يأتي متفقا من حيث النشأة مع المدرسة الكلاسيكية. إذ إن الإنسان كان ولا يزال محور الفن، وإن قلت المساحة بين مذهب أو مدرسة وأخرى إلا أننا مع ذلك لانستطيع «تحديدها بزمن معين، أو تتبعها في منطقة معينة أو ربطها برواد يعود إليهم الفضل في تحديدها وبلورتها كمذهب أدبي له ملامحه الخاصة، وخطوطه العريضة التي تسهل مهمة التعرف عليه بين بقية المذاهب المتعددة»[٥٨].

إن المدرسة الإنسانية - بظهورها محددة المعالم في العصر الحديث - تشمل العديد من المدارس والمذاهب الأدبية التي جاءت منذ القرن الثامن عشر - مع بداية المسرح الأوروبي الحديث - في محاولة منها للتقليل من حدة سيطرة القوانين والأصول الأدبية النقدية - المعيارية التي وضعها أرسطو، إلا أنهم أدركوا أن الفن لا يمكن أن يحيا اعتمادا على الموهبة، أو الذات الداخلية فحسب. ذلك أن الكثير أعاب من قبل على منهج النقد التأثيري - الانطباعي، واكتفوا بالنظر إليه على اعتبار أنه مرحلة تؤدي إلى النقد الموضوعي الخاص للقواعد والمعايير، وعليه اشتغل القرن التاسع عشر كله بالبحث عن مناهج ومذاهب للأدب والفن تشعبت تلك المذاهب والمناهج تشعبا لم تشهد الإنسانية مثيلا له من قبل، حتى ليصح القول بأن القرن التاسع عشر، ثم القرن العشرين من بعده قد كانا عصري ظهور المذاهب والمناهج الأدبية والفنية، وتنوعها تنوعا كبيرا» [٥٩].

إن تعدد المدارس والمذاهب والاتجاهات الأدبية يقتضي بطبيعة الحال التعدد في مناهج النقد. على أنني أرى أن الإنسانية وما احتضنته من مدارس قد شملت المدرسة الماركسية [٦٠] والمدرسة الفرويدية وكذلك احتضنت آراء المؤرخ والناقد الكبير «هيبوليت تين»، والناقد «برونتير»، والناقد «سانت بيف» الذين اتبعوا منهج النقد التفسيري، وقد احتضن كل هذه المذاهب الأدبية والنقدية منهج النقد السياقي.

إن النقد السياقي، وكما هو واضح من لفظه سياق يشمل «الظروف التي ظهر فيها العمل، وتأثيراته في المجتمع، ويشمل بوجه عام جميع العلاقات، والعلاقات المتبادلة بين العمل وبين الأشياء الأخرى باستثناء حياته الجمالية.

فالإدراك الجمالي يتركز على العمل مأخوذا على حدة، غير أن العمل، إذا ما نظر إليه بطريقة غير جمالية، كان يوجد في سياق» [٦١].

إن النقاد الذين ينتمون إلى النقد السياقي، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر كارل ماركس، ومن أتى من بعده من النقاد الاجتماعيين أمثال «هيبوليت تين» يراعون جميعا في نقدهم السياقي التحليلي نواحي كثيرة، قلما تؤدي إلى إبراز النواحي الجمالية في العمل المسرحي حين التناول.

إنني أعني بذلك أن غوص هؤلاء الاجتماعيين وراء الظروف الاجتماعية في محاولة منهم لتحديد الأطر الاجتماعية وتفسير البيئة التي أفرزت هذا الإنتاج، هذا إلى جانب محاولة تضييق الخناق على أنفسهم باستخدام المعايير الاجتماعية التي يحددونها كمعايير للحكم على هذا الإبداع المسرحي خاصة - والفني عموما - مما يؤدي إلى صرف المتذوق أو الناقد بعيدا عن القيم الجمالية التي يتضمنها الإبداع، مما يؤثر سلبا على أسلوب التناول عند كل منهما، ولا شك أن

انتهاج المتذوق المسرحي لهذا المنهج في تذوق وتلقي العمل طبقا لمفاهيم مبدعية سوف يحدد ويضيق الخناق على المتذوق لتحقيق متعته الحسية في تذوقه لهذا العمل، وعليه لا أجد في النقد السياقي من منطلق النقد الماركسي الاجتماعي التحليلي (٦٢) سبيلا صحيحا لإبراز النواحي الجمالية للمتذوق، وسوف يتحول الأمر إلى نجاح المؤلف فقط في الانتصار للفكر الماركسي اجتماعيا عن طريق الثورة التي تطيح بالكيان الاجتماعي المتردي. (٦٣)

أما فيما يختص بالناقد الماركسي (٦٤) «فبرغم أنه يستخدم منهج التحليل المعتمد على محاولة التعرف على السياق الذي يجمع بين المبدع والمجتمع، فإنه دون شك سوف ينحصر في حدود المعايير والقواعد، وهو خطأ كبير يجعل أنصار هذا الاتجاه دائما - كما حدث مع تين -يحولون «المفاهيم الواقعية السياقية إلى معايير للتقدير» (٦٥).

إن المجتمع بشكل عام وقضاياه الاجتماعية والاقتصادية بشكل خاص هي الأساس الذي يشغل الناقد الماركسي وعليه نجد أن الاهتمام بهذه النواحي يقلل من الاهتمام بإبداعات المؤلف المسرحي، وهو إن وجد كما في إبداعات إبسن، فإن الناقد الماركسي السياقي إن طبق عليه هذا المنهج النقدي فلن يبرز النواحي الجمالية في التجربة المبدعة، وما ينسحب على تين ينسحب أيضا على الناقد «سانت بيف» (٦٦)، الذي يركز - مع اعتناقه لآراء فرويد - على الفرد في محاولة لتحليل التجربة المسرحية المقدمة من منطلق التركيز على نظرية علم النفس، ودراسة العلاقات النفسية بين الشخصيات أكثر من التركيز على التجربة الجمالية، ويتأكد هذا ببساطة من مجرد اهتمام الناقد بالتركيز على المضمون بطبيعة الحال بدراسة العلاقات من وجهة نظر نفسية. ولنأخذ على ذلك أمثله من مسرح شكسبير في مسرحيته «هاملت» أو «ماكبث» «أو عطيل» إذا ما تناولهم الناقد فإنه سوف يركز كثيرا على العلاقة بين هاملت - على سبيل المثال - وأمه، أو على العلاقة بين هاملت والشبح، وهنا سوف يبتعد كثيرا عن إدراك الجوانب الجمالية في العمل، والتي كان من المتوقع أن يدركها.

إننا باتباعنا هذا المنهج النقدي ننسى كمتذوقين أو كنقاد أن العمل الفني المبدع من جانب الكاتب المسرحي على وجه الخصوص والمبدع الفني عموما، في الإمكان أن نتذوقه، وأن نحلله، وأن ننقده جماليا دون أن نقترب من شخصية الكاتب المبدع، غير أننا لابد وأن نعي أن النقد السياقي يكتفي من منطلق وجهة نظر «سانت بيف» النقدية بالنظر إلى النواحي النفسية أكثر من النظر إلى إدارك الإبداع الجمالي في التجربة الفنية، وهو ما جعل البعض يعلن أن هذه المدرسة - أقصد الإنسانية - مدرسة تين - سانت بيف - قد حولت الانتباه بعيدا عن الفن إلى التاريخ أو علم الاجتماع أو علم النفس.

٥ - حركة النقد الجديد

مما لا شك فيه أن القرن العشرين - وخاصة بعد انتصافه - شهد تطورا ملحوظا في جميع فروع العلم والمعرفة والحياة بشكل عام، وانعكس بطبيعة الحال على الفنون والآداب - موضوع حديثنا - وعلى الدراما والنقد بشكل خاص، إذ لم نعد نجد الكتاب - بل والنقاد المسرحيين أيضا - الساعين إلى التمسك بتناول الموضوعات التقليدية، مما ترتب عليه وجود الكثير من النقاد الرافضين الاستعانة بمناهج النقد التقليدية القديمة، وهو ما يعني أننا سنواجه بالعديد من المدارس الأدبية التي ستبحث عن صيغة نقدية جديدة توائمها.

سعت حركة النقد الجديد - التي تميزت بالدقة والعمق البالغين في تحليلاتها - إلى ضرورة الابتعاد قدر الإمكان عما تميزت به المدارس النقدية سالفة الذكر، فهي ترفض النقد بواسطة القواعد، على اعتبار انه يعيق حركة الإبداع والنقد، وكذلك رفض النقد الانطباعي الذي يترك العنان كاملا للناقد ليدلي بآرائه الشخصية المنبعثة من ذاته دون إخضاعها للنظرة الموضوعية، بل هم يسعون «إلى تفسير العمل وإيضاحه. وإذا وجدت عندهم تقديرا فإن ذلك لا يكون عن طريق تطبيق قواعد، إذ إن النقاد الجدد، الذين يعرفون تاريخ النقد، يشكون في القواعد. وهم يكرسون جهودهم لتحليل أعمال محددة، ويجعلون التقدير ينبثق من التفسير» (٦٧).

إن النقاد الجدد يركزون على العمل من الخارج ولا يرون في العمل انعكاساً للمجتمع، ومن ثم فإن الناقد أو المتذوق للموضوع الجمالي في العمل يأتي منفصلا بحيث لا يخضعان كل أعمال المبدع للنقد أو التقييم، بل يركزون عملهم عادة على «قصائد أو روايات منفردة على حين أن النقد السياقي يتجه إلى جمع كل أعمال المؤلف الواحد أو العصر الواحد سويا» (٦٨).

إن الناقد - وكذلك المتذوق - في رأي حركة النقد الجديد اقترب في وظيفته فيما هو سائد على مساحة الفن والأدب العالمية، بمعنى أنه حدث تغير في مهامه ووظائفه إذ إنه أصبح مطلوبا منه ألا يبحث في بواطن العمل، وإنما يركز على اللغة وما تحمله اللغة والألفاظ من معاني ودلالات، وهو اتجاه نقدي يسمى بالبنائية structuralismme ويسلم «النقاد البنائيون بأن القوى الاجتماعية تترك بصماتها على نفس الفنان، وتحدد الأبنية والعوالم، والموضوعات التي قد تكشف عنها هذه النفسية من خلال الأعمال التي تصوغها» (٦٩).

إن «رولان بارت» Roland Barthes رائد النقد البنائي تحدث عن دور اللغة، وكيفية التعامل معها، وهو ما «احتل مساحة من أفكارنا عن دور اللغة، وبالتالي عن العمل الذي أصبح يستمد وجوده الظاهري الآن من اللغة» (٧٠).

وهو يعني بذلك أننا لابد وأن نحلل العمل دون أن نضع لأنفسنا نظما قائمة سلفا. ولكن اللغة بواسطتها الأساس الذي يحمل الكثير من الدلالات والعلامات سوف يعتمد عليها الناقد في تحليل العمل، وهو ما أكد دعوة «بارت» إلى الإعلاء من شأن اللغة.

إن التقدم الذي حدث للغة ولوظيفتها استحضره «بارت» في مجال النقد ليطبقه على المسرح، إذ هو يعلن أن العمل المسرحي - على سبيل المثال - قد يكون للغته عند التحليل أكثر من معنى. ذلك أن منح العمل «معنى معينا قد يكون مكتوبا وقد يكون صامتا، وبالتالي يتحتم الفصل بين قراءة العمل ونقده. العملية الأولى مباشرة. أما في الثانية فتلعب اللغة - كتابه الناقد - دور الوسيط علم - نقد - قراءة - تلك هي الكلمات الثلاث التي تنسج حول العمل هالة من اللغة»[٧١].

مما سبق ندرك أن حركة النقد الحديث قد شملت النقد البنيوي، والنقد السيميوطيقي (السيميولوجي) [٧٢] والتفكيكية، وسنقصر حديثنا هنا على البنيوية كنظرية أدبية نقدية تمخضت كما ترى د. نهاد صليحة إلى تيارين متمايزين:

١ - التيار الأول: يمثله «ياكبسون» وأتباعه. واعتمد في نظرته إلى العمل الفني على عنصري الوظيفة والبناء مفسرا إياها تفسيرا لغويا صرفا.

٢ - التيار الثاني: فهو يرى العمل الفني في معناه وقيمته إلى الأنماط اللغوية التي تكونه، ولكنه أيضا يربط هذه الأنماط بالواقع الإنساني في إطار تاريخي متغير [٧٣].

مما سبق ندرك أن أصحاب التيار الأول يبتعدون كثيرا عن المجتمع الخارجي الذي يحيط بالإبداع المسرحي، ولا يعتقدون أنه تعبير عن المجتمع أو انعكاس له، بل يركزون على العلامة التي يتضمنها النص، ويقصدون بها الكلمة المكتوبة، والدلالة ويقصدون بها مفهوم الكلمة المكتوبة، وهما معا يشكلان نظاما من العلامات التي تقيم علاقات متشابكة بين الكلمة وما تشير إليه.

أما التيار الثاني فهو لا يفصل العمل عن المجتمع المحيط به، بل هو ينتج إفرازا له وتعبيرا عنه، مما يقربهم من المدرسة الهرمانيوطيقية الألمانية، ومدرسة النظرية الجمالية في الاستقبال.

وعليه نستطيع القول إنه على كتاب المسرح طبقا لمفاهيم هذه المدرسة البنيوية أن يغيروا في كثير مما اعتاد عليه الناس في أساليب وطرق كتابة النص المسرحي، مما يترتب عليه إحداث تغيرات في طرق استخدام المؤلف لأدواته في كتابة النص وخاصة فيما يتعلق بمفهوم الكاتب لمناهج وطرق الكتابة التقليدية التي رفضها النقاد كما أنهم رفضوا «فكرة التسجيل الواقعي، التي تفترض أسبقية الموضوع على وجود الكتاب، وما يترتب على هذه الفكرة من صفات الصدق والإخلاص والأمانة التي تنسب عادة إلى الكاتب الجيد. وكذلك هم ينبذون مبادىء الإلهام، والخلق

الأدبي، ورسالة الكاتب، والعمل الفني، ويعتقدون أن الإيمان بهذه المبادئ يؤدي في النهاية إلى إلغاء النص والقضاء على وجوده المادي الكثيف، كما يؤدي إلى انقراض الفن الأدبي أو التضحية بأهم متطلباته وخصائصه»[٧٤].

إن هذا التطور الذي حدث في أساليب صياغة النص المسرحي ينسحب بطبيعة الحال على المتذوق وكذا الناقد إذ إنهما أصبحا أمام إنتاج يعتمد كثيرا على إفساح المجال لإظهار خبرات وتجارب ليس فقط المؤلف وحده ورؤيته الأحادية، بل أيضا المتلقي أو المستقبل للعمل الفني، ذلك ما أشارت إليه د. نهاد صليحة فيما يتعلق بالمدرسة الهرمانيوطيقية، وكذا مدرسة النظرية الجمالية في الاستقبال إذ تؤكد هذه النظرية على «نسبية ومعنى قيمة العمل الأدبي، وعلى دور القارئ في صياغتها»[٧٥].

وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على أن النظريات النقدية في القرن العشرين تركز على دور المتلقي متذوقا كان أم ناقدا في تناول العمل الفني المبدع وهو - أي المتلقي - قادر على أن يتفحص هذا الإبداع ويتذوقه بناء على خبراته الشخصية التحصيلية، وهو ما يدل على أن المدارس النقدية المعاصرة في القرن العشرين تركز على جانب التذوق ولا تلغيه، بل إنها تسعى إلى ضرورة أن يعيد كل متذوق تشكيل مايراه طبقا لرؤيته الخاصة. والأمر كذلك فيما يختص بالناقد، ذلك أن النقد الجديد يدعو الناقد إلى ضرورة تقييم العمل المسرحي والحكم عليه اعتمادا على البحث عن المعاني الداخلية، من أجل تحديد الأبنية الكامنة فيه دون أغفال الواقع المحيط بهم، أي لا يفصلونه عن المجتمع، وعليه نجد أن الناقد البنيوي قادر على تحليل العمل تحليلا بنائيا دون أن يعتمد في ذلك على نظام مسبق، بل نجد أن لكل عمل نظمه المتضمنه فيه، وهو ما جعل البنائيين يؤكدون على تعدد المعاني للعمل المبدع، وهو ما أثارته د. سامية أسعد بقولها «إن العلاقة بين النقد والعمل علاقة شكل بمعنى لا يمكن أن يزعم الناقد (ترجمة) العمل لأن ما من شيء أوضح منه. كل ما يقدر عليه هو (إيجاد) معنى معين مشتق من شكل معين (شكل العمل). يعدد الناقد المعاني، ويخلق لغة ثانية تسبح فوق لغة العمل الأول، بعبارة أخرى، يمنح الناقد العمل تماسكا في العلامات»[٧٦].

ملخص

علم النفس والتحكم: نظرة للحرب الباردة

د. عمر خليفة*

هدفت الدراسة الحالية إلى كشف بعض المفارقات العالمية في تطبيقات علم النفس، ما بين العالم الغربي والعالم العربي، من خلال مفهومي «التحكم بالجملة»، و«التحكم بالقطاعي». وحاولت الدراسة تتبع تاريخ علم النفس وتاسيسه في المانيا، في ظل علاقة محكمة مع الاستعمار. واظهرت الدراسة انه بالإضافة لمعمل لايبزج الشهير لعلم النفس تطورت الأبحاث الخاصة بالشعوب البدائية والمتخلفة في المعهد الاستعماري بهامبورج. وبينت الدراسة علاقة علم النفس الوثيقة بالانثروبولوجيا، واستخدام كلا العلمين لخدمة أهداف الامبراطورية الألمانية والبريطانية، وبينت الدراسة ان المساهمة الأكثر فعالية، واكثر إمبريالية في تطبيقات علم النفس، هي

* كلية التربية - قسم علم النفس - جامعة البحرين .

المساهمة الأمريكية، والتي طورت البحث في علم النفس بصورة خيالية. وتوقع لعلم النفس بأن يلعب دورا مهماً في الحرب الباردة، خصوصاً بعد إعادة الغرب لنظرته للحرب التقليدية، أو حرب الاقتتال. ولقد تفوق الاتحاد السوفييتي بادىء الأمر في أبحاث التحكم، خصوصاً غسيل الدماغ وإعادة تشكيل التفكير، والتي اعتمدت على تجارب بافلوف الفسيولوجية الشهيرة على الكلاب. ولقد ازعج هذا التفوق الهائل علماء النفس في أمريكا، وتبعا لذلك، قامت المخابرات، والرابطة النفسية الأمريكية بمحاولة سد الفجوة الكبيرة بينها وبين الاتحاد السوفييتي في تطبيقات علم النفس، ولقد تم تقديم الدعم السخي لعلماء النفس ليتتبعوا تطور علم النفس في الاتحاد السوفييتي، وقامت مجموعة منهم بمسح علم النفس، وزيارة الاتحاد السوفييتي. ومن بين أكثر التطبيقات التي دعمتها وطورتها المخابرات أبحاث تقنيات غسيل الدماغ، واستخدام المقاييس النفسية، والتنويم، وتقانة التجسس. وانتشرت بعدها تطبيقات علم النفس الهائلة في محطات المخابرات، وفي المؤسسات العسكرية، وفي السجون، ورئاسة البوليس. وكشفت الدراسة عن توظيف علم النفس في إطار العلاقات الإسرائيلية - العربية، وتمثل ذلك في الحرب النفسية، وفي الدبلوماسية، وفي المفاوضات، واستغلال الجمعيات السيكولوجية العالمية، وفي صوغ مفهوم سيكولوجي مفارق للإرهاب، يستخدم بفعالية في أعمال الردع ضد العرب. وتناولت الدراسة في الجزء الأخير تطبيقات علم النفس بالقطاعي أو بالتجزئة في العالم العربي. وتم طرح بعض التساؤلات المهمة عن ما هية علم النفس، وما هي الاستجابة المناسبة لتطبيقات الآخرين له بالجملة. وخلصت الدراسة إلى أهمية هضم واستيعاب علم النفس المعاصر، وتفجير الروح الخلاقة والفعالة فيه من قبل علماء النفس العرب، ومن قبل الاستخطاطيين، لأن السلاح النفسي الآن يعتبر من أهم الأسلحة الاستراتيجية في العالم.

مقدمة

في محاضرة ألقيتها في جامعة العلوم والتكنولوجيا بالأردن، ضمن فعاليات الفائزين بجوائز عبد الحميد شومان للباحثين العرب الشبان لعام ١٩٩٦، تحدثت عن تاريخ علم النفس وعلاقته بالاستعمار، والامبريالية، والمخابرات كمقدمة أساسية للمحاضرة. وقد تم توجيه الدعوة إلى نخبة من علماء النفس في الأردن لحضور هذه المحاضرة. وكان رئيس الجلسة ومقدمي في المحاضرة هو د. عبد الرحمن عدس، أحد كبار علماء النفس في العالم العربي، وأقوم شخصيا بتدريس كتبه لطلابي في علم النفس بالجامعة. وقد قرأ عبد الرحمن عدس ورقتي الموسومة «مأزق علم النفس في العالم العربي» قبل المحاضرة، وقدمني لهذه النخبة المختارة من علماء النفس بالأردن بنبرة بدت عندي غاضبة، قائلا: «إذا جاز لي في عجالة بسيطة، الدكتور يرى أن علم النفس في العالم العربي في مأزق، فهو خرج عن الأصول واهتم بالقشور». ولقد فهمت من قول عدس أن الحديث عن الاستعمار، والامبريالية، والمخابرات، وعلاقة ذلك بعلم النفس انه من القشور. والسؤال الذي تبادر إلى ذهني منذ تلك المحاضرة وإلى الآن هو: أين اللباب في علم النفس؟ أهو الاكتفاء بكتابة «مداخل إلى علم النفس»؟ والحديث المكرر لدرجة الرتابة، والملل، والسأم، والضجر في هذه «المداخل» و«المقدمات»، و«الأسس» عن ما هية علم النفس، والأسس البيولوجية للسلوك، وعلم النفس التطوري، وطبيعة التعلم، والتذكر والنسيان، والإدراك، والدافعية، والتفكير واللغة، والذكاء والقدرات الخاصة، والشخصية، وفهم النفس أو الذات، وعلم النفس الاجتماعي، والعلاج النفسي. في تقديري، ان الحصر الضيق لعلم النفس سيىء بالنسبة لتطور العلم وللنظرة الاستراتيجية لتطبيقاته.

قد يرفض بعض علماء النفس العرب تقبل الفكرة القائلة بالتزاوج بين الاستعمار وعلم النفس، وبين الامبريالية وعلم النفس، وبين المخابرات وعلم النفس. ولكن مهما كان الرفض فهناك علاقات شائكة التداخل، ومعقدة التفاعل بين هذه القوى. إذ تحتاج هذه العلاقات لقراءة فاحصة وناقدة لكشف الحساب، ولشحن أو لتعزيز فيض من الذكريات لأخذ الدروس والعبر منها. ويمكن القول إن روح الاستعمار والامبريالية قد سرت في أوردة وشرايين علم النفس، وأن عظمة وعملقة علم النفس تقف من خلفها المخابرات بدعمها السخي لتطور مفاهيمه، ونظرياته، ومناهجه، وتقاناته. فياترى، متى يصل علماء النفس العرب إلى تلك النقطة المحددة التي يقبلون فيها سوء استخدام

علمهم بواسطة رفقائهم من علماء النفس في جزء آخر من العالم؟ والسؤال المحير هو كيف نقرأ وندرس ونبحث في علم النفس دون الإحساس بهذه السيطرة؟ مع العلم بأن الإحساس باب مهم من أبواب علم النفس العام! وإنه لأمر عجيب، إذ إن كبرياء بعض علماء النفس العرب، لا تود أن تجرح علم النفس الغربي، مع أن اسكنر نفسه عبر عن تجريح علم النفس لحرية وكرامة الإنسان، وحسب تعبيره «إن الناس قد تم التلاعب بهم». ويعترف عالم الإنسان مالينوسكي قائلا: وبعد عشرين عاما من العمل الانثروبولوجي وجد نفسه كما كانت في موقفها الخاص، بمحاولة دراسة الإنسان بطريقة تسيء للإنسان، تجرح إنسانيته، تماما كما جرحت الفيزياء والكيمياء والطبيعيات الطبيعة في السنوات السابقة (لكلرك، ١٩٩٠). إن المحاولة الهروبية لدفن الرؤوس في الرمال لعدم المواجهة، أو النظرة البريئة الوديعة لتطبيقات علم النفس، والقول بأنه علم طاهر، وعفيف، ونقي، وتقي، هي من العوامل التي حولت علم النفس في العالم العربي لكي يكون «بلا لون، وبلا رائحة، وبلا طعم».

يعتمد البحث الحالي على النظرة القائلة إن واحدا من أهم جوانب التطبيقات العالمية لعلم النفس وضوحا هو المفارقة بين عملية «التطبيق بالجملة»، و«التطبيق بالقطاعي». وتعني العملية الأولى الاستخدام الأكبر لعلم النفس في السياسة الدولية، وخصوصاً في الحرب الباردة بقصد التحكم، واستخدامه في المخابرات بصورة خفية ومستورة، بينما تعني الثانية الاستخدام الأصغر لعلم النفس في المجال التربوي، والعلاجي، والمهني. وتبعا لهذا التعريف يبدو أن علماء النفس في الغرب في حالة من الاستعداد المهني. لتطبيق علم النفس بفعالية بالجملة (الماكرو)، وبالقطاعي (المايكرو) على السواء، وبتعبير آخر، استخدام مزدوج يقوم بكلا الدورين، أو يلعب على الحبلين، بصورة واعية وهادفة. لذلك كانت نتائج علم النفس في الغرب أكبر من طموحاته لأنه يقوم بأداء كل من «الفرائض، والنوافل» بجدة. وبالمقابل، ربما يمكن القول إن هناك عدم تهيئة نفسية لعلماء النفس في العالم العربي لتطبيق علم النفس بفعالية، حتى على مستوى القطاعي (المايكرو). بمعنى آخر، يقوم علم النفس بأداء حتى «النوافل» بوجهها الأكمل. ونتيجة لعدم التهيئة النفسية هذه، لم ينجح علم النفس في العالم العربي في تحقيق طموحاته المذكورة في مقدمات كتبه وهي: الفهم، والتنبؤ، والتحكم. وجانب ثان من جوانب المفارقة، هو محاولة علماء النفس العرب شرنقة علم النفس داخل قوقعة صغيرة لا تسمن ولا تغني من جوع، وهذه الشرنقة جعلت علماء النفس العرب

يتعرضون أكثر من أي مجموعة أخرى من علماء النفس في العالم لعملية غسيل الدماغ بعلم النفس نفسه، مما عزز زيادة التهميش وتعميق الهزائم النفسية في العالم العربي. ومن جهة أخرى، ساعدت هذه الرؤية الضيقة والتقليصية لعلم النفس على حصول انتصارات لصالح قوى تعرف كيف تطبق علم النفس بصورة فائقة الفائدة. وجانب ثالث من جوانب المفارقة هو ممانعة علماء النفس في الغرب من الالتزام بالمعايير الأخلاقية لتطبيقات علم النفس، وتبعا لذلك يتم تطبيقه في كثير من الأحيان بصورة «إجرامية»، وتسامح علماء النفس العرب بمراعاة هذه المعايير، وتطبيق علم النفس بصورة «قديسية». وفي هذا الجانب اقتبس ما عبر عنه اسكنر بقوله: «إن تكنولوجيا السلوك تعتبر من الناحية الأخلاقية محايدة، ويمكن استخدامها من جانب المجرمين أو القديسين» وبكلمات أخرى، إن رؤية الشفقة والرحمة لدى علماء النفس العرب تقابلها في أحايين كثيرة رؤية القسوة والعدوانية عند علماء النفس في الغرب، ولكي نفهم طبيعة العلاقة بين التطبيق بالجملة، والتطبيق بالقطاعي، هناك أهمية لتتبع تاريخ علم النفس الضارب بجذوره العميقة في الاستعمار، خصوصاً ارتباطه بالامبراطوريتين: الألمانية والبريطانية. ويعتمد البحث على النظرة القائلة إن مفاهيم ونظريات ومناهج علم النفس بلغة أنثروبولوجية، هي عبارة عن أسلاف غائرة في الاستعمار، وبلغة نباتية، أن زهرة علم النفس المعاصرة تقف على جذور شجرة عميقة في الامبريالية. وهناك أهمية بأن ندرس طبيعة الحلف بين علم النفس وعلم الإنسان وتهليلهما للتحكم والسيطرة، وزيادة قبضة الغرب على اللاغرب. إن هذا التهليل ساعد على تعزيز تطبيقات علم النفس بصورة مبرمجة واستراتيجية لكي ما «يستعمر»، و«يأسر» بصورة غائرة. لذلك لابد من سبر هذه الأغوار الاستعمارية، والجذور الامبريالية لعلم النفس. أولا، بوسعنا القول إنه من دون قراءة عميقة غائصة في تاريخ علم النفس وتأسيسه «البحث» في ألمانيا، وتأسيسه «التطبيقي» في بريطانيا، وتطوره «التعلمي الكلاسيكي» في روسيا، وارتقائه «الامبريالي» لقمة إفرست في أمريكا، سوف نفشل في تحديد علاقة علم النفس الاستراتيجية بالحرب الباردة، وهو هدف مركزي للدراسة الحالية. وثانيا، بوسعنا القول كذلك، إنه من غير قراءة ذكية لأبحاث غسيل الدماغ، والقياس النفسي، والتنويم المغناطيسي، وتقانة التجسس، ومعرفة القوة الخفية وراء تمويل هذه الأبحاث سوف نفشل في «فك شفرة من شفرات» علم النفس في استخدامه المستور في المخابرات. وثالثا، بوسعنا القول كذلك إنه من غير قراءة موسوعية لمعرفة دور علم النفس في إطار

العلاقات العربية الإسرائيلية من خلال كيفية صياغة الحرب النفسية، وتنظيم العمليات الإرهابية، واستغلال الجمعيات العالمية السيكولوجية، سوف نفشل في وعي أو تشخيص بعض أسباب الهزائم النفسية أمام إسرائيل. ورابعا، بوسعنا القول إنه من غير قراءة دقيقة لأهداف علم النفس، كما هي في كتب المقدمات، والمبادئ، والمداخل، والأسس، سوف نفشل في تحديد ما المقصود بـ «التحكم بالقطاعي»، وهو هدف مركزي للدراسة الحالية.

علم النفس والاستعمار

يعتبر فونت الأعلى مقاما في تاريخ علم النفس، وهو أول شخص، من غير تحفظ، يمكن أن يطلق عليه «عالم نفس» فقد قام بإنشاء أول معمل لعلم النفس في جامعة لايبزج عام ١٨٧٩ وهو العام الذي يؤرخ فيه لاستقلال علم النفس عن الفلسفة. وكتب فونت في بدايةاهتماماته «علم النفس التجريبي»، ومن ثم «علم النفس الاجتماعي»، وما وراء الطبيعة العلمية». ولقد أكد فونت أن العمليات العقلية العليا إنما تدرس عن طريق دراسة الإنسان الطبيعي عن طريق علم النفس الشعبي (بورنج، ١٩٥٧). ونتيجة لذلك كتب في السنوات الأخيرة من حياته مجلدات عدة عن علم النفس الشعبي أو الفلكلوري. ويذكر فونت أن العمليات النفسية الفردية يمكن دراستها في المعمل، بينما النماذج الثقافية لا يمكن أن تدرس في المعمل (كيم وبري، ١٩٩٣). وتبعا لذلك فقد أدرك فونت أن المنهج التجريبي في علم النفس مناسب لبحث العمليات العقلية الأساسية، ولكنه غير مناسب لدراسة الظواهر التي تتأثر بالثقافة (بري، ١٩٩٣) ولقد بين بذلك أوجه قصور المنهج التجريبي (دانزقار، ١٩٨٣)، ومن ثم أشار إلى أن التفكير يتأثر بصورة كبيرة بمجال اللغة، والعادات، والأساطير، وهي مجالات لعلم النفس الثقافي أو الفلكلوري (دانزقار، ١٩٧٩). في أثناء الحرب العالمية الأولى قال فونت إن العقل الجمعي في ألمانيا هو أرفع مقاماً من العقل الجمعي للأعداء. ويؤكد المجتمع الألماني على البطولة، والواجبات، والمثل الروحية (كتدلر، ١٩٨٧) من ناحية تاريخية، فقد ارتبط إنشاء علم النفس الشعبي، أو علم النفس الفلكلوري، لدراسة المجتمعات البدائية ارتباطا وثيقا بإنشاء الأنثروبولوجيا.

عرفت الأنثروبولوجيا عام ١٨٦٠ تقريباً طفرة جديدة، تعتبر في الواقع بداية هذا العلم (الكلرك، ١٩٩٠). فبين عامي ١٨٦٠ - ١٨٨٠ ظهرت معظم مؤلفات المدرسة التطورية: ومنها «حق الأمومة» لباخ أو فن، و«القانون القديم» لماين عام ١٨٦١، كما ظهر عام ١٨٦٥ كتاب لتيلور بعنوان «أبحاث

في التاريخ المبكر للجنس البشري»، أتبعه عام ١٨٧١ بكتابه «المجتمع البدائي»، هذا إلى جانب كتاب مورغان عن «نظم القرابة» عام ١٨٦٩ وكتابه عن «المجتمع القديم» عام ١٨٧٧. وعلم الإنسان، على حسب قول ادوارد سعيد، (١٩٩٧) هو أكثر العلوم الاجتماعية تواشجا بالاستعمار، إذ كثيرا ما قدم علماء الإنسان والأصول العرقية المشورة والنصح للحكام الاستعماريين حول عادات الشعوب الأصلانية وأعرافها ومسالكها. وتنمي مجموعة المقالات الممتازة، التي حررها طلال أسد عام ١٩٧٣ وعنوانها «علم الانسان والمواجهة الاستعمارية»، الصلات إلى ما هو أبعد من ذلك. ويتحدث معظم مؤرخي الامبراطورية عن «عصر الامبراطورية» بوصفه يبدأ رسميا حوالي عام ١٨٧٨، مع «التزاحم بالمناكب لامتلاك افريقيا». وازدهر علم الاجتماع (بإلهام من لو بون)، وعلم النفس (الذي دشنه ليوبولد دو سوسور)، والتاريخ، وعلم الإنسان طبعا، في العقود التالية لعام ١٨٨٠، وتوج العديد منها بمؤتمرات استعمارية عالمية (١٨٨٩، ١٨٩٤، إلخ) أو بجماعات محددة (كالمؤتمر العالمي لعلم الاجتماع الاستعماري عام ١٨٩٠، ومؤتمر علوم الأعراق الوصفية في باريس عام ١٩٠٢).

وفي المانيا، تمت دراسة علم النفس المناسب، والذي يتطابق مع المشاريع الاستعمارية مباشرة بعد استقلال علم النفس عن الفلسفة عام ١٨٧٩، ولقد ركزت بعض الأبحاث النفسية المبكرة على توظيف الامبراطورية الألمانية لعلم النفس، وخاصة علم نفس الأعراق البشرية (برويست، ١٩٩٦). وعندما انتقدت سياسة المانيا في المستعمرات، حاول السكرتير الاستعماري للدولة إحداث إصلاح من خلال استخدام «وسائل محافظة أكثر من الوسائل المدمرة» (فروندر، ١٩٨٥). وتبعا لذلك تم اعتبار العلوم، وخاصة علم النفس، أدوات صالحة للتحكم «لا يستطيع الفرد عمل أي شيء من غير أن يدرس خصوصية اللغات في المستعمرات، أو يدرس نفسية السكان المحليين» (ديرنبيرج، ١٩١٢). وقد أريد لعلم نفس أعراق الشعوب أن يكون جزءا من مناهج المعهد الاستعماري في هامبورج الذي تم تأسيسه عام ١٩٠٨، والذي يقوم بتدريب رجال الخدمة المدنية ورجال الأعمال الذين يعملون في المستعمرات (هاملتون، ١٩١١). واستخدم مفهوما «علم النفس الشعبي»، و«علم نفس الأعراق البشرية» تكرارا ومرارا في هذه الفترة الزمنية، ومجال اهتمام هذين العلمين هو «علم النفس» و«علم الأعراق». وكلاهما تأسس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي فترة متزامنة مع بداية الاستعمار. وهناك عالمان ساهما مساهمة كبيرة في تطوير علم الأعراق

البشرية هما: فونت وثورنديك. واعتبرت مساهمة فونت في علم نفس الأعراق تمثل خلفية معرفية مهمة تساعد رجال الخدمة المدنية في فهم أفضل لعقلية السكان المحليين في المستعمرات. أما علم نفس الأعراق البشرية الذي أسسه ثورنديك فإنه يهتم بدراسة العلاقات الوظيفية بين الفرد وإطاره الثقافي الاجتماعي، واعتمد ذلك العلم على منهج الملاحظة والمسوحات التي أجريت في الثقافات الأجنبية (المستعمرات). وتبعا لذلك فقد تم تطوير مجموعة كبيرة من المقاييس النفسية في معهد برلين لعلم النفس التطبيقي لاستخدامها في دراسة الشعوب البدائية.

ولقد صمم مشروع دراسة الشعوب البدائية أساسا لأغراض البحث التي يقوم بها المكتشفون في المستعمرات، وكذلك بالنسبة للمبشرين والمعلمين ورجال الخدمة المدنية والأطباء الذين يعملون في المستعمرات. وشمل مقياس الشعوب البدائية مجالات واسعة من الوظائف السيكولوجية مثل الإدراك، والذكاء، والعلاقات الاجتماعية، والقيم وغيرها. وتبعا لذلك فقد تم توظيف علم النفس كأداة فعالة لتوظيف طاقة العمال في المستعمرات، وقاد ذلك التوظيف إلى الاستفادة من قوة كل عرق بشري حسب قدرته، وهذه هي المنظومة الجديدة التي أدخلها الاقتصاد الأوروبي من خلال التحكم في عضلات السكان المحليين في المستعمرات (بروبست، ١٩٩٦). وصورة السكان المحليين في المخيال الغربي هي صورة الإنسان الكسول الذي يحتاج لعملية تعزيز أكبر لتفجير طاقته العضلية. وتعبر دراسة (العطاس ١٩٧٧)، (سعيد ١٩٩٧) الممتازة عن: «أسطورة الأصلاني الكسول: وهي دراسة لصورة الماليزيين، والفلبينيين، والجاويين من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين ووظيفتها في عقائد الراسمالية الاستعمارية» وهي تعبر عن صورة الإنسان في المخيال الغربي.

وبإمكان أي عالم نفس أن يلاحظ الآن أن هناك علمين للنفس في ألمانيا انعكسا في معملين متقابلين: «معمل حديث» أنشئ في لايبزج عام ١٨٧٩ في السنة التي استقل فيها علم النفس عن الفلسفة واختص هذا المعمل بالمساهمة الأولى لفونت في علم النفس التجريبي أو علم النفس البحت. وأرجو ألا يفهم بشكل خاطئ، إذا قلت إن هذا المعمل ارتبط بالإنسان الغربي أو الإنسان في أوروبا أو الإنسان «المتحضر» وربما يتوجب علي أن أضيف أن هناك معملا آخر لعلم النفس الشعبي، أو علم الفلكلوري، أو علم نفس أعراق الشعوب وكان في المعهد الاستعماري في هامبورج الذي أنشئ عام ١٩٠٨ واختص بالمساهمة الأخيرة لفونت في علم النفس الشعبي، التي

تم توظيفها بفعالية لخدمة الأهداف الاستعمارية. واختص هذا المعهد بالشعوب «البدائية» في المجتمعات غير الغربية. وساهم علم النفس مساهمة كبيرة في إشعال وقود الاستعمار والامبريالية، أو «التلاعب التحكمي» كما يعبر إدوارد سعيد. ويفهم من ذلك بأن علم النفس كانت بواعثه استعمارية منذ مرحلة تاريخية مبكرة. ويمكن التساؤل: هل مهد علم النفس لتدعيم الاستعمار؟ أم أن الاستعمار مهد لتدعيم علم النفس؟ فيا ترى أيهما السبب؟ وأيهما العرض؟

وربما كان من الأنسب القول إن ألمانيا كمؤسس لعلم النفس «البحت» أو «التجريبي» لعبت دورها الريادي في سياسة ارتباط علم النفس بالاستعمار، لأن علم النفس تم اعتباره «أداة صالحة للتحكم» حسب تعبير ديرنبيرج-وان بريطانيا، كمؤسس لعلم النفس الفارق أو التطبيقي، لعبت دورها الريادي كقوة عظمى في سياسة توظيف علم النفس في المستعمرات التي لا تغيب عنها الشمس. ويتجلى هذا الدور من خلال إسهامات معمل جامعة كيمبردج الذي قام علماء النفس فيه بإجراء القياسات، وتسجيل الملاحظات السيكولوجية عن الشعوب البدائية، وكذلك من خلال المعهد الأفريقي العالمي، والذي كان يقدم النصح بالنسبة للإداريين البريطانيين في المستعمرات. كما يمكن الإشارة بصورة اتهامية إلى أن بعض علماء النفس هم باحثون واستعماريون، أو علماء وامبرياليون. وقد يصعب في هذه الحالة الفصل بين الوظيفتين. وتبعا لبورنج (١٩٥٧) قام هادون، عالم الإنسان بجامعة كيمبردج، بوضع خطة لحملة أنثروبولوجية واشترك معه فيها عالما النفس ميرز وماكدوجال لعمل بعض القياسات الأنثروبولوجية والسيكولوجية، والملاحظات عن الشعوب البدائية. وبالفعل قاما بقياس الحواس والإدراك، وكانا على وعي بأنهما يؤديان عملا أكثر كمالا مما قام به جالتون. وشارك علماء النفس في بريطانيا بفعالية، كعلماء نفس في الحرب العالمية الثانية. وكان معمل علم النفس في جامعة كيمبردج رائدا في ذلك، ولاسيما من خلال التقارير التي لاتحصى والتي تم إصدارها ونشرها.

إن الحملة الاستكشافية التي قامت بها جامعة كيمبردج إلى منطقة توريس استريتز (ريفرز، ١٩٠١) تعتبر من ناحية تاريخية واحدة من المحاولات عبر الثقافية الباكرة. وكان هدفها جمع معلومات منظمة عن ثقافة غير غربية، ومقارنة هذه المعلومات بالمعلومات الموجودة لموضوعات عدة، ولم يسبق لها أن تم تماثلها من وجهة نظر علم النفس عبر الثقافي. ولقد تضمنت هذه الحملة بعض الأسماء، والتي أصبحت فيما بعد مثارا للنقاش السيكولوجي مثل: ريفرز، وسليقمان،

وميرز، وماكدوجال. ولقد درس كل من ريفرز وسليقمان الخداع البصري عن طريق تطبيق الخداع الأفقي - الرأسي، وخداع مللر لاير. ولم يكن لدى الباحثين أي فكرة عما إذا كانت الخداعات البصرية التي توجد عند السكان في الغرب لها وجود عند السكان المحليين في الأماكن النائية من العالم، ومدى قوتها في حالة وجودها. ولقد اقترح ريفرز بخصوص نتائج الخداع البصري، أن استجابة الأفراد في الغرب للأشكال نظرة كلية، بينما يركز الأفراد في الأماكن النائية على الانتباه كعامل مهم. ولقد مدد ريفرز (١٩٠٥) أبحاثه عن الخداع للسكان «التداس» الذين يسكنون في جنوب الهند، وأظهرت نتائج دراسته أن التداس كانوا أكثر عرضة للخداع من الرجال الإنجليز، والنساء، والأطفال. وأن الأحوال الفسيولوجية، وآثار الخبرات في الحياة المتحضرة أظهرت أن الخبرات المستمدة من دراسة الأشكال الهندسية والرسومات تؤثر على تقليل وإضعاف الخداع (ديريقووسكي، ١٩٨٠). ويمكن القول إن هذه الحملات التي انطلقت من جامعة كيمبردج كانت تخدم بعض الأهداف الاستعمارية. ويمكن أن نتلمس المركزية العرقية البريطانية من خلال تعبير مثل «الأماكن النائية»، أي نائية عن المركز البريطاني، وأن نتلمس النظرة الاستعلائية في عملية «تماثل المعلومات في الغرب وفي غير الغرب». وكان من بين أهداف الدراسة معرفة قوة الخداعات في هذه المجتمعات. وربما كانت هناك أهداف خفية غير الأهداف العلمية في معرفة نقاط الضعف في هذه المجتمعات، لأنها مجتمعات تنظر بصورة تجزيئية للموضوعات بينما ينظر الأفراد في بريطانيا بصورة كلية. إن النتائج التي تم التوصل إليها هي أن الأفراد في الأماكن النائية «أكثر عرضة للخداعات»، وعلى الرغم من أن تعبير خداع يقصد به من ناحية سيكولوجية بحتة «الخداع البصري» في رؤية الأشياء، لكن ربما يمكن تأويل هذا التعبير بصورة أخرى، أي إحكام عملية السيطرة على المجتمعات عن طريق خداعها.

لقد تأسس علم النفس في بريطانيا بصورة تطبيقية من خلال إسهام فرنسيس جالتون خلافا لتأسيسه في ألمانيا بصورة بحتة من خلال إسهام فونت. وكان علم النفس التطبيقي على علاقة وثيقة بالانثروبولوجيا والمشاريع البريطانية الاستعمارية. ويعتبر المعهد الافريقي العالمي، الذي أسس عام ١٩٢٦، من أنشط الأجهزة وأكثرها أهمية من بين الأجهزة العالمية - الإدارية التي تأسست أثناء قيام الانثروبولوجيا التطبيقية. ولقد جاء في بيان المعهد التأسيسي أن أهم أهدافه «القيام بتقريب كامل بين المعرفة والبحث العلمي من جهة، وبين الأمور التطبيقية من جهة ثانية». ثم

بدأت قطاعات استعمارية جديدة بدورها الاهتمام بالأنثروبولوجيا، ففي عام ١٩٤٤ أنشئ المجلس البريطاني للبحث الاجتماعي في شؤون المستعمرات. وعهد إليه إسداء النصح إلى سكرتارية الدولة في المستعمرات بخصوص «المسائل التي تتعلق بالعلوم الإنسانية، وتكون في خدمة الامبراطورية الاستعمارية» (لكلرك، ١٩٩٠).

لا تكاد الفروع الدراسية، التي يطلق عليها الغرب «العلوم الاجتماعية»، تبلغ من العمر قرنا من الزمان، وتشمل تلك العلوم في معظم الجامعات خمسة فروع تتمثل في علم الاجتماع، وعلم الإنسان، وعلم النفس، والعلوم السياسية، وعلم الاقتصاد، والتاريخ، ويوجد فرعان آخران من الدراسة يتمتعان بمرتبة مزدوجة هما: الجغرافيا وعلم النفس. فحين يعنى علم النفس بدراسة الأشخاص يتم تصنيفه ضمن العلوم الطبيعية، ولكنه إذا عني بدراسة الجماعة يصبح حينئذ علما اجتماعيا (الفاروقي، ١٩٧٩). وعندما تأسست العلوم الاجتماعية، في القرن التاسع عشر، كانت عبارة عن ممارسات توجد في دول قليلة، وهي بالتحديد: بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، والولايات المتحدة. وأن ظهور هذه العلوم وبصورة خاصة التاريخ، والاقتصاد، والعلوم السياسية، وعلم الاجتماع، كانت مهمتها بصورة أساسية بالحقيقة التجريبية لهذه الدول الخمس، وبصورة أكبر كانت تهتم بالغرب. وفي ذلك الوقت انتبه علماء العلوم الاجتماعية إلى أن «الغرب» ليس هو الكلية في العالم، وانتهبوا إلى أن «اللاغرب» هو «اللاحديث»، ولذلك فهو مختلف بصورة جذرية عن الغرب. ولقد طرح حينها السؤال، كيف تتم دراسة «اللاغرب»؟ وللإجابة عن هذا السؤال فقد تم تأسيس علوم خاصة، وهي «علم الإنسان» لدراسة الشعوب المدعوة بالبدائية، و«الاستشراق» لدراسة المدعوة بالحضارات العليا، مثل الصين والهند والعالم العربي (والرستين، ١٩٩٧).

ولا ينبغي أن نخطئ عملية الإدراك، إذ إن معظم العلوم الاجتماعية هي انعكاس للحقيقة الاجتماعية والثقافية في الدول الغربية التي انتجتها (ادوارد سعيد، ١٩٩١، اسماعيل الفاروقي، ١٩٧٩، علي مزروعي، ١٩٧٨، عمر الخليفة، وإخلاص عشرية، ١٩٩٥). ولقد تأسست الأنثروبولوجيا والاستشراق لدراسة المجتمعات غير الغربية (لكلرك، ١٩٩٠، والرستين، ١٩٩٧)، والتي من بينها العالم العربي (الحبابي، ١٩٨٧). ولقد تأسس هذان العلمان على علاقة وثيقة مع الاستعمار والامبريالية، وانتهاء الاستشراق، وتحول حضارات الشرق من موضوع إلى ذات، وتصحيح الأحكام التي ألقاها الوعي الأوروبي، وهو في عنفوانه عن حضارات الشرق،

فالاستشراق يكشف عن طبيعة العقلية الأوروبية ونظرتها إلى الآخر أكثر مما يكشف عن الموضوع المدروس، فهو موضوع دراسة وليس دراسة موضوع (حسن حنفي، ١٩٨٥) وهو يعبر عن مصالح الغرب ورؤيته لمجتمع الشرق أكثر مما يكشف الحقيقة الاجتماعية والثقافية والسيكولوجية في الشرق. كما يعكس صورة الشرق في ذهن الغرب.

ويبين إدوارد سعيد، في دراسته الشاملة حول الاستشراق، بوضوح أن الشرق كما يعرف به المستشرقون «هو اختراع أوروبي» فهو لايتكلم عن نفسه بل يتم الكلام حوله بالنيابة عنه وليس بموجب واقعه، بل بموجب مصالح الغرب ورغباته في تسويق سياسته الاستعمارية. لذلك جاء الاستشراق في جوهره ممارسة في السيطرة، ورؤية سياسية تصر على التفوق الغربي (حليم بركات، ١٩٨٤). يقول كمال أبو ديب في مقدمته لكتاب الاستشراق لادوارد سعيد (١٩٩١): إن الكتاب يمثل ثورة جديدة في الدراسات الإنسانية وتتكثف في هذه الثورة منطلقات متعددة، لعل أهمها تكوّن مفهوم جديد للقوة والشبكة الخفية من علاقات القوة التي تنسجها المعرفة، متجسدة في الإنشاء الكتابي، ومفهوم سياسة العلاقات الانسانية بكل أشكالها، وسياسة المعرفة، وسياسة البحث... وينصب هذا التثوير للمعرفة حتى الآن على رج الثقافة الغربية، وكشف آلية السلطة، والسيطرة والقوة والتلاعب التحكمي فيها.

أما بالنسبة لعلم الإنسان، فقد ركزت التحليلات النقدية المبكرة كالدراسات التي اهتمت بالخطاب المستعمل في الانثروبولوجيا والتاريخ والميادين المعرفية المتصلة بهما، على موضوعات عامة كالعلاقة مثلا بين السيطرةالاستعمارية أو الهيمنة السياسية، وتمثل المجتمعات المهيمن عليها (ايكلمان، ١٩٩٠). ولقد كان علم الإنسان وهو أكثر العلوم جراة نظرا لأن موضوع دراسته - وهو المجتمعات «البدائية» المنتمية للعالم غير الغربي - كان حقيقة جامدة، غير قادرة على رفع إصبع واحد بالانتقاد لأساتذتها، ولقد تم تكوين النظرية تلو الأخرى لإيجاد صياغة لتلك الحقائق التي كانت تعد جزءا لا يتجزأ من الراي الغربي عن العالم (الفاروقي، ١٩٧٩).

يقول لكلرك (١٩٩٠): إن مجال علم الإنسان ظل، وكما هو معروف إلى الآن، محصورا بماضي المجتمعات التي أطلق عليها المجتمعات «المتوحشة»، أو «البدائية» أو «التقليدية» أو «غير الغربية» أو «العالم الثالث»، ولقد وصفت المجتمعات بتلك الأوصاف لأنها ببساطة كانت صالحة للخضوع لسيطرة الاستعمار.

وفي علم النفس المعاصر كثيرا ما تستخدم مصطلحات «التثاقف»، و«المثاقفة»، و«التمثيل الثقافي»، سواء في علم النفس عبر الثقافي، أو علم النفس الاجتماعي، أو في القياس النفسي. وترتبط الجذور التاريخية لهذه المصطلحات بالفترة الاستعمارية. لقد ظهرت كلمة «التثاقف» عام ١٨٨٠ على أيدي الانثروبولوجيين الأمريكيين، أي في قمة سيطرة الغرب. ويشير المفهوم إلى انتقال مؤسسات أو ممارسات أو عقائد ثقافية ما (أو مجتمع) إلى أخرى، وتحت هذا المعنى المجرد والعام يختبئ المعنى الحقيقي، الذي ليس شيئا آخر سوى الاستعمار. وكل الدراسات المختصة بالتثاقف ليست سوى دراسات لبعض مظاهر الاستعمار. وتعني في الواقع دراسة الاحتكاك الثقافي الغربي بسائر الثقافات. إن مجال مفهوم التثاقف مساو تماما، بل يتماهى كليا مع مجال مفهوم الاستعمار. لقد لاحظ سوسير في كتابه «علم نفس الاستعمار» بثقابة نظره أن سياسة التماثل إنما تستند إلى مبادئ التطورية الخطية فهو يقول: «تقوم سياسة التماثل على حجج مغرية». ولكن «حتى نتمكن من من تحقيق التماثل مع أعراق تختلف عن أعراقنا، علينا أن نكون مقتنعين بقابلية تلك الأعراق للتماثل، أي علينا الاعتقاد بالوحدة التكوينية للطبيعة الإنسانية». واعتبر سوسير الطبيعة الإنسانية «تكوينا عقليا ذهنيا» ورأى في الجذع التطوري الوحيد عددا من التشعبات المتميزة (لكلرك، ١٩٩٠).

إن العلوم الاجتماعية تمثل أداة فعالة في تحقيق السيطرة على الإنسان والمجتمع. ولقد كانت التصورات ووجهات النظر السياسية، التي صاغتها، وتحكمت بها تلاعبيا وسائل الإعلام، على قدر بالغ من الأهمية في ذلك كله. وفي الغرب، كانت تمثيلات العالم العربي ولا تزال منذ حرب عام ١٩٦٧ فظة، وتقليصية، وعرقية عنصرية، كما أثبت البحث النقدي في أوروبا والولايات المتحدة بما لا يترك مجالا للريبة. لكن رغم ذلك تستمر في التدفق الأفلام والعروض التلفازية التي تصور العرب «راكبي جمال» دنيئين، وإرهابيين، و«شيوخا» أثرياء، إلى درجة تثير الاشمئزاز. فعلى مدى عقود عديدة، لا تزال تشن في أمريكا حرب ثقافية ضد العرب والإسلام: وتوحي الشخوصات الساخرة (الكاريكاتورية) العنصرية المروعة للعرب والمسلمين، بأنهم جميعا إما إرهابيون أو شيوخ نفط، وأن المنطقة خراب قاحل شاسع لا يصلح لشيء، إلا لجني الأرباح أو الحرب (سعيد، ١٩٩٧).

إن المثقافة أو التثاقف ترتبط بالجذور التاريخية لتأسيس علم الإنسان وعلم النفس، وتتعزز هذه المثاقفة التي تمثل وترسم صورة الآخرين بتصدير المفاهيم والمناهج والنظريات الخاصة بهذه

العلوم. ان استيراد علم النفس إلى العالم العربي يمثل نوعاً من المثاقفة تجاه الغرب. والمأساة ان هذه المثاقفة، كما يقول الزغل (١٩٩١) تتم في ظروف يبدو فيها التبادل غير متكافئ، وغير متبادل، إنها نمط من المثاقفة الشبيهة بتلك القائمة بين النموذج والتلميذ في وضع يفرض فيه النموذج على التلميذ قاعدة سماها علماء النفس «القيد المزدوج» أي الإلزامية المزدوجة والمتناقضة، انه مثل الأب الذي يطلب من ابنه أن يقتدي بمثله في الحياه، لكنه يعاقبه عندما يشرع الابن في التدخين أو في إطلاق شاربه ليشعر برجولته. يمكن تجاوز وضع الإلزامية المزدوجة دون أضرار جسيمة، لكن الإبقاء عليها قد يؤدي إلى حالات من العصاب أو ردود فعل عنيفة، يصعب السيطرة عليها، إن الذين يفلحون في تجاوز هذه الوضعية المزدوجة هم الذين تمكنوا من تطبيق الإلزامين المتناقضين للقيد المزدوج «كن مثل النموذج ولا تكن مثله» في مجالين مختلفين. وفي هذا الصدد يبدو أن الآسيويين، وخصوصاً اليابانيين، يتمتعون بملكة التمييز بين المجالات التطبيقية لمختلف النماذج الثقافية التي تبثها الحضارة الغربية. كيف يمكننا إذن فهم الصعوبة التي يلاقيها العرب في التفريق بين مجالات التطبيق لمختلف النماذج الثقافية التي يبثها الغرب؟

علم النفس في أمريكا

ويتوجب علي الآن أن أضيف إلى ما كتبته عن ارتباط علم النفس بالامبريالية العالمية المساهمة الأمريكية في هذا المجال، وهي امتداد طبيعي للمساهمة الألمانية والبريطانية. وقد يكون من المناسب معرفة علاقة علم النفس في أمريكا بعلم النفس الجديد في جامعات ألمانيا. فقد بدأ وليم جيمس علم النفس في أمريكا مع إدراكه بأهمية علم النفس الفسيولوجي الجديد في ألمانيا .وجيمس لم يكن بطبعه شخصا تجريبيا، ولكنه كان يؤمن بالتجريبية، وقدمها إلى أمريكا بعد أن وضع عليها الختم الأمريكي من خلال تأكيده على المعنى الوظيفي للعقل. وعمل جيمس على تفسير علم النفس الجديد في ألمانيا ونقده وإدانته، وكان متسقا دائما مع الروح الوظيفية لعلم النفس الأمريكي. ويصعب القول ما إذا كان جيمس قد قام بتجديد هذه الروح أم هو مجرد انعكاس لها؟ (بورنج، ١٩٥٧). يذكر سوكال (١٩٩٢) أن مؤسسي الجامعات الأمريكية نظروا إلى أوروبا، ومن ثم تبنوا النموذج الألماني كقاعدة للبحث في جامعة كورنيل (١٨٦٥)، وجامعة جون هوبكنز (١٨٧٦) وجامعة كلارك (١٨٨٧) وجامعة شيكاجو (١٨٩١)، وجامعة استانفورد (١٨٩٢). وعندما أسس فونت معمله في ليبزج عام (١٨٧٩) سرعان ما توافد عليه الطلاب ليدرسوا في

المعمل، وينالوا درجة الدكتوراه في هذا الفرع الجديد من العلم، وضم معمله خلال العشرين عاما الأولى أسماء برزت بعد ذلك في تاريخ علم النفس، وكان أبرز ما يميز هذه القائمة من الأسماء تضمنها لعدد كبير من الأمريكيين الذين عادوا جميعا ليدرسوا علم النفس في بلادهم، وقام الكثيرون منهم بتأسيس وتوجيه معامل علم النفس (فلوجل، ١٩٨٨). والتدريب المنهجي الذي لقنه فونت إلى تلاميذه الأمريكيين للإجابة عن أسئلة العقل، حوله الأمريكيون وترجموه إلى تقنيات جديدة لأسئلتهم الخاصة في داخل وخارج المعمل، وتبعا لذلك قام طلبة فونت بنشر الاتجاهات العلمية في علم النفس في أمريكا، وربما نجحوا في ذلك اكثر من أي محاولة أخرى في العالم (بنجامين واخرون، ١٩٩٢).

ومن المناسب الآن أن نتتبع التطور الهائل لعلم النفس في أمريكا، التي قامت بأكبر مساهمة في إنتاج وتصدير علم النفس للعالم، ومن بينه للعالم العربي. لقد نال هول أول دكتوراه في علم النفس عام ١٨٧٥ من جامعة هارفارد، وكانت أول دورية لعلم النفس باللغة الإنجليزية هي المجلة الأمريكية لعلم النفس، التي أسسها هول عام ١٨٨٧. وفي عام ١٨٨٦ الف جون ديوي أول كتاب مدرسي «علم النفس» وهو أول محاولة لمؤلف أمريكي لكتابة كتاب لعلم النفس الجديد، كما أنه الأول من نوعه باللغة الإنجليزية. وقامت الرابطة النفسية الأمريكية بتنظيم أول اجتماع سنوي عام ١٨٩٢ في جامعة بنسلفانيا (كاتل ١٨٩٤)، ولقد حضر الاجتماع ١٨ من بين ٣١ عضواً وتم تقديم ١٢ ورقة علمية عن تطور علم النفس. ومنذ عام ١٨٩٥ تعقد الرابطة اجتماعاتها بانتظام مع جمعيات أخرى منتسبة، وذلك بمساعدة الجمعية الأمريكية للطبيعيين (سوكال، ١٩٩٢). وبحلول عام ١٩٠٠، وبعد ١٧ سنة من إنشاء معمل علم النفس في جامعة جونز هوبكنز بواسطة هول تم افتتاح ٤٢ معملا في الجامعات الأمريكية، والتي استخدمت المناهج العلمية لعلم النفس الجديد. إن ١٣ من هذه المعامل تم افتتاحها بواسطة طلبة فونت من جامعة لايبزج (بنجامين وآخرون، ١٩٩٢) وقد بحثت هذه المعامل علم النفس الذي بدأ عملية التكيف مع البيئة الجديدة (سوكال، ١٩٩٢). ويمكن القول إن علم النفس الأمريكي قد ورث خصائصه الجسدية من التجريبية الألمانية، ولكنه أخذ عقله من داروين، حيث تعامل علم النفس الأمريكي مع العقل في حالة استخدام. وفي عام ١٩٠٠ تقبل علم النفس الامريكي كلا من علم النفس التجريبي للإنسان، وعلم نفس الحيوان والقياس العقلي، وبدأ يكتشف فرويد. وفي ذلك الوقت كان بعض المحافظين من الفونتيين وبعض

الراديكاليين من الوظيفيين، أما غالبية علماء النفس فكانوا في منتصف الطريق. وفي تلك الفترة كان الجو مهيئا لواطسن، الذي أوجد السلوكية في جامعة هوبكينز في ربيع عام ١٩١٣، بورقته المعنونة «علم النفس كما يراه السلوكي»، وأصبحت علم نفس المثير والاستجابة (بورنج، ١٩٥٧).

ومن التطورات الأخرى في علم النفس هجرة مجموعة من علماء النفس من أوروبا إلى أمريكا مثل ماكدوجال، وكوفكا. وكان تأثير المدرسة الفونتية والفرويدية والجشطالتية والبياجيتية قويا في الولايات المتحدة.

وأثناء الفترة النازية هاجرت مجموعة أخرى من علماء النفس الأوروبيين إلى أمريكا وكذلك مجموعة من علماء النفس من آسيا للتدريب العالي في علم النفس (روزونزويج، ١٩٩٤). ثم اندفع علماء النفس أفواجا إلى الولايات المتحدة من كل أرجاء العالم، وخصوصاً من غرب أوروبا بالطريقة نفسها، وللسبب ذاته، الذي دفع الرسامين أسرابا إلى إيطاليا في القرن السابع عشر، وإلى فرنسا في بداية القرن العشرين. وفي الحقيقة إن عالم النفس الأوروبي لايشعر بأنه أكمل دراساته، أو امتلك الحق في التحدث بصورة رسمية وموثوقة في الشؤون السيكولوجية إلا إذا قضى زمنا في إحدى الجامعات الأمريكية (بيرلاين، ١٩٦٨) ومنذ عام ١٩٨٠ تمنح نحو ٣٠٠٠ شهادة دكتوراه في علم النفس سنويا في الولايات المتحدة، وهي أكثر من أعداد الدكتوراه في بقية أجزاء العالم.

والولايات المتحدة أكثر تطوراً في علوم النفس، لم تتأثر بالاضطرابات، مقارنة مع الدول الأخرى. ففي الولايات المتحدة هناك نحو ٥٨٠ عالم نفس و١٤٠ باحثا في علم النفس لكل مليون نسمة. وفي الدول الصناعية الأخرى غير الولايات المتحدة هناك ٣٤٧ عالم نفس و٨٢ باحثا في علم النفس لكل مليون نسمة، أما في الدول النامية فهناك ٨٤ عالم نفس و٦.٣ من باحثي علم النفس لكل مليون نسمة. والدول الصناعية حوالي أربعة أضعاف علماء النفس مقارنة بالدول النامية. وبالنسبة لأعداد باحثي علم النفس، فهم يشكلون عشرين ضعفا من الباحثين في هذا المجال بالدول النامية. والعلاقة بين القوة الاقتصادية والصناعية للدولة، وتطور علم النفس علاقة قوية على المستوى العالمي (روزونزويج، ١٩٩٤).

وبمرور عام ١٩٣٠ انفتحت العلاقة بين علم النفس والوضعية النمساوية الجديدة، وتحول حينها علم النفس الوضعي إلى سلوكية أو إجرائية، وتم استزراع علم نفس الجشطالت في أمريكا

وذلك لعدم تسامح النازية في ألمانيا. وعندما سافر الأمريكيون إلى لايبزج لتعلم علم النفس الجديد من فونت، رجع هؤلاء بكمية من الحماس لعلم النفس الفسيولوجي وعلم النفس المعملي. ولكنهم في أمريكا حوروا نموذج النشاط في علم النفس من الوصف والتعميم إلى تقييم القدرة أو الطاقة الشخصية في حالة من التوافق الناجح للفرد مع بيئته. ويمكن القول إن أدوات علم النفس ترجع إلى فونت، ولكن الإلهام يرجع إلى جالتون. وهنا يطرح السؤال، ولماذا؟ والإجابة بكل بساطة أن نظرية التطور هي التي حتمت هذا التغيير (بورنج، ١٩٥٧). وحسب نظرية التطور فإن المشكلة تتلخص في أن البيئة تعمل بطريقة غير جلية، فهي لا تدفع أو تسحب، انها تختار وتصطفي. ولقد ظلت عملية الاصطفاء الطبيعي، طيلة الاف السنين من تاريخ الفكر الإنساني، تجري وتسير وهي غير مرئية رغم اهميتها غير العادية، وحينما تم اكتشافها في النهاية أصبحت، بالطبع، المفتاح لنظرية التطور (اسكنر، ١٩٨٠). ولقد قبلت أمريكا نظرية التطور بشراهة، وتبعا لذلك يمكن القول إن علم نفس التوافق وقيم البقاء كان النتيجة. إن أمريكا أصبحت مستعدة للنشوئية أكثر من ألمانيا وإنجلترا. وأمريكا هي الدولة الرائدة الجديدة، فإن البقاء عن طريق التوافق مع البيئة هو المفتاح بالنسبة لثقافة العالم الجديد. وفلسفة أمريكا الجديدة تعتمد على الفرص والطموحات الفردية، وهي الفلسفة المسؤولة عن تطور الذرائعية والوظيفية في داخل علم النفس وخارجه، وروح العصر كانت تتطلب ذلك (بورنج، ١٩٥٧).

والتطور الهائل لنظرية التطور، والبقاء للأصلح، وتطور علم نفس التوافق في أمريكا لعب أدوارا كبيرة في عمليات التمثيل الثقافي للبلاد البوتقة، وفكرة «البلاد البوتقة». وإن الفلسفة السياسية بالنسبة للتمثيل الثقافي تتطابق تماما مع نظرية علم النفس الاجتماعي في التشابه والتجاذب (بايرن، ١٩٧١). ولقد أظهرت أبحاث علم النفس الاجتماعي أنه كلما كان هناك فردان متشابهان في ناحية الاتجاهات والنشاطات والمعتقدات والمجموعة العرقية صارا يميلان ويحبان بعضهما (كاندل، ١٩٧٨). وبالنسبة لاسكنر، فإنه من الممكن إحداث تغيير ثقافي، بل أكثر تحديدا، تصميم الثقافة التي نريد. وبنفس كيفية التحكم في الفرد يمكن التحكم كذلك في كل البيئة الثقافية. وقد عبر بقوله: «وبالنظر إلى أن علم السلوك وتكنولوجيا السلوك يعملان على وضع تصميم أو تخطيط أفضل، فهما «تغييران» مهمان في تطور الثقافة. وإذا كان هناك غاية أو اتجاه في تطور الثقافة، فإن ذلك لابد أن يكون له علاقة بوضع الناس تحت تحكم المزيد من نتائج

سلوكهم (اسكنر، ١٩٨٠) ولقد ساهم علم النفس الاجتماعي المرتبط بعلم النفس الشعبي أو الفلكلوري أو الثقافي، في فهم وإحداث التمثيل الثقافي للمجموعات العرقية. وتم التعبير عن المنهج التاريخي للاتصال عبر الثقافي بين المجموعات المختلفة من خلال الصورة الرومانسية «البلاد البوتقة» التي ينصهر فيها المهاجرون. إن الفكرة الأساسية من وراء ذلك هي أن الأقليات الثقافية يجب أن تهجر وتتخلى عن «طرقها القديمة» وموروثاتها الثقافية. وأن تتبنى «الطريقة الأمريكية» إذا تم توجيه وتعريض حرارة كافية للبوتقة فإن الفروقات الثقافية بين المجموعات سوف «تنصهر» وكل فرد يصبح من ناحية ثقافية «أمريكيا» (مقدم، تيلر ورايت، ١٩٩٣).

يمكن أن نخلص في هذا الجزء من الدراسة للقول إن أمريكا قامت بتكييف علم النفس في تربتها، وذلك لإيمانها العميق بنظرية البقاء للأصلح في الداخل للأفراد والجماعات المكونة للمجتمع الأمريكي، والبقاء للأصلح في الداخل يرتبط بالبقاء للأصلح في الخارج بالنسبة لأمريكا الدولة العظمى. ولقد تم تكييف عدة نماذج مختلفة ومحاولة المزج بينها مثل علم النفس التجريبي من ألمانيا، والقياس النفسي من بريطانيا، والوضعية من النمسا، وتعززت هذه المدارس المستوردة والمتبناة ولكن الموطنة والمكيفة مع السلوكية والوظيفية والذرائعية، وبذلك تم ختم ما هو مستورد بالدمغة الأمريكية. ولم تكن استجابة علماء النفس الأمريكيين لعلم النفس في أوروبا استجابة نقلية، بل كانت استجابة ناقدة. إذ تعلم الطلاب الأمريكيون التقنيات العلمية في ألمانيا، لكن روح العلم الجديد كانت روحا أمريكية. ولقد تحولت قبلة علم النفس من لا يبزج إلى أمريكا وأصبحت أمريكا- تبعا لذلك التحول- مركز الكون لعلم النفس، وأصبحت الجامعات الأمريكية هي الأماكن التي يحج إليها علماء النفس من العالم عامة والعالم العربي خاصة. وأصبح النموذج الأمريكي لعلم النفس هو الأكثر تأثيرا في العالم. فالكم الهائل من المصادر، وأمهات الكتب، والدوريات، والمجلات، والبرامج، والمؤتمرات، والجمعيات والمنظمات، والأدوات والتقانة المتعلقة بعلم النفس منتوج أمريكي يصدر للعالم أجمع، ومن بينه العالم العربي. وتم تعليب المفاهيم وتغليف النظريات وتصميم المناهج بصورة تسلب العواطف، وتأسر العقول، وتغسل الأدمغة، وتجعل علماء النفس- وبخاصة العرب منهم- في حالة من اللاوعي. وبوسعنا الافتراض بأن الحرب الباردة هي أكثر العوامل التي حتمت هذا التطور الهائل لعلم النفس. وهناك أهمية في التحقق من صحة هذا الافتراض.

علم النفس والحرب الباردة

عندما خرج الألمان من الحرب العالمية الأولى منهزمين، فكروا في بحث سبل الهزيمة وتعبئة الشعب الألماني تعبئة نفسية للقتال والأخذ بالثأر مرة أخرى، وبذلك اتجهت الأنظار إلى علم النفس (فرج وعطية، ١٩٨٧). وعندما كانت النازية تعد ألمانيا إعدادا شاملا للحرب، نشأ الاهتمام بعلم النفس الحربي كجزء من خطة عامة أقامها النازيون لتعبئة الدولة كلها تعبئة نفسية للقتال، وبذلك اتجهت أبحاث الألمان إلى دراسة عميقة لكثير من الظواهر النفسية والاجتماعية، وخصوصاً ما تعلق منها بفن القيادة (السياسية والعسكرية)، والروح المعنوية (المدنية والعسكرية أيضا)، وسيكولوجية القتال والدعاية. استطاعت ألمانيا أن تستفيد من نشاط علم النفس المهني على أوسع نطاق في بناء قوتها المسلحة، وقدمت العديد من الأبحاث في مجالات متعددة مثل: الاختبارات النفسية للانتقاء، الروح المعنوية الدفاعية، الروح المعنوية الهجومية، وشؤون التعبئة وسيكولوجية الحياة العسكرية (السعيد، ١٩٥٩). ويعتبر علم النفس العسكري أحد الأفرع التطبيقية لعلم النفس، وهو يعنى بتطبيق مبادئ علم النفس في مجال الجيش بغرض رفع مستوى كفاءة أفراده، وذلك بوسائل عدة مثل انتقاء وتوزيع الأفراد على التخصصات والمهن العسكرية المختلفة، مستخدما في ذلك أساليب القياس النفسي. ويهتم هذا العلم أيضاً بتطبيق مبادئ التعلم على برامج التدريب العسكري، لضمان نجاح هذه البرامج وتحقيق أهدافها. ويهتم كذلك بدراسة سيكولوجية الحواس، والتأثير المتبادل بين الفرد ومجتمعه العسكري، وتشخيص وعلاج المصابين بصدمات نفسية ناشئة عن أهوال القتال، وبإرشاد وتوجيه العائدين من القتال، ولاسيما المشوهون منهم، وتأهيلهم للحياة المدنية (فرج وعطية، ١٩٨٧) وساعد علم النفس العسكري بمهارة فائقة في تشكيل وتصور جديد بالنسبة للحرب، وكيفية إخضاع الشعوب. وينبغي أن يبقى في بالنا أن ألمانيا كما كانت أول الركب في ارتباط علم النفس الوثيق بالاستعمار، كانت أول الركب كذلك بارتباطه بعلم النفس العسكري، وبالحرب النفسية خاصة. وكانت بريطانيا ثاني دولة في تأسيس علم النفس، وهي ثاني دولة في ربط علم النفس بالعمليات العسكرية.

وفي المخابرات البريطانية لا يجري رجال الاستخبارات العسكرية بشكل كثيف في العمليات المستورة، وتتلاءم العمليات الهجومية المستورة أكثر مع وحدات «خدمات الطيران الخاصة»، وتقوم وحدات «العمليات النفسية» أو (بسايوبس Psyops)بتنظيم الدعاية لدعم الحملات العسكرية. وفي

العام ١٩٧١، كان للجيش البريطاني فرع للحرب النفسية يضم ٣٠ شخصا. وكان رجال العمليات النفسية موزعين على ثلاثة مقرات عبر البحار، وكانت هناك وحدة أخرى مقرها في وزارة الدفاع. ويجري التدريب على العمليات النفسية في «مؤسسة الحرب المشتركة»، وتميز المؤسسة بين نوعين من الدورات، أحدهما لضباط الإدارة، والآخر لضباط الوحدات التي سيكون عليهم تخطيط العمليات النفسية وتنفيذها. وتشمل الدورات محاضرات حول ممارسة الدعاية الشيوعية، وحول عصابات المدن، وتقنيات الإعلان الحديث، والخبرات التي اكتسبت من العمليات النفسية الأخيرة. وفي عام ١٩٧٦ اكدت وزارة الدفاع انه كان قد تم تدريب ١٨٥٨ ضابط جيش، و٢٦٢ من كبار الموظفين المدنيين، خلال السنوات الثلاث السابقة، على استخدام التقنيات النفسية لأغراض الأمن الداخلي.

على الرغم من أن الوحدات القتالية للحرب النفسية قد تكون صغيرة من حيث العدد، فإن الجيش البريطاني يتوقع لنفوذها أن يكون واسع النطاق إلى حد بعيد. وبالعمليات النفسية، اكتسبت القوات المسلحة ومؤسسة الدفاع - أو هي ستكتسب سريعا- القدرة على شن حملات سياسية لملاحقة أهداف عسكرية كلياً، بشكل مستقل عن النظام السياسي، أي من دون الإشارة إليه (بلوش وجيرالد، ١٩٨٧). وفي تقرير معنون «الرأي العام والخدمات المسلحة» نشر في الـ «سن دي تايمز» بتاريخ ٢٢ اكتوبر ١٩٧٨، أكد بالمر أن قدرة بريطانيا على الدفاع عن نفسها قد تعتمد على كيفية تأثر الراي العام بالإعلام، اكثر مما تعتمد على قوتها من حيث عدد الجنود، وكميات السلاح والعتاد العسكري. إن الاستخدام الاكثر فعالية واتساعا للعمليات النفسية سوف يمكن العسكريين من الغلبة السياسية في أحيان أكثر (بلوش وجيرلاد، ١٩٨٧). وتعمل هذه العمليات النفسية على فهم طبيعة التحكم المراد تطبيقه في الأصقاع الواسعة بلا حدود، والتي استعمرتها بريطانيا. وبعد ذلك ينبغي لنا ان نسير قدما في عرض أهم الجوانب التي وظف من خلالها علم النفس لأغراض الحرب الباردة.

وعموما فإن الغرب قد أعاد النظر في استراتيجيات الحرب، وخطط لاستراتيجية جديدة تهتم بالعامل السيكولوجي، وبذلك يمكن القول إن الحرب الفعلية اليوم هي حرب سيكولوجية (كرم شبلي، ١٩٧٣) وهي خلافا عن الحرب التقليدية او حرب القتال. ومن أمريكا، يعتقد روزفلت مثلا أن الحرب العالمية الثانية هي مقياس حقيقي لمعركة العلم والتنظيم، وتكمن الفكرة في حشد

وتحريك العلم لخدمة الدفاع (ماركس، ١٩٧٩). ومن بريطانيا، يقول تشرشل: «كثيرا ما غيرت الحرب النفسية وجه التاريخ» ومن فرنسا، يؤكد ديجول: «لكي تنتصر دولة ما في حرب، فإن عليها أن تشن الحرب النفسية قبل أن تتحرك قواتها إلى ميادين القتال». ومن ألمانيا، يضيف روميل «إن القائد الناجح هو الذي يسيطر على عقول أعدائه قبل أبدانهم». وتبعا لذلك فلقد استخدمت مصطلحات وتقنيات كثيرة للحرب النفسية منها، حرب الأعصاب، حرب المعنويات، حرب الأفكار، حرب الإرادات، حرب الدعاية، الحرب الباردة، حرب الإشاعات، غسيل الدماغ أو غسيل المخ، حرب الدهاء، الحرب بلا قتال، والحرب السيكولوجية (نوفل، ١٩٨٩). إن روزفلت، وتشرشل، وديجول، وروميل كانوا آلهة للحرب يدكون المدن بلا رحمة، والدول بلا شفقة، بحيث لا تبقي ولا تذر، وهم قد انتبهوا إلى أهمية الحرب النفسية، وتبعا لذلك أهمية علم النفس في التخطيط الاستراتيجي الحربي. إن الأدلة القوية تثبت بلا ريب أن علم النفس تم التكهن له بأنه سوف يؤدي لانتصارات لصالح القوى العظمى.

ولقد لعبت الحرب الباردة بين أمريكا والاتحاد السوفييتي كأهم رمز للحرب النفسية أو السيكولوجية دورا كبيرا في تطور أبحاث علم النفس. وتأسست «جمعية البيئة الإنسانية» في أمريكا لدعم أبحاث علم النفس، وتتبع هذه الجمعية المخابرات الأمريكية، وهي تقدم دعما ماليا كبيرا لأبحاث علم النفس لخدمة المخابرات، وكانت المظلة لتقديم هذا الدعم وتحديد علماء النفس هي الرابطة النفسية الأمريكية (ماركس، ١٩٧٩). وهنا يمكن أن نقف قليلا عند طبيعة العلاقة بين الرابطة النفسية الأمريكية والمخابرات الأمريكية. ويمكننا في هذا الجزء من الدراسة القول إن علم النفس في حقيقته قد تطور جزء كبير منه بواسطة المخابرات. فإن تطور أبحاث علم النفس قد لعب دورا كبيرا في الحرب الباردة، وربما تطرح المسألة بصورة معكوسة بأن الحرب الباردة ساعدت على تطور علم النفس، ربما يصعب علينا تحديد أيهما السبب، وأيهما النتيجة. ومهما يكن فإن علم النفس يحمل ماضيه الاستعماري والامبريالي الذي لا فكاك منه، بل ينبغي أن تبقى هذه الذاكرة الاستعمارية حية في بالنا، وأن تبقى منتقدة أكثر بالتطبيقات الهائلة لعلم النفس في مجال المخابرات. فهناك تواصل متدرج بين دور الامبراطوريات الغربية في تطبيقات علم النفس، واستمرار دور الامبريالية في هذه التطبيقات بعد الاستقلال. سوف انتقي في الجزء اللاحق من الدراسة بعض أهم محاولات التطبيقات «المخابراتية» لعلم النفس ومحاولة كشف جزء من الحجاب لهذا الجانب الاستراتيجي.

ولقد عقد في موسكو عام ١٩٣١، المؤتمر الدولي السابع لعلم النفس التطبيقي (علم النفس التقني)، وكان ذلك فرصة للمندوبين الغربيين للإعجاب ببعض المنجزات المهمة في مجال علم النفس الفارق، مثل مصلحة الانتقاء المهني للسكك الحديدية، حيث المختبر المركزي الذي يحتوي على مجموعة مؤلفة من الأطباء، وعلماء النفس التقنيين والإحصائيين والمستخدمين (روكلن، ١٩٨٣). ومنذ الحرب العالمية الثانية كان هناك اهتمام كبير من قبل علماء النفس الأمريكيين بمتابعة تطور علم النفس في الاتحاد السوفييتي. وقام عشرة من هولاء العلماء بزيارة للاتحاد السوفييتي في صيف ١٩٦٠، تحت دعم كامل من جمعية البيئة الإنسانية. وكان هدف الزيارة، كما يقول بوير، هو تعزيز التواصل بين علماء النفس في البلدين (بوير، ١٩٦٢). ولم يكن لدى تسعة من هؤلاء العلماء فكرة عن علاقة تلك الرحلة بالمخابرات. كما دعمت الجمعية مؤتمرا وكتابا عن «بعض الآراء عن علم النفس السوفييتي» الذي نشرته الرابطة النفسية الأمريكية عام ١٩٦٢، وقام كل واحد من أولئك العلماء العشرة بكتابة باب عن أحد المجالات في علم النفس (ماركس، ١٩٧٩). ولقد شكر علماء النفس الأمريكيون الذين قاموا بزيارة الاتحاد السوفييتي جمعية البيئة الإنسانية التي وفرت لهم الدعم السخي. وتبعا لقول بوير فإن هدف زيارة علماء النفس الأمريكيين للاتحاد السوفييتي هو «تعزيز التواصل بين علماء النفس في البلدين» ولكن يبدو أن الأجندة الخفية لهذه الزيارة تتمثل في تفكير استراتيجي امريكي ببداية الحرب الباردة لأنها أكثر مناسبة لروح العصر. وربما يكون من ضمن الأجندة تجنيد عملاء من علماء النفس السوفييت لكي يساعدوا علماء النفس الأمريكيين في عرض الأبحاث النفسية المتقدمة، خاصة في مجال تقنيات التحكم في السلوك والتفكير التي طورها السوفييت.

بعد هذه الزيارة المكشوفة المستورة في الوقت نفسه ظهرت مجموعة كبيرة من المقالات والكتب الخاصة بعرض ودراسة علم النفس السوفييتي، أو علم النفس في السوفييت خلال الخمسينيات والستينيات. ولقد حدث توثيق دقيق لكل أبحاث علم النفس السوفييتي، والكيفية التي يتم بها فهم سلوك حل المشكلات، والصحة العقلية، وتطبيقات علم النفس في الصناعة وطرق التنشئة. وعمل علماء النفس الاميركان بذلك على فهم نقاط القوة والضعف في البناء النفسي للأفراد والجماعات والدولة في الاتحاد السوفييتي. ومن المسوحات التي تمت لعلم النفس مثلا: علم النفس الروسي المعاصر (رازران، ١٩٥٧)، وعلم النفس السوفييتي وفسيولوجيا النفس (رازران، ١٩٥٩)، وعلم

النفس السوفييتي (وين، ١٩٦١أ)، وعلم النفس في الاتحاد السوفييتي(سايمون، ١٩٥٧)، والعلاج النفسي في السوفييت (وين، ١٩٦١ب)، وبعض وجهات النظر عن علم النفس السوفييتي (بوير، ١٩٦٢) وبعض الأبحاث السوفييتية في التفكير وحل المشكلات (ريتمان، ١٩٦٢) والدراسات السوفييتية لنمو الشخصية والتنشئة الاجتماعية (برونفينبرينر، ١٩٦٢)، والبحث والعمل الاكلينيكي وسط الأطفال (براكبيل، ١٩٦٢)، وملاحظات حول علم النفس التربوي والصناعي في الاتحاد السوفييتي (فليشمان، ١٩٦٢)، وجوانب حول علم النفس وفسيولوجيا النفس في الاتحاد السوفييتي (ميلر ويفافمان، واسكلسبيرج، ١٩٦٢)، والحياة السوفييتية وعلم النفس السوفييتي (ريتمان، ميرفي وميرفي، ١٩٦٢) والملاحظة الدقيقة توضح تزامن مصطلحات: تشكيل الدماغ، والإنسان الجديد، والقاتل المبرمج، والحرمان الحسي، والعزلة الحسية، وسيكولوجيا الاستجواب، وسيكولوجيا الإقناع، وسيكولوجيا التعذيب في هذه الفترة من مسوحات علم النفس السوفييتي، وبداية الحرب الباردة بين أمريكا والاتحاد السوفييتي. ويتوقع لعلم النفس أن يلعب دورا كبيرا في فهم سيكولوجيا القيادة السوفييتية، وفهم كيفية صنع القرار، وفهم البناء النفسي للروح الجماعية،وذلك إيذاناً ببداية الحرب الباردة أو الحرب النفسية، بدلا من الحرب التقليدية أو حرب الاقتتال أو الحرب النووية أو البيولوجية أو الكيميائية. إن واحدا من أبرز رموز الحرب الباردة هو اقترانها المعلن المبهم بعملية غسيل الدماغ.

غسيل الدماغ

بوسعنا القول إن الدور الخطير لعلم النفس هو الذي قاد المخابرات الأمريكية لدعم وتطوير الأبحاث النفسية ذات الصلة بموضوع الدفاع والحرب الباردة، خصوصا غسيل الدماغ (انظر بوير، ١٩٦٢، بيدرمان وزيمر، ١٩٦١، ماركس، ١٩٧٩). ويعرف غسيل الدماغ بأنه كل محاولة للسيطرة على العقل البشري، وتوجيهه لغايات مرسومة بعد أن يجرد من ذخيرته ومعلوماته ومبادئه السابقة (الدباغ، ١٩٧٠). ويعرف كذلك بأنه عملية إعادة تشكيل أو إعادة تعليم وتحويل الإيمان أو العقيدة إلى كفر بها ثم الإيمان بنقيضها (نوفل، ١٩٨٩). لقد نشرت جريدة «أخبار ميامي» في سبتمبر ١٩٥٠ مقالا كتبه إدوارد هنتر بعنوان «غسيل الدماغ»، وهو أول استخدام لهذا المصطلح في كل اللغات، وأصبح يستخدم بسرعة في الحرب الباردة. وهنتر هو عميل في مجال الدعاية يعمل تحت مظلة الصحافة، ولقد صاغ المصطلح من كلمة صينية معناها تنظيف

الدماغ، وليس للكلمة أي دلالة سياسية في اللغة الصينية ويعتقد هنتر أن للشيوعيين تقنية تستخدم في وضع عقل الفرد في حالة من الضباب تجعله يخطئ، ويعتقد بأن ما هو «صحيح هو غير صحيح»، وما هو «حقيقي هو خطأ»، و«مالم يحصل قد حصل» حتى يصبح الفرد في نهاية الأمر مجرد ربوط أو إنسان آلي بالنسبة للشيوعية. وهناك اعتقاد بأن التقنية السوفييتية في مجال التحكم في العقل تعتمد اعتمادا كليا على عملية الضغط النفسي المكثف، والكشف على نقاط الضعف في الإنسان. ويبدو أن هناك بعض الفروقات بين النظام السوفييتي والصيني في عملية غسيل الدماغ، ويعتمد ذلك على خصوصية الموروث الثقافي. إذ يعتمد السوفييت على إجراء عملية الغسيل في مراحل العزلة، ثم الترويض، ثم الخضوع والتخفيف، بينما يشبه النظام الصيني مجموعة مهرة من خبراء الوخز بالإبر يوخزون في بعض اعتمادا على الضغط الجماعي والعقيدة والتكرار (ماركس، ١٩٧٩) وسوف نفسح المجال في الجزء اللاحق من الدراسة لعرض تطبيقات مساهمة بافلوف العملاقة في أبحاث غسيل الدماغ وكيفية استجابة علماء النفس في أمريكا لهذه الأبحاث الغامضة والمروعة في الوقت نفسه.

لقد قام الخبراء الشيوعيون في مجال «إعادة تشكيل التفكير» بخلق فكرة « الإنسان الجديد» كهدف، من خلال التغيير الحقيقي في المعتقدات والقيم. وكان ذلك التطور في مجال التحكم قد أزعج الأمم الغربية، واحتارت لهذه الممارسات الشيوعية (بيردر مان وزيمر، ١٩٦١). واستخدمت تقنية غسيل الدماغ في مجال التحكم في سلوك الأفراد، خصوصا في الحرب الباردة. وكان تطوير هذه التقنية من جانب المخابرات الأمريكية كرد فعل على اعتقاد أمريكا بأن للروس والصينيين مهارات عالية في مجال التحكم في العقل. ويقول هنتر- عالم النفس بالمخابرات الأمريكية- إن السوفييت قاموا بعملية غسيل الدماغ بطريقة التشريط ذاتها، أو الفعل المنعكس، التي قام بها بافلوف في تجاربه على الكلاب. ويفهم من قول هنتر التخوف والقلق من التطور الهائل لعلم النفس في الاتحاد السوفييتي. ولكن الاستجابة الهستيرية لعلماء النفس في أمريكا كانت ذات فائدة في تطور أبحاث علم النفس. وقد يصعب علينا تصور استمرارية أبحاث بافلوف من غير إسهام اسكنر في مجال تكنولوجيا السلوك.

إن العلاقة بين بافلوف واسكنر كعلاقة العاج والأبنوس- كما تعبر إحدى الاغاني الغربية- فهما يذكران دائما مع بعض لدارسي علم النفس، وبخاصة في مجال نظريات التعلم. ويشرح

اسكنر (١٩٨٠)- العالم السلوكي الأكثر شهرة- دور بافلوف في بناء هذا العلم الجديد، وإمكانية بناء أفعال منعكسة جديدة بواسطة عملية التكييف وُلِدَ من ذلك علماً سيكولوجياً كاملاً قائماً على المثير والاستجابة، أو على المؤثر ورد الفعل. وعلى ضوء هذا العلم اعتبر السلوك كله بمثابة ردود أفعال على منبهات أو مثيرات، وإن نجاحات الحرب العالمية الثانية أعادت الثقة إلى مبادئ بافلوف، ومن ثم عاد بافلوف إلى الصورة، وأصبح من العلماء المفضلين.

وفي أحد الأيام، وبعد جهد مضن ولسنين طويلة في حياة شاقة، استدعي بافلوف إلى الكرملين لمقابلة لينين كرئيس دولة، واستقبل استقبالا حافلا، وطلب منه لينين فورا أن يشرح له بالتفصيل نتيجة أعماله. وقد ذكر له في أثناء الحديث بأنه لم يكن شغوفا بأبحاثه الأولى عن الجهاز الهضمي، ولا بدراساته عن الدورة الدموية، ولكن ما يهتم به هو تجاربه على الكلاب. وطلب من بافلوف أن يكتب ملخصا وافيا عن كل أعماله المتصلة بالكلاب وسائر الحيوانات، ولكن من ناحية إمكان تطبيقها على الآدميين. طلب منه أن يكون دقيقا في التفاصيل فيما يختص بالأبحاث المتصلة بالجنس البشري. وعندما أتم بافلوف كتابة حوالي أربعمائة صفحة بخطه، قابل لينين الذي كان قد قرأ هذه الأبحاث بعناية، وقال له بحماس كبير: «لقد أنقذت الثورة، وإن ما قمت باكتشافه ليضمن مستقبل الشيوعية الدولية». ولقد كانت تجارب بافلوف على الإنسان والحيوان الركيزة التي أقام عليها الشيوعيون عملية تطويع الإرادة الحرة وتسخيرها لإرادة الحزب والثورة. ومع أن الأقدمين استخدموا وسائل ميتافيزيقية وسيكولوجية للسيطرة على عقول الناس لتحويل معتقداتهم، فإن الجديد في نظرية بافلوف أنها تعتمد على الوسائل الفسيولوجية أكثر من غيرها (صلاح نصر، ١٩٨٨). يبدو أن لينين قد استوعب بصورة متناهية الدور الذي يمكن أن يلعبه علم النفس في تشكيل وصياغة السلوك. وتعتبر تجارب بافلوف المثيرة والمحيرة بمثابة «سفر التكوين» لأبحاث غسيل الدماغ، وربما أنشطة الكي. جي. بي. البالغة الذكاء والخفاء.

لقد لاحظ بافلوف أن الكلاب، عندما كانت تتعرض لتوترات تجريبية، أو مواقف صدام متشابهة، فإن ردود الفعل والاستجابات التي كانت تحدث لها تختلف من كلب لآخر، حسب اختلاف أمزجتها، كما كان علاج كل كلب من الانهيار يتوقف أولا على نوعه الوراثي. وفي الحرب العالمية الثانية ثبتت هذه القاعدة بالنسبة للآدميين الذين أصيبوا بانهيار عصبي مؤقت نتيجة المعارك، أو بسبب التوتر الناجم عن الغارات الجوية، وقد اختلفت الجرعات التي أعطيت لهم

اختلافا كبيرا، طبقا لأنماطهم المزاجية (صلاح نصر، ١٩٨٨). ولقد وجد دليل إضافي على صلاحية اكتشافات بافلوف عن الكلاب في تطبيقاتها على المشكلات السيكولوجية للإنسان، إذ استجاب المرضى للعلاج استجابة كاملة. ويؤكد سارجنت (١٩٦٣) بأنه وجد الشيء نفسه في المرضى الذين أعطوا مهدئا من مهدئات الطوارئ، في خط الجبهة الأمامية حينما كانوا يصابون بالانهيار من التوتر الناشيء عن قصف القنابل، وقد أمكن تصنيفهم في الفئات نفسها، وظهر أن كمية المهدئ، التي يحتاجون إليها تتفاوت تفاوتا كبيرا. وتطبيق اكتشافات بافلوف في الكلاب على ميكانيكية أنواع عديدة من التحول الديني والسياسي في الكائنات البشرية توحي بأنه لكي يكون التحويل مؤثرا يجب أن تستثار انفعالات الشخص حتى يصل إلى درجة شاذة من درجات: الغضب، والخوف، أو النشوة، فإذا أمكن الاحتفاظ بهذه الحالة،او أمكن زيادة حدتها بوسيلة أو بأخرى، فقد ينتهي الأمر بالنسبة للتخلص إلى حالة من حالات الهستيريا. وحينئذ يصبح الإنسان أكثر استعداداً لتلقي الإيحاءات التي قد يتقبلها في الظروف العادية على الإطلاق، وقد يحدث بديلا لذلك مرحلة من المراحل «المتعادلة» أو «المتناقضة» أو «شديدة التناقض» أو قد يحدث «انهيار امتناعي كامل» يقضي على كل المعتقدات السابقة.

لقد أثبت بافلوف أن قدرة كلب على مقاومة التوتر الشديد تتذبذب تبعا لحالة جهازه العصبي وصحته بصفة عامة، ولكن بمجرد أن يحدث لمخه «توقف كامل» فإن تغيرات غريبة للغاية تحدث في وظائف مخ الكلب.

والواقع أن الجهاز العصبي للإنسان مثل الجهاز العصبي للكلب، يكون في حالة من الاتزان الديناميكي بين الإثارة والتوقف الوقائي، ولكنه إذا تعرض لاستثارة شديدة، فإنه يصل إلى الحالات نفسها من الإثارة الشديدة أو التوقف الكامل التي وصفها بافلوف، فيصبح المخ حينئذ عاجزا مؤقتا عن تأدية وظائفه العادية. ويبدو كذلك أن حالة «الامتناع الوقائي» التي لاحظها بافلوف على كلابه تحت وطأة التوتر الحاد ظهرت في جرحى الحرب، وكانت تتملكهم حالة الاستسلام الهادئ»، أو يصابون بفقد الذاكرة، أو بعجز يقعدهم عن استعمال أطرافهم، أو بنوبات من الغيبوبة. ولقد نجح بافلوف في تجارب متكررة في إثبات أنه يمكن تكييف الكلب، مثل الإنسان، على كراهية من كان يحبهم سابقاً، أو حب من كان يمقتهم قبل ذلك (صلاح نصر، ١٩٨٨). ويذكر إدوارد هنتر اقتران اسم بافلوف، أستاذ علم وظائف الأعضاء الروسي، بعملية «غسيل الدماغ»،

نتيجة تجاربه المتقدمة على غرائز الحيوانات وسلوكها، وقد ركز بافلوف في أبحاثه على «نظام الإشارات»، وهو ما يقصد به الحس الغريزي الموجه الذي يصل مباشرة بين الحواس، وبين العقل. وانتهت المرحلة الحاسمة من أبحاثه بتجارب على الحيوان والإنسان لإثبات نظرية «الفعل المنعكس الشرطي» «وتعني القيام بسلوك معين نتيجة لمؤثرات خارجية، مثل سيل اللعاب عند رؤية الطعام، أو عند حدوث أي أثر مقترن بالطعام. كما توصل بافلوف إلى أنه بتغيير بيئة الإنسان يمكن تغيير بيئته الذاتية. والواقع أن أبحاث بافلوف كانت هي المشاعل التي أنارت الطريق أمام الشيوعيين للتوسع في عملية «غسيل المخ» وبرنامج غسيل المخ ليس بجديد تماما، ولكن الشيوعيين جاءوا بمنهجهم في ضوء أكثر شمولا وتنظيما، كما أنهم استخدموا فيه مجموعة من الأساليب الفنية السيكولوجية المترابطة. ويمكننا القول بثقة إن مساهمة بافلوف التي ترجع لهذه المرحلة الباكرة من تطور علم النفس تصف بدقة متناهية التزاوج الوثيق بين علم النفس والتحكم بالجملة، والاقتران اللصيق بين علم النفس والتطبيق الأكبر، أي بصورة «مايكروية» في السجون، وفي الاستجواب أو الاستنطاق، وفي انهيار المقاومة النفسية، وفي المخابرات بقصد «التلاعب التحكمي»، كما يعبر إدوارد سعيد.

وإن النتائج التي توصل لها بافلوف كانت لها تطبيقات في كيفية إحداث انهيار للمقاومة النفسية للسجناء، وكان علماء النفس العسكريون (انظرلوش وجيرالد، ١٩٨٧) يعتقدون، منذ أمد طويل، أن الطريقة الأكثر فاعلية في كسر مقاومة السجين للاستنطاق هي إجباره على تسبب الألم لنفسه، ومن هنا جاءت تقنية جعل السجين يقف، وقد باعد بين ساقيه، قبالة حائط يستند إليه - منحنيا - على رؤوس أصابع يديه، لفترات طويلة. ولاشك في أن تغطية العينين، ومنع السجين من النوم، والتبدلات الكبيرة في حرارة الزنزانة، وإخضاع السجين لـ «ضجيج أبيض» بشكل دائم، كلها من الأمور التي تسرع في انهيار مقاومته. وفي المخابرات البريطانية، كانت مهمة الاستنطاق، باستخدام هذه الطرق قد أوكلت إلى أربع «فرق جنائية إقليمية» تابعة لـ «شرطة الستر الملكية» في العام ١٩٧٦، وكان رجال هذه الفرق، البالغ عددهم ٨٩ رجلا، قد تلقوا تدريبا على استخدام هذه التقنيات من ضباط الاستخبارات العسكرية، واستخدمت نتائج أبحاث علم النفس بفعالية في مجال الاستجواب. وهناك اعتقاد بأن التقنية السوفييتية في مجال التحكم في العقل تعتمد اعتمادا كليا على عملية الضغط النفسي المكثف، والكشف على نقاط الضعف في الإنسان. ويعد

فترة من القلق المستمر، وبتطبيق بعض الأساليب الأخرى يبدأ الاستجواب. ومن المحتمل أن يتحطم الإنسان تلقائيا وبدرجة ملموسة نتيجة القلق والتفكير الطويل فيما يعترف به، ويصبح في حالة يأس وتعاسة. وغالبا ما يناله الضعف والوهن نتيجة هذه الآلام الطويلة، وما يصاحبها من ضعف فسيولوجي، حيث يصبح عقله ملبدا بالغيوم، فلا يستطيع ان يميز أي شيء، يهبط إلى قراره نفسه، أو أي ايحاء يقدم إليه بواسطة الإجبار أو الحيلة.

يؤكد بافلوف أن الإنسان «كبير الشبه بالكلب»، ولكن كان ذلك خطوة إلى الأمام. ورغم أن الإنسان أكثر بكثير من الكلب، لكنه مثل الكلب يقع في مجال التحليل العلمي. فالإنسان آلة بمعنى انه نظام معقد يسلك طرقاً لها مبادئ، وقوانين، غير أن التعقيد فيه تعقيد غير عادي (اسكنر، ١٩٨٠). والواقع أن الجوع يلعب دورا أساسيا في عملية غسيل المخ، لأن الانسان لا يستطيع ان يستمر في حياته العادية دون أحوال بيولوجية معينة، منها الغذاء اللازم لبناء خلايا الجسم وتجديدها. ولقد استخدم التجويع بهذا المعنى كعنصر من عناصر غسيل الدماغ، إذ كان يعطى للسجين ما يكفيه من أطعمة تمكنه من البقاء على قيد الحياة، وليس بالكمية التي يتطلبها الجسم لجعل ذهنه يؤدي وظائفه بدرجة كافية (صلاح نصر، ١٩٨٨). فالطعام لا يكون معززا إلا في حالة الحرمان، ومن يحتاج شيئا للأكل فقد يحس بأجزاء من تلك الحاجة، كوخزات الجوع مثلا. ومن يحتاج إلى الدفء فمن المفروض أن يشعر بالبرد. ومن الممكن أيضا الشعور بالظروف المرتبطة بالاستجابة القوية الاحتمال إلى جانب الشعور بجوانب من المناسبة الحالية الشبيهة بالجوانب التي كانت موجودة في مناسبات ماضية كان السلوك فيها معززا. ولكن الرغبة في شيء ليست شعورا به، وليس الشعور هو السبب الذي يجعل المرء يتصرف للحصول على ما يريد (اسكنر، ١٩٨٠). ان النظرة البافلوفية في مجال التحكم يبدو انها قد فهمت فهما صحيحا في أمريكا وأثرت تأثيرا عملاقا في ابحاث علم النفس بلاريب. وبمجيء السلوكية، خصوصاً مساهمة اسكنر، حدث تعديل في المناخ السيكولوجي العام، وعلاقته بالتحكم بمزيد من تكنولوجيا السيطرة على السلوك بواسطة السيطرة على البيئة، ومهما يكن، فإن قدرة بافلوف البحثية الفائقة هي التي حتمت هذا التعديل، أو بلغة أصح، التغيير.

وإذا كان بافلوف أعظم فسيولوجي من روسيا ساهم في تطور أبحاث التحكم، وعلاقته بالحرب الباردة، فإن اسكنر هو اعظم سلوكي ساهم في تطور كيفية تشكيل السلوك وكيفية التحكم في

البيئة. لقد نال اسكنر الدكتوراه من جامعة هارفارد ١٩٣١، ودافع في رسالته عن الافتراض القائل إن علم النفس يجب أن ينظر إلى الاسترجاع بأنه علاقة ارتباطية بين المثير والاستجابة، وتبعا لذلك تجاهل اسكنر وجود أي رابط فسيولوجي دخيل، كما عند بافلوف. وفي عام ١٩٣٨، ألف اسكنر «سلوك الكائنات»، والذي يحتوي على مجموع أبحاثه واعتقاداته في تلك الفترة. يقول كوستلر (١٩٦٧): « إن اهم تجربة في التنبؤ بالسلوك، والتحكم فيه تتمثل في تدريب الحمام، بواسطة التكييف الاختياري على السير في زهو واختيال برؤوس مرفوعة عالية بشكل طبيعي». وهو يعيد صياغة نظرية التعلم بالشكل التالي: «تبعا للنظرية السلوكية يحدث التعلم كله بطريقة التجربة والخطأ، أو الضرب وعدم إصابة الهدف». ويتم العثور على رد الفعل (الاستجابة) الصحيح على مثير معين بطريق الصدفة، ويكون لرد الفعل الصحيح تأثير مشجع، أو معزز، كما تتطلب الرطانة السيكولوجية ان تقول: وإذا كان التعزيز قويا أو متكررا بدرجة كافية، فإن رد الفعل «ينطبع في الذهن»، وتتكون رابطة بين المثير ورد الفعل (اسكنر، ١٩٨٠). واقتبس اسكنر قول جلبرت سلدز (١٩٢٨) «إن الإنسان هو ابن الظروف، وانك لو غيرت بيئات ثلاثين طفلا من الهوتنتوت (شعب في جنوب أفريقيا)، وثلاثين طفلا من أرستقراطيي الإنجليز، فسيصبح الأرستقراطيون هوتنتوت من كل النواحي العملية، وسيصبح الهوتنتوت محافظين صغارا» وحسب تعبير اسكنر فإن التحليل التجريبي ينقل مسؤولية تحديد السلوك من الإنسان المستقل إلى البيئة، وتصبح البيئة هي المسؤولة عن تطور الجنس البشري، وعن الذخيرة التي يكتسبها كل عضو. ويقول اسكنر بأن قوتنا هي العلم والتكنولوجيا، وأننا بحاجة إلى إحداث تغيرات واسعة في السلوك الإنساني، ولن يتأتى لنا ذلك بمساعدة الفيزياء أو البيولوجيا فقط، وما نحتاجه هو تكنولوجيا السلوك. ولقد ثبت أنه يمكن التأثير على البيئة والتلاعب بها.

إن المشكلات السلوكية المراد حلها في العالم اليوم هي بلا شك اكثر تعقيدا من الاستخدام العلمي للانشطار النووي. فإن العالم السلوكي لا يحصر نفسه في جداول التعزيز التي تحدث بالصدفة في الطبيعة، بل هو يبني تشكيلة كبيرة من الجداول التي قد لا يظهر بعضها مصادفة فقط. ومن الممكن الوصول إلى الظروف والطوارئ. وحين نفهم العلاقة ما بين السلوك والبيئة، فإننا نكتشف طرقا جديدة لتغيير السلوك. ولقد اتضحت الآن الخطوط العريضة للتكنولوجيا، وتوصف المهمة بأنها سلوك يراد إنتاجه او تعديله، ومن ثم ترتب الظروف والطوارئ الملائمة. وقد

تدعو الحاجة إلى تتابع مبرمج للظروف. لقد نجحت التكنولوجيا نجاحا كبيرا، حيث أمكن تحديد السلوك بسهولة نسبية، وحيث أمكن بناء الظروف والطوارئ، المناسبة مثلا: في رعاية الطفل، والمدارس، وإدارة المعاقين، ودور المجانين. لكن المبادئ، نفسها تطبق الآن في إعداد المواد التعليمية على كل المستويات التعليمية، وفي العلاج النفسي الذي يتجاوز أمور الإدارة، وفي إعادة التأهيل، وفي الإدارة الصناعية، وفي تخطيط المدن، وفي ميادين أخرى كثيرة من السلوك البشري. وهناك الكثير من أنواع «تعديل السلوك» المختلفة، والكثير من الصيغ المختلفة، ولكنها تتفق على النقطة الأساسية التالية: السلوك يمكن تغييره بتغيير الظروف التي يكون هذا السلوك من صنعها. مثل هذه التكنولوجيا تعتبر من الناحية الأخلاقية محايدة. ويمكن استخدامها من جانب المجرمين أو القديسين، وليس في أي منهج شيء يقرر القيم التي تحدد استعماله.

إن طرق تغيير السلوك بواسطة تغيير العقل قلما تغفر حينما تكون فعالة بشكل واضح، حتى حين يكون من الواضح أن التغيير موجه إلى العقل فقط. إننا لا نصفح عن تغيير العقول حينما يكون الخصمان غير متكافئين. فذلك «تأثير غير ضروري»، كما لا نصفح عن تغيير العقل خفية. فإذا كان الشخص لا يستطيع رؤية ما يعمله الشخص الآخر في تغيير عقله، فإنه لن يستطيع النجاة منه، أو القيام بهجوم مضاد عليه، إنه يتعرض لتأثير «الدعاية». وأن الذين يتغاضون عن تغيير العقول حسب تعبير اسكنر يحرمون عملية «غسيل الدماغ» ولذلك سبب بسيط، هو أن السيطرة هنا واضحة. ومن الوسائل الشائعة في «غسيل الدماغ» حالة بغيضة قوية (مثل الجوع أو فقدان النوم) تم تخفيضها لتعزيز ودعم أي سلوك «فيه موقف إيجابي» نحو نظام ما سياسي أو ديني، ويبنى «الرأي» المرغوب فقط عن طريق تعزيز ودعم البيانات المؤيدة المرغوبة. وقد لا يكون هذا الإجراء واضحا للذين يستخدم عليهم، ولكنه واضح جدا للآخرين، بحيث لا يمكنهم تقبله كطريقة مسموح بها لتغيير العقول. إن الطرق المتعددة لتغيير السلوك بتغيير العقول ليست مباحة فحسب، ولكنها تمارس بقوة من جانب بعض حماة الحرية والكرامة. هناك الكثير مما يمكن أن يقال دفاعا عن تقليل التحكم الذي يمارسه أناس اخرون، ولكن هناك إجراءات أخرى لا تزال تتم، والشخص الذي يستجيب بطرق مقبولة لأشكال التحكم الضعيفة ربما كان قد تغير بواسطة طوارئ، وظروف لم تعد فعالة. وحين يرفض حماة الحرية والكرامة الاعتراف بتلك الإجراءات وهذه الظروف، فإنهم يشجعون إساءة استعمال الممارسات التحكمية، ويسدون التقدم نحو تكنولوجيا

للسلوك أجدى وأكثر فعالية (اسكنر، ١٩٨٠). وعندما كان اسكنر يتربع على عرش السلوكية، ومع بلورة أفكاره في التحكم في السلوك عبر التحكم في البيئة، تزامن ذلك مع تكوين المخابرات الأمريكية «لجمعية البيئة الإنسانية» لدعم أبحاث علم النفس، ويمكن أن نتأمل في «بيئة» اسكنر، وتشكيل السلوك، و«بيئة» المخابرات لأغراض دعم أبحاث علم النفس لتعزيز الحرب الباردة.

إن الهدف النظري لعلم النفس هو عملية التنبؤ والتحكم في السلوك. وهناك اعتقاد بأن القوانين والمبادئ، التي اكتشفها علماء النفس يمكن ان تستخدم في التلاعب بالإنسان. ولقد تبلور اهتمام كبير في الخمسينيات والستينيات بتطور الأبحاث والتقنيات السيكولوجية بالجملة في مجال التحكم في السلوك، وكان ذلك لخدمة أهداف الحرب الباردة. وكانت الحرب العالمية الثانية مؤشرا لنهاية العزلة الأمريكية، ووجدت الولايات المتحدة أن هناك فجوة كبيرة بينها وبين أعدائها تتمثل في تطبيقات تكتيكات الحرب والعمليات الخفية، واستخدمت بريطانيا العمليات السرية لمئات السنوات لربط الامبراطورية. أما الألمان والفرنسيون والروس فلهم استخدامات واسعة لهذه اللعبة السرية، ولكن ليس هناك من يجيدها مثل البريطانيين. وتكمن الفكرة في حشد وتحريك العلم لخدمة الدفاع، ونتيجة لذلك تم تشكيل شبكة للبحث تهتم بمجالات واسعة من تشطير الذرة، إلى منع الانهيار العقلي أثناء المعركة (ماركس، ١٩٧٩). وللاستخبارات البريطانية دور عريق في «العمليات المستورة»، بل ربما كان الأعرق بين أجهزة الاستخبارات الامبريالية والاستعمارية الأخرى كافة، وإن كان هذا الدور قد تراجع في السنوات الأخيرة، بعد أن تعملق دور الاستخبارات الأمريكية، وتضخم حجم عملياتها المستورة إلى حدود شبه خيالية، واصبحت عمليات الاستخبارات البريطانية هي التي رعت ولادة وترعرع الاستخبارات الأمريكية في مرحلة ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة. ومن بين أعمال أجهزة المخابرات الإمبريالية جمع المعلومات وتنسيقها وتحليلها والخروج منها باستنتاجات محددة تلعب دورا كبيرا في رسم السياسات العليا، الداخلية والخارجية للبلاد، تجاه التحركات الداخلية، وتجاه البلدان الأخرى (عفيف الرزاز، ١٩٨٧). ويستنتج مما سبق بأن هناك قدرا كبيرا من التآخي بين الاستخبارات في بريطانيا وأمريكا في تطبيقات علم النفس في مجال التحكم، وعن طريق العمليات الخفية أو المستورة.

وقد بدأت المخابرات الأمريكية ببعض الأبحاث المبدئية في مجال العقاقير والتنويم بعد تكوين المخابرات مباشرة عام ١٩٤٧. وفي صيف عام ١٩٤٩، قام رئيس المخابرات العلمية بزيارة خاصة إلى غرب أوروبا للبحث عن العمليات التي يقوم بها السوفييت أثناء الاستجواب. وكان هناك خوف بأن السوفييت ربما استخدموا العقاقير والتنويم بالنسبة للسجناء. ولقد استخدمت المخابرات الأمريكية التقنية نفسها بالنسبة للاجئين والسجناء العائدين من شرق أوروبا. وبدأ برنامج العصفور الأزرق للتحكم في العقل عندما كان ستالين حيا في سطوته، وعندما كانت ذكرى هتلر حية، والخوف من الحرب النووية قائما. وعندما قام السوفييت بإخضاع معظم دول شرق أوروبا، وقام الحزب الشيوعي بالتحكم في الصين، بدأت الحرب في كوريا. واتصف المزاج بجنون البارانويا في السياسة الخارجية والداخلية (ماركس، ١٩٧٩). وقامت الأقمار الصناعية وأجهزة التجسس الإلكترونية بجمع كافة المعلومات الحربية الضرورية من كل من الاتحاد السوفييتي والصين، وهما الدولتان الوحيدتان اللتان تشكلان تهديدا للولايات المتحدة، وفي الوقت ذاته أجريت الدراسات السيكولوجية السرية عن المدمنين في أوروبا والقصاميين في آسيا. ويبدو ذلك كمفارقة تاريخية بالنسبة للحرب الباردة (رولفق استون، ١٩٧٤)، كما أجري العديد من أبحاث علم النفس في كثير من الدول غير الغربية لتعزيز نتائج الدراسات السيكولوجية الأخرى.

المقاييس النفسية

تطور علم النفس كثيرا في الحرب العالمية الأولى والثانية من خلال حركة القياس النفسي، ولقد صمم اختبار ألفا ١٩١٧ - ١٩١٨، وأعقبه اختبار التصنيف العام، الذي اعتمد على قدرات ثرستون الأولية الأربع، والتي يتوقع أن تقيس النجاح العسكري. وطور كل من الجيش والبحرية نسخة منفصلة من اختبار التصنيف العام، وأصبحت الخدمات الأخرى تحتاج لقياس القدرات والاستعداد. ومابعد الحرب احتاجت الصناعة للاختبارات التي أخذتها من علماء النفس، كذلك احتاج لها علماء النفس الاكلينيكيون، وصمم المهندسون الماكينات لكي تتناسب مع مشغليها من الميكانيكيين، ويتطلب ذلك اختبارهم لمعرفة ماذا يناسبهم، ويقوم أصحاب العمل باختيار المشغلين وذلك بقصد تدريبهم لاستخدام الآلات (بورنج، ١٩٥٧) ولقد شرع علماء النفس في استخدام مهاراتهم في حل المشكلات العملية الملحة التي خلقتها الحرب العالمية الثانية. فإن تعبئة المدنيين في قوة محاربة على درجة عالية من الكفاءة الآلية قد تضمن مهام اختيار الأفراد لما يصلحون له،

على نحو لم يسبق لضخامته مثيل، وطلب من الأخصائيين النفسيين اختبار قدرات المجندين وتحديد أهليتهم لجميع أنواع المهام ابتداء من طياري المقاتلات إلى الطهاة. كذلك فإن التطورات الهندسية الحديثة، كحلول عصر السفر في الفضاء، والأساليب الجديدة في استكشاف قيعان البحار، إنما تتطلب اختبارات لقياس الاستجابة للتغيرات في قوة الجاذبية والانعزال الحسي والتوترات الأخرى غير المألوفة (فلوجل، ١٩٨٨).

وكانت المقاييس النفسية أكثر الأدوات استخداما في مجال المخابرات والتحكم. واستخدم مقياس وكسلر لذكاء الراشدين بفعالية لخدمة أغراض المخابرات في الداخل والخارج، ويعتبر أحد العضلات التحتية التي تم استعراضها بقوة وفعالية في جمع المعلومات للمخابرات من جهة، ومن جهة أخرى جمع المعلومات من المخبرين أنفسهم بصورة مستورة. وعندما يتم تجنيد بعض العملاء الأجانب لعمليات التجسس لصالح المخابرات عادة ما يجلس العميل لأداء مقياس وكسلر الكامل، ويقوم مكتب واشنطن بتحليل نتائج العميل في القياس، وتقارن نتائج وكسلر بمكشاف الكذب ونتائج اختبار الشخصية. ولقد أجريت الدراسات الارتباطية بين نتائج مقاييس الذكاء ونتائج مقاييس الشخصية بالنسبة لاختيار ضباط وعملاء المخابرات والمجندين في الجيش. وقد ساعد علماء النفس الأمريكان في عملية اختيار الضباط في كثير من الدول غير الغربية. ولقد عمل مجموعة من علماء النفس في خدمة المخابرات الأمريكية، مثلا عمل جتنقر، عالم النفس بالمخابرات، على خلق نظام فرويد لقياس الشخصية والتنبؤ بالسلوك المستقبلي، وسمي ذلك «نظام قياس الشخصية» والمشهور مخابراتيا بمصطلح «الباص». وكان هذا النظام يعطي نتائج ممتازة عندما يقارن بنتائج مقياس وكسلر للذكاء، وتم اعتبار ذلك مفتاحا مهما لكل أعمال المخابرات السرية. وعندما نشبت أزمة الصواريخ الكوبية تم استدعاء عالم النفس جتنقر للبيت الأبيض لكي يقدم استشارة عن كيفية التنبؤ برد فعل خروشوف للضغط الأمريكي. وتكمن أهمية نظام «الباص» بأنه يتوجه لفهم طبيعة العلاقة بين ضابط المخابرات الأمريكي والعميل الأجنبي، وهذا ما يقع في قلب عملية التجسس. ولقد استخدم نظام الباص كذلك لمعرفة استجابة الأفراد بعد تناول الكحول، وتم التوصل إلى أنه في حالة معرفة أداء الفرد في اختبار رموز الأرقام في مقياس وكسلر يمكن التنبؤ بردود الأفعال في حالة تناول الكحول (ماركس، ١٩٧٩). ولقد ازدهرت أبحاث مقاييس وكسلر للذكاء دون هوادة، وكذلك كشف علاقتها الارتباطية مع بعض المقاييس الأخرى، خصوصا التي طورتها المخابرات لأغراض الحرب الباردة.

وتعاونت المخابرات الأمريكية مع الحكومة الكورية لتأسيس وكالة المخابرات الكورية، وطلبت محطة سيول من رئاسة المخابرات في أمريكا إرسال خبراء قياس نفسي لاختيار كادر جديد من ضباط الشرطة والحربية (ماركس، ١٩٧٩) واستخدم مقياس وكسلر الكوري المعدل على ٢٥ - ٣٠ ضابطا، وتمت كتابة تقرير في نصف صفحة عن كل فرد يتضمن نقاط القوة والضعف والقدرة على اتباع النظام، والإبداع، والاضطرابات النفسية، والدافعية، قدمت نتائج الاختبارات للسلطات الكورية التي اختارت المجموعة المناسبة بناء على توصية الخبير النفسي. وفي العام ١٩٦٦ عمل ضباط المخابرات مع أحد علماء النفس في اختيار ضباط وحدة الشرطة في أرجواي وفي قسم مكافحة الإرهاب الذي يحارب عصابة حركة تومباردو. وطبق مقياس وكسلر على ٢٠ مرشحا، وأوصت الدراسة بتقديم توجيه صارم للمجموعة. ويبدو أن مساعدة علماء النفس في عملية اختيار ضباط الشرطة السريين في كل من كوريا وأرجواي لم يكن القصد منه هو مجرد اختيار رجال المباحث والمستجوبين المتازين في هاتين الدولتين ولم يكن الهدف هو مجرد المساعدة في الاختيار، وإنما المقصود منه تحديد عينة الأشخاص الذين يمكن أن يستسلموا في المستقبل للمخابرات الأمريكية. وتوضح عملية التعاون هذه نوعية التبادل والاتصالات بين علماء النفس في المركز الأمريكي وفي اللاغرب. وقد يتم التساؤل عما إذا كانت هناك علاقة بين علماء النفس في أمريكا وعلماء النفس في العالم العربي؟ وبدقة أكبر من غير تحفظ بين سيكولوجيي المخابرات الأمريكية وسيكولوجيي المخابرات العربية؟

ومن المجالات التي اهتمت بها جمعية البيئة الإنسانية (ماركس، ١٩٧٩) أبحاث خط اليد، وتم توظيف نتائج تلك الأبحاث كملحق بالنسبة لنتائج الباص، وتم دعم بحث عن المطبوعات الألمانية في هذا المجال، وهناك اهتمام بهذا الموضوع في ألمانيا أكثر من الاهتمام به في الولايات المتحدة. وتم توظيف نتائج دراسات خط اليد مع نتائج الباص ونتائج مقياس وكسلر. وليس من السهولة إجراء مقياس وكسلر على دبلوماسي روسي في أمريكا أو أي فرد آخر كان هدفا للمخابرات. وفي الحرب العالمية الثانية واجهت المخابرات الأمريكية مشكلة في دراسة شخصية هتلر، وطلب من أحد العلماء عمل صفحة نفسية عن القائد الألماني. ولقد تم كذلك توظيف تقنيات التحليل النفسي لفهم شخصية هتلر، ومعرفة نقاط ضعفه التي يمكن استغلالها. وبرزت لدى علماء النفس فكرة بأن هتلر ربما تكون له ميول أنثوية، وتم اقتراح محاولة لوضع هرمونات أنثوية في طعامه. ولقد تم

بالفعل عمل تحليل لكل المعلومات المجمعة عن هتلر بواسطة المخبرين مع عينة من خط يده وسلوكه ونماذج تفكيره التي تتطابق مع الخصائص المجمعة لنتائج عينة من ٢٩٠٠٠ أجروا اختبار وكسلر. ويسمى ذلك بالقياس غير المباشر. بالإضافة لذلك فقد تم دعم دراسة أخرى تتعلق بمقارنة نتائج خط اليد، ونتائج مقياس وكسلر للذكاء على عينة من المرضى النفسيين، والمجرمين، وعارضات الأزياء، واللواطيين والسحاقيات. ولقد قام أحد علماء النفس المتقاعدين من المخابرات بتطبيق مقياس وكسلر للذكاء على ممرضة أمريكية نذرت جسدها لخدمة دولتها، وكانت المخابرات تريد منها أن تنام مع أحد الروس لفترة من الزمن، فإما أن يقع هذا الدبلوماسي في حبها ويتم استمالته، أو ابتزازه بفضيحة جنسية. واستخدم الجنس - ويستخدم بفعالية- في عمل الاستخبارات وعن طريقه يمكن تدجين وابتزاز العملاء أنفسهم لحد الانهيار النفسي، وكما عبر غونكورت (١٩٦٠، اسكتر، ١٩٨٠) «يستطيع المرء أن يدجن شعبا كما يدجن الأسود بالاستمناء».

وإن علاقة الجنس بعلم النفس، أو بصورة معكوسة، علاقة علم النفس بالجنس، وعلاقة الجنس بالمخابرات علاقة لا يخطئها التمحيص الدقيق، أو حتى الملاحظة العابرة. ويتعزز علم النفس الغربي بوقود ذكوري قد يكون ساديا لا يجد تنفيسا حقيقيا إلا في أنوثة مازوكية، وحينها تتجاذب أقطاب المغناطيس المتنافرة في نوع من المناكحة السيكولوجية، التي تتوفر فيها عناصر التضاد والطباق والمقابلة المكمل بعضها للبعض الآخر. قد تقوم بعض الحسناوات أو المومسات اللائي تدربن بتكنولوجيا السلوك، أو اللائي رزقن بمواهب عظيمة في الغواية المستميلة وعلاقتها بالغة التعقيد بالمعرفة، وتؤدي إلى مناكحة وحشية باطشة يستخدم فيها العدوان النفسي الضاري، والعدوان الجسدي المروع في بعض الأحيان بصورة مفترسة وعاتية. وقد يتم التساؤل كيف تعمل هؤلاء الحسناوات الفاتنات في حفظ التوازن المزدوج والدقيق ما بين العاطفة والمهنة؟ وفي ظل الاستخبارات قد يتساءل أحد بصورة غير مستورة، كم من حسناء ألمانية، أو إنجليزية، أو روسية، أو أمريكية، أو إسرائيلية نذرت جسدها وأظهرت شبقها لتقديم خدمات جليلة لبعض العرب في الأماكن أو المناصب الحساسة؟

ولقد اقتضى ترتيب الجنسيات تبعا لتطور التراتيب في تطور علم النفس وعلاقته بالحرب الباردة، وأن «المناكحة السيكولوجية المعلوماتية» تقع في قلب عملية التجسس والحرب الباردة. وقد أدت هذه المناكحة لعشرات الاغتيالات، فمثلا صار ضحيتها يحيى المشد، العالم المصري

والعبقرية الفذة، الذي كان يعمل في المفاعل النووي العراقي، والذي سافر لفرنسا لاستلام بعض المواد المشعة، وفي إحدى فنادق باريس العامرة باستخباراتها زهقت روحه بهدوء وببراعة مع حسناء فرنسية، أو «مومس فاضلة». قد يكون العدوان عدوانا متدرجا بصورة إيحائية فائقة من غيبوبة الشعور، غائصا في أعماق اللاشعور، حيث تذهب بعدها الروح مع الريح بصورة مغناطيسية.

التنويم

واستخدم التنويم في الاستخبارات عند بعض الدول على نطاق واسع، وأن أحسن الأسرار في بعض الأحيان تستحضر عن طريق تنويم شخص والطلب إليه الإتيان بالجواب. وليس هناك تقنية في مجال التحكم العقلي جذبت الانتباه العام أكثر من التنويم (عام الجواسيس، ١٩٩١). وكان أول من توصل إلى إيجاد حالة النوم الهادئ، «الغيبوبة»، وهي الحالة التي تعتبر جانبا أساسيا في التنويم هو المركيز بيسجور أحد تلاميذ مسمر، فبينما كان يحاول إحداث الهزة العصبية الهستيرية العادية لشاب راعي غنم يدعى فيكتور باستخدام طريقة التنويم، اكتشف المركيز أن فيكتور راح في نوم هادئ، لم يستيقظ منه إلا بعد وقت طويل، ولم يستطع فيكتور أن يتذكره بعد أن أفاق لنفسه. وحالات فقدان الذاكرة هي حالات شائعة من حالات الغيبوبة العميقة، وهي حالات لا يستلزم الإيحاء بها للشخص المنوم، ولكنها حالات تعتبر نتيجة تلقائية لحالات الغيبوبة العميقة، فإذا لم تكن حالة الغيبوبة عميقة بالدرجة الكافية، وجب على المنوم أن يوحي إلى الشخص المنوم بضرورة نسيان كل ما حدث، وعادة ما تطاع مثل هذه الأوامر بسهولة. ولذلك فإن هناك استمراراً بين اللحظة الأخيرة قبل أن يروح الشخص المنوم في غيبوبة، وبين اللحظة الأولى عندما يستيقظ وهو لا يذكر تماما أي شيء حدث بين اللحظتين (صلاح نصر، ١٩٨٨).

وفي أوائل الحرب العالمية الثانية في أثناء علاج حالات الأمراض العصبية الحادة الناجمة عن توترات الحرب، أصبحت قيمة بعض العقاقير المعينة واضحة في مساعدة المرضى على التخلص من الانفعالات التي علقت بأذهانهم نتيجة المحن المخيفة التي تسببت في انهيارهم العصبي. وكان قد سبق أن اقترح وليم براون أن التفريغ الانفعالي غالبا ما يكون وسيلة أكثر فعالية بكثير في شفاء نورستانيا الحرب عن مجرد الإيحاء تحت تأثير التنويم، فالإيحاء يزيل الأعراض ولكن

التخلص من الانفعالات يزيل أسباب الأعراض، إذ تحدث إعادة للارتباطات المصاحبة بشكل كامل، ومع ذلك فإنه يجوز أن يكون للإيحاء دور مهم في الشفاء، بواسطة التخلص من العقد والرغبات المكبوتة بعملية التفريغ الانفعالي. وفي العام ١٩٤٤ استخدم «الأثير» بدلا من البربتيوريت لإحداث عمليات التخلص من الانفعالات فلوحظ تحسن مباشر في سلوك المرضى. ويصف سارجنت ذلك بقوله: «في أغلب الحالات أحدث «الأثير» انفجارا انفعاليا بدرجة أكبر بمراحل عما سبق ملاحظته باستخدام العقاقير الأخرى، وكان من نتيجة ذلك أن اتخذ المرضى في سردهم للحوادث شكلا دراميا أو محزنا»، وكانت هناك ملاحظة أخرى تثير الانتباه وهي أن حالات الانهيار المفاجئ، بعد الانفجارات الانفعالية يتكرر حدوثها وتستمر أكثر مما يحدث من استخدام التنويم أو البربتيوريت (صلاح نصر، ١٩٨٨). وفي أواخر الأربعينات، اختبرت وكالة المخابرات المركزية التنويم وجربت اجتماع مخدرين، مثل سيكونال ونبتوثال الصوديوم ويتبعهما امفتامين قوي، مثل دكسرين أوديزوكسين. وكانت الفكرة المحافظة على عالم متألق من الشعور واللاشعور. ولقد تم تعليق زجاجات تحتوي على مخدرات تدخل عن طريق الأوردة، لها ساعد وصمامات للتحكم بالتدفق، بحيث يمكن المحافظة على الشخص في الحالة المرغوبة والمطلوبة، وأدى هذا البحث في التحكم بالسلوك إلى اختيار الهروين والمورفين والميثادون والكوكايين وحامض اللسيرجيك. وتم بحث مخدر الحقيقة وهو المخدر الذي يوصل إلى الحقيقة أو إلى اعتراف صريح من قبل المستجوب. تستعمل المخدرات مع التنويم والإكراه، وعندها لن يحتفظ الشخص المستجوب بأي سر لفترة طويلة (بوست، ١٩٩٠).

ولقد تم التساؤل هل من الممكن إقناع الأشخاص تحت تأثير التنويم بارتكاب الجرائم أو السلوك، بما يتعارض مع أخلاقهم ومعتقداتهم؟ وفي إحدى التجارب التي أجريت على جندي امريكي وضع في حالة غيبوبة في حضور ضباط برتب كبيرة من الجيش، ووقف ضابط برتبة عقيد أمام الجندي وعلى مسافة ١٠ اقدام منه ثم وضع الجندي حينئذ في حالة غيبوبة، ووجه إليه هذا الإيحاء: «سوف تفتح عينيك بعد دقيقة سوف ترى أمامك جنديا يابانيا، إنه يمسك بالسونكي، وهو يستعد لقتلك إذا لم تبدأ بقتله. عليك أن تخنقه بيدك» وفتح الجندي عينيه، وبدأ يزحف للأمام ببطء، وأخيرا قفز قفزة سريعة وأوقع الضابط، وبدأ يضرب رأسه ويخنقه بيديه. وتطلب الأمر ثلاثة

رجال لشده وإبعاده عن الضابط، ولم يعد إلى هدوئه إلا بعد أن استطاع المنوم أن يرسله في سبات عميق. ولقد قال الضابط إن هجوم الجندي عليه لم يكن تمثيلا، وانه كان من الممكن أن يقتله أو يصيبه بإصابات خطيرة لولا أن هب الآخرون لإنقاذه. ولما كان ضرب ضابط في الجيش مخالفة خطيرة فإنه يتضح لنا أن المنوم الماهر يستطيع بسهولة أن يؤثر على المنوم، ويحثه على الإتيان بأعمال خطيرة (صلاح نصر، ١٩٨٨). يبدو أن علماء النفس بالمخابرات يبحثون عن مقدار أكبر وأروع من التحكم وتشكيل سلوك الإنسان كسلوك الآلة. وتوضح التجربة التالية حالات الغيبوبة التي يمكن أن توظف بصورة درامية في أعمال المخابرات.

في الأيام المبكرة للحرب الباردة حاولت المخابرات الأمريكية استخدام التنويم، وتنبأ بعض الخبراء بأن هذه التقنية سوف تقود إلى تقدم هائل في مجال التجسس، ووضح بأن الافراد تحت عملية التنويم يمكن أن يتعرضوا لحالات من الشبهة والفضيحة والابتزاز. ولقد تم إجراء إحدى التجارب عن التنويم سميت بـ «مرشح منشوريا» أو «القاتل المبرمج». ولقد قام خبير التنويم في المخابرات بعملية تنويم لإحدى السكرتيرات في حالة من الغيبوبة العميقة، وطلب منها الاستمرار في النوم حتى يأمرها بطريقة أخرى، ثم قام في الوقت نفسه بتنويم سكرتيرة ثانية وأوحى لها بأنها لا يجب أن تتردد في القيام بعملية قتل، وترك مسدسا بالقرب منها فما كان من هذه إلا أن أخذت المسدس وأطلقت النار على صديقتها النائمة. وعندما قام الخبير بإيقاظ القاتلة من غيبوبتها كانت قد أصيبت بحالة من فقدان الذاكرة وأنكرت أنها قتلت أحدا. ولقد تم التساؤل من قبل الخبير النفسي إلى أي حد يمكن أن يقوم التنويم بنفس النتائج المذهلة والدراماتيكية في عمل المخابرات؟ وهل يمكن أن يحدث خبير التنويم شخصية منفصلة تماما بالنسبة للعميل؟ وإلى أي حد يمكن إرسال العميل في مهمة لا يتذكر عنها شيئا حتى يرجع ويوحي إليه المنوم بأن دوره قد انتهى؟ وإلى أي حد يمكن خلق «مرشح منشوريا» الذي يقوم بعملية قتل مبرمج في أي مكان، ثم لا يعرف من أمره بذلك في حالة انتهاء مهمته؟ ربما تعبر هذه المحاولة بدقة متناهية عن وجود علماء نفس أو أفراد يستخدمون علم النفس بصورة مذهلة، وربما بقساوة أقسى ممن يجرون حبل المشنقة أو قاطعي الرؤوس بالسيوف. إن قدراً كبيراً من علم النفس، هو بلا ريب، قدر من الفظاعة في استخدام تقنياته بصورة هائلة. ولم تكن التقنيات النفسية أو السلوكية، بلغة أدق، وحدها التي تطورت، ولكن قد تطورت كذلك بموازاتها تقانة دقيقة من نوع آخر.

تكنولوجيا التجسس

يقع عالم التجسس بين الحقيقة الصعبة والخيال الغريب. عرفناه في شخصية لورنس العرب المحيرة والغامضة، وكذلك في شخصيات جون فيلبيي، وإيليا كوهين، ورأفت الهجان. وفي هذا المجال أخذتنا روايات أغاثا كرستي إلى عالم بوليسي ملىء بالأعمال القذرة يتجلى فيها بطل خارق يكشف عن المجرمين، ويعمل كمحقق وعميل وجاسوس في آن واحد. وجاءت روايات أرسين لوبين شخصية خيالية للص وليس جاسوسا ابتكرها الكاتب الفرنسي موريس لبلان، وكذلك روايات جيمس بوند التي انتقلت إلى السينما وذاع صيتها في جميع أنحاء العالم، وبات العميل رقم ٠٠٧ مثلا للصغار والمراهقين وموضع اهتمام الكبار وإعجابهم (بوست، ١٩٩٠). لقد تزامنت التطورات الكبيرة في مجال علم النفس بتطور آخر في مجال التقنيات التي تستخدم في عمل المخابرات والتجسس. وقد استخدم المخبرون والجواسيس الكثير من الأدوات الدقيقة والمذهلة والتي نشاهدها في المسلسلات وفي الأفلام بقصد جمع المعلومات، ومعرفة الأسرار، وفي الاغتيالات، وتعزز هذه التقنيات الإمكانيات المحدودة للحواس الإنسانية. ويراد لهذه الحواس أن تعمل بفعالية وبصورة خارقة. وكما يعبر بروست: لقد بات السمع والنظر العاديان غير كافيين، وصارت الحاستان مدعومتين بالآلات الدقيقة.

لقد اخترع جراهام بل الهاتف عام ١٨٦٨، وتطور الهاتف وأصبح أكثر الآلات الإلكترونية انتشارا في العالم، كما أصبح هدفا أساسيا للذين يرغبون في الاطلاع على أسرار وخصوصيات الآخرين، ويمكن التنصت على المحادثات الهاتفية التي تجرى في الغرفة التي يوجد فيها الهاتف، وتستعمل كذلك تكنولوجيا الحقيبة السوداء في الواقع أقل مما يظهر في روايات وأفلام التجسس - أفلام جيمس بوند - وتستعمل أيضا في العالم الرمادي وهو العالم الذي تكون فيه الفوارق ضبابية بين الإرهابي والمقاتل من أجل الحرية، وبين الجاسوس والخائن. ويتضمن عمل الحقيبة السوداء ثلاثة أنواع: السطو، وتدمير الممتلكات، والاغتيالات. وتطورت تقنيات أخرى للتجسس، مثل زرع أدوات استرقاق السمع مثل الميكرفون البلوري، شرائط التسجيل، أدوات الاسترقاق الراديوية، وتعديل التردد. كما استخدم علم الاخفاء، والذي يحتوي على الشفرة والرموز، آلات الخفاء مثل اللغز والأرجوانة. ومن الأدوات البدائية للاتصالات، الحبر السري مثل الحبر العضوي، والحبر الكيميائي المشع، وحبر الرصاص الفرعي، الميكروفيلم والنقاط الصغيرة.

ويمكن وضع المسدسات في الأحذية وفي الأقلام وفي الأدوات الموسيقية والكاميرات مثلما يمكن وضع لعبة «سام السري» للأطفال في حقيبة صغيرة (بوست، ١٩٩٠).

بالإضافة لذلك يمكن تركيب هذه الأجهزة الصغيرة في الحيطان، وفي قطع الأثاث، وحتى تحت البلاط، وفي قلب سماعة الهاتف، بل كذلك دسها في أحد الكتب، أو حتى في الزر الذي يضاء به المصباح الكهربائي أو حتى تحت منفضة السجائر. والاستعمالات كثيرة جداً وكلها ممكنة بسبب صغر حجم الجهاز ونوعه. وهناك أجهزة أصغر، وهي على شكل زر الجاكيت أو الخاتم أو مركبة في ساعة اليد أو موضوعة في كعب الحذاء أو في القلم او في ولاعة السجائر الصغيرة. وتم اختراع آلات التصوير بساعة اليد، الولاعة، العدسة المكبرة، كاميرات التصوير من خلف الجدران، زرع الآذان في الحيطان، الحذاء القاتل، والمسدس الصامت. وربما كانت الطائرة الملقبة بـ«حمامة عصرية» هي أغرب وأذكى وسائل نقل الوثائق والمعلومات. وكانت تلك الطائرات صغيرة بحيث لا يلتقطها رادار ولا تراها العين المجردة، ويستحيل إيجادها بعد أن تحط على الأرض. ولقد أطلق جنود فرنسيون أعيرة على حمام طائر واكتشفوا أنه يحمل آلات تصويرية موجهة نحو الأرض، بحيث تلتقط صورا واضحة أثناء تنقل الطائر. لقد أعطت هذه الأدوات رخصة للأيدي الشريرة لاستخدامها بالنسبة للأعداء، وربما الخصوم أو المعارضين. وحمام النصف الثاني من القرن العشرين هو طائرات يقودها جواسيس الجو (عالم الجواسيس، ١٩٩١). كما استخدمت الشفرات الدبلوماسية، والترميز وتقنيات التصوير من ارتفاعات عالية، والتصوير الاستطلاعي، الذي يستخدم بصورة ذكية، ويسهل بواسطته الحصول على معلومات دقيقة وإجراء اتصالات في غاية من السرية، وقد تستخدم أحيانا في عمليات مستورة وبصورة رزينة، كما حدث في محاولة اغتيال خالد مشعل بالأردن.

دعم المخابرات للأبحاث

لقد ذكرت جريدة «رولنق استون» في عددها الصادر يوم ١٨ يوليو ١٩٧٤، أن وكالة المخابرات الأمريكية تستخدم بعض المنظمات الخاصة للقيام بدراسات نفسية لبعض العملاء الجدد والقدامى في مجال التجسس.

ويؤكد جتنقر أن شركة زملاء القياس النفسي التي تتخذ من واشنطن مقرا لها، تعتمد اعتمادا

كليا على دعم المخابرات الأمريكية وتقوم الشركة بتقييم الأشخاص ولا تستهدف الشركة المواطنين الأمريكيين. ولا يرى جتنقر ان هناك مشكلة أخلاقية في دراسة نقاط الضعف في الناس، ولاسيما إذا كان ذلك يساعد المخابرات الأمريكية في الحصول على معلومات مهمة. ولقد اعترف جتنقر أن شركته قد قامت بأبحاث عدة لصالح وكالة المخابرات الأمريكية لتطوير بعض الاختبارات النفسية المتحررة من التحيز الثقافي. ولقد تم تطبيق هذه الاختبارات على عينة من الأجانب من غير علمهم بأن اختبارهم كان لصالح المخابرات الأمريكية. وقامت الشركة كذلك بتطوير نظام لتدريب رجال المخابرات في كيفية إجراء ملاحظات سيكولوجية مفيدة بالنسبة للأجانب. ولقد أنشأ جتنقر شركة زملاء القياس النفسي لتقديم خدمات نفسية للشركات الأمريكية في الخارج. وقام جتنقر شخصيا بافتتاح فرع للشركة في طوكيو، وانتقل ذلك الفرع إلى هونج كونج لخدمة محطات المخابرات الأميركية في الشرق. وعمل ١٥ متخصصا في القياس النفسي على إجراء عمليات القياس في بقية أنحاء العالم.

ولعبت المخابرات الأمريكية (ماركس، ١٩٧٩) دورا كبيرا في تطوير بعض الأبحاث عبر الثقافية في علم النفس، مثلا أبحاث القدرة على فهم المعاني، والتعبير عن المشاعر، والحساسية الثقافية، وتقنين الاختبارات المنحازة ثقافيا، ودراسات البناء الاجتماعي والاتجاهات داخل وخارج امريكا. وقد لعبت عملية التطوير هذه دورا اساسيا في تدعيم علم النفس عبر الثقافي خاصة. فهناك الافتراض القائل بعدم صلاحية علم النفس الغربي للتطبيق في الثقافات الأخرى، ما لم تجرى عملية تعديل أو تكييف أو تقنين صارمة له في المجتمعات والثقافات غير الغربية. ولقد استوعب جتنقر بأن مقاييس وكسلر الفرعية هي منحازة ثقافيا، وقاد ذلك الى عمل نماذج معدلة من «نظام الباص» لكي يناسب الأمم المختلفة في العالم. ولقد أظهرت أبحاث القياس النفسي أن هناك علاقة ارتباطية بين النماذج العقلية واختبار رموز الأرقام. واختبار رموز الأرقام أحد الاختبارات الفرعية لمقياس وكسلر لذكاء الراشدين (وكسلر، ١٩٨١)، لذلك يقال بأنه من الاختبارات التي تستخدم لاختيار اقلام المخابرات. وقد اشتهر بروفسر اسجود، عالم النفس الأمريكي الشهير ورئيس الرابطة النفسية الأمريكية بأبحاثه عن كيفية تعبير الناس عن نفس المشاعر في ثقافات مختلفة عندما يستخدمون كلمات أو مفاهيم مختلفة. ولأبحاث اسجود علاقة مباشرة بعمل المخابرات، ولاسيما مفهوم القدرة على فهم المعاني. ولقد كتب اسجود مباشرة للمخابرات الأميركية طالبا

دعما ماليا لمشروع بحثي لمدة خمس سنوات. ولقد ساعده ذلك الدعم للسفر لدول عدة وتوسع أبحاثه عبر الثقافية لكي تغطي ٣٠ ثقافة مختلفة ولقد شكر اسجود رابطة البيئة النفسية على دعمها السخي في تقدم أبحاثه والتي كانت تتوام مع أهداف المخابرات. بالإضافة لذلك فقد تم تشجيع العلماء السلوكيين للبحث عن شيء يمكن أن يثير الحساسية الثقافية لليابانيين. وقد تم الاقتراح بأنه لا يوجد شيء مخجل للجندي الياباني أكثر من حركة بطنه أثناء السير وتم إنتاج تكنيك لخفض الروح المعنوية للفرد الياباني. ولقد قدمت رابطة البيئة النفسية منحة مالية إلى جامعة استانبول في تركيا، وذلك لدراسة أثر الختان على الأطفال الأتراك. وأظهرت نتائج الدراسة بأن الأطفال يتم ختانهم بين عمر ٥ - ٧ سنوات، وترتبط عملية الختان في ذهن الأطفال بآثار نفسية مع أعراض الانسحاب، وينظر الأطفال لهذه العملية المؤلمة كعملية عدوانية.

ولقد قدمت الرابطة كذلك دعما ماليا إلى عالم النفس الاجتماعي المسلم مظفر شريف وزوجته لبحث سلوك العصابات وسط الأطفال من خلال دراسة البناء الاجتماعي، والاتجاهات بالنسبة للعصابة، وكيفية تحويل السلوك اللا - اجتماعي، أو السلوك المعادي للمجتمع لسلوك بنّاء. ولقد استخدمت نتائج عمليات شريف في عمليات المخابرات السرية. وربما كان الهدف هو كيفية تحويل المهارات والقدرات الفائقة في سلوك العصابة لمهارات أكثر فائدة لأغراض المخابرات. ووجد كارل روجرز- الذي اشتهر بمنهج العلاج الموجه - دعما ماليا كبيرا من جمعية البيئة الإنسانية، ويذكر أنه ليس لديه اعتراض في خدمة المخابرات، بل كان فخورا بدعم الجمعية له كاستشاري لها. واستلم بروفسر كيلمان، أستاذ علم النفس بجامعة هارفارد منحة من جمعية البيئة لنشر كتاب يسمى السلوك العالمي عام ١٩٦٠. وقدمت الجمعية كذلك منحة مالية إلى ايزنك، عالم النفس البريطاني بجامعة لندن، لمشروع أبحاثه عن الدافعية. واستلم اسكنر دعما ماليا من الجمعية لدعم مشروع كتابه «ما بعد الحرية والكرامة» والذي ترجم للعربية بعنوان «تكنولوجيا السلوك الإنساني». ولقد قام اسكنر بتدريب الحمام على توجيه القنابل لخدمة الدفاع أثناء الحرب العالمية الثانية. ولم يقتصر دعم الجمعية للأبحاث داخل الولايات المتحدة، بل كانت هناك قاعدة بأن تقترب وتفاتح الجمعية أي عالم أكاديمي في أي مكان في العالم. ولمتابعة التطورات الهائلة في العلوم السلوكية، فإن ممثلي رابطة البيئة الإنسانية كانوا يقومون بزيارات منظمة للأفراد الذين استلموا

دعما ماليا من الجمعية. وأصبح هؤلاء العلماء المشهورون علماء جواسيس للمخابرات الأمريكية (ماركس، ١٩٧٩). بالإضافة لذلك فقد تم توجيه دعم المخابرات المادي إلى بعض علماء النفس وبرفقة بعض ضباط المخابرات للقيام بعملية تقييم سيكولوجي سري لبعض القادة الأجانب خارج أمريكا (رولنق ستون، ١٩٧٤). ويقال إن زيارة جورج بوش للسودان في الأيام الأخيرة لفترة الرئيس نميري كانت مصحوبة بعالم نفس متخصص في سيكولوجية الشخصية لكي يقوم بعملية تحليل شامل لشخصية نميري، وما إذا كان يصلح للاستمرار في الحكم أو لا يصلح، كما يقال إن التقرير السيكولوجي تضمن بعض سمات عدم الاتزان في البناء النفسي لشخصية نميري مما يعوق استمراره في الحكم، وحينها ذهب جعفر نميري مع أدراج الريح.

علم النفس والعلاقات العربية - الإسرائيلة

منذ عام ١٩٣٠ هاجرت مجموعة من علماء التحليل النفسي اليهود من ألمانيا النازية للاستقرار في فلسطين. ومنذ تلك المرحلة المبكرة هناك بعض الأنشطة السيكولوجية، مثلا، فقد عمل ماكس ايتنقون على إنشاء جمعية فلسطين للتحليل النفسي، وتمت أول محاولات لإدخال علم النفس في الجامعة. وكان سيجموند فرويد عضوا في مجلس الجامعة العبرية بالقدس، وتم ترشيح كيرت ليفن لقيادة قسم علم النفس بالجامعة. وبمرور عام ١٩٣٦، تم تأسيس معهد التحليل النفسي بواسطة ايتنقون، وتم تأسيس كرسي فرويد للطب النفسي في الجامعة العبرية بمباركة من أنا ابنة فرويد، وأصبحت القدس حينها مركزا رئيسيا لتقدم التحليل النفسي على المستوى الفكري والبحثي. وتم تأسيس أول قسم لعلم النفس عام ١٩٥٧ في القدس، وفي عام ١٩٥٨ تم تأسيس قسم علم النفس في جامعة بار علان، بينما تم تأسيس أقسام علم النفس في جامعتي تل أبيب وحيفا عام ١٩٦٦. وكان علماء النفس في إسرائيل منظمين منذ تأسيس الرابطة النفسية الإسرائيلية عام ١٩٥٧، وكان عدد الاعضاء حينها ١٧٠ عضوا. ومنذ عام ١٩٥٥ شارك ١٠٠ من علماء النفس في المؤتمر القومي لعلم النفس، بينما شارك ١٠٠٠ في المؤتمر العشرين عام ١٩٨٥ (بن عري، وعمير، ١٩٨٦). وانضمت الرابطة النفسية الإسرائيلية إلى الاتحاد الدولي للعلوم السيكولوجية منذ عام ١٩٥١ (روزنزويج، ١٩٨٢).

في إسرائيل تجرى الأبحاث السيكولوجية في معاهد عدة عامة خارج إطار الجامعات، مثل معهد جتمان للبحث الاجتماعي التطبيقي، ومعهد حداسة للتوجيه المهني، ومعهد دراسات التعليم في الكيبوتز، ومعهد حريتا للبحوث في العلوم السلوكية. وخلال الثمانينيات كانت هناك تطورات كبيرة في أبحاث علم النفس منها: تأسيس برامج لعلم النفس الصناعي في معهد حيفا للتقانة، وبرنامج للدراسات العليا في جامعة بن قوريون. وتقدم برامج الماجستير والدكتوراه في كل من جامعة تل ابيب، وجامعة حيفا، وجامعة بار علان، والجامعة العبرية. وتمول كل أبحاث علم النفس في إسرائيل من الميزانية العامة. وتعتبر أقسام علم النفس في إسرائيل من أكبر الأقسام في الجامعات الاسرائيلية، ولا يقبل في هذه الأقسام إلا هؤلاء الذين لهم إنجاز دراسي عالٍ، وقدرات عقلية عالية. ويكون معدل الرفض في بعض أقسام علم النفس ١٤ من ١٥ مرشحاً. وبلغة أخرى، يقبل طالب واحد بين كل ١٥ مرشحاً. إن الحاجة الكبيرة لخدمات علم النفس في المجتمع، والتي تتبعها الحاجة الماسة لدراسة علم النفس، والتي تسمح باختيار الطلاب من ذوي القدرات العالية لبرامج البكالوريوس في الجامعة، والتي يتبعها اختيار الطلاب من ذوي القدرات العالية لبرامج الدراسات العليا، مما ساعد على إنتاج مهنيين أعلى من المتوسط في علم النفس، مما أدى لظهور إنتاج سيكولوجي عال من جانبيه التطبيقي والعلمي، ويعمل كل ذلك على استقرار المستوى الرفيع لعلم النفس في المجتمع، وربما يعمل على زيادته. في الوقت الراهن أصبح علم النفس واحداً من أكثر المهن المرغوبة في إسرائيل. ولفترة طويلة من الزمن كانت تفضل الأم الاسرائيلية أن يكون ابنها طبيبا أو على الأقل محاميا، ولكن حاليا انضم علم النفس لهذا النادي الرفيع (بن عري، وعمير، ١٩٨٦).

يعمل علماء النفس الصناعيون في قوات الدفاع الإسرائيلية، وفي المؤسسات الخاصة ببناء معايير للاختيار المهني، وتطوير إجراءات التدريب والتقويم. وهناك وحدتان لعلم النفس في قوات الدفاع الإسرائيلية: تهتم إحداهما بعلم النفس الصناعي، وتهتم الأخرى بالصحة النفسية للجنود. ومنذ تأسيس قوات الدفاع هناك تأكيد على الجوانب الخاصة بالحاجة الماسة للخدمات المهنية لعلماء النفس. وكان أول هذه الخدمات هو ترقية نوعية الأفراد، وترقية المؤسسة العسكرية، وذلك نتيجة للقلة العددية للجيوش الإسرائيلية مقارنة بجيوش الجيران (العرب) وتبعا لذلك فقد تم اعتبار الخدمات المهنية والتوجيه النفسي المقدم بواسطة علماء النفس ضرورة، وبرهن على أهميته

كعامل خطير بالنسبة لقوات الدفاع الإسرائيلية. وكانت هذه الخدمات السيكولوجية محط تقدير واحترام من قبل القادة، والتي تم استغلالها لأقصى حد ممكن وتضمنت وظائف الخدمات السيكولوجية القياس والاختيار العام، والتشخيص المحدد للوحدات الخاصة، وتطوير وتطبيق التقنيات الفريدة للتدريب والتي تضمنت تدريب القادة، وقياس الروح المعنوية، وتقييم المناخ العام للمؤسسة العسكرية، وتطوير تقنيات التدخل في أوقات الأزمات. إن أحد المظاهر الفريدة لقوات الدفاع الإسرائيلية هو توظيف علماء النفس كاختصاصيين وكمستشارين في كل المستويات القيادية. وهناك قسم خاص للابحاث السيكولوجية في قوات الدفاع الإسرائيلية، قام بإجراء ابحاث واسعة عن كثير من الجوانب السيكولوجية للجيش. وتشبه هذه الوحدة في أنشطتها المؤسسات الشبيهة للقوات المسلحة في الولايات المتحدة الأمريكية. ولأسباب واضحة ليس من الممكن توضيح نوعية الأبحاث السيكولوجية التي تجرى في هذه الوحدة (بن عري، وعمير، ١٩٨٦).

الحرب النفسية

ساعدت عوامل عدة على تطور ابحاث علم النفس في إسرائيل، ومن بين ذلك أن الروابط السياسية والتاريخية الوثيقة بين إسرائيل والولايات المتحدة، وكذلك بالنسبة للدول الغربية الأخرى، جعلت إسرائيل من نواح عدة امتداداً للغرب (لونر، ١٩٨٠) وهناك علاقات متداخلة بين علم النفس في إسرائيل، وبين التاريخ السياسي والاجتماعي لليهود. وكانت مجموعة المهاجرين لإسرائيل من ألمانيا النازية مجموعة مشردة جسديا، وفاقدة للهوية عقليا، وقلقة بإفراط ولم يتبق في قلوبها اعتقاد في الإنسانية، مع قليل من الأمل للمستقبل (عمير، وبن عري، ١٩٨١). في تقديري، هذه الخصائص الجسدية، والعقلية، والعاطفية، والمستقبلية، التي تمت إعاقتها بفعل النازية تتطلب إيجاد نوعية محددة من علم النفس يستجيب لمساعدة هؤلاء الأفراد والجماعات. ولقد عمل علم النفس المناسب لهذه الفئة من دون شك على تطور العلم من ناحية نظرية وتطبيقية، يستخدم بفعالية في بناء الذات المشردة، والفاقدة للهوية، والفاقدة للاعتقاد في الإنسانية من جهة، ومن جهة ثانية يستخدم بفعالية في صياغة أدوات مناسبة للبقاء في محيط عدائي. ونتيجة لذلك تمت صياغة الكثير من أدوات الحرب النفسية الفعالة مع الأعداء، والتي تعمل بدورها على تهديم ذات الآخرين. ومن ناحية سيكولوجية، يمكن القول إن اليهود كانوا ضحية لإسقاط التعذيب البشع

عليهم بفاعلية من قبل النازية الألمانية، واسقطت إسرائيل عملية البشاعة نفسها في حربها النفسية مع العرب.

إذا تحرينا الدقة، يبدو أنه ليس هناك من يستخدم بفعالية الحرب النفسية كما تستخدمها إسرائيل في حربها ضد العرب. فهي تشن حربا نفسية ضروسا، لا تبقي ولاتذر، ولأن إسرائيل، كما يقال، إحدى الولايات الأمريكية، فهناك علاقة دافئة بين التطبيقات الأمريكية والتطبيقات الاسرائيلية لعلم النفس. وقد يستحيل أحيانا تحديد ما هو أمريكي وما هو إسرائيلي. يقول فيصل علاف: إن الحرب النفسية الإسرائيلية هي الشكل العملي للدعاية الصهيونية الموجهة ضد الشعب العربي والقوات المسلحة العربية، وذلك بغية النيل من الشعب والجيش، وتحطيم إرادة القتال والصمود عند الجيش، لتتمكن إسرائيل بذلك من حسم الصراع لصالحها (نوفل، ١٩٨٦) ويضيف غازي ربابعة: إن إسرائيل تولي جهاز الحرب النفسية عناية كبيرة، لاسيما وقت الحرب ضد الجيوش العربية، بقصد التاثير على معنويات هذه الجيوش من خلال مختلف وسائل الإعلام والنشر (نوفل، ١٩٨٦). وقد أدخلت اسرائيل على وسائل الحرب النفسية التي تشنها على العرب الكثير من المنجزات والوسائل الفنية، واعتمدت على معطيات علم النفس للتاثير في عقول الناس ونفسياتهم، وتحطيم معنويات المقاتل العربي من خلال زرع اليأس والقنوط عنده، وتصوير استحالة تمكنه من تحقيق اي تقدم او نصر على الجندي الإسرائيلي. ومن أجل ذلك دأبت الأوساط الحاكمة في المؤسسة العسكرية الصهيونية على طرح المقولات ونسج الأساطير حول قواتها المسلحة، فجيشها لا يقهر، والعسكري عندها لا يعرف التردد او التراجع (نوفل، ١٩٨٦). ويعرض نزار عمار محاولة إسرائيل لاستغلال الخلافات والتناقضات العربية، حيث تسعى الاستخبارات الإسرائيلية للحصول على معلومات دقيقة تساعدها على وضع خطط تعرضية، تهدف إلى تحقيق التجزئة والتفرقة داخل الدول العربية، وشق الصف بين الدول العربية، وذلك بتغذية الأفكار الإقليمية، وتحريض الفئات الانفصالية، واستثمار التناقضات المتعددة. لذلك فهي تجمع معلومات حول شخصيات الزعماء ورؤساء الحكومات وزعماء المعارضة وقادة العمل السياسي، وكل ما يتعلق بالهيئات والتنظيمات السياسية ونظم الحكم والأحزاب السياسية وتاثيرها، ومدى الدور الذي تلعبه الأقليات (نوفل، ١٩٨٦). وينتقل العنف النفسي للخطاب، وفي رسم صورة العرب في المخيال الغربي، وحتى في المفاوضات، وفي الدبلوماسية.

يقول أديان اركند، في خطاب القاه سنة ١٩٢٧ في نيويورك: إنه بواسطة وكالات الأنباء العالمية يغسل اليهود أدمغتكم، ويفرضون عليكم رؤية العالم وأحداثه كما يريدون هم، لاكما هي الحقيقة. وبواسطة الأفلام السينمائية، فخلال ساعتين من الزمن، وهي مدة عرض فيلم سينمائي، يمحو اليهود من عقول شبابنا وأجيالنا الطالعة ما قضى المعلم والمدرسة والبيت والمربي ستة أشهر في تعليمهم وتثقيفهم وتربيتهم (نوفل، ١٩٨٦).

ولقد نشرت الاستخبارات الإسرائيلية عددا من الكتب وجندت عددا من الكتاب الإسرائيليين، وأمدتهم ببعض الروايات والمعلومات حول نشاط الاستخبارات، ليتولوا صياغتها بالأسلوب الذي تهدف إليه، وهو إظهار التفوق العسكري الإسرائيلي ومقدرة وهيمنة جهاز الاستخبارات. ومن هذه الكتب «تحطمت الطائرات عند الفجر»، و«الميراج ضد الميغ»، و«عين تل أبيب»، و«الهيمونية المشرف»، و«حرب الظلال»، و«ايخمان في القدس» وغيرها من الكتب التي تحاول التأثير على أفكار القارئ العربي وخداعه بمقدرة الاستخبارات الإسرائيلية وتفوقها. وليس أدل على ذلك من استغلال الاستخبارات الإسرائيلية لنموذج الجاسوس ايلي كوهين، فقد أصدرت الاستخبارات الإسرائيلية العديد من الكتب حول قصته، حتى غدا المواطن العربي يخشى من وجود المزيد من أمثاله في أكثر المراكز الحساسة في أقطاره. وقد قامت الاستخبارات الإسرائيلية بتنمية هذا الخوف وتغذيته، وإعادة طبع الكثير من الكتب، واعتبرت قضية كوهين التابالم الفكري، والسلاح السيكولوجي الفعال لإقناع العرب بأن الجواسيس الإسرائيليين منتشرون بينهم ويعرفون أسرار أقطارهم أكثر مما يعرفون هم عنها (نوفل، ١٩٨٦).

يكشف نزار عمار في كتابه «الاستخبارات الإسرائيلية» بأن دراسة خاصة كشفت أن الاستخبارات الإسرائيلية تقوم بعمليات خطف لأولاد تتراوح أعمارهم بين ١٣ - ١٥ سنة، وتلحقهم بمراكز خاصة تابعة لها، تشرف عليها مجموعات من الخبراء النفسيين، مهمتها تنمية جميع دوافع وأشكال الانحراف لدى هذه المجموعات، وأهمها الانحراف الخلقي، فتدفعهم إلى تعاطي المخدرات، والإدمان على الخمر والجنس في سن مبكرة، وتشجعهم على الشذوذ، ويتبع ذلك تلقين فكري ومؤثرات نفسية تستهدف دفعهم مستقبلا للانخراط في قواعد الفدائيين، ليكونوا عيون الاستخبارات الإسرائيلية داخل جسم الثورة (نوفل، ١٩٨٦). وربما تستخدم هذه المجموعات المدربة في أعمال التخريب خارج إسرائيل، خصوصا في بعض الدول العربية عندما بدأت مصر

مرحلة جديدة تلت خروج القوات البريطانية من منطقة القنال، والمواجهة المباشرة مع إسرائيل. جند الإسرائيليون الذين كانوا يخشون قيام علاقات حسنة بين عبد الناصر والغرب مجموعات تخريب من اليهود المقيمين بمصر لتهاجم المنشآت البريطانية والأمريكية في القاهرة والاسكندرية، وكان الإسرائيليون يأملون من هذا تحميل المسؤولية لعبد الناصر. ولكن انكشاف هذه العمليات في منتصف العام ١٩٥٤ تسبب في سقوط حكومة شاريت. (بلوش وجيرالد، ١٩٨٧).

ويبدو أن ثمة تعاوناً كبيراً بين المخابرات الأمريكية والإسرائيلية في رسم صورة بشعة للعرب في المخيال الأمريكي. «وفي العام ١٩٨٠، استيقظت أمريكا على واحدة من الفضائح الكبيرة، وكانت الفضيحة تحمل اسم «أبسكان». وهذه هي التسمية التي أطلقها مكتب التحقيقات الفيدرالي على العملية التي دبرها لعدد من أعضاء الكونجرس لإثبات قبولهم رشاوى من أجانب، وكان الأجانب شيوخا نفطيين من العرب، لكنهم كانوا مزيفين، أي أفراد تابعون للمباحث لعبوا على عدد من أعضاء الكونجرس دور شيوخ النفط، وبالفعل وقع بعضهم في الفخ، وخرجت المباحث تهلل لبراعتها. أبسكان هذه في أحد جوانبها، على علاقة وثيقة بالحرب النفسية الأمريكية ضد العرب. وقد تساءل بعض الأمريكيين العرب في بيان أصدروه فقالوا: ماذا كان يمكن ان يكون التأثير لو أن العملية أطلق عليها جوسكان (أي الفضيحة اليهودية بدلا من الخدعةالعربية)؟ عندئذ كانت ستنطلق صرخات مدوية، وتلتمس المبررات الكاملة. إن قصة أبسكان موجز كامل لقصة الحرب النفسية على العرب. فلقد اعتبر المسؤولون عنها أن الاختيار الطبيعي لشخصية الرجل الذي يحاول ان يشتري مسؤولا امريكيا بالنقود، والذي لابد أن يلقى أبشع رد فعل ممكن من الرأي العام الأمريكي عندما تعلن الفضيحة، هو الشيخ العربي، وهذا الاختيار ما كان ليتم لولا أن هناك خلفية كاملة، سياسية وثقافية واجتماعية ونفسية، تخدم كراهية صورة الإنسان العربي في الولايات المتحدة» (نوفل، ١٩٨٦).

وقد ذكر هيكل انه ليس هناك انفصال بين الدبلوماسية والقوة المسلحة، لأن الدبلوماسية ليست مباراة على مائدة المفاوضات بين رجال مهذبين، وإنما هي حوار بين مصالح متعارضة تستند كل منها إلى رادع حقيقي يحميها ويفتح طريقها، ولابد من التوفيق بينها، وقد عبر عن ذلك كيسنجر بقوله: هناك زواج بين الدبلوماسية والقوة المسلحة، وليس بينهما طلاق (انظر نوفل، ١٩٨٦). ويطرح هذا تساؤلا، يتمثل في كيف تكون من ناحية سيكولوجية، دبلوماسيا وعسكريا في الوقت ذاته؟ كيف تحفظ سيكولوجيا التوازن بين الحرب والسلم؟

وبكلمات أخرى، كيف تكون ملاكا وإبليسا في الوقت ذاته؟ وكيف يتم التعامل مع دبلوماسية ولقاءات ومفاوضات متاصلة في علم النفس الاستعماري، والامبريالي، والاستخباراتي؟ وكيف يمكن هضم واستيعاب الكيفية التي تتم بها إدارة الحوار؟ وكيف تفهم الطريقة التي تجرى بها المشاهدات المنظمة، والملاحظات الدقيقة؟ إن الملاحظة هي نقطة البداية في علم النفس. وقد تكون المقابلات والمفاوضات نوعا من المغازلة العاطفية، تعقبها معركة نفسية حامية الوطيس، تكون الغلبة والانتصار لمن يفهم تقنيات واستراتيجيات الحوار والتفاوض، وخلخلة التوازن العقلي والنفسي.

يستخدم علم النفس بصورة تطبيقية، في دراسة العلاقات بين العرب واليهود (بن عري، وعمير، ١٩٨٦) لقد تعرض فؤاد المغربي، (١٩٨١، رفعت سيد أحمد، ١٩٩٠)، للادبيات التي تعتمد على علم النفس الاجتماعي كأداة أساسية في التحليل. ويعد المنهج الذي يعرف باسم تحليل الشخصية القومية مفتاح تلك الأبحاث. وقد تضمنت موضوعاته عدداً كبيرا من المجالات، الإسلام، العقل الإسلامي، العقل العربي، تاريخ العرب، الثقافة، الحضارة، أنماط تنشئة الأطفال، والمواقف إزاء السلطة. والنتيجة التي أسفرت عنها تلك الأبحاث تمثلت في صورة سلبية عن العرب، وقد تأسس على هذا الكم من الأدبيات تشخيصات وتنبؤات وحسابات استراتيجية. ويرصد فؤاد المغربي أنه منذ العام ١٩٧٠ وما تلاه، ظهر في الولايات المتحدة الكثير من الأعمال في مجال علم النفس الاجتماعي ، ويستخدم على نحو مكثف في لقاءات مع عرب وإسرائيليين. وتركز هذه الدراسات على التغيير المؤقت والسلوك والفهم، وإساءة الفهم، والإمكانيات الجديدة للحوار. ويذكر المغربي أنه، فيما يتعلق بنظرة الإدارة الأمريكية للنزاع العربي - الإسرائيلي، يمكن للمرء أن يصف عقد السبعينيات كعقد «علم النفس السياسي». فقد وضع كلا من العرب والإسرائيليين على الأريكة، في محاولة لاكتشاف طريق لإدارة نزاع يبدو عسيرا. ويربط الكاتب بين ما ظهر في الخطاب السياسي الأمريكي نحو تأكيد الأبعاد السيكولوجية في النزاع كمظهر لتغيير في المواقف مع بدايات العقد، وبروز انفتاح في الوطن العربي للمبادرات الأمريكية الخاصة باعتراف العرب بحق إسرائيل في الوجود، في نطاق حدود عام ١٩٦٧.

لقد أصبحت دراسات «سيكولوجية الشعوب»، كما يقول قدري حفني (١٩٨٨)، سلاحا حربيا مهماً وحاسما، ونعني بالحرب هنا الحرب المسلحة لا ما يطلق عليه - اصطلاحا- الحرب النفسية، ولقد استخدم ضدنا هذا السلاح، وعلى هذا المستوى بالتحديد، في مواجهتنا مع

إسرائيل عام ١٩٦٧، وهو استخدام يستحق أن ننعم فيه النظر. ولم يكن ذلك الاستخدام سرا عسكريا استطاعت مخابرات العدو أن تظفر به منا، ولم يكن صاروخا ولا طائرة ولا قنبلة. ولم يكن سوى «سمة سلوكية» يكمن جذرها السيكولوجي في أعمق أعماق تصرفاتنا اليومية البسيطة، أعني سمة التشاؤم والتفاؤل. لقد اعتدنا أن نكره من يأتي إلينا بخبر سيئ، وأن نتحاشاه ونتجنبه، ونشيح عنه بوجوهنا، ومن الناحية الأخرى، فقد اعتدنا أن نكره أن نحمل نحن خبرا سيئا، وأن يتردد المرء منا كثيرا في أن يكون «نذير شؤم»، وسمة سلوكية أخرى، تبدو أيضا وكأن لا خطر لها، بل لعل البعض قد يعتبرها مدعاة للتفاخر، أعني الخوف المفرط من الوقوع في الخطأ. الخوف من المحاولة. ولكن فلننتظر إلى قول موردخاي هود قائد الطيران الإسرائيلي وهو يتحدث مفسرا إقدامه على «المغامرة» بإرسال الطائرات الإسرائيلية -كلها تقريبا- لمهاجمة الطيران المصري تاركا إسرائيل دون غطاء جوي، يقول: «لقد كان رأي خبرائنا أن الصورة لن تكتمل أمام من يملكون حق التصرف من القادة العسكريين في مصر قبل نصف ساعة، وإنه سيمضي نصف ساعة آخر قبل أن يقرر هؤلاء القادة العسكريون ماذا سيفعلون، وهذه الساعة كانت كل آمالنا، وعلى أساسها تم ترتيب كل توقيتات خططنا». لقد أقدم موردخاي على المغامرة، على حسب قول حفني، وأمامه هاتان السمتان السلوكيتان: التباطؤ في إبلاغ الأنباء السيئة، والتردد حيال المواقف الجديدة.

سيكولوجيا الإرهاب

في السنوات الأخيرة، أصبح الاتهام بـ «الإرهاب» هو المبرر الذي تلجأ إليه الدول الإمبريالية الصناعية الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، لقمع أي حركة تحررية، وطنية كانت أم اجتماعية، لا تتماشى أهدافها مع الخطط المعقدة والمتشابكة التي تستند إليها الإمبريالية العالمية في استنزافها لثروات وقدرات وطاقات العالم الثالث من أقصاه إلى أقصاه (عفيف الرزاز، ١٩٨٧). وفي كتابه عن الإرهاب الدولي الاسطورة والواقع، تناول تشومسكي (١٩٩٠) هذا الموضوع بالعرض والتحليل الرائع مبتدئا دراسته بقصة القرصان والاسكندر الأكبر، والتي تعبر بدقة عن أهداف علم النفس الكبرى والصغرى الخاصة بالتحكم والإرهاب الدولي. يحكي القديس أوغسطين قصة قرصان أسره الاسكندر الأكبر، وسأله: «كيف تجرؤ على الاعتداء على الناس في البحار؟» فأجاب القرصان: «وكيف تجرؤ أنت على العالم بأسره؟» إنني أقوم بذلك بسفينة صغيرة

فحسب، فادعى لصا، أما أنت، ولأنك تقوم بالشيء نفسه بأسطول كبير، فيدعونك امبراطورا! ويعلق القديس أوغسطين على رد القرصان بأنه «رائع ودقيق». وهذا الرد يرصد بشيء من الدقة العلاقات الراهنة بين الولايات المتحدة والكثير من القائمين بالأدوار الثانوية على مسرح الإرهاب الدولي. وبوجه عام، تلقي قصة القديس أوغسطين الضوء على معنى الإرهاب الدولي في الاستخدام الغربي المعاصر، كما تنفذ إلى لب ثورة الغضب إزاء أحداث إرهاب منتقاة، وهي الثورة التي يجري توجيهها الآن بمنتهى الخبث كستار للعنف الذي يمارسه الغرب. إن كلمة «إرهاب» تستخدمها الجيوش الأجنبية في إشارة إلى الأعمال التي توجه ضدهم من جانب السكان المحليين الذين يرونهم كقوات احتلال تحاول فرض تسوية سياسية كريهة، تستند إلى الغزو الأجنبي، وهي في هذه الحالة «النظام الجديد» الذي تسعى إسرائيل لفرضه (تشومسكي، ١٩٩٠).

لقد أوضح بنيامين نتانياهو (بييت، ١٩٨٦)، في مؤتمر دولي للإرهاب عام ١٩٨٦، بأن العامل المميز للإرهاب هو «القتل والتشويه المتعمد والمنظم للمدنيين، والذي يستهدف إشاعة الرعب». ويلاحظ تشومسكي أن هذا المفهوم ينطبق على تونس، وعلى الفظائع الأخرى التي ارتكبتها إسرائيل على مدى أعوام، على الرغم من أنه لا ينطبق على معظم أعمال الإرهاب الدولي، ومن بينها معظم الهجمات الارهابية العنيفة الموجهة ضد إسرائيل (مثل معالوت، ومذبحة ميونخ، وهجوم الطريق الساحلي الذي وقع عام ١٩٧٨، واستغل كذريعة لغزو لبنان). لقد ألف نتانياهو (١٩٩٧) كذلك كتابا بعنوان «محاربة الإرهاب» وترجمه عمر السيد وأيمن حامد للعربية. وتقول جريدة «الشرق الأوسط» الصادرة في يوم الأحد ٢٧ يوليو ١٩٩٧ في عرضها للكتاب إنه يتخفى تحت مظلة المناقشة العالمية لقضية الإرهاب. ويطرح نتانياهو قضية الإرهاب عالميا، ثم يفرق بين الإرهاب والجريمة المنظمة، حيث الإرهاب يحمل في طياته أهدافاً استراتيجية سياسية محضة، بينما تظل الجريمة المنظمة مدفوعة بتحقيق المكاسب المادية والثراء السريع غير المشروع، لذلك يتضاءل حجم الفزع والرعب الذي تسببه الجريمة المنظمة ذات الدوافع الفردية مقارنة بالإرهاب الذي يهدد المجتمع بأسره. ويطرح نتانياهو في نهاية الكتاب وصاياه العشر التي يتمنى من خلالها القضاء على الإرهاب العربي الإسلامي على المستوى الإقليمي والدولي، منها: فرض عقوبات على الدول المصدرة للتكنولوجيا النووية للدول الإرهابية، وفرض عقوبات دبلوماسية

واقتصادية وعسكرية على الدول الإرهابية نفسها، إبادة البؤر الإرهابية الموجودة في الشرق الأوسط، تجميد الممتلكات الخاصة بالدول والمنظمات الإرهابية الموجودة في الغرب، والتعاون في مجال الاستخبارات لمحاصرة الارهاب، وإحداث تغييرات تشريعية بحيث تتيح تعقب المنظمات المحرضة على العنف وشن عمليات أكثر تأثيرا ضدها، وملاحقة فعالة للإرهابيين، وعدم إطلاق سراح الإرهابيين السجناء، وتدريب قوات خاصة لمكافحة الإرهاب، وتثقيف الجماهير.

إن الأعمال البربرية والوحشية التي تقوم بها إسرائيل لا تدخل ضمن مفهوم الإرهاب، بينما الأعمال الدفاعية القليلة التي يقوم بها الأفراد الفلسطينيون تدخل في صميم الإرهاب، وتتطلب رداً انتقاميا من إسرائيل. وقد تكون هذه الأعمال الانتقامية في أي مكان في العالم، وفي أي وقت، ولأي مجموعة عربية، ويقصد بذلك سياسة التأديب الجماعي والمعمم والمعزز سيكولوجيا، وفي الوقت ذاته المرعب للجميع بلا حدود. وبينما استخدم علم النفس في الحرب النفسية بين العرب والإسرائيليين، وظف جزء آخر من علم النفس في عمليات التعذيب، والردع النفسي من خلال التحكم وتغيير الاتجاهات. لقد تم استخدام جزء كبير من التقنيات السيكولوجية بواسطة المخابرات الإسرائيلية في تعذيب السجناء الفلسطينيين. «فقد استشهد أكثر من عشرين فلسطينيا في السجون الإسرائيلية منذ ١٩٨٦، وفي يوم الخميس التاسع من مايو ١٩٩٧ دافعت إسرائيل عن استخدامها للقوة بالنسبة للإرهابيين المشتبه فيهم، وادعت أن هذه الممارسة لها ما يبررها من قبل جهاز الأمن لكي يتعامل مع أعمال التفجير والاختطاف التي يقوم بها الفلسطينيون وفي يوم ٨ مايو ١٩٩٧ وقفت لجنة الأمم المتحدة ضد التعذيب ببحث سجل إسرائيل في تقنيات التعذيب التي تستخدمها في الاستجواب مثل الرج الشديد، وتعريض السجناء للموسيقى الصاخبة لفترة طويلة، وللهواء البارد مع ربطهم في أوضاع مؤلمة» (وولكر، ١٩٩٧).

إن سيكولوجيا التحكم في الأفكار بواسطة الإعلام الأمريكي والإسرائيلي تقنع العالم تماما بأن الضحية الفلسطيني هو إرهابي بالدرجة الأولى، بينما الإرهابي الإسرائيلي بالجملة هو بريء، يدافع عن نفسه. ويقول تشومسكي: تحتدم المناقشة في الأوساط الإعلامية حول ما إذا كان من اللائق السماح للقراصنة واللصوص بالتعبير عن مطالبهم وتصوراتهم، فعلى سبيل المثال تعرضت شبكة «إن بي سي» لانتقادات عنيفة لإجرائها حديثا مع المتهم بالتخطيط لعملية اختطاف السفينة «أكيلي لاورو»، وبالتالي فإنها تكون قد خدمت مصالح الإرهابيين، عن طريق السماح لهم

بالتعبير الحر دون الرد عليهم، وهو ما يعد خرقا مؤسفا للنظام المطلوب في المجتمع الحر، الذي يعمل بشكل منضبط... إن الرقابة الحرفية لا تكاد توجد في الولايات المتحدة، ومع ذلك فإن صناعة التحكم في الأفكار صناعة مزدهرة جدا، بل إنها صناعة لا غنى عنها حقا في مجتمع يعتمد على مبدأ القرار للنخبة والإقرار أو السلبية للعامة (تشومسكي، ١٩٩٠). وعلم النفس الأمريكي به مساحة كبيرة جدا من التفكير السيكولوجي الحر، من حيث المفاهيم والنظريات والأدوات والمناهج بالنسبة لعلماء النفس في الغرب، ولكن في الوقت ذاته يتأطر بدرجة كبيرة جدا في التحكم، وفي درجة الحرية السيكولوجية المتاحة للآخرين. وبلغة أخرى، هناك تشكيل للأفكار وصياغة للأدمغة في ظل حدود الحرية المتاحة. وقد تعكس آراء المدرسة السلوكية في علم النفس هذه المقارنة المزدوجة. ويعتبر التحكم في الأفكار المطروحة في علم النفس ضمنيا. فالهندسة السيكولوجية الغربية تعمل بدقة في عملية اختيار وتطوير المفاهيم والأفكار وتصديرها للعالم، ومن ضمن ما صدر واختير الطريقة التي تمثل أو ترسم بها صورة الآخر.

فكما ذكرنا سابقا، فإن إسرائيل أشبه بولاية أمريكية، يسيطر اليهود أو الصهيونية العالمية على مجموعة كبيرة من الصناديق القومية، والصحافة، ووسائل الإعلام الأخرى فيها. وعن طبيعة النزاع الإمبريالي ودور الإعلام الغربي في تمثيل الآخر في ظل الحرية السيكولوجية المقيدة، والعلاقات الخفية بين أجهزة الإعلام يروي ادوارد سعيد (١٩٩٧) بأنه قد حدث عام ١٩٨٦، خلال البث والمناقشات اللاحقة لبرنامج وثائقي عنوانه الأفارقة، كانت الـ (بي. بي. سي.) أصلا قد كلفت بإعداده، وقدمت معظم تمويله. وقد كتب السلسلة وسردها بصوته باحث متميز وأستاذ للعلوم السياسية في جامعة ميتشيغن هو علي مزروعي، وهو كيني ومسلم تسمو كفاءته ومصداقيته كجامعي ثقة من الدرجة الأولى على كل مساءلة وريبة. وكانت لسلسلة مزروعي مقدمتان منطقيتان: الأولى، أنه للمرة الأولى في تاريخ تهيمن عليه تمثيلات الغرب لأفريقيا، يقوم افريقي بتمثيل نفسه وتمثيل افريقيا أمام جمهور غربي، هو بالضبط الجمهور الذي قامت مجتمعاته، لبضع مئات من السنين، بنهب أفريقيا، واستعمارها واستعبادها. والمقدمة المنطقية الثانية هي أن تاريخ افريقيا مكون من ثلاثة عناصر، أو بلغة مزروعي ثلاث دوائر متحدة المركز: التجربة الأصلانية الأفريقية، وتجربة الإسلام، وتجربة الامبريالية. وكرد فعل للبرنامج الوثائقي الذي سرده مزروعي يقول سعيد بداية، سحب «الصندوق القومي للإنسانيات» دعمه المالي لبث

هذه السلسلة الوثائقية، رغم أن السلسلة بثت على قناة الـ (بي. بي. سي.) على أي حال. ثم إن الـ (نيويورك تايمز)، وهي الصحيفة الأمريكية الأولى، نشرت مقالات متوالية تهاجم السلسلة (في ١٤ أيلول، وفي ٩ و ٢٦ تشرين الأول، ١٩٨٦) كتبها المراسل الثلفازي (يومها) جون كوري. ولقد وصف إدوارد سعيد مقطوعات كوري «بأنها حمقاء عديمة الإدراك أو شبه هستيرية». وأغلب ما فعله كوري هو أنه اتهم مزروعي شخصيا بأنه يمارس الإقصاءات والتأكيدات العقائدية، مثلا، أنه لم يذكر إسرائيل في أي مكان من عمله (في برنامج عن التاريخ الافريقي قد تكون إسرائيل بدت لمزروعي غير ذات علاقة بالموضوع)، وأنه يبالغ مبالغة ضخمة في شرور الاستعمار الغربي، وقد أفرد كوري في هجومه بشكل خاص «إحداثيات مزروعي الأخلاقية والسياسية، في استبداله لبقة ملطفة غربية تتضمن أن مزروعي ليس إلا دعائيا ميت الضمير».

الجمعيات السيكولوجية

قال إبراهيم إبراهيم إن الصهيونية العالمية قوة ذات نفوذ ضخم، وهيبة كبيرة داخل الولايات المتحدة: فصوتها موجود في أروقة الكونجرس والبيت الأبيض، وفي دهاليز مكاتب الحزبين الديمقراطي والجمهوري، وتمكنت الصهيونية من اقتحام أهم المؤسسات الأمريكية، والتأثير عليها خلال العقود الأربعة الماضية، دون مجابهة جادة مع أي طرف عربي، أي من طرف الجالية العربية - الأمريكية، أو السفارات العربية والفئات الأمريكية المتعاطفة معها. ومن هنا جاءت السياسة الأمريكية منذ قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ حتى اليوم معبرة عن آمال وأحلام الصهيونية دون أي اعتبار لوجهات النظر العربية حول قضية فلسطين بشكل خاص (نوفل، ١٩٨٦). ولم تكتف الصهيونية بهذه المؤسسات، بل تغلغلت في جميع الجمعيات والروابط العلمية والأكاديمية، ومن بينها عدد كبير من الجمعيات العالمية الناشطة في مجال علم النفس، والتي تهتم بالسياسة الداخلية للعلم والسياسة الخارجية له. ولعل الرابطة النفسية الامريكية، والرابطة العالمية لعلم النفس عبر الثقافي من أهم الروابط. إذا نظرنا للخارطة السيكولوجية لتوزيع علماء النفس العرب فقد كان عدد المنتسبين للرابطة النفسية الأمريكية من الدول العربية لعام ١٩٩٧، هو ٦٦ من إحدى عشرة دولة: مصر (١٧)، السعودية(١٣)، الامارات العربية (١١)، البحرين (٥)، الاردن(٥)، قطر (٤)، سوريا(٣)، الجزائر(٣)، الكويت (٢)، اليمن (٢)، لبنان(١).

والجدير بالذكر أن عدد الإسرائيليين في الرابطة هو ١٦٦ عضوا أي أن نسبة عضوية علماء النفس العرب لعلماء النفس الإسرائيليين هي ٤ .٢٨٪ و٦ .٧١٪، بالتتالي (علم النفس العالمي، ١٩٩٧). ويمكن أن نلاحظ الفرق الكبير بين عضوية أمة سكانها ٢٥٠ مليون نسمة تقريبا تمثل ربع مشاركة أمة سكانها ٥ ملايين نسمة.

ولقد أتاحت الثورة الجنسية الهائلة في الغرب حرية الاختيار والتفضيل الجنسي بالنسبة للافراد والجماعات. وظهرت جماعات الضغط من اللواطيين والسحاقيات، واهتم علماء النفس، خصوصاً اللواطيين منهم، بهذه الجماعات. وتمتد عضوية الرابطة النفسية الأمريكية إلى مدى واسع من الثقافات والمجموعات المختلفة. ويشكل علماء النفس في الرابطة أقساما جديدة لكي تكون صوتا معبرا بالنسبة لهم، وتتيح هذه الأقسام الفرصة للاعضاء لطرح القضايا الثقافية والاجتماعية بصورة موسعة. ومن بين هذه الأقسام القسم رقم ٤٤ والخاص باللواطيين والسحاقيات وثنائي الجنس، والذي تكون عام ١٩٨٥. وعندما قامت رابطة الطب النفسي الأمريكية عام ١٩٧٣ بعدم تصنيف الشذوذ الجنسي «الجنسية المثلية» كمرض عقلي، فإن العلاج النفسي الإيجابي «للوطية» أصبح أكثر سهولة إذ يساعد الأفراد لتقبل حياتهم الجنسية دون تغييرها. لذلك كان القسم رقم ٤٤ بمثابة دار بالنسبة إلى اللواطيين والسحاقيات وثنائي الجنس في الرابطة النفسية الامريكية (بيرنت، ١٩٩٧). وقد أعلنت الرابطة النفسية الأمريكية في صحيفتها الشهرية يونيو ١٩٩٧ عن الترشيحات للجنة اللواطيين والسحاقيات، وثنائي الجنس. ويجب أن يكون للمرشح خبرة في التغيرات المجتمعية، السكان، والمؤسسات الاجتماعية. ومن واجبات اللجنة دراسة وتقييم كيفية طرح قضايا عالمات النفس السحاقيات، وعلماء النفس اللواطيين من الذكور وثنائي الجنس، وتشجيع البحث في المجالات المذكورة أعلاه. وللجنة ستة اعضاء، ثلاث نساء وثلاثة رجال. ومن يأنس في نفسه الكفاءة عليه ترشيح نفسه على أن يرسل خطابا يتضمن اهتماماته ومؤهلاته مع سيرته الذاتية إلى لجنة ترشيحات اللواطيين والسحاقيات وثنائي الجنس بالرابطة النفسية الأمريكية (APA monitor 1997).

ولقد ضمنت الرابطة النفسية الأمريكية في دليل سياسة مجلسها كل التصريحات والقرارات والبيانات التي تتعلق بالقضايا العالمية وتهم الرابطة،وتعكس هذه السياسة توثيق كل ما يخص موضوع حقوق الإنسان في العالم. ولعبت اللجنة الخاصة بالعلاقات الدولية دورا كبيرا في تطوير

السياسة العالمية للرابطة النفسية الأمريكية، وفي العام ١٩٧٥ و العام ١٩٧٦، تبنى مجلس الرابطة النفسية الأمريكية القرارات التي تدين منظمة اليونسكو التي عملت على عدم مساعدة إسرائيل،وإبعادها عن المشاركة في التجمعات الإقليمية، وجادل مجلس الرابطة في أن هذا القرار «انحراف خطير عن أهداف اليونسكو الأساسية» التي يتوقع منها تشجيع المشاركة والتعاون بين الأمم عبر التربية والعلم والثقافة. وفي العام ١٩٧٧ قدم مجلس الرابطة إدانة ثانية لليونسكو في سياستها الرامية إلى مساواة الصهيونية بالعنصرية (نيمارك، ١٩٩٧) ما هو موقف علماء النفس العرب من أعضاء الرابطة النفسية الأمريكية حول هذه القرارات؟ أهو الرفض أم الموافقة؟ إذا كان الرفض، فمن الذي وقف هذا الموقف؟ يبدو أنه لم يرفع أحد من علماء النفس العرب حاجب عينيه لقول كلمة عن هذه القرارات، بينما ارتفعت أجفان علماء نفس آخرين بخيلاء وكبرياء. وتبعا للأجفان تكون هناك رؤوس منكفئة مطأطئة، ورؤوس مرفوعة مزهوة. ونواصل التساؤل: من يتابع تحريك علماء النفس الإسرائيليين لهذه القرارات؟ من يكافح لكي يكون للقضايا العربية مكان في دهاليز وأروقة هذه الجمعيات؟ أم أن عضوية علماء النفس العرب في هذه الجمعية وغيرها من الجمعيات هي العضوية الصامتة أو الصماء؟

خلال عشر السنوات بين ١٩٧٠ - ١٩٨٠ ساهم ٦٢ من علماء النفس الإسرائيليين في أبحاث عبر ثقافية نشرت في المجلة العالمية لعلم النفس عبر الثقافي، بينما ساهم فقط ٨ من علماء النفس العرب في تلك الفترة نفسها. ولقد تمت دراسة ١٢ مجموعة ثقافية في كل الدول العربية، بينما تمت دراسة ٣٩ مجموعة ثقافية داخل إسرائيل منها ١٢ مجموعة عربية. وتؤكد الأدلة المنشورة في الدوريات العالمية إنتاج علماء النفس الإسرائيليين لمجموعة هائلة من أبحاث علم النفس عبر الثقافي. وتعتبر إسرائيل الثانية في هذه الأبحاث على مستوى العالم بعد الولايات المتحدة، وذلك من حيث كمية الأبحاث، بينما تعتبر إسرائيل الأولى في هذه الأبحاث من حيث نسبة عدد علماء النفس في كل دولة (لونر، ١٩٨٠). وتعتبر الرابطة العالمية لعلم النفس عبر الثقافي من أنشط الروابط في العالم، ولها أهمية بالغة الخطورة بالنسبة لتطور علم النفس عبر الثقافات المختلفة. لقد قسمت هذه الرابطة العالم لمناطق جغرافية أو ثقافية مختلفة. فالشخص المسؤول عن العالم العربي

هو إسرائيلي «شلوم شوارتز» من الجامعة العبرية بالقدس. ويرجع السبب في ذلك إلى نشاط الإسرائيليين في مجال الأبحاث عبر الثقافية وقدرتهم على التجمع، وتوجيه المؤتمرات والجمعيات لأهداف الصهيونية بالجملة برؤوس عالية.

وأصبحت إسرائيل مركزا للمؤتمرات العالمية، منها: مؤتمرات عن علم النفس الإكلينيكي، وعلم النفس المدرسي، وعلم نفس الطفل، والصحة النفسية، وفي بعض الموضوعات المحددة مثل العلاج، تقنيات العلاج، والتكيف مع التوتر (بن عري، وعمير، ١٩٨٦). عقدت الجمعية الدولية لعلماء النفس اجتماعها السنوي عام ١٩٧٥ في تل أبيب (حفني،١٩٩١)، وكان الموضوع الرئيسي لهذا الاجتماع هو الضغوط النفسية، والتوافق النفسي في الحرب والسلام. وكان من بين المتحدثين الرئيسيين في هذا المؤتمر عالم النفس الاجتماعي الشهير لازاراس الذي اختار موضوعا لخطابه إلى المؤتمرين: «سيكولوجية المواقف العصبية ومواجهتها مع إشارة خاصة إلى إسرائيل». وحدد لازاراس موقعه منذ البداية قائلا: «إنني أخاطبكم اليوم من موقفين: أولا، كواحد من علماء النفس تركزت بحوثه وإسهاماته النظرية في مجال دراسة المواقف العصبية والتصرف حيالها. وثانيا، كأمريكي يهودي في أواسط العمر يشعر - شأن غالبية أمثاله - بتوحد كامل مع نضال إسرائيل القومي من أجل خلق وتأمين مكان ليهود العالم في مجتمع إنساني متسامح». ثم عرض لازاراس لرؤيته السيكولوجية للإسرائيليين مقررا أن الإسرائيليين كأفراد يواجهون ما يواجهه البشر عامة من أضرار ومخاطر، ولكن الإسرائيليين - بالإضافة إلى ذلك - يعيشون في ظل توقع القتل أو فقدان الأحبة أو الأصدقاء، نتيجة للحرب أو للأعمال الإرهابية. وثمة خطر مستمر لهجوم معاد قد يسبقه نذير وقد يكون مفاجئا.. ويعاني الإسرائيليون أيضا إحساسا مستمرا بالوحدة في عالم كاره أو غير مبال... ولابد أن هذا الإحساس قد تزايد بحدة في الخريف الماضي حين تراجعت إحدى الحكومات عن مواقفها المؤيدة السابقة نتيجة القدرة الجديدة للدول العربية المنتجة للبترول على التحكم في أسعار وكميات تلك المادةالحيوية بالنسبة للعالم الصناعي، هذا بالإضافة إلى ما لاقاه ياسر عرفات من ترحيب حار في الأمم المتحدة، وما تقرر بشأن طرد إسرائيل من اليونسكو، وكلا الأمرين نتيجة لسيطرة العالم الثالث على التصويت في هذه المؤسسات.

يعبر المقتطف السابق بدقة متناهية عن طبيعة العلاقة بين منظمات علم النفس الامريكية والمنظمات العالمية والصهيونية أو إسرائيل. لقد اختارت الجمعيات الدولية لعلماء النفس- متعمدة- إسرائيل لطرح أحد الموضوعات التي لها علاقة مباشرة بهذه الدولة. ويمكن ان نتأمل أن علماء النفس العرب الذين ينتمون إلى أمة تعدادها ٢٥٠ مليون نسمة تقريبا، وهم لا يؤثرون في قرارات هذه الجمعية، بينما علماء النفس الإسرائيليون ينتمون إلى دولة تعدادها حوالي خمسة ملايين نسمة استطاعوا تحديد مقر انعقاد الجمعية في إسرائيل، وتحديد الموضوع المطروح، وتحديد علماء النفس المدافعين عن القضايا الإسرائيلية. وقد يتساءل الفرد هل حضر أحد علماء النفس العرب من أعضاء هذه الجمعية هذا المؤتمر في إسرائيل؟ أو وجهت له الدعوة بالمشاركة؟ أو قدم ورقة من غير مشاركة؟ أو عبر عن رفضه للمشاركة؟ وقد يطرح السؤال بصورة أخرى: هل بالإمكان عقد الجمعية الدولية لعلماء النفس اجتماعها في إحدى الدول العربية؟ يبدو أن ذلك يثير حفيظة علماء النفس الإسرائيليين، ويمكنهم التذرع بصعوبة حضورهم هذا المؤتمر في بيئة عدائية لإسرائيل إن الإسرائيليين، على حد تعبير لازاراس، يعيشون في ظل توقع القتل، وماذا بالنسبة للفلسطينيين؟ قد يكون محيرا أن تجد إجابة لبعض هذه التساؤلات. لن نخطئ، إذا قلنا إن لازاراس يوظف بصورة سلبية ابحاثه، وربما بصورة استراتيجية، لخدمة موقفين في الوقت نفسه: موقفه كعالم نفس، وموقفه كيهودي امريكي. فما هو موقف علماء النفس العرب من توظيف علم النفس؟

نخلص في هذا الجزء من الدراسة إلى انه قد تم تأسيس علم النفس الشعبي بواسطة فونت، وعلم نفس الأعراق بواسطة ثرنديك تزامنا مع وحشية الاستعمار، واستخدم العلمان لفهم عقلية سكان المستعمرات، ودراسة الشعوب البدائية وعملية التحكم فيها. بعدها استطاع بافلوف إدخال الكلب في المعمل دارسا بذلك الاستجابات الشرطية، وطور بذلك نظرية التعلم الكلاسيكي، ونال بعدها جائزة نوبل في الفسيولوجيا، واستطاع اسكنر إدخال الحمامة في صندوقه الشهير ثم درس السلوك الإجرائي في المختبر، واشتهر بذلك كأعظم سلوكي في تاريخ علم النفس. كما استطاع كوهلر إدخال سلطان أذكى أنواع الشمبانزي في القفص، وطور بذلك نظرية الاستبصار، وأدخل تولمان الفارة في متاهته الشهيرة، وطور نظرية التعلم الإشاري. وبعد إكمال عملية التعلم والتدريب لم تطق هذه الحيوانات الاقفاص، والمعامل، والغرف، والمتاهات المحددة لها فخرجت إلى

رحاب أوسع. وقد يصعب وربما يستحيل إرجاع القرد والكلب والحمامة والفأر إلى أقفاصها، وأصبحت تطبيقات علم النفس من أهم الأسلحة المستخدمة عالميا. فتم تدريب الحمامة لتوجيه القنابل لخدمة أغراض الدفاع في الحرب العالمية الثانية بواسطة اسكنر الذي طالب بعلم تكنولوجيا السلوك كعلم موضوعي تماما كالعلوم البيولوجية والفيزيائية. وقام السوفييت بعملية غسيل الدماغ بكيفية التشريط نفسها التي قام بها بافلوف في تجاربه على الكلاب. كما أجريت تجربة القاتل المبرمج من خلال عملية التنويم، واستخدم مقياس وكسلر بفعالية في اختيار أقلام المخابرات. وإن الدعم المالي والفني والعلمي من جانب المخابرات قد طور علم النفس من دون شك. فنال أباطرة علم النفس في مختلف التخصصات دعما سخيا من المخابرات بعلم ومن غير علم للقيام بالأبحاث، ولحضور المؤتمرات، ونشر المطبوعات، وكتابة التقارير حول علم النفس والقادة في العالم.

ولقد لاحظ أحد علماء النفس المتقاعدين من المخابرات الأمريكية أن عاملي المخابرات ليس لديهم معايير وقواعد لممارسة علم النفس، لكنهم يجرون تجاربهم بالجملة على الجانب وليس على الأمريكيين. وقام علماء النفس بإجراء التجارب حول كيفية تأثير العقاقير على الأفراد، وكيف تؤثر الصدمة الكهربائية الكبيرة على الذاكرة، وكيف يؤثر الحرمان الحسي المطول على اضطراب العقل. وتجارب أبحاث التحكم قد تخطت الكثير من الحدود التقليدية، والنهاية القصوى لهذه التجارب هي الموت. فإذا ما وصلت التجارب المجراة لحد الموت حسب رأي الخبراء الأكاديميين والأطباء، عادة ما يتم العمل خارج أمريكا بصورة سرية تامة (ماركس، ١٩٧٩). إن أخلاقيات علم النفس كما تجدها في لوائح الجمعيات والروابط السيكولوجية، وفي كتب علم النفس مثل: الخصوصية، والسرية، وحفظ السجلات، والقياس النفسي، والعلاج النفسي، والعلاقة مع المفحوصين، وأخلاقيات الأبحاث (سبيقال وكوشر، ١٩٨٥) يتم تجاوزها وتجاوز كل الخطوط الحمراء الخاصة بالإنسان. إن ترك عملية التلاعب والتحكم في العقول للجواسيس هي مسألة خطيرة، وكذلك يجب الا تترك كلية بالنسبة لعلماء السلوك الذين خلقوا سببا للشك فيهم. ولقد تساءل اسكنر نفسه من يستخدم تكنولوجيا السلوك؟ ويذكر بيدرمان وزيمر (١٩٦١) أنه في السنوات الأخيرة تبلورت بعض الاتجاهات في الأدب الأكاديمي العام عن خطورة التطور العلمي الهائل في تكنولوجيا التحكم في سلوك وعقل الإنسان. ويكمن مصدر الخوف في أن تقنيات التحكم قد تطورت بدرجة هائلة تهدد القيم الأساسية للحضارة.

علماء النفس العرب والتحكم بالقطاعي

تؤكد كتب علم النفس في المكتبة العربية أن لعلم النفس ثلاثة أهداف رئيسية هي: الفهم، والتنبؤ، والضبط (احرشاو، ١٩٩٤، جابر، ١٩٧٦، حمزة، ١٩٨٢، راجح، ١٩٨٧، سليمان والمليجي وبديوي، ١٩٩٤، سويف، ١٩٧٨، الطويل وعلي، ١٩٩١، عبد الخالق، ١٩٩١، عبد الخالق ودويدار، ١٩٩٣، عبد الستار، ١٩٨٥، نجاتي، ١٩٨٠، نعيمة احمد، ١٩٩٢). وبإمكان كل عالم نفس أن يراجع الصفحات الأولى من كتب علم النفس الموجودة في أرفف المكتبات العربية: العامة والخاصة منها فيجد ثالوث الفهم، والتنبؤ، والضبط. وسأحاول إيضاح تلك النقطة من خلال عرض وانتقاء بعض الأمثلة.

لقد اهتم الانسان بذاته كثيرا، وحاول جاهدا ان يعرف نفسه، وأن يجد إجابات عن أسئلة كثيرة تتعلق بسلوكه (جابر، ١٩٧٦). وإن بؤرة الاهتمام المركزية لعلم النفس في كلّ من مجالي البحث والتطبيق السيكولوجي هي سلوك وأنشطة الناس (نعيمة أحمد، ١٩٩٢). ويساعد علم النفس بصفة عامة على دراسة وفهم وحل الكثير من الأزمات والمشكلات والصعوبات والانحرافات التي يعانيها الإنسان (الطويل وعلي، ١٩٩١). وإن الغرض الأساسي للبحث العلمي (فاخر عاقل، بلا تاريخ) ليس مجرد وصف الظاهرات، بل تخطي ذلك إلى تفسيرها. ولا يقنع العلماء بمجرد تفسيرات الظواهر، بل يريدون أن يتنبؤوا بالطريقة التي يعمل التعميم وفقها في المستقبل. والعالم الحق لا يكتفي بالتفسير والتنبؤ كهدفين للعلم، بل يتجاوزهما إلى محاولة الضبط وهو التحكم في العوامل الأساسية التي تسبب حادثا ما لكي تحمله على التمام أو تمنع وقوعه. كما يقول احمد عبد الخالق (١٩٩١) فإن لعلم النفس أربعة أهداف هي: الوصف، والتفسير، والتنبؤ، والضبط. فالوصف هو تقرير عن الظواهر القابلة للملاحظة وبيان علاقاتها ببعض. أما فيما يختص بضبط السلوك أو التحكم فيه فإن عالم النفس يروم تعديل السلوك الذي يحتاج إلى تعديل. ولخص حمزة (١٩٨٢) أهداف علم النفس بأنها فهم السلوك وتفسيره، والتنبؤ بما سيكون عليه السلوك، وضبط السلوك والتحكم فيه بتعديله وتحويره وتحسينه. وأعطى مثالين للضبط هما: «حرمان الطفل من عطف الوالدين»، و«استعداد الطالب للدراسة الأدبية وعدم استعداده للدراسة العلمية». بينما أعطى عيد الزهار (١٩٩١) مثالا للتحكم في ظاهرة النجاح في الدراسة على أساس التوجيه التعليمي بالكشف على استعداد الفرد للنجاح في دراسة معينة. ومن أمثلة الضبط عند نجاتي (١٩٨٠) أثر التسميع في الحفظ، وعند عبد الستار (١٩٨٥) دراسة تأثير العين على انقباض

العين. ويعني الضبط بالنسبة لسليمان والمليجي وبديوي (١٩٩٤) تحديد الظروف والملابسات التي تحدد وتتحكم في حدوث الظاهرة التي نحن بصدد دراستها. ويمكن على سبيل المثال التحكم في التفوق الرياضي في لعبة معينة عن طريق عمليات التوجيه والاختيار السليم.

إن عالم النفس يروم تعديل السلوك الذي يحتاج إلى تعديل كتعديل سلوك المريض النفسي بعلاجه، وضبط (تعديل) سلوك المراهق الذي يداب على قضم أظافره (عبد الخالق، ودويدار، ١٩٩٣). وإن فهم الظاهرة ومعرفة أسبابها وخصائصها يعين على التنبؤ بحدوثها وعلى ضبطها والتحكم فيها. وهذان هدفان عمليان من أهداف العلم، كل علم. وإذا عرفنا استعداد فرد لمهنة أو دراسة معينة،وعدم استعداده لمهنة أودراسة أخرى، تسنى لنا أن نجنبه الفشل في إقحامه في مهنة أودراسة ليس مؤهلا لها (راجح، ١٩٨٧). وإذا كانت الروح العلمية للسيكولوجيا الغربية الحالية هي روح تطبيقية بالدرجة الأولى، حيث صار من الضروري توظيف نتائج أبحاثها في شتى المجالات التنموية، وبشكل خاص في مجالات التوجيه التربوي والاختيار المهني والتشخيص العيادي. فمن حقنا أن نتساءل عن المهام التطبيقية لما يتداول عندنا من أبحاث ودراسات سيكولوجية، ومن واجبنا أيضا أن نتساءل عن الأبعاد التطبيقية لنتائج هذه الأبحاث، وعن احتمالات استثمارها في مجال خدمة القطاعات التنموية الحيوية داخل المجتمع العربي (احرشاو، ١٩٩٤). وفي دراسته الميدانية عن الصورة الشائعة عن علم النفس الحديث، وجد سويف (١٩٧٨) أن بعض أفراد عينة دراسته ذكروا موضوع الإفادة العملية من تطبيقات علم النفس، إلا أنها اقتصرت على ذكر ميدان واحد من ميادين التطبيق وهو ميدان العلاج من الاضطرابات النفسية، وذكر أربعة أشخاص من ٥٠٠ فقط ميدان الصناعة، وأربعة آخرون أشاروا إلى التطبيقات في ميدان الجريمة، وثمانية أوردوا ذكر ميدان التربية.

وسوف نكرر القول بأن كتب علم النفس في المكتبة العربية تتفق على أن هناك ثلاثة أهداف رئيسة لعلم النفس هي الفهم والتنبؤ والضبط. ومن أمثلة الضبط والتحكم المذكورة في الكتابات العربية السابقة الاستعداد الدراسي والمهني، والتحكم في ظاهرة النجاح في الدراسة، وتعديل سلوك المريض، وضبط سلوك المراهق والجانح، والتحكم في التفوق الرياضي، والتحكم في الجريمة. إن الهدف النهائي للعلم هو هدف تطبيقي. هل نجح علم النفس في تحقيق هذه الأهداف الخاصة بالتحكم الفعال؟ ودعنا نتساءل، من غير تهكم، هل هدف علم النفس فقط هو التلميذ المسكين في المدرسة؟ أو المريض المشفق على حاله في العيادة النفسية؟ أو الأصم والأبكم

والكفيف والمتخلف عقليا أو حركيا في معاهد الرعاية الخاصة؟ إنها نظرة تقليصية تجزيئية على أي حال. وقد تكون الكتب العربية التي تعالج علم النفس بهذا المنظور هي مجرد اقتباس، أو ترجمة للكتب الغربية. ولكنها اقتباسة أو ترجمة «مايكروية» تركز على جوانب محددة من علم النفس أي ما أسميه «علم النفس بالقطاعي». هل حتى في حالة التحكم بالقطاعي استطعنا حقيقة وفعلا أن نتحكم في التلميذ والمريض والعامل؟ وهل يشعر علماء النفس العرب أن علم النفس الذي يدرسونه في قاعات الجامعات له ارتباط حقيقي بقضايا المجتمع الواقعية؟ أم ان علماء النفس العرب لا يسألون أنفسهم هذه العينة من الأسئلة المحرجة؟ وماذا يحدث لو أغلقت أقسام علم النفس في كل الجامعات العربية؟ وأن جزءا كبيرا من حقيقة علم النفس الغربي، أو الأوروبي، واليورو - أمريكي هي حقيقة استعمارية، وامبريالية، واستخباراتية. ويمثل ذلك الأهداف الكبرى لعلم النفس كما وضحنا سلفا. ولكن عندما يستجيب علماء النفس العرب للعلم المستورد، فإنهم يدركون بصورة تجزيئية الأهداف الصغرى لعلم النفس، أو علم النفس بالقطاعي كما أفضل أن أسميه. وربما تكون هناك غفلة في متابعة التطبيقات الكبرى لعلم النفس المكشوف والمستور منها، وغفلة أخرى في مواكبة الإسهامات العالمية لعلم النفس من اللاغرب، وكيفية استجابة علماء النفس فيه لفهم آلية التلاعب التحكمي في علم النفس. لقد فرض بعض علماء النفس من اللاغرب رؤاهم في علم النفس العالمي، وتركوا علامات مميزة، أو بصمات بارزة مثلا كجتسباشي من تركيا، وازوما من اليابان، وكيم من كوريا، وسنها من الهند، ولا قمي من الفلبين، ومقدم من إيران. وكان هؤلاء العلماء موضع احترام عام في الغرب، لأنهم استوعبوا جيدا كيف يقرؤون ويعيدون قراءة علم النفس. والسؤال أين علماء النفس العرب من هذا السياق العالمي لعلم النفس؟ ولماذا لا يوجد علماء نفس عرب عظام يعبرون عن الحقيقة السيكولوجية في مكانها؟ وكيف يمكن قراءة علم النفس بصورة ذكية؟ والسؤال الأهم لماذا توجد أهداف طموحة لعلم النفس في الكتب العربية لتسلق قمة افرست في التحكم؟ ولكن لماذا يبدو أن محاولة التسلق هذه لم تتجاوز خطوات سلحفاة كسيحة في قاعدة الجبل؟

ويبدو أننا في العالم العربي عندما ندرس نظرية بافلوف الشهيرة نتحدث عنها كفعل منعكس وتشريط. ولكن عندما اهتم بها السوفييت والأمريكيون نظروا على أنها أداة غسل الأدمغة، والتحكم في الآخرين بالكيفية ذاتها التي درب بها بافلوف كلابه عندما بحث في كيفية استجاباتها الفسيولوجية. وعندما ندرس نظرية اسكنر العملاقة في التعلم الإجرائي نتحدث عنها كعلاقة بين

مثير واستجابة، ولكن عندما اهتم بها الأمريكيون وظفوها في تكنولوجيا السلوك، وتصميم الثقافة، ومحاولة تدريب الحمام لتوجيه القنابل. وعندما ندرس المقابلة كمنهج لجمع المعلومات في علم النفس نهتم بها في إطار القطاعي في مقابلة التلميذ، أو المريض، أو العامل، ولكن عندما تطبق في الغرب وفي إدارة الصراع العربي - الإسرائيلي تستخدم بالجملة في الحرب النفسية، والاستجواب، ومقابلة الأسرى، والتعامل مع السجناء، وفي كل المحاولات التي تحتاج لقدرة عالية من الذكاء الاجتماعي كاللقاءات الدبلوماسية والمفاوضات. وعندما ندرس التنويم في أروقة الجامعات ربما نستمتع بمشاهدة الخبير النفسي يتلاعب بالأفراد على خشبة المسرح، بينما تستخدم في الغرب استخداما استراتيجيا في تجارب القاتل المبرمج، وفي محاولة خلق «إنسان منشوريا» الذي يقوم بعملية اغتيال في أي ركن في العالم، وعندما تنتهي مهمته لا يعرف من أمره بذلك.

إن النظرة الفاحصة، لا تخطئ، إذا قلنا بتنافر علماء النفس العرب، من هم في كليات التربية، ومن هم في كليات الآداب. ويمكن التساؤل: هل قال علماء النفس في الآداب خلاف ما قاله علماء النفس في التربية؟ أريد أن أسأل نفسي وأسأل علماء النفس العرب عندما يتحدثون عن التحكم: هل استطعنا إدخال القرد، أو الكلب، أو الحمامة، أو حتى الفأرة في المعمل حتى نتحدث عن الفهم، والتفسير، والتنبؤ، والتحكم؟ ربما تكون الإجابة بنعم عند الرجعة، أو العودة أو النكصة أو الارتداد للتراث. فأمام الانكسار النفسي، كما يقول غليون (١٩٩٠)، يصبح الإيمان بالنصر التاريخي تعويضا عن الهزيمة. يقول بروفسر بدري (١٩٧٩): إن مدربي الصقور من قدماء العرب اسكناريون لآلاف السنوات قبل أن يولد اسكنر. يمكن أن نتأمل أن العرب قاموا بتدريب الصقور، بينما قام اسكنر بتدريب الحمام، فكان تدريب الصقور لمتابعة الصيد، بينما تدريب الحمام لتوجيه القنابل لأغراض الدفاع أثناء الحرب العالمية الثانية. ويمكن أن نعيد النظر مجددا ما بين قصر النظر وطول النظر، وما بين التفكير في البطن والتفكير في التحكم، ما بين التحكم بالقطاعي، والتحكم بالجملة. وهذه المقابلة اللعينة قد توضح طبيعة المأزق الذي يجابه علم النفس في العالم العربي، وبكلمات أدق المأزق الذي يجابه علماء النفس العرب في فهم مغزى قصة علم النفس المعقدة.

إن قصة علم النفس في حقيقتها كحقيقة وجهي العملة، يحكي أحد وجهيها قصة الاستعمار، والامبريالية، والمخابرات، وانها قصة الإرهاب، والقمع، والخضوع، والاستسلام، وأنها قصة

الترويع، والهلع، والتمويه، والمراوغة، والخداع، والتعذيب، والقتل، وفوق كل ذلك قصة التحكم بالجملة. بالإضافة إلى ذلك هي القصة الدرامية للعمليات الاستخبارية التي تطبق فيها تقنيات علم النفس بمهارة فائقة في العمليات متعددة المصطلحات كالعمليات في الظلام، والعمليات الوطوطية، والعمليات المستورة، والعمليات السرية، والعمليات التحتية، والعمليات المبهمة، والعمليات الغامضة، والعمليات المباغتة، والعمليات الملتوية، وربما العمليات الابليسية. إن أعمال الستر الأكثر شيوعا بالنسبة لعلماء النفس هي أروقة الجامعات، ومختبرات علم النفس، وقاعات المؤتمرات، وأنشطة الجمعيات والروابط السيكولوجية. وقصة علم النفس هي قصة وجود أفراد دقيقي الملاحظة، أو كما عبر انغلتون بوجود «أشخاص خارقي القدرة في العمل في الظلام». وقصة علم في الوجه الأخر من العملة هي قصة الذكاء، والقدرات، والمواهب، والمهارات، وهي قصة المغامرة، والمخاطرة، والمجازفة، كما هي قصة الحسابات، والمعدلات، والدقة المتناهية. والمأزق الذي يجابه علماء النفس العرب هو: كيفية التعامل أو الجمع بين هذه المتقابلات، أو التضادات، أو الطباقات، وهي التي تغذي وتنمي علم النفس. وبلغة أخرى كيف يمكن التعامل مع علم النفس بهذه الصورة المعقدة؟ وكيف يمكن فك رموز العلاقات المزدوجة؟ وكيف يمكن لعلماء النفس العرب التفكير برؤية جديدة في التزاوج أو التلاقح أو قبول التعامل مع وجهي العملة: الصورة والكتابة؟ أو أداء الفرائض والنوافل في الوقت نفسه؟.

لقد حكينا قصة علم النفس، فكيف تكون الاستجابة المناسبة لها؟ ويوسع المرء أن يطرح بعض التساؤلات عن كيفية التعامل مع قصة علم النفس التي فعلت فعلتها، الحسنة منها والنكراء، والتي خلق علم النفس من أجلها، والتي خلقها عندما شق قدره بنفسه. أنحكم على علم النفس بأنه علم جاسوس وعميل؟ أم أنه علم كافر أو ملحد كما عبر أحد علماء النفس العرب؟ أيمكن اعتباره من «المريبات والمشككات والمكفرات» حسب تعبير أبو ديب؟ وان علينا بتره كما تبتر العاهة من جسم الإنسان؟ ومن ثم يجب علينا أن نتعقم، ونتوضأ، بل نغتسل، ونتبرأ منه؟ أم نحاول علاجه بقدر الإمكان؟ ونتناول مصلا واقيا منه في حالة هذه المعالجة؟ هل نحاول التأقلم، أو التعايش، أو التكيف معه كما تقتضي الضرورة التطورية أو النشوئية؟ في تقديري، أن عينة الأحكام المتعسفة السابقة تحتاج لإعادة الملاحظة . والملاحظة هي نقطة البداية في علم النفس. ولكي ما أشبع حب الاستطلاع بالنسبة للقارىء: ما هو الموقف المناسب من علم النفس من وجهة نظر الباحث؟

ويمكننا أن نعيد طرح التساؤلات السابقة بصورة أكثر إيجابية: كيف يمكن فهمه؟ وهضمه؟ واستيعابه؟ ومن ثم تفجير الروح الخلاقة الكامنة فيه من مفاهيم ونظريات ومناهج وتقانة؟ وكيف

يمكن تجاوز النظرة التقليصية المايكروية لعلم النفس إلى نظرة استراتيجية عملاقة وحكيمة؟ كيف يمكن لعلماء النفس تدعيم علم نفس يمكن بواسطته أن يصاغوا به، ويصيغوا به الآخرين في حلة من الكرامة والكبرياء الحقيقية لا الزائفة أو الوهمية؟ وكيف يمكن أن ينطبق على علماء النفس قول جورج أورول بأنهم «داخل جوف الحوت وخارجه في آن واحد»؟ إن إمكانية الدخول والخروج تعبر بدقة متناهية عن علاقة علم النفس بالحرب الباردة، خاصة بالمؤسسة العسكرية التي رعت هذه الحرب بحثا عن تقنيات لحرب غير تقليدية، أو غير اقتتالية!

المؤسسة العسكرية مؤسسة أساسية في تطور علم النفس، لذلك سوف نجازف بطرح بعض الأسئلة الحساسة، والتي تبلورت من خلال هذه الدراسة، وربما تكون هذه الأسئلة غير مطروحة، ولكنها أسئلة استراتيجية على أي حال. وقد يتساءل أحد: كم من علماء النفس العرب في المخابرات العسكرية العربية؟ كم عدد المشتغلين في أقسام الحرب النفسية؟ وكم عدد المشتغلين منهم في الحرب المضادة؟ وكم معملا لعلم النفس الحربي في العالم العربي؟ وماطبيعة الأدوات والتقنيات المستخدمة في هذه المعامل؟ هل هناك مقاييس مناسبة للذكاء والشخصية والقدرات والمهارات؟ وكم متخصصا في القياس النفسي في مجال الاستخبارات؟ أو في التنويم؟ أو في غسيل الدماغ سواءعلى الطريقة البافلوفية او الاسكنارية؟ وكيف يفكر علماء النفس العرب بصورة استراتيجية في علم النفس؟ وكم من علماء النفس يشارك في المفاوضات الدولية التي تخص العالم العربي؟ هل هناك من مؤيدي الحرب من علماء النفس العرب من يتابع تطور علم النفس في إسرائيل أو في أمريكا؟ من يواجه القرارات العالمية التي تخص العالم العربي في أروقة الجمعيات والمنظمات السيكولوجية؟ كيف يتساءل علماء النفس في حالة إحساسهم بفجوة في التفكير السيكولوجي الاستخباراتي في العالم العربي؟ قد لا نجد إجابة صريحة لهذه الأسئلة وذلك لأن طبيعة الموضوع وحساسيته تحول دون ذلك. ومن المناسب أن نتذكر ماقاله ياسيتيفتش عندما رفض إجراء مقابلة مع جون ماركس (١٩٧٩) بخصوص كتابه المثير «البحث عن مرشح منشوريا: ال سي. اي. اي والتحكم في العقل «ذاكرا» انا مهني ولذلك لا أتحدث عن هذه الأشياء. هناك أشياء كثيرة لا تتناسب مع العامة وليس لهذا علاقة بالديمقراطية، إنما لها علاقة بالبديهة العامة». أو كما عبر كل من بن عري، وعمير (١٩٨٦) عندما أجريا دراسة عن علم النفس في إسرائيل توقفا عن ذكر الأبحاث الواسعة التي يجريها قسم الأبحاث السيكولوجية في قوات الدفاع

الإسرائيلية قائلين: «ولأسباب واضحة، ليس من الممكن توضيح نوعية الأبحاث السيكولوجية التي تجرى في هذه الوحدة». ولكن ربما يمكن مجرد التفكير في هذه الأسئلة أو المشابهة لها من قبل علماء النفس، أو من قبل المفكرين الاستراتيجيين في الدول العربية. إن الإجابة عن هذه الأسئلة قد تساعد في شق الطريق لطبيعة علم النفس أو طريقة التفكير الاستخطاطي الذي نحتاج إليه في العالم العربي. أهو علم نفس بالجملة على الطريقة الألمانية، والروسية، والبريطانية، والأمريكية، والإسرائيلية؟ أم علم نفس بالقطاعي على حسب الطريقة العربية؟ أيتفق علماء النفس مع سياسة حكوماتهم؟ أم هم من المعارضين لهذه السياسات؟ أم هم مع الاثنين معا؟ ام لا مع هذا ولاذاك، بل يهتمون بتقدم علمهم فحسب؟

ويبدو أن علماء النفس سيكونون في وضع مماثل للعلماء الألمان المتخصصين في القذائف الموجهة، أولا قد عملوا بإخلاص مع هتلر لتدمير الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة. وأخيرا يعتمد الأمر على من ألقي القبض عليهم، لقد عملوا بإخلاص مع الاتحاد السوفييتي لتدمير الولايات المتحدة، أو عملوا بإخلاص مع الولايات المتحدة لتدمير الاتحاد السوفييتي. وإذا كان علماء النفس مهتمين كلية بتقديم علومهم فيحتمل أن يخدموا أي مجموعة تملك السلطة (روجرز، ١٩٦١). إن علماء النفس مطالبون بالتقدم في أبحاثهم واكتشاف الجديد، وكلما زادت درجة التحكم في نوعية التكنولوجيا المنتجة فإن قرار استخدامها سيكون خارج يد علماء النفس. ومن الصعب الآن وضع تكنولوجيا التحكم في صندوقها (ماركس، ١٩٧٩). ولقد انتشرت هذه التكنولوجيا في رئاسة ومحطات الاستخبارات في العالم، وفي المؤسسات العسكرية وأقسام الحرب النفسية، وفي البعثات الدبلوماسية، وفي الفرق الإعلامية، وفي السجون والمعتقلات، وفي محطات البوليس، وفي المستشفيات العسكرية، خاصة أقسام العلاج النفسي. وفي تقديري، أن السلاح النفسي في الوقت الراهن ربما يكون أهم من السلاح النووي، أو البيولوجي، أو الكيميائي. فقد انهار الاتحاد السوفييتي والمعسكر الشرقي بتكنولوجيا الحرب الباردة، وهي حرب نفسية في المقام الأول. وبانتهاء هذه الحرب الباردة كما يقول ادوارد سعيد (١٩٩٧): «برزت الولايات المتحدة بوصفها آخر القوة العظمى»، وحولت هذه القوة العظمى بفضل الحرب النفسية جزءا كبيرا من العالم من عالم ثان إلى عالم ثالث، وأصبحت السيطرة لأقلية متحكمة بالجملة، وأغلبية ساحقة محكومة لا يسمح لها بالتعبير ولو بالقطاعي، ويمكننا التكهن بأن عملية التخطيط

الدقيق ستستمر، والبرمجة المنظمة بصورة استراتيجية لزيادة تقنيات السيطرة في علم النفس ستستمر. وفي إطار ما يسمى بالعولمة، خاصة، سوف تكتمل بذلك الحلقة بين علم النفس الذي يستهدف للتحكم، وهدف ما يسمى بالنظام العالمي الجديد في التحكم بالجملة.

وفي تقديري، انه في ظل الاستخدامات الهائلة، والمرعبة أحيانا، لعلم النفس من جهة، وفي ظل تجاهل، أو إهمال، أو إغفال الجذور التاريخية، والاستعمارية، والامبريالية، والمخابراتية لعلم النفس، سوف يخضع علماء النفس العرب أنفسهم لمزيد من التهميش، ومزيد من السيطرة البغيضة من جانب عملية التلاعب التحكمي بعلم النفس نفسه وعبر تطبيقاته بالجملة. ربما يرى أحد أن الحديث عن علم النفس بهذه الصورة المتضخمة نوع من الدعاية لعلم النفس، أو نوع من الهستيريا بالقوى الخفية التي تتحكم في العالم، أو هو نوع من الهوس، وأن من يتحدث عن علم النفس بهذه الكيفية إنما هو انفصامي بالدرجة الأولى لأنه يبالغ في تعزيز نوع من جنون العظمة لعلم النفس وتطبيقاته بالجملة. أو ربما يرى آخر أن منظاري كالح، أو رؤيتي تشاؤمية للتطبيقات الهامشية لعلم النفس في العالم العربي. ومع كل ذلك يبدو أن هناك أملا بأن القوى التي بيدها السيطرة الحالية لن تكون مسيطرة للأبد، وربما تستمر عملية السيطرة البغيضة لفترة من الزمن، وحتما ستكون هناك إمكانية مفتوحة للانعتاق من هذه السيطرة، ولكن هذه الإمكانية مشروطة بحالة الوعي، واليقظة، والانتباهة، وبوجود علماء للنفس يلاحظون علمهم بالدقة البالغة كدقة المجهر الحساس، وأن تكون ملاحظاتهم لما يجري حولهم، وعليهم ملاحظة دقيقة بعينين حداقتين. وبمراعاة هذه الدقة المطلوبة نتكهن بأن تكون هناك بداية لتقدم دال في اتجاه جديد. فكيف ستكون الاستجابة المناسبة من قبل علماء النفس، ومن قبل المخططين الاستراتيجيين في تطبيقات علم النفس؟ وعلى أي حال، ومهما تكن نوعية الاستجابة، هناك أهمية بالغة لتعلم بعض الدروس والعبر من تطبيقات علم النفس الهائلة في المجال الاستراتيجي، ربما في بادئ الأمر بقصد حماية الذات من مزيد من حالة الغيبوبة، أو من مزيد من حالة الانكسار النفسي أمام الآخرين الذين يطبقون علم النفس بالجملة.